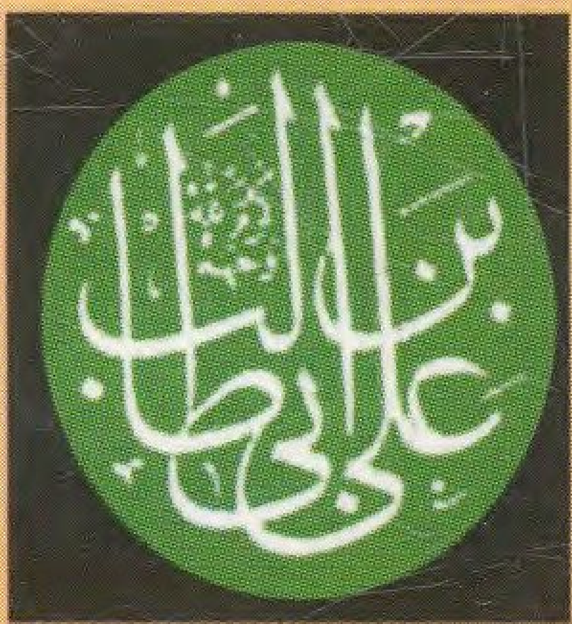
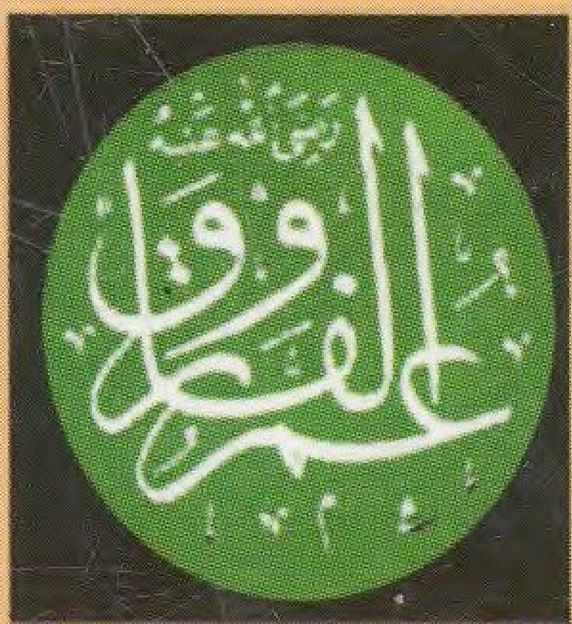
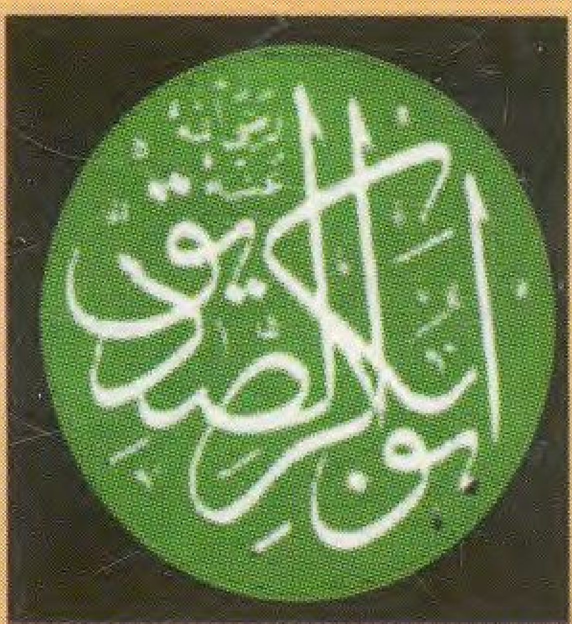
سلمى مجدي

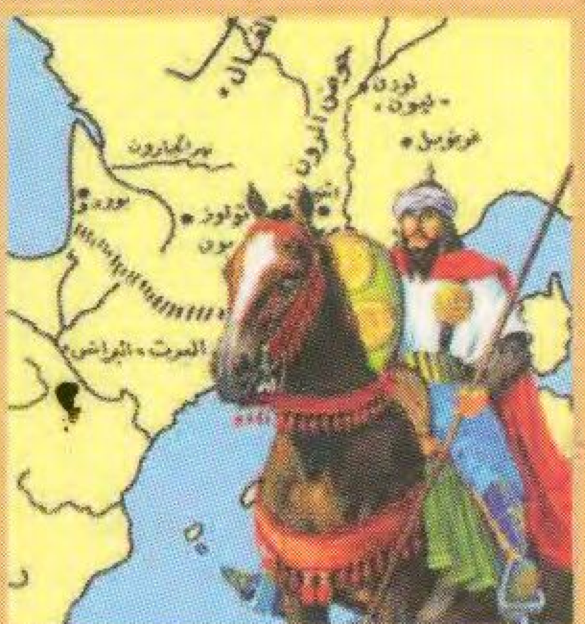
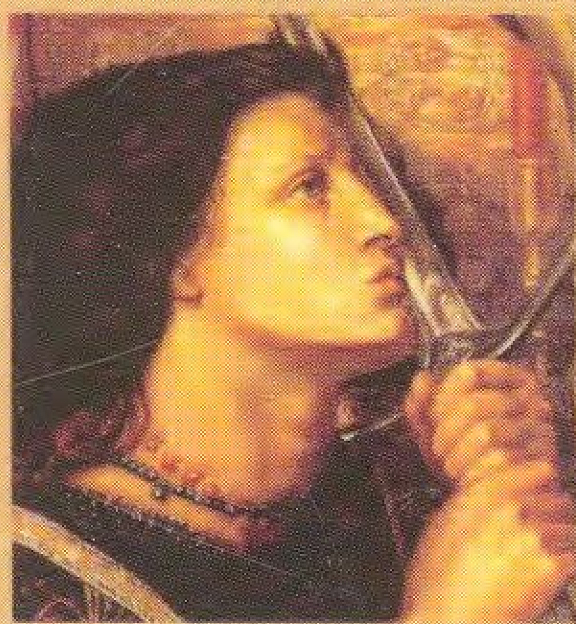
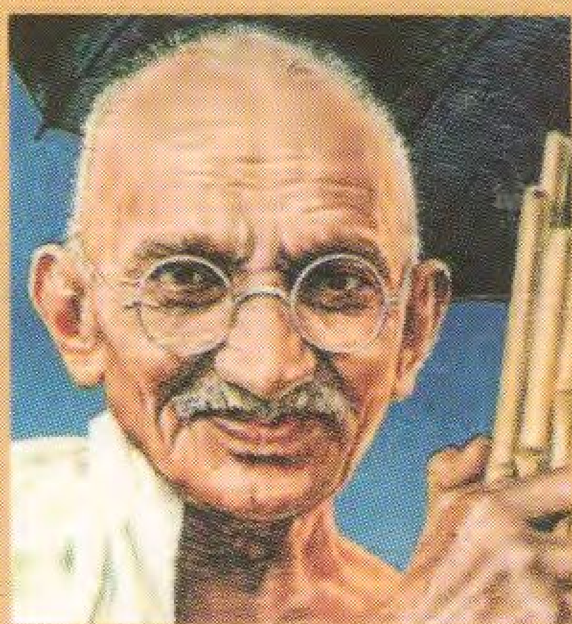
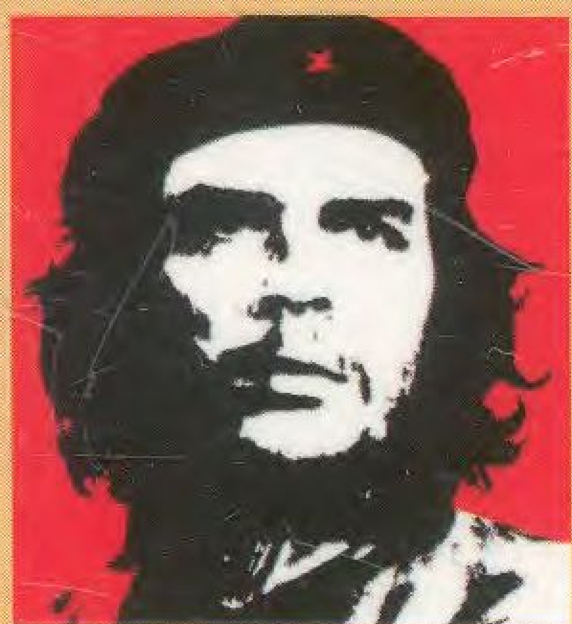
الساعاتُ الأخيرةُ في حياتِهِمْ

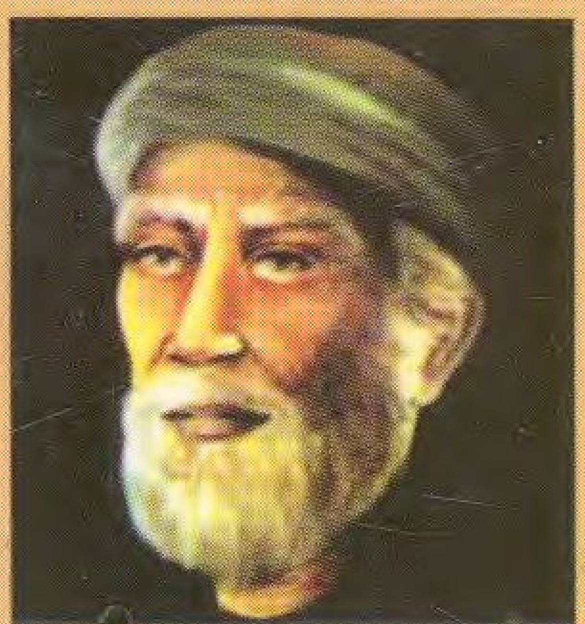
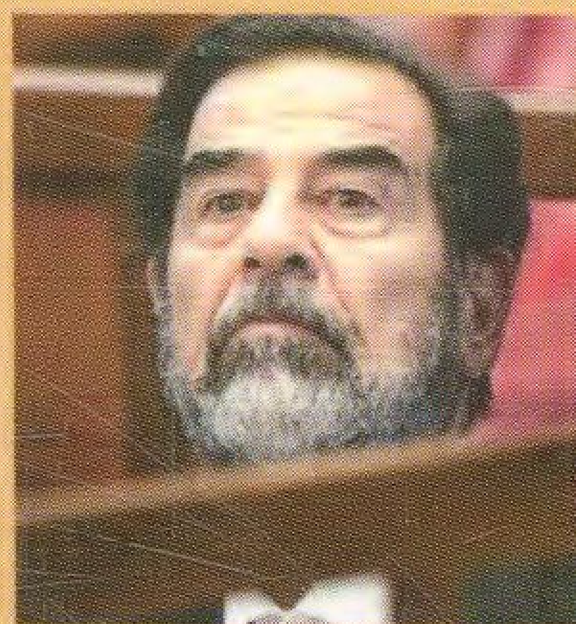
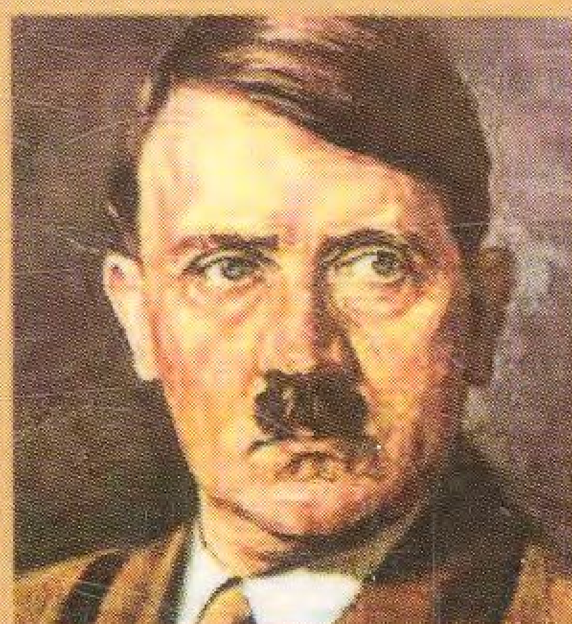
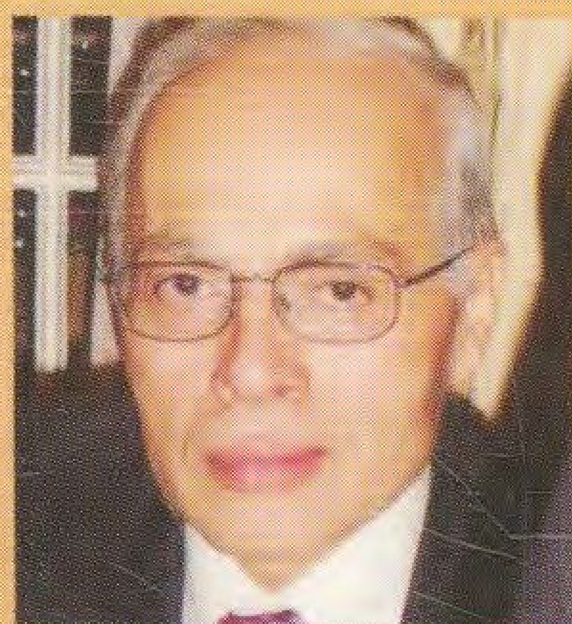
ماذا فعل وقال وأوصى مشاهير السياسة
والفن والأدب في يوم رحيلهم عن الدنيا؟

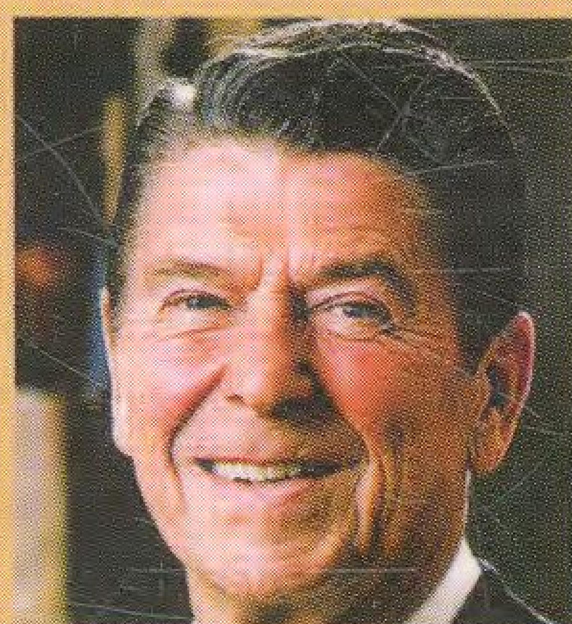
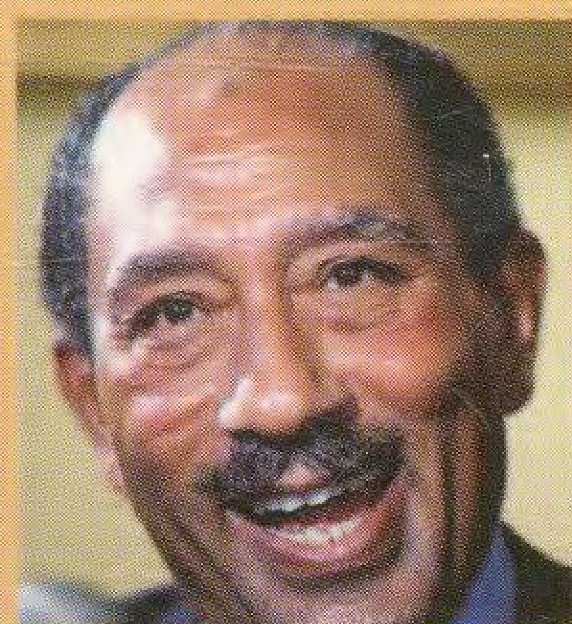
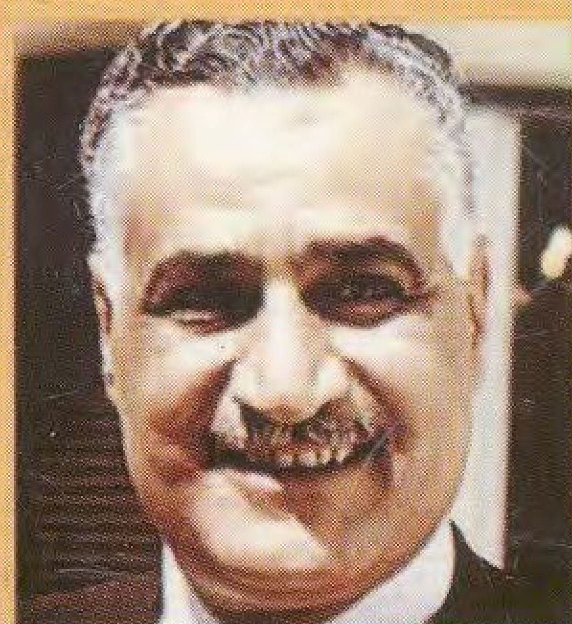


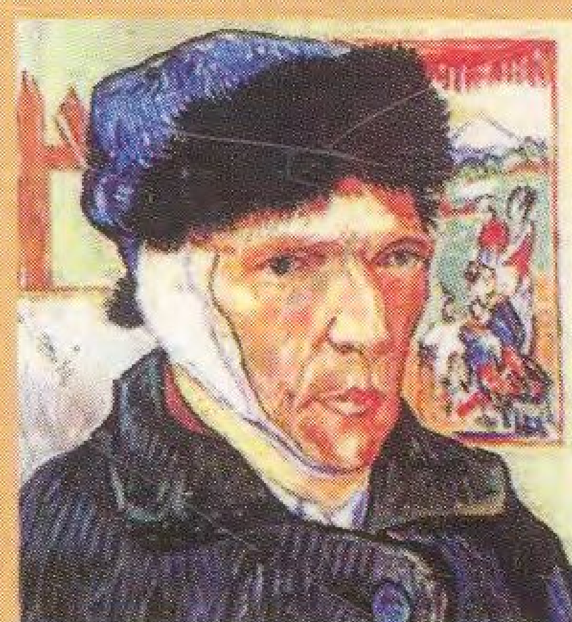







دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



اسم الكتاب: اللحظات الأخيرة فى حياتهم

اسم المؤلف: سلمى مجدى

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٩٠٣/ ٢٠٠٨

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-376-441-9

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٦٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال- فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني- ت: ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٩



سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢ - ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفاكس: ٤٣٤١٨٦/ ٠٥ - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب.٣٠٤٣ الشويفات
www.darketab.com - info@darketab.com
E-mail: darkitab2003@yahoo.com - darkitab-nassif@hotmail.com

في حياتهم عبرة وفي موتهم عبرة

الساعات الأخيرة فى حياتهم

أخيار وأشرار مشاهير..

وفاتُهم .. وصيَّتُهم الأخيرةُ

◆

سلمى مجدى

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

تـقـديـم

في حياتهم عبرة، وفي موتهم أيضا عبرة .. هكذا حال المشاهير .. اخيارهم واشرارهم .. السبب أنهم ليسوا كسائر الناس .. هم مختلفون بحكم مواقعهم، مناصبهم، مكانتهم الاجتماعية، قدرتهم على التأثير في غيرهم، أو دورهم في إعادة صياغة التاريخ سلبا أو إيجابا .

وعلى الرغم من أن معظم الكتابات التي تناولت المشاهير من زعماء وقادة ومصلحين اجتماعيين ونجوم فن وأدب قد تركزت على مشوار حياتهم بأدق تفصيلاته، إلا القليل جدا منها هو الذي توقف عند اللحظات الأخيرة في حياتهم، رغم أنها غالبا ما تكون ثرية بتفصيلات أكثر أهمية وتشويقا وتحمل من الدروس والعبر ما لا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال بما كانت عليه حياتهم على امتدادها ما قبل الموت !!

وربما من أهم الملاحظات التي تستوقف المرء هنا هو أن الفخ الذي يقع فيه معظم المشاهير هو أنهم ينفعلون بحياة وشهرة من سبقوهم دون أن يفعلوا نفس الشيء مع نهاياتهم، أو بمعنى آخر يسيرون على دربهم مكررين أخطاءهم، ولو كانوا قد توقفوا أيضا عند نهاياتهم بنفس الاهتمام لاستفادوا كثيرا، ولتفادوا نفس المصير !!

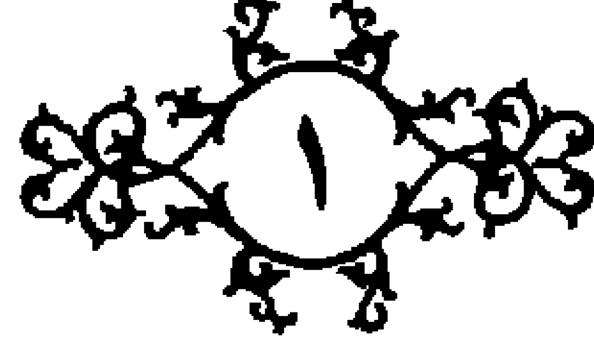
وقد تنبه العالم – فيما يبدو – خلال السنوات القليلة الماضية إلى أهمية التركيز على أيام وساعات المشاهير الأخيرة، وبدأ الغرب يحاول فتح هذه النهايات، وبدأت السينما تهتم باللحظات الأخيرة في حياة مشاهير كبار من شتى الميادين، ومن هنا كان التفكير في إعداد هذا الكتاب .

في هذا الكتاب سنتناول نهايات عشرات الشخصيات سواء أكانوا أخيارا أو أشرارا سطروا تاريخا وحركوا أحداثا وكانت لهم أيام لطالما حفظتها ذاكرة الأمم.

وسوف لن نتوقف فقط عند ظروف وملابسات رحيلهم بعد حياة عريضة كانت لهم فيها صولات وجولات، بل سنحاول الوقوف على الدروس المستفادة، وكذلك التعرف على وصية كل منهم الأخيرة، وما أصدق القول في لحظات الموت، عندما يشعر الإنسان بأنه مفارق لهذه الحياة بكل ما فيها من مُغريات وزخارف فينطلق اللسان صدقا دون انتظار شكر من أحد أو خوف من ذم مخلوق.

في هذا الكتاب لحظات أخيرة في حياة عدد من الصحابة والتابعين والعلماء وملوك وملكات، وزعماء سياسيين، وقادة عسكريين، ونجوم مجتمع من شتى المجالات نتمعّن فيما انتهوا إليه، وما قالوه عند النهاية، لنقرأ ما بين السطور لنأخذ الدرس والعبرة.

سلمى مجدي



أبو بكر الصديق .. رضى الله عنه

ooo

لُقِّبَ عَتيقاً لعتقه من النار فعن عائشة رضي اللّه عنها أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: "أبو بكر عتيق اللّه من النار" فمن يومئذ سمي "عتيقاً".

قال على بن أبي طالب رضي اللّه عنه: "إن اللّه تعالى هو الذي لقب أبا بكر على لسان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صدِّيقاً" وسبب تسميته أنه بادر إلى تصديق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولازم الصدق فلم تقع منه هنات ولا كذبة في حال من الأحوال.

وعن عائشة أنها قالت: "لما أسري بالنبي صلى اللّه عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يحدِّث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان آمن وصدق به وفتنوا به. فقال أبو بكر: إني لأصدقه في ما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة، فلذلك لقب أبا بكر الصديق".

كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يكرمه ويجله ويثني عليه في وجهه واستخلفه في الصلاة، وشهد مع رسول اللّه بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان بالحُدَيبية وخيبر وفتح مكة وحُنَيناً والطائف وتبوك وحجة الوداع. ودفع رسول اللّه رايته العظمى يوم تبوك إلى أبي بكر وكانت سوداء، وكان فيمن ثبت معه يوم أحد وحين ولّى الناس يوم حُنين. وهو من كبار الصحابة الذين حفظوا القرآن كله.

وأعتق أبو بكر سبعة ممن كانوا يعذَّبون في اللّه تعالى وهم: بلال، وعامر بن فهيرة، وزِنّيرة، والنَّهديَّة، وابنتها، وجارية بني مؤمّل، وأم عُبيس.

وكان أبو بكر إذا مُدح قال: "اللّهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم. اللّهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون".

قال عمر رضي اللّه عنه: أمرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي. فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته، فجئت بنصف مالي.

فقال: ما أبقيت لأهلك؟

قلت: مثله.

وجاء أبو بكر بكل ما عنده.

فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟

قال: أبقيت لهم اللّه ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "ما نفعني مال أحد قطُّ ما نفعني مال أبي بكر"

فبكى أبو بكر وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول اللّه.

ونزل فيه وفي عمر: "وَشَاوِرْهم في الأمر" فكان أبو بكر بمنزلة الوزير من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكان يشاوره في أموره كلها.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً". رواه البخاري ومسلم.

عن عمرو بن العاص: أن النبي عليه الصلاة السلام بعثه على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ فقال: عائشة.

فقلت: من الرجال؟ فقال: أبوها.

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال : كنت جالسا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أما صاحبكم فقد غامر فسلم وقال :(إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى على فأقبلت إليك.

فقال :(يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل :(أثَم أبو بكر) أى هنا فقالوا :(لا)

فأتى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فسلم، فجعل وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- يتمعر، حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه فقال :(يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين .

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-:(إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي مرتين فما أوذي بعدها .

وعن أبي هريرة: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا.

قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا.

قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا.

قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا.

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة" .

وعن أبي هريرة: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان على حِرَاء هو وأبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير. فتحركت الصخرة فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "اهدأ فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد" رواه مسلم.

وعن حذيفة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "اقتدوا باللذَين من بعدي أبي بكر وعمر" رواه الترمذي.

وعن ابن عمر: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لأبي بكر: "أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار" رواه الترمذي.

ومن فضائله رضي اللّه عنه: أن عمر بن الخطاب كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل فيستقي لها ويقوم بأمرها. فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت. فجاءها غير مرة كيلا يُسبق إليها فرصده عمر فإذا الذي يأتيها هو أبو بكر الصديق، وهو خليفة. فقال عمر: أنت هو لعَمري.

ولد أبو بكر في مكة عام (٥١ قبل الهجرة) ومات بالمدينة بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- بسنتين وثلاثة أشهر وبضع ليال سنة (١٣ هـ).

حظي الصديق بمكانة رفيعة ومنزلة عالية في قلوب الناس، وما عُرف عنه من خلق كريم وسيرة عطرة فوظف هذه الخصال الطيبة في مجال الدعوة إلى الله، فاستجاب له نفر كثير من قومه في مقدمتهم : الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان،

وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، فانطلق بهم الصديق رضي الله عنه وعنهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا .

ولمّا كان اليوم الذي قُبض فيه أبو بكر رجّت المدينة بالبكاء، ودهش الناس كيوم قُبض الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وجاء على بن أبي طالب باكيا مسرعا وهو يقول (اليوم انقطعت خلافة النبوة)حتى وقف على البيت الذي فيه أبو بكر مسجًّى فقال رحمك الله يا أبا بكر، كنت أول القوم إسلاما، وأكملهم إيمانا، وأخوفهم لله، وأشدهم يقينا، وأعظمهم عناءً، وأحوطهم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأحدبهم على الإسلام، وآمنهم على أصحابه، وأحسنهم صُحبة، وأفضلهم مناقب، وأكثرهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأشبههم برسول الله -صلى الله عليه وسلم- به هدياً وخُلُقاً وسمتاً وفعلاً.

قيل: إنه اغتسل وكان يوماً بارداً فاصابته الحمى خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة فأمر عمر أن يصلي بالناس ولما مرض قال له الناس: ألا ندعو الطبيب؟ فقال: أتاني وقال لي: أنا فاعل ما أريد، فعلموا مراده وسكتوا عنه ثم مات.

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن وأن يكفن في ثوبيه ويُشترى معهما ثوب ثالث. وقال: الحي أحوج إلى الجديد من الميت إنما هو للمهلة والصَّديد..

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : (دخلت على أبي بكر رضي الله عنه فقال : في كم كفنتم النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة . وقال لها : في أي يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : يوم الإثنين . قال : فأي يوم هذا ؟ قالت : يوم الإثنين. قال : أرجو فيما بيني وبين الليل . فنظر إلى ثوب عليه كان يمرض فيه، به ردع زعفران فقال : اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنوني فيهما . قلت : إن

هذا خلق قديم قال : إن الحي أحق بالجديد من الميت، إنما هو للمهملة . فلم يتوف حتى أمسى من ليلة الثلاثاء، ودفن قبل أن يصبح) ولابن سعد من طريق الزهري عن عروة عن عائشة (أول بدء مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة)وروى ابن أبي شيبة وغيره (أن عمر صلى على أبي بكر في المسجد وأن صهيباً صلى على عمر في المسجد) قال البخاري : (ودفن أبو بكر رضي الله عنه ليلاً) .

وكانت وصية أبي بكر الصديق التي أمر بها هى أن يكون عمر بن الخطاب الخليفة من بعده . فقد ترك أبو بكر الصديق رضي الله عنه عهد عمر مكتوباً وموثَّقا بخاتمه، وكان نص العهد الذي حرره عثمان رضي الله عنه كما يلي :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقد دخل بعض الصحابة على أبي بكر وقد علموا باستشارته في عمر، فقال أحدهم : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولى كان أفظ وأغلظ ؟ فقال أبو بكر : أجلسوني فلما جلس، قال : أبا الله تخوفونني ؟ فأتزوّد من أمركم بظلم. أقول : اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل أبلغ عني ما قلت لك مَن وراءك.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له : اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر ابن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني

أستخلف عليكم بعدي ... وأخذته غشية قبل أن يسمى أحداً. فكتب عثمان رضي الله عنه: إني استخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب ... ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ على ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبر أبو بكر، وقال : أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ،والله إن كنت لها لأهلاً . ثم أمره أن يتمم فأملى عليه : فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم أمره فختم الكتاب وخرج به مختوماً ، ومعه عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير. وأشرف أبو بكر على الناس من كوته فقال: أيها الناس إني قد عهدت عهداً ، أفترضونه ؟ فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على رضي الله عنه فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر.

فأقروا بذلك جميعاً. ورضوا به، ثم بايعوا، فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد حضرني من أول ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، فأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدى نبي الرحمة، وهدى الصالحين بعده، وأصلح له رعيته، ثم دعاه فأوصاه.

و لما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه حين وفاته قال : وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .

و قال لعائشة :

انظروا ثوبيّ هذين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أولى بالجديد من الميت .

ولما حضرته الوفاة أوصى عمر رضي الله عنه قائلا :

إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني : إن لله عز وجل حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقلت ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفَّت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا وحق لميزان أن يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا.

أبو بكر الصديق أحد العشرة المبشرين بالجنة (ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) هو عبد الله بن أبي قحافة، من قبيلة قريش، ولد بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- بثلاث سنين، أمه أم الخير سلمى بنت صخر التيمية بنت عم أبيه، كان يعمل بالتجارة ومن أغنياء مكة المعروفين، وكان أنسب قريشاً لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان ذا خلق ومعروف يأتيه الرجال ويألفونه اعتنق الإسلام دون تردد فهو أول من أسلم من الرجال الأحرار ثم أخذ يدعو لدين الله فاستجاب له عدد من قريش من بينهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، والأرقم بن أبي الأرقم .

لقي أبو بكر -رضي الله عنه- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال (أحقٌ ما تقول قريش يا محمد من تركِكَ آلهتنا، وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آباءَنا ؟!فقال الرسول -صلى الله عليه وسلم (إني رسول الله يا أبا بكر، ونبيه بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق أدعوك إلى الله يا أبا بكر، وحده لا شريك له، ولا نعبد غيره، والموالاة على طاعته أهل طاعته وقرأ عليه القرآن فلم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد، وأقرّ بحقّ الإسلام ورجع أبو بكر وهو مؤمن مُصَدّق .

يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- (ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له

عنه كَبْوَة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عَتم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه أول خطيب عندما بلغ عدد المسلمين تسعة وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر على الرسول- صلى الله عليه وسلم- في الظهور فقال الرسول (يا أبا بكر إنّا قليل فلم يزل يلح حتى ظهر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد، وكل رجل معه، وقام أبو بكر خطيباً ورسول الله جالس، وكان أول خطيب دعا إلى الله عزّ وجل وإلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوهم ضربا شديدا، ووُطِىءَ أبو بكر ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، وأثّر على وجه أبي بكر حتى لا يعرف أنفه من وجهه، وجاء بنو تيم تتعادى، فأجلوا المشركين عن أبي بكر، وحملوا أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه ولا يشكون في موته، ورجعوا بيوتهم وقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عُتبة، ورجعوا إلى أبي بكر وأخذوا يكلمونه حتى أجابهم فتكلم آخر النهار فقال ما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؟

فنالوه بألسنتهم ولمّا خلت أم الخير (والدة أبي بكر به جعل يقول ما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-..قالت والله ما لي علم بصاحبك ألا فاذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

خرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟.. قالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن تحبي أن أمضي معك إلى ابنك فعلت ؟

قالت نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت إنّ قوما نالوا منك هذا لأهل فسق !؟ .. وإنّي لأرجو أن ينتقم الله لك.

قال فما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؟.

قالت هذه أمك تسمع ؟ قال فلا عين عليك منها قالت سالم صالح قال فأين هو؟ قالت في دار الأرقم.

قال فإن لله عليّ ألِيّة ألا أذوق طعاما أو شرابا أو آتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأمهَلَتا حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى دخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانكب عليه يقبله وانكبّ عليه المسلمون ورقّ رسول الله فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي ليس بي إلاّ ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بَرّة بوالديها، وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار فدعا لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم دعاها إلى الله عزّ وجل، فأسلمت فأقاموا مع رسول الله في الدار شهراً، وكان حمزة يوم ضُرِب أبو بكر قد أسلم أنفق أبوبكر معظم ماله في شراء من أسلم من العبيد ليحررهم من العبودية ويخلصهم من العذاب الذي كان يلحقه بهم ساداتهم من مشركي قريش، فأعتق بلال بن رباح وستة آخرين من بينهم عامر بن فهيرة وأم عبيس فنزل فيه قوله تعالى : "وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى "وكان- رضي الله عنه- من أقرب الناس إلى قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأعظمهم منزلة عنده حتى قال فيه أن من أمَنٍّ الناس على في صحبته وماله أبوبكر، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبي بكر.

كما أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن أبا بكر أرحم الأمة للأمة، وأنه أول من يدخل معه الجنة فقد قال له الرسول -صلى الله عليه وسلم- أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي وأنه صاحبه على الحوض فقد قال له الرسول-صلى الله عليه وسلم- أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار كما أن أبو بكر الصديق هو والد أم المؤمنين عائشة لذا كان عظيم الافتخار بقرابته

من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومصاهرته له وفي ذلك يقول والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحبُّ إليّ من أن أصل قرابتي وحينما أسري برسول الله -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى بيت المقدس ذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه فقالوا بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس فقال أبو بكر والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجّبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ! فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهى إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقال يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال نعم قال يا نبي الله فصفه لي، فإني قد جئته فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرفع لي حتى نظرت إليه فجعل الرسول الكريم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر صدقت، أشهد أنك رسول الله حتى إذا انتهى قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر وأنت يا أبا بكر الصديق فيومئذ سماه الصديق ولقد سجل له القرآن الكريم شرف الصحبة مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أثناء الهجرة إلى المدينةالمنورة فقال تعالى : " ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا " .

كان أبو بكر رجلا ذا مال، فاستأذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-في الهجرة فقال له الرسول لا تعْجل لعل الله يجعل لك صاحباً فطمع بأن يكون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إنما يعني نفسه حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعدادا لذلك .

وفي يوم الهجرة، أتى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بيت أبي بكر بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال ما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم-هذه الساعة إلا لأمر حدث .

فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وليس عند أبي بكر إلا أسماء وعائشة، فقال الرسول أخرج عني من عندك فقال أبو بكر يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك ؟ فداك أبي وأمي ! فقال إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة فقال أبو بكر الصُّحبة يا رسول الله ؟.

قال : (الصُّحبة) تقول السيدة عائشة فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ .

ثم قال أبو بكر يا نبيّ الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا فاستأجرا عبد الله بن أُرَيْقط، وكان مشركاً يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانت عنده يرعاهما لميعادهما عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب -يعني الجنة- يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد، دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة. ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان، فقال أبو بكر ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة .

وقال هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله .. قال نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر، ومناقب أبى بكر- رضي الله عنه- كثيرة ومتعددة فمن مناقبه السبق إلى أنواع الخيرات والعبادات حتى قال عمر بن الخطاب ما سابقت أبا بكر إلى خير إلاّ سبقني .

وكان أبو بكر الصديق يفهم إشارات الرسول -صلى الله عليه وسلم- التي تخفى على غيره كحديث أن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، ففهم أنه عليه الصلاة والسلام ينعي نفسه .

ومن ذلك أيضا فتواه في حضرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإقراره على ذلك وهو أول خليفة في الإسلام، وأول من جمع المصحف الشريف، وأول من أقام للناس حجّهم في حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبعده وكان في الجاهلية قد حرم على نفسه شرب الخمر .

وفي الإسلام امتنع عن قول الشعركما أنه -رضي الله عنه- لم يفته أي مشهد مع الرسول -صلى الله عليه وسلم-وقد قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم- أنت عتيق الله من النار، فسمّي عتيقاً .

وقد بلغ بلال بن رباح أن ناساً يفضلونه على أبي بكر فقال كيف تفضّلوني عليه، وإنما أنا حسنة من حسناته !!

وبعد وفاة الرسول الكريم بويع أبوبكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، وكان زاهدا فيها ولم يسع إليها، إذ دخل عليه ذات يوم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فوجده يبكي، فسأله عن ذلك فقال له يا عمر لا حاجة لي في إمارتكم !!

فرد عليه عمر أين المفر ؟ والله لا نقيلك ولا نستقيلك وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم وجَّه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلمّا نزل بذي خُشُب - واد على مسيرة ليلة من المدينة- قُبِض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وارتدّت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله فقالوا يا أبا بكر رُدَّ هؤلاء، تُوجِّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟!

فقال والذي لا إله إلا هو لو جرّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما رَدَدْت جيشاً وجَّهه رسول الله ولا حللت عقدَةً رسول الله، فوجّه أسامة فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا لولا أن لهؤلاء قوّة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام.

بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ارتدت العرب ومنعت الزكاة، واختلف رأي الصحابة في قتالهم مع تكلمهم بالتوحيد، قال عمر بن الخطاب كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منّي دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ؟!

فقال أبو بكر الزكاة حقُّ المال.. وقال والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يُؤدّونها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم على منعها .. ونصب أبو بكر الصديق وجهه وقام وحده حاسراً مشمِّراً حتى رجع الكل إلى رأيه، ولم يمت حتى استقام الدين، وانتهى أمر المرتدين .

ولمّا فرغ أبو بكر -رضي الله عنه- من قتال المرتدين بعث أبا عبيدة إلى الشام وخالد بن الوليد إلى العراق، وكان لا يعتمد في حروب الفتوحات على أحد ممن ارتدّ من العرب، فلم يدخل في الفتوح إلا من كان ثابتا على الإسلام .

لمّا أراد أبو بكر أن يستخلف عمر بن الخطاب بعث إليه وقال إني أدعوك إلى أمر متعب لمن وليه ،فاتق الله يا عمر بطاعته، وأطعه بتقواه، فإن المتقي آمن محفوظ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجبه إلا من عمل به، فمن أمر بالحق وعمل بالباطل، وأمر بالمعروف وعمل بالمنكر يوشك أن تنقطع أمنيتُهُ، وأن يحبط عمله، فإن أنت وليت عليهم أمرهم فإن استطعت أن تخفّ يدك من دمائهم، وأن تصم بطنك من أموالهم، وأن يخف لسانك عن أعراضهم، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وننقل هنا وصية الصديق أبى بكر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأرضاهما..فقبل موته دعا عمر بن الخطاب (كما سبق وذكرنا) وقال له:

"إني مستخلفك على أصحاب رسول الله ..

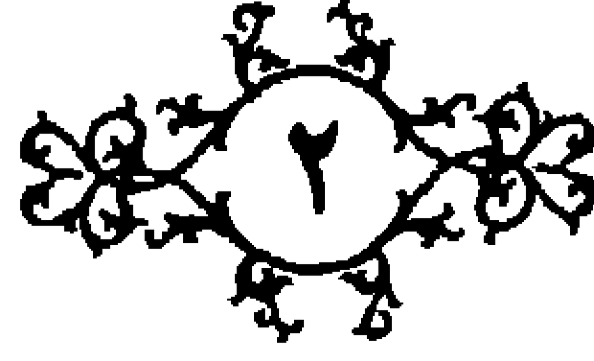
يا عمر: إن لله حقًا في الليل لا يقبله في النهار، وحقًّا في النهار لا يقبله في الليل، وإنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه

باتباعهم الحق وثقله عليه، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا ..

يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا، فلا ترغب رغبة فتتمنى على الله ما ليس لك، ولا ترهب رهبة تلقي فيها ما بيديك، يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم ما كان من حسن فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وإنما ذكر الله أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم ما كان من سيئ فإذا ذكرتهم قلت: أي عمل من أعمالهم أعمل؟

فإن حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو نازل بك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أكره إليك من الموت ولست تعجزه .





عمر بن الخطاب ..رضي الله عنه

OOO

كلنا يعرف أن قاتل عمر بن الخطاب هو أبو لؤلؤة لكن تفاصيل القصة قد لا يعرفها الكثير القصة أن عمر لما تولى ولاية المدينة لم يكن بها مجوس بل كانت مسلمة ١٠٠٪ وذلك بفضل الله ورسوله وكان هناك صحابى اسمه المغيرة بن شعبة لديه غلام اسمه فيروز وكنيته أبو لؤلؤة وكان هذا الغلام حرفيا ماهرا يجيد أكثر من حرفة فذهب المغيرة لعمر يستأذنه ببقاء هذا الغلام نظرا لبراعته فأذن عمر له وبدأ أهل المدينة فى الاستعانة به فوافق المغيرة مولاه على أن يأخذ منه ١٠٠ درهم شهريا لكن الغلام لم يعجبه هذا الوضع وذهب يشكوه لأمير المؤمنين عمر فسمع عمر له وقال إنه يجيد الحدادة والنجارة وكذا وكذا فسأله كم يريد أن يأخذ منك قال ١٠٠ درهم قال هذا يكفى اتق الله وأحسن إلى مولاك.

فمشى الغلام بين الناس يقول أين عدل عمر هذا ؟

ومر عمر يوما مع بعض الصحابة فوجده فقال له سمعت أنك تجيد صناعة رحى تدور بالهواء فقال سأصنع لك رحى تتحدث عنها الناس كلها ففرح الصحابة لكن

عمر قال أتفرحون؟ .. إن هذا الغلام يتوعدنى إنه يريد قتلى قالوا إذن نقتله قال لا أأقتل إنسانا ظنا؟ قالوا إذن ننفيه قال لا أظلم إنسانا بالظن لو كان الله يريد ذلك فإن أمر الله قدرا مقدورا .

وفى سنه ٢٣ من الهجرة، وفى صلاه الفجر فى مسجد النبى وروضته الشريفة، كان عمر إمام المسلمين فكبر، ولم يستفتح بعد، حتى جاء أبو لؤلؤة، وطعنه ست طعنات فصرخ عمر قتلنى الكلب فبدأ الصحابه ينتبهون لما يحدث، ويتحركون للإمساك به، فأصاب منهم ثلاثة عشر مات منهم تسعة .

فخلع عبد الرحمن بن عوف عباءته ولفها حول عنقه فما كان منه إلا أن طعن نفسه ونادى عمر على عبد الرحمن بن عوف وأمره أن يقيم الصلاة وتحامل على نفسه وصلى ركعتين الأولى بالكوثر والثانية بسورة النصر، ثم طلب منهم أن يستند فجاءوا له بوسادة قال لا .. ضعوا خدى على التراب لعل رب عمر يرحم عمر .

وقال إن مت اغمضوا عينى ولا تغالوا فى كفني وكان يصرخ ويقول ويل لعمر وويل أم عمر .. إن لم يغفر الله له .

عن عثمان بن عفان قال : أنا آخركم عهداً بعمر رضي الله عنه، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبدالله بن عمر فقال له، ضع خدي بالأرض فقال ما حجرى والأرض إلا واحد، فقال : ضع خدي بالأرض لاأم لك في الثانيه أو الثالثة ثم شبك رجليه وحمل إلى بيته وفاضت روحه .

عمر بن الخطاب.. الخليفة الراشد .. الذي نصر الدين.. وجاهد لرب العالمين.. وأطفأ نيران دولة المجوس ..حقد عليه الكافرون .. وكان من أكثرهم حقداً .. أبو لؤلؤة المجوسي .. وكان عبداً نجاراً حداداً في المدينة .. وكان يصنع الرحاء .. (جمع رحى وهي آلة لطحن الشعير) .. وهي حجران مصفحان يوضع أحدهما فوق الآخر ويطرح الحب بينهما .. وتدار باليد .. فيطحن .. أخذ هذا العبد يتحين الفرص للانتقام من عمر .. فلقيه عمر يوماً في طريق فسأله وقال :

حدثت أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟!

فالتفت العبد عابساً إلى عمر .. وقال : بلى .. لأصنعن لك رحى يتحدث بها أهل المشرق والمغرب .. فالتفت عمر إلى من معه .. وقال :

- توعدني العبد .

ثم مضى العبد وصنع خنجراً له رأسان .. مقبضه في وسطه .. فهو إن طعن به من هذه الجهة قتل .. وإن طعن به من الجهة الأخرى قتل .. وأخذ يطليه بالسم.. حتى إذا طعن به .. يقتل إما بقوة الطعن أو السم .

ثم جاء .. في ظلمة الليل .. فاختبأ لعمر في زاوية من زوايا المسجد .. فلم يزل هناك حتى دخل عمر إلى المسجد ينبه الناس لصلاة الفجر .. ثم أقيمت الصلاة.. وتقدم بهم عمر .. فكبر .. فلما ابتدأ القراءة ..خرج عليه المجوسي .. وفي طرفة عين .. عاجله .. بثلاث طعنات .. وقعت الأولى في صدره والثانية في جنبه .. والثالثة تحت سرته .. فصاح عمر .. ووقع على الأرض .. وهو يردد قوله تعالى : وكان أمر الله قدراً مقدوراً .. وتقدم عبد الرحمن بن عوف وأكمل الصلاة بالناس .

أما العبد فقد طار بسكينه يشق صفوف المصلين .. ويطعن المسلمين .. يميناً وشمالاً .. حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً .. مات عدد منهم ..ثم وقف شاهراً سكينه ما يقترب منه أحد إلا طعنه .. فاقترب منه رجل وألقى عليه رداءً غليظاً .. فاضطرب المجوسي .. وعلم أنهم قدروا عليه .. فطعن نفسه .. وحُمِل عمر مغشياً عليه إلى بيته .. وانطلق الناس معه يبكون .. وظل مغمى عليه .. حتى كادت أن تطلع الشمس.. فلما أفاق .. نظر في وجوه من حوله .. ثم كان أول سؤال سأله .. أن قال :

أصلى الناس ؟ قالوا : نعم .

فقال : الحمد لله .. لا إسلام لمن ترك الصلاة .. ثم دعا بماء فتوضأ .. وأراد أن يقوم ليصلي فلم يقدر .. فأخذ بيد ابنه عبد الله فأجلسه خلفه .. وتساند إليه ليجلس .. فجعلت جراحه تنزف دماً ..

قال عبد الله بن عمر .. والله إني لأضع أصابعي .. فما تسد الجرح .. فربطنا جرحه بالعمائم .. فصلى الصبح .. ثم قال : يا ابن عباس انظر من قتلني ..فقال : طعنك الغلام المجوسي .. ثم طعن معك رهطاً .. ثم قتل نفسه ..

فقال عمر : الحمد لله .. الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط .. ثم دخل الطبيب على عمر .. لينظر إلى جرحه .. فسقاه ماءً مخلوطاً بتمر..فخرج الماء من جروحه .

فظن الطبيب أن الذي خرج دم وصديد .. فأسقاه لبناً .. فخرج اللبن من جرحه الذي تحت سرته .. فعلم الطبيب أن الطعنات قد مزقت جسده .. فقال : يا أمير المؤمنين .. أوصِ .. فما أظنك إلا ميتاً اليوم أو غداً .. فقال عمر : صدقتني .. ولو قلت غير ذلك لكذبتك .. ثم قال :

والله لو أن لي الدنيا كلها .. لافتديت به من هول المطلع .. يعني الوقوف بين يدي الله تعالى .. فقال ابن عباس : وإن قلت ذلك .. فجزاك الله خيراً .

أليس قد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أن يعز الله بك الدين والمسلمين.. إذ يخافون بمكة ؟

فلما أسلمت .. كان إسلامك عزاً .. وظهر بك الإسلام .. وهاجرت .. فكانت هجرتك فتحاً .. ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من قتال المشركين ؟

ثم قبض وهو عنك راض .. ووازرت الخليفة بعده .. وقُبض وهو عنك راض .. ثم وليت بخير ما ولي الناس .. مصّر الله بك الأمصار .. وجبا بك الأموال .. ونفى بك العدو .. ثم ختم لك بالشهادة .. فهنيئا لك .. فقال عمر : أجلسوني ..

فلما جلس .. قال لابن عباس : أعد عليَّ كلامك .. فلما أعاد عليه .. قال : والله إن المغرور من تغرونه ..

أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه ؟

فقال ابن عباس : نعم .. ففرح عمر .. وقال : اللهم لك الحمد

ثم جاء الناس فجعلوا يثنون عليه .. ويودعونه ..

وجاء شاب .. فقال : أبشر يا أمير المؤمنين .. صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم وليت فعدلت .. ثم شهادة .. فقال عمر : وددت أني خرجت منها كفافاً .. لا عليَّ ولا لي .. فلما أدبر الشاب .. فإذا إزاره يمس الأرض .. فقال عمر : ردوا على الغلام ..

قال : يا ابن أخي .. ارفع ثوبك .. فإنه أنقى لثوبك .. وأتقى لربك .. ثم اشتد الألم على عمر .. وجعل يتغشاه الكرب .. ويغمى عليه ..

قال عبد الله بن عمر : غشي على أبي فأخذت رأسه فوضعته في حجري .. فأفاق.. فقال : ضع رأسي في الأرض ثم غشي عليه فأفاق ورأسه في حجري .. فقال: ضع رأسي على الأرض .. فقلت : وهل حجري والأرض إلا سواء يا أبتاه ..

فقال : اطرح وجهي على التراب .. لعل الله تعالى أن يرحمني .. فإذا قبضت.. فأسرعوا بي إلى حفرتي .. فإنما هو خير تقدموني إليه .. أو شر تضعونه عن رقابكم..ثم قال : ويل لعمر .. وويل لأمه .. إن لم يغفر له .. ثم ضاق به النفس .. واشتدت عليه السكرات .. ثم مات رضى الله عنه.. ودفنوه بجانب صاحبيه .

وقد روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً : بينا أنا نائم رأيتني في الجنة .. فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر .. فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر.. فذكرت غيرته فوليت مدبراً .. فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله !!

كان عمر -رضي الله عنه- يتمنى الشهادة في سبيل الله ويدعو ربه لينال شرفها اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك.

وفي ذات يوم وبينما كان يؤدي صلاة الفجر بالمسجد طعنه أبو لؤلؤة المجوسي (غلام للمغيرة بن شعبة) عدة طعنات في ظهره أدت إلى استشهاده ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

ولما علم قبل وفاته أن الذي طعنه ذلك المجوسي حمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله تعالى سجدة .

ودفن إلى جوار الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في الحجرة النبوية الشريفة الموجودة الآن في المسجد النبوي في المدينة المنورة.

ويروى موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن عمرو بن ميمون قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف قال كيف فعلتما أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق قالا حملناها أمرا هي له مطيقة ما فيها كبير فضل قال انظرا أن تكون حملتما الأرض ما لا تطيق قال قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدا قال فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب قال إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفين قال استووا حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات عدد منهم فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا بن عباس انظر من

قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة قال الصنع قال نعم قال قاتله الله لقد أمرت به معروفا الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال إن شئت فعلت أي إن شئت قتلنا قال كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول لا بأس وقائل يقول أخاف عليه فأتي بنبيذ (منقوع تمر) فشربه فخرج من جوفه ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه فعلموا أنه ميت فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله وقدم في الإسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت أن ذلك كفاف .. لا على ولا لي فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال ردوا على الغلام قال يابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك يا عبد الله بن عمر انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه قال إن وفي له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل في بني عدي بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأد عني هذا المال انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال ما لديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال الحمد لله ما كان من شيء أهم إلى من ذلك فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا لهم فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا أوص

يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفى عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله تعالى وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر قال يستأذن عمر بن الخطاب قالت أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمري إلى على فقال طلحة قد جعلت أمري إلى عثمان وقال سعد قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف فقال عبد الرحمن أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أفتجعلونه إلى والله على أن لا آلو عن أفضلكم قالا نعم فأخذ بيد أحدهما فقال لك قرابة من رسول الله والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه فبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه .

ويروى أنه لما طُعن عمر.. جاء عبدالله بن عباس، فقال .. : يا أمير المؤمنين، أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خذله الناس، وقتلت شهيدا ولم يختلف عليك اثنان، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض .

فقال له : أعد مقالتك فأعاد عليه، فقال : المغرور من غررتموه، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع .

وقال عبدالله بن عمر : كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه .

فقال : ضع رأسي على الأرض .

فقلت : ما عليك كان على الأرض أو كان على فخذي ؟!

فقال : لا أم لك، ضعه على الأرض .

فقال عبدالله : فوضعته على الأرض .

فقال : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي عز وجل.

ونذكر هنا وصية عمر بن الخطاب رحمه الله لابنه عبدالله (رضى الله عنهما وأرضاهما .. قال فطر بن خليفة وغيره: دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند موته عبد الله بن عمر فقال:

أي بني: إذا قام الخليفة بعدي فائته فقل إن عمر يقرأ عليك السلام ويوصيك بتقوى الله لا شريك له، ويوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً: أن تعرف لهم سابقتهم. ويوصيك بالأنصار خيراً: أن تقبل من محسنهم وتتجاوز عن مسيئهم. ويوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم غيظ العدو وجباة الفيء، لا تحمل فيأهم إلا عن فضل منهم. ويوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام: أن تأخذ من حواشي أموالهم فترد على فقرائهم. ويوصيك بأهل الذمة خيراً: أن تقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

وعمر بن الخطاب أحد العشرة المبشرين بالجنة الذين ذكروا في حديث واحد، ويقول صلى الله عليه وسلم : " يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك " .. حديث شريف .

الفاروق أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزَّى القرشي العدوي، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة (٤٠ عاما قبل الهجرة)، عرف في شبابه بالشدة والقوة، وكانت له مكانة رفيعة في قومه إذ كانت له السفارة في الجاهلية فتبعثه قريش رسولا إذا ما وقعت الحرب بينهم أو بينهم وبين غيرهم.

وأصبح الصحابي العظيم الشجاع الحازم الحكيم العادل صاحب الفتوحات وأول من لقب بأمير المؤمنين.

أسلم في السنة السادسة من البعثة النبوية المشرفة، فقد كان الخباب بن الأرت يعلم القرآن لفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد عندما فاجأهم عمر بن الخطاب متقلدا سيفه الذي خرج به ليصفي حسابه مع الإسلام ورسوله، لكنه لم يكد يتلو القرآن المسطور في الصحيفة حتى صاح صيحته المباركة دلوني على محمد .

وسمع خباب كلمات عمر، فخرج من مخبئه وصاح يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فإني سمعته بالأمس يقول اللهم أيد الإسلام بأحب الرجلين إليك، أبي الحكم بن هشام، أو عمر بن الخطاب .فسأله عمر من فوره وأين أجد الرسول الآن يا خَبَّاب ؟.

وأجاب خباب عند الصفا في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي . ومضى عمر إلى مصيره العظيم.

•ففي دار الأرقم خرج إليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال أما أنت منتهيا يا عمر حتى يُنزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعزّ الدين بعمر ابن الخطاب .

فقال عمر أشهد أنّك رسول الله .. وبإسلامه ظهر الإسلام في مكة إذ قال للرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون في دار الأرقم والذي بعثك بالحق لتخرجن ولنخرجن معك .

وخرج المسلمون ومعهم عمر ودخلوا المسجد الحرام وصلوا حول الكعبة دون أن تجرؤ قريش على اعتراضهم أو منعهم، لذلك سماه الرسول -صلى الله عليه وسلم- (الفاروق) لأن الله فرق به بين الحق والباطل. هو أحد العشرة المبشرين بالجنة الذين ورد ذكرهم فى حديث واحد، ومن علماء الصحابة وزهادهم، وضع الله الحق على لسانه إذ كان القرآن ينزل موافقا لرأيه، يقول على بن أبي طالب إنّا كنا لنرى إن في القرآن كلاما من كلامه ورأياً من رأيه .كما قال عبد الله بن عمر مانزل بالناس أمر فقالوا فيه وقال عمر، إلا نزل القرآن بوفاق قول عمر .

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدَّثون ، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر .

وزاد زكرياء بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر .

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- من نبي ولا محدث. كان قويا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم، فقد استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده نسوة من قريش ، يكلمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، فدخل عمر ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يضحك، فقال عمر أضحك الله سنك يا رسول الله .

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب .فقال عمر فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله .ثم قال عمر يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فقلن نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إيها يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غيرفجك .

ومن شجاعته وهيبته أنه أعلن على مسامع قريش أنه مهاجر بينما كان المسلمون يخرجون سرا، وقال متحديا لهم من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي .فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه.

رُوِيَ عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- العديد من الأحاديث التي تبين فضل عمر بن الخطاب نذكر منها.(إن الله سبحانه جعل الحق على لسان عمر وقلبه). (الحق بعدي مع عمر حيث كان) . (لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطاب).

(إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خرَّ لوجهه .(ما في السماء ملك إلا وهو يوقّر عمر، ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر .

قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأةِ أبي طلحة وسمعت خشفاً أمامي، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا بلال، ورأيت قصرا أبيض بفنائه جارية، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيّرتك .فقال عمر بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار !

وقال الرسول -صلى الله عليه وسلم- بيْنا أنا نائم إذ أُتيت بقدح لبن، فشربت منه حتى إنّي لأرى الريّ يجري في أظفاري، ثم أعطيت فضْلي عمر بن الخطاب.

قالوا فما أوّلته يا رسول الله ؟.. قال العلم . قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قمصٌ، منها ما يبلغ الثدي ومنها ما يبلغ أسفل من ذلك، وعُرِضَ عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرّه .

قالوا فما أوَّلته يا رسول الله ؟.. قال الدين .

رغب أبو بكر -رضي الله عنه- في شخصية قوية قادرة على تحمل المسئولية من بعده، واتجه رأيه نحو عمر بن الخطاب فاستشار في ذلك عددا من الصحابة مهاجرين وأنصارا فأثنوا عليه خيرا ومما قاله عثمان بن عفان اللهم علمي به أن سريرته أفضل من علانيته، وأنه ليس فينا مثله .

وبناء على تلك المشورة وحرصا على وحدة المسلمين ورعاية مصلحتهم. أوصى أبو بكر الصديق بخلافة عمر من بعده، وأوضح سبب اختياره قائلا اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم، واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم .

ثم أخذ البيعة العامة له بالمسجد إذ خاطب المسلمين قائلا أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فوالله ما آليت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قربى، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا .

فرد المسلمون : سمعنا وأطعنا.. وبايعوه سنة (١٣ هـ . واستمرت خلافته عشر سنين تم فيها كثير من الإنجازات المهمة. لهذا وصفه ابن مسعود -رضي الله عنه- فقال كان إسلام عمر فتحا، وكانت هجرته نصرا، وكانت إمامته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي إلى البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

وهو أول من جمع الناس لقيام رمضان في شهر رمضان سنة (١٤ هـ)، وأول من كتب التاريخ من الهجرة في شهر ربيع الأول سنة (١٦ هـ)، وأول من عسّ في

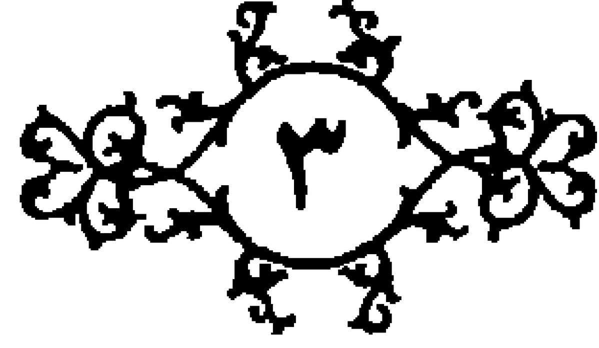
عمله، يتفقد رعيته في الليل وهو واضع الخراج، كما أنه مصّر الأمصار، واستقضى القضاة، ودون الدواوين، وفرض الأعطية، وحج بالناس عشر حِجَجٍ متوالية، وحج بأمهات المؤمنين في آخر حجة حجها.

وأصلح مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وزاد فيه، وأدخل دار العباس بن عبد المطلب فيما زاد، ووسّعه وبناه لمّا كثر الناس بالمدينة، وهو أول من ألقى الحصى في المسجد النبوي، فقد كان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود نفضوا أيديهم من التراب، فأمر عمر بالحصى فجيء به من العقيق، فبُسِط في مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- . وعمر -رضي الله عنه- هو أول من أخرج اليهود وأجلاهم من جزيرة العرب إلى الشام، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج أهل نجران وأنزلهم ناحية الكوفة.

لقد فتح الله عليه في خلافته دمشق ثم القادسية حتى انتهى الفتح إلى حمص، وجلولاء والرقة والرّها وحرّان ورأس العين والخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل وبيت المقدس وبَيْسان واليرموك والجابية والأهواز والبربر والبُرلُّس.

وقد ذلّ لوطأته ملوك الفرس والروم وعُتاة العرب حتى قال بعضهم : " كانت درَّة عمر أهيب من سيف الحجاج " . وبلغ -رضي الله عنه- من هيبته أن الناس تركوا الجلوس في الأفنية، وكان الصبيان إذا رأوه وهم يلعبون فرّوا، مع أنه لم يكن جبّارا ولا متكبّرا، بل كان حاله بعد الولاية كما كان قبلها بل زاد تواضعه، وكان يسير منفردا من غير حرس ولا حُجّاب، ولم يغرّه الأمر ولم تبطره النعمة.





علي بن أبي طالب ..رضى الله عنه

OOO

لمّا كثر أهل الفتن وتعددت فرق الضلال تآمر بعضهم وتواعدوا لسبع عشرة ليلة من شهر رمضان سنة أربعين هجرية، فوثب ابن ملجم وقد خرج الإمام على رضي الله عنه إلى صلاة الصبح فضربه بالسيف في جبهته فكانت وفاة أمير المؤمنين الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه لإحدى وعشرين من شهر رمضان سنة أربعين عن ثلاث وستين أو تسع وخمسين سنة من عمره فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر.

اجتمع ثلاثة رجال من الخوارج واتّفقوا على قتل عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص . وقد أخذ عبد الرحمن بن ملجم على عاتقه قتل عليّ.

دخل ابن ملجم المسجد في بزوغ الفجر وجعل يكرر الآية : "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله "، فأقبل عليّ وظنّ أن الرجل ينسى نفسه فيها، فقال : "والله رؤوف بالعباد " ثم انصرف عليّ ناحية عبد الرحمن بن ملجم،

وعندها ضربه بالسيف المسموم على رأسه . فقال على : " احبسوه ثلاثاً وأطعموه واسقوه، فإن أعش أرَ فيه رأيي، وإن متّ فاقتلوه ولا تمثّلوا به " . لكنّ الإمام عليّ مات من الضربة، فأخذه عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه ثم قطع لسانه وضرب عنقه .

أما الخارجي الثاني الحارث بن عبد الله التميمي الذي أخذ على عاتقه قتل معاوية، فلم يجد إلى ذلك سبيلا .

أما الخارجي الثالث عمرو بن بكير التميمي فنوى قتل عمرو بن العاص لكن لحسن حظ عمرو بن العاص، انه أرسل مكانه للصلاة رجلاً يقال له خارجة فضربه الخارجي وقتله.

قال الحسن صبيحة تلك الليلة: أيها الناس انه قتل فيكم رجل كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا ينثني حتى يفتح الله له . وما ترك إلا ثلاثمائة درهم .

وها نحن نرى كيف تتجلى عظمة الرجل حتى وهو يموت، وذلك من خلال معاملته لقاتله، الذي ضربه بالسيف في المسجد في شهر رمضان ... فهو يأمر قبل موته بان يتم سجن القاتل، فإذا مات فليقتل على أن لا يُمَثَّل به . ورغم كونه خليفة، وهو الذي يدير شؤون الدولة الإسلامية إلا انه عاش فقيراً ومات فقيراً، ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام.

أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، صلوات الله وبركاته عليه.

" إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين" .

أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربنا ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، فإني سمعت رسول الله يقول : " إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وأن المبيدة الحالقة للدين فساد ذات البين ".ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب.

الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم بجفوتكم.

والله الله في جيرانكم فإنها وصية رسول الله صلى الله عليه وآله ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

.والله الله في القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم.

والله الله في الصلاة فإنها عماد دينكم.

والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا وإنه إن خلا منكم لم تنظروا.

والله الله في صيام شهر رمضان فإنه جُنَّة (وقاية) من النار.

والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

والله الله في زكاة أموالكم فإنها تطفئ غضب ربكم.

والله الله في أُمة نبيكم فلا تُظلمن بين أظهركم.

والله الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى بهم.

والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم.

والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنها كانت آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال : " أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم " .

ثم قال الصلاة الصلاة.

لا تخافوا في الله لومة لائم فإنه يكفكم من بغى عليكم وأرادكم بسوء قولوا للناس حسناً كما أمركم الله.

ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي الأمر عنكم وتدعون فلا يُستجاب لكم.

عليكم بالتواضع والتباذل.

وإياكم والتقاطع والتفرق والتدابر « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب.

حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيه استودعكم الله خير مستودع وأقرأ عليكم سلام الله ورحمته. إنَّا لله وإنَّا اليه راجعون .

ولد على بن أبي طالب في جوف الكعبة من أبوين صالحين هما: أبو طالب عمّ النبي(صلى الله عليه وسلم) ومؤمن قريش. وفاطمة بنت أسد بن هاشم.

نشأ على في كنف والديه، وبعد سنوات من ولادته المباركة تعرضت قريش لأزمة اقتصادية خانقة كانت وطأتها شديدة عليا أبي طالب إذ كان رجلاً ذا عيال كثيرين، فاقترح النبي(صلى الله عليه وسلم أن يأخذ عليًا (رضى الله عنه) ليخفّف العبء عن أبي طالب (رضى الله عنه)، وكان عمره ست سنوات. فنشأ في دار الوحي ولم يفارق النبي (صلى الله عليه وسلم) في حال حياته إلى وفاته، وهو القائل: "ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمه. يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً. ويأمرني

بالاقتداء به" . وقد عاش مع النبي (صلى الله عليه وسلم) بدايات الدعوة" .. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري" . كما سبق إلى الإيمان والهجرة "ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله(صلى الله عليه وسلم وخديجة وأنا ثالثهما" .

وفي الواقع أن علياًّ ولد مسلماً على الفطرة ولم يسجد لصنم قط (رضى الله عنه) باعتراف الجميع.

عاش على مع الدعوة في مرحلتها السرية إلى أن نزل قوله تعالى: "وأنذر عشيرتك الأقربين" فجمع النبي (صلى الله عليه وسلم) أقرباءه ودعاهم إلى كلمة التوحيد فلم يستجب له سوى على (رضى الله عنه) وكان أصغرهم سنا. فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): "أنت أميني ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي" وقد اشتهر هذا القول بحديث الدار.

هاجر على (رضى الله عنه) إلى المدينة المنورة ملتحقاً برسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعدما نفّذ وصيته وردَّ أماناته إلى أهلها. فدخل معه المدينة وعمل إلى جانبه في بناء المجتمع الإسلامي وتركيز دعائم الدولة الإسلامية.

وفي السنة الثانية للهجرة تزوج على من سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضى الله عنهما بنت النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وكان ثمرة هذا الزواج الحسن والحسين وزينب. فشكلت هذه الأسرة النموذجية المثل الأعلى للحياة الإسلامية في إيمانها وجهادها وتواضعها وأخلاقها الكريمة.

شارك على (رضى الله عنه) إلى جانب النبي (صلى الله عليه وسلم) في مجمل الحروب والغزوات التي خاضها باستثناء غزوة تبوك حيث تخلف عنها بأمر من النبي (صلى الله عليه وسلم) . وفي تلك الغزوة قال له (صلى الله عليه وسلم): "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي" .

وقد كان له في كل تلك المعارك السهم الأوفى والنصيب الأكبر من الجهاد والتضحية ففي معركة بدر التي قتل فيها سبعون مشركاً قتل على (رضى الله عنه) ستة وثلاثين منهم.

وفي معركة أُحُد حينما فرَّ المسلمون وجرح النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، صمد مع ثلّة قليلة من المؤمنين يزودون عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى منعوا المشركين من الوصول إليه.

وأما في معركة الأحزاب فقد كان حسم المعركة لصالح المسلمين على يديه المباركتين حينما قتل عمرو بن ود العامري، بضربة قال عنها النبي (صلى الله عليه وسلم): "ضربة على يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين".

وفي معركة خيبر، وبعد أن فشل جيش المسلمين مرتين في اقتحام الحصن اليهودي المنيع قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه" فأعطى الراية لعلي (رضى الله عنه)، وفتح الحصن وكان نصراً عزيزاً بعد ما قتل (رضى الله عنه) مرحب".

وفي معركة حنين انهزم المسلمون من حول النبي (صلى الله عليه وسلم) وصمد على (رضى الله عنه) وبعض بني هاشم يدافعون عن رسول الإسلام بكل شجاعة وعزيمة حتى أنزل الله نصره عليهم.

حينما فاضت روح النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى بارئها. انصرف على (رضى الله عنه) لتجهيزه ودفنه بينما كان بعض وجوه المسلمين يتنازعون الأمر بينهم في سقيفة بني ساعدة حتى استقر رأيهم على تنصيب أبي بكر خليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم.

ولعدم شرعية الخلافة لم يبايع عليٌّ (رضى الله عنه) في البداية حتى رأى راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) فخشي (رضى الله عنه) إن لم يبايع أن يرى في الإسلام ثلماً أو هدماً فتكون المصيبة به أعظم. ولذلك لم يعتزل الحياة السياسية العامة فتجد في على (رضى الله عنه) المدبّر والمعالج والقاضي لجميع المشاكل الطارئة طيلة عهود أبي بكر وعمر وعثمان مما لفت أنظار الأمة آنذاك إلى موقعية على (رضى الله عنه) في إرجاع معالم الدين وتصحيح الانحراف وتقويم الإعوجاج.

وعند مبايعته بعد مقتل عثمان (رضى الله عنه) كانت المرّة الوحيدة التي يبايع فيها الناس شخصاً ثم يتولى أمور الخلافة بصورة شرعية خلافاً للمرات السابقة التي كان ينصب فيها الخلفاء أولاً، ثم يطلب من الناس مبايعتهم.

امتازت حكومة على (رضى الله عنه) برجوعها إلى الينابيع الأصيلة للإسلام كما أمر بها الله تعالى. **ومما امتازت به حكومته (رضى الله عنه:**

أولاً: المساواة في العطاء.

وثانياً: رد المظالم.

وثالثاً: تشديد الرقابة على بيت مال المسلمين.

ورابعاً: عزل الولاة المنحرفين واستبدالهم بنماذج خيّرة وكفؤة.

وخامساً: مراقبة الولاة وتزويدهم بالمناهج والخطط من أجل إقامة حكومة العدل والإسلام على الأرض.

وهذا الأمر أزعج المترفين من أغنياء المسلمين انذاك. الذين أحسّوا بالخطر يهدّد مصالحهم فأعلنوا العصيان والتمرّد.

استمرّت حكومة على (رضى الله عنه) خمس سنوات عمل خلالها مجاهداً من أجل التصحيح والتقويم والعودة إلى الأصالة وإقامة حكم الله على الأرض. وخاض خلالها حرب الجمل في البصرة مع الناكثين الذين أزعجهم مبدأ المساواة في العطاء بين المسلمين بالإضافة إلى رفض على (رضى الله عنه) الانجرار وراء مطامعهم وإعطائهم ولاية الكوفة والبصرة، فنكثوا بيعته (رضى الله عنه وطالبوه بدم عثمان وجمعوا له (٣٠) ألفا على رأسهم عائشة وطلحة والزبير. ولم تنفع الكتب التي أرسلها (رضى الله عنه) لإخماد الفتنة فاضطر إلى محاربتهم والقضاء على الفتنة من أساسها. ثم كانت حرب صفين مع معاوية وكانوا متأولين لا باغين يريدون الإصلاح بين الفريقين. وكاد الإمام ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً لولا الخديعة التي اصطنعها معاوية بدعوى الاحتكام إلى كتاب الله. هذه الحيلة انطلت على قسم من جيش على (رضى الله عنه) وهم المعروفون بالخوارج الذين خرجوا عليه فأجبروه على قبول التحكيم ثم رفضوه ورفعوا شعار "لا حكم إلاّ لله". فحاربهم على (رضى الله عنه) في النهروان بعد أن وعظهم وأقام الحجة عليهم، وقضى عليهم، مبيّناً فساد شعارهم بأنه "كلمة حق يُراد بها باطل.." وكان عددهم (٤٠٠٠) خارجي.

وأروع ما ترك لنا الإمام على عدا سيرته الطيبة كتاب " نهج البلاغة " الذي جمعه الشريف الرضي . وإن نظرة سريعة للكتاب تكشف شخصية الإمام عليّ الفذّة، صاحب الخيال الواسع والإيمان الراسخ بالله تعالى، الذي يحمل الرأي السديد في الدين والاجتماع .

ومن روائع الإمام عليّ خطبة الجهاد المعروفة .

ونورد فيما يلي هذه القصة التي تدلّ على شجاعة الإمام على بن أبي طالب ومهابة الفرسان منه .

في معركة صفين، وبينما كان القتال على أشدّه بين جيش عليّ وجيش معاوية، كان لمعاوية مولى يدعى حريث، وكان حريث هذا فارس معاوية الذي يعدّه لكل

مبارزة ولكل عظيم . وكان حريث يلبس سلاح معاوية، متشبهاً به، فإذا قاتل قال الناس ذاك معاوية .

وقد دعاه معاوية في معركة صفين وقال له: يا حريث .. ضع رمحك حيث شئت، لكن اتَّقِ عليًّا.

ولكنّ عمرو بن العاص قال له : لو كنت قريشيًّا لأحبّ معاوية أن تقتل عليا ولكنه كره أن يكون لك حظها، فإن رأيت فرصة فأقدِم ...

وخرج على أمام الخيل وحمل عليه حريث فنادى : يا عليّ هل لك في المبارزة؟ فأقدم عليّ وهو يقول :

أنـا علـيّ وابـن عبد المطَّلِـبْ　　نحن لعمر الله أولى بالكُتُـبْ
منا النبيّ المصطفى غير كذبْ　　أهل اللواء والمقام والحُجُـبْ
نحن نصرناه على جلّ العــربْ　　يا أيها العبد الضرير المنتدَبْ

ثم ضربه عليّ فقتله فجزع عليه معاوية وعاتب عمرو بن العاص وقال له :

حُريثُ ألمْ تعلمْ وجهلُكَ ضـائرُ　　بـأنّ عليًّا للفــوارسِ قـــاهِــرُ
وإنّ عليـًّا لـــم يبـارزه فـارسٌ　　مـــن الناس إلا أقعدته الأظافـر
أمرتك أمــراً حازماً فعصيتني　　فجـدّك إذ لم تقبل النصحَ عاثر
ودلّاك عمرو والحــوادث جمـّة　　غروراً وما جرّت عليـك المقـادِر
وظنّ حريث أنّ عمرواً نصيحـَةٌ　　وقد يهلك الإنسان من لا يحــاذر

ومن أقوال على رضى الله عنه المأثورة

١ - لا رأي لمن لا يطاع .

٢ - القناعة كنز لا يفنى .

٣ - ليس كلّ من رمى أصاب .

٤ – التواضع نعمة لا يفطن إليها الحاسد .

٥ – لا قرين كحسن الخلق .

٦ – لا علم كالتفكير .

٧ – لا ميراث كالأدب .

٨ – لا إيمان كالحياء والصبر .

٩ – الناس أعداء ما جهلوا .

١٠ – لا تطلب الحياة لتأكل، بل اطلب الأكل لتحيا .

ومما قالوا عنه :

لأعطين هذه الراية غدا رجلا بفتح الله عليه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قول رسول الله عليه الصلاة والسلام وقوله أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي.

من كنت مولاه فعلي مولاه .

لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم، ولم يدركه الآخرون. كان رسول الله. صلى الله عليه وسلم يبعثه بالراية، جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا ينصرف حتى يفتح له.

الحسن بن علي

صليت مع على بن أبي طالب رضى الله عنه صلاة الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه ثم مكث وكان عليه كابة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح قال وقلب يده: لقد رأيت أصحاب رسول الله. صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى

قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم والله لكأن القوم باتوا غافلين . ثم نهض فما رئي مفترا يضحك حتى ضربه ابن ملجم .

أبو أراكة

ومن أقوال على بن أبي طالب أيضا :

- ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين رجل أذنب ذنوبا فهو يتدارك ذلك بتوبة أو رجل يسارع في الخيرات ولا يقل عمل في تقوى وكيف يقل ما يتقبل.

- إن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة إلا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل.

- إن الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من عذاب الله ولا يرخص لهم في معاصي الله ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ولا خير في عبادة لا علم فيها ولا خير في علم لا فهم فيه ولا خير في قراءة لا تدبر فيها .

- لا يرجونَّ عبد إلا ربَّه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحي إذا لم يعلم أن يتعلم ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس له .

- الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق .

ذكر ابن جرير، وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس: أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن عمرو المعروف: بابن ملجم الحميري ثم الكندي، حليف بني حنيفة من كندة المصري، وكان أسمر حسن الوجه، أبلج شعره مع شحمة أذنيه، وفي وجهه أثر السجود.

والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي أيضاً - اجتمعوا فتذاكروا قتل على إخوانهم من أهل النهروان فترحموا عليهم.

وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟

فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم على بن أبي طالب.

وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية.

وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسمّوها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه.

فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة فدخلها وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، فبينما هو جالس في قوم من بني الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها: قطام بنت الشجنة.

قد قتل على يوم النهروان أباها وأخاها، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه.

فلما رآها ابن ملجم سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء لها، وخطبها إلى نفسها فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادماً وقينة (نوع من الجوارى)، وأن يقتل لها على بن أبي طالب.

قال: فهو لك ووالله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي، فتزوجها ودخل بها ثم شرعت تحرضه على ذلك وندبت له رجلاً من قومها، من تيم الرباب يقال له: وردان، ليكون معه ردءاً، واستمال عبد الرحمن بن ملجم رجلاً آخر يقال له: شبيب ابن نجدة الأشجعي الحروري قال له ابن ملجم: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

فقال: وما ذاك: قال؟ قتل علي.

قال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئاً إِدًّا كيف تقدر عليه؟

قال: أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا.

فقال: ويحك لو غير على كان أهون عليّ؟ قد عرفت سابقته في الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أجدني أنشرح صدراً لقتله.

فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان؟

فقال: بلى.

قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا.

فأجابه إلى ذلك بعد لأي ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت.

وقال: هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها أن يثأروا بمعاوية وعمرو بن العاص فجاء هؤلاء الثلاثة – وهم: ابن ملجم، ووردان، وشبيب، وهم مشتملون على سيوفهم فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي، فلما خرج جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة.

ويقول: الصلاة الصلاة فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته رضي الله عنه.

ولما ضربه ابن ملجم قال: لا حكم إلا لله ليس لك يا على ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

ونادى علي: عليكم به، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس، وُمسك ابن ملجم وقدم على جعدة بن هبيرة بن أبي وهب فصلى بالناس صلاة الفجر، وحمل عليٌّ إلى منزله، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف - قبحه الله - فقال له: أي عدو الله ألم أحسن إليك؟

قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا؟

قال: شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال له علي: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله.

ثم قال: إن مت فاقتلوه وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به.

فقال جندب بن عبد الله: يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن؟

فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

ولما احتضر على جعل يكثر من قول لا إله إلا الله، لا يتلفظ بغيرها.

وقد قيل: إن آخر ما تكلم به: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧،٨).

وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله والصلاة، والزكاة، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش.

ووصاهما بأخيهما محمد ابن الحنفية، ووصاه بما وصاهما به، وأن يعظمهما ولا يقطع أمراً دونهما وكتب ذلك كله في كتاب وصيته رضي الله عنه وأرضاه، والتي ذكرناها آنفا .

وقد غسله ابناه الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن فكبر عليه تسع تكبيرات.

قال الواقدي: حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن إسحاق بن عبد الله ابن أبي فروة قال: سألت أبا جعفر محمد بن على الباقر كم كان سن على يوم قتل؟

قال: ثلاثاً وستين سنة.

قلت: أين دفن؟

قال: دفن بالكوفة ليلاً وقد غبي عن دفنه.

وفي رواية عن جعفر الصادق: أنه كان عمره ثمانية وخمسين سنة.

وقد قيل: إن عليًّا دفن قبلي المسجد الجامع من الكوفة.

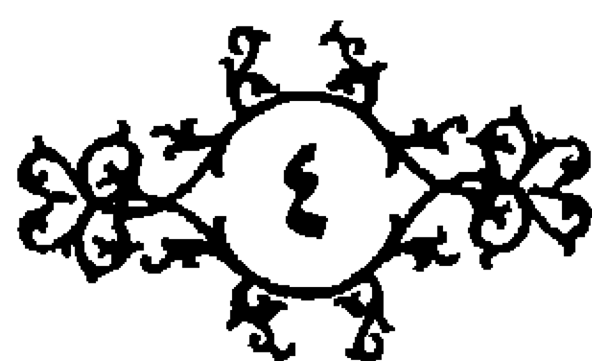
قاله الواقدي: والمشهور بدار الإمارة.

وقد حكى الخطيب البغدادي، عن أبي نعيم الفضل بن دكين: أن الحسن والحسين حولاه فنقلاه إلى المدينة فدفناه بالبقيع عند قبر فاطمة.

وقيل: إنهم لما حملوه على البعير ضل منهم فأخذته طيء يظنونه مالاً، فلما رأوا أن الذي في الصندوق ميت ولم يعرفوه دفنوا الصندوق بما فيه فلا يعلم أحد أين قبره، حكاه الخطيب أيضاً.

وروى الحافظ ابن عساكر، عن الحسن قال: دفنت عليا في حجرة من دور آلـ "جعدة" .





خالد بن الوليد ..رضى الله عنه

ooo

لما حضرت خالداً الوفاةُ قال : لقد طلبت القتل في مظانه (أماكنه) فلم يُقدر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتها وأنا متترس، والسماء تهلني ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار ثم قال : إذا متُّ، فانظروا سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدة في سبيل الله، فلما توفي خرج عمر على جنازته، فقال : ما على آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن ما لم يكن نقعاً أو لقلقة وعن نافع قال : لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغلامه .١

فقال عمر : رحم الله أبا سليمان " كنية خالد " كان على ما ظنناه به عاش ستين سنة ومات على فراشه بحمص سنة إحدى وعشرين، رضي الله عنه وعن سائر الصحابة الكرام .

نعم استقر خالد في حمص -من بلاد الشام- فلما جاءه الموت، وشعر بدنو أجله، قال: (لقد شهدت مائة معركة أو زهاءها، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، ألا

فلا نامت أعين الجبناء... وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية... مات من قال عنه الصحابة: (الرجل الذي لا ينام، ولا يترك أحدا ينام... وأوصى بتركته لعمر بن الخطاب والتي كانت مكونة من فرسه وسلاحه.

وودعته أمه قائلة:

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال

أشجاع؟.. فأنت أشجع من لـيث غضنفر يذود عن أشبـال

أجواد؟.. فأنت أجود من سيــل غامر يسيل بين الجبــال

توفي خالد بحمص في (١٨ من رمضان ٢١هـ = ٢٠ من أغسطس ٦٤٢م. وحينما حضرته الوفاة، انسابت الدموع من عينيه حارة حزينة ضارعة، ولم تكن دموعه رهبة من الموت، فلطالما واجه الموت بحد سيفه في المعارك، يحمل روحه على سن رمحه، وإنما كان حزنه وبكاؤه لشوقه إلى الشهادة، فقد عزّ عليه –وهو الذي طالما ارتاد ساحات الوغى فترتجف منه قلوب أعدائه وتتزلزل الأرض من تحت أقدامهم– أن يموت على فراشه، وقد جاءت كلماته الأخيرة تعبر عن ذلك الحزن والأسى في تأثر شديد: "لقد حضرت كذا وكذا زحفا وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء".

وحينا يسمع عمر بوفاته يقول: "دع نساء بني مخزوم يبكين على أبي سليمان، فإنهن لا يكذبن، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي".

خالد بن الوليد هو "أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة"، ينتهي نسبه إلى "مرة بن كعب بن لؤي" الجد السابع للنبي (صلى الله عليه وسلم) و"أبي بكر الصديق" رضي الله عنه.

وأمه هي "لبابة بنت الحارث بن حَزَن الهلالية"، وقد ذكر "ابن عساكر" – في تاريخه – أنه كان قريبًا من سن "عمر بن الخطاب".

وينتمي خالد إلى قبيلة "بني مخزوم" أحد بطون "قريش" التي كانت إليها "القبة" و"الأعنة"، ومعناها "أعنة الخيل". وكان لها شرف عظيم ومكانة كبيرة في الجاهلية، وكانت على قدر كبير من الجاه والثراء، وكانت بينهم وبين قريش مصاهرة متبادلة.

وكان منهم الكثير من السابقين للإسلام؛ منهم: "أبو سلمة بن عبد الأسد". وكان في طليعة المهاجرين إلى الحبشة، و"الأرقم بن أبي الأرقم" الذي كانت داره أول مسجد للإسلام، وأول مدرسة للدعوة الإسلامية.

وكانت أسرة "خالد" ذات منزلة متميزة في بني مخزوم؛ فعمه "أبو أمية بن المغيرة" كان معروفًا بالحكمة والفضل، وكان مشهورًا بالجود والكرم، وهو الذي أشار على قبائل قريش بتحكيم أول من يدخل عليهم حينما اختلفوا على وضع الحجر الأسود وكادوا يقتتلون، وقد مات قبل الإسلام.

وعمه "هشام بن المغيرة" كان من سادات قريش وأشرافها، وهو الذي قاد بني مخزوم في "حرب الفجار".

وكان لخالد إخوة كثيرون بلغ عددهم ستة من الذكور هم: "العاص" و"أبو قيس" و"عبد شمس" و"عمارة" و"هشام" و"الوليد"، واثنتين من الإناث هما: "فاطمة" و"فاضنة".

أما أبوه فهو "عبد شمس الوليد بن المغيرة المخزومي"، وكان ذا جاه عريض وشرف رفيع في "قريش"، وكان معروفًا بالحكمة والعقل؛ فكان أحدَ حكام "قريش" في الجاهلية، وكان ثَريًّا صاحب ضياع وبساتين لا ينقطع ثمرها طوال العام.

وفي هذا الجو المترف المحفوف بالنعيم نشأ "خالد بن الوليد"، وتعلم الفروسية كغيره من أبناء الأشراف، ولكنه أبدى نبوغًا ومهارة في الفروسية منذ وقت مبكر،

وتميز على جميع أقرانه، كما عُرف بالشجاعة والجَلَد والإقدام، والمهارة وخفة الحركة في الكرّ والفرّ.

واستطاع "خالد" أن يثبت وجوده في ميادين القتال، وأظهر من فنون الفروسية والبراعة في القتال ما جعله فارس عصره بلا منازع.

وكان "خالد" -كغيره من أبناء "قريش"- معاديًا للإسلام ناقمًا على النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين الذين آمنوا به وناصروه، بل كان شديد العداوة لهم شديد التحامل عليهم، ومن ثَم فقد كان حريصًا على محاربة الإسلام والمسلمين، وكان في طليعة المحاربين لهم في كل المعارك التي خاضها الكفار والمشركون ضد المسلمين.

وكان له دور بارز في إحراز النصر للمشركين على المسلمين في غزوة "أحد"، حينما وجد غِرَّة من المسلمين بعد أن خالف الرماة أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وتركوا مواقعهم في أعلى الجبل، ونزلوا ليشاركوا إخوانهم جمع غنائم وأسلاب المشركين المنهزمين، فدار "خالد" بفلول المشركين وباغَتَ المسلمين من خلفهم، فسادت الفوضى والاضطراب في صفوفهم، واستطاع أن يحقق النصر للمشركين بعد أن كانت هزيمتهم محققة.

كذلك فإن "خالدا" قبل إسلامه كان أحد صناديد قريش يوم الخندق الذين كانوا يتناوبون الطواف حول الخندق علهم يجدون ثغرة منه؛ فيأخذوا المسلمين على غرة، ولما فشلت الأحزاب في اقتحام الخندق، وولوا منهزمين، كان "خالد بن الوليد" أحد الذين يحمون ظهورهم حتى لا يباغتهم المسلمون.

وفي "الحديبية" خرج "خالد" على رأس مائتي فارس دفعت بهم قريش لملاقاة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، ومنعهم من دخول مكة، وقد أسفر الأمر عن عقد معاهدة بين المسلمين والمشركين عرفت باسم "صلح الحديبية".

وقد تجلت كراهية "خالد" للإسلام والمسلمين حينما أراد المسلمون دخول مكة في عمرة القضاء؛ فلم يطِق خالد أن يراهم يدخلون مكة –رغم ما بينهم من صلح ومعاهدة– وقرر الخروج من مكة حتى لا يبصر أحدًا منهم فيها.

أسلم خالد في (صفر ٨ هـ= يونيو ٦٢٩م)؛ أي قبل فتح مكة بستة أشهر فقط، وقبل غزوة مؤتة بنحو شهرين.

ويروى في سبب إسلامه: أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال للوليد بن الوليد أخيه، وهو في عمرة القضاء: "لو جاء خالد لقدّمناه، ومن مثله سقط عليه الإسلام في عقله"، فكتب "الوليد" إلى "خالد" يرغبه في الإسلام، ويخبره بما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه، فكان ذلك سبب إسلامه وهجرته.

وقد سُرَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بإسلام خالد، وقال له حينما أقبل عليه: "الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير".

وفرح المسلمون بانضمام خالد إليهم، فقد أعزه الله بالإسلام كما أعز الإسلام به، وتحول عداء خالد للإسلام والمسلمين إلى حب وتراحم، وانقلبت موالاته للكافرين إلى عداء سافر، وكراهية متأججة، وجولات متلاحقة من الصراع والقتال.

وكانت أولى حلقات الصراع بين خالد والمشركين –بعد التحول العظيم الذي طرأ على حياة خالد وفكره وعقيدته– في (جمادى الأولى ٨هـ = سبتمبر ٦٢٩م حينما أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) سرية الأمراء إلى "مؤتة" للقصاص من قتلة "الحارث بن عمير" رسوله إلى صاحب بصرى.

وجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) على هذا الجيش: "زيد بن حارثة" ومن بعده "جعفر بن أبي طالب"، ثم "عبد الله بن رواحة"، فلما التقى المسلمون بجموع الروم، استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأصبح

المسلمون بلا قائد، وكاد عقدهم ينفرط وهم في أوج المعركة، وأصبح موقفهم حرجًا، فاختاروا "خالدًا" قائدًا عليهم.

واستطاع "خالد" بحنكته ومهارته أن يعيد الثقة إلى نفوس المسلمين بعد أن أعاد تنظيم صفوفهم، وقد أبلى "خالد" – في تلك المعركة – بلاء حسنًا، فقد اندفع إلى صفوف العدو يعمل فيهم سيفه قتلاً وجرحًا حتى تكسرت في يده تسعة أسياف.

وقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه باستشهاد الأمراء الثلاثة، وأخبرهم أن "خالدًا" أخذ اللواء من بعدهم، وقال عنه: "اللهم إنه سيف من سيوفك، فأنت تنصره". فسمي خالد "سيف الله" منذ ذلك اليوم.

وبرغم قلة عدد جيش المسلمين الذي لا يزيد عن ثلاثة آلاف فارس، فإنه استطاع أن يلقي في روع الروم أن مددًا جاء للمسلمين بعد أن عمد إلى تغيير نظام الجيش بعد كل جولة، فتوقف الروم عن القتال، وتمكن خالد بذلك أن يحفظ جيش المسلمين، ويعود به إلى المدينة استعدادًا لجولات قادمة.

وحينما خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) في نحو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار؛ لفتح "مكة" في (١٠ من رمضان ٨هـ = ٣ من يناير ٦٣٠م، جعله النبي (صلى الله عليه وسلم) على أحد جيوش المسلمين الأربعة، وأمره بالدخول من "الليط" في أسفل مكة، فكان خالد هو أول من دخل من أمراء النبي (صلى الله عليه وسلم)، بعد أن اشتبك مع المشركين الذين تصدوا له وحاولوا منعه من دخول البيت الحرام، فقتل منهم ثلاثة عشر مشركًا، واستشهد ثلاثة من المسلمين، ودخل المسلمون مكة – بعد ذلك – دون قتال.

وبعد فتح مكة أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) خالدًا في ثلاثين فارسًا من المسلمين إلى "بطن نخلة" لهدم "العزى" أكبر أصنام "قريش" وأعظمها لديها.

ثم أرسله – بعد ذلك – في نحو ثلاثمائة وخمسين رجلاً إلى "بني جذيمة" يدعوهم إلى الإسلام، ولكن "خالدًا" – بما عُرف عنه من البأس والحماس – قتل منهم عددًا كبيرًا برغم إعلانهم الدخول في الإسلام؛ ظنًّا منه أنهم إنما أعلنوا إسلامهم لدرء القتل عن أنفسهم، وقد غضب النبي (صلى الله عليه وسلم) لما فعله خالد وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"، وأرسل "عليَّ بن أبي طالب" لدفع دية قتلى "بني جذيمة".

وقد اعتبر كثير من المؤرخين تلك الحادثة إحدى مثالب "خالد"، وإن كانوا جميعًا يتفقون على أنه أخطأ متأولاً، وليس عن قصد أو تعمد. وليس أدل على ذلك من أنه ظل يحظى بثقة النبي (صلى الله عليه وسلم)، بل إنه ولاه – بعد ذلك – إمارة عدد كبير من السرايا، وجعله على مقدمة جيش المسلمين في العديد من جولاتهم ضد الكفار والمشركين.

ففي "غزوة حنين" كان "خالد" على مقدمة خيل "بني سليم" في نحو مائة فارس، خرجوا لقتال قبيلة "هوازن" في (شوال ٨هـ = فبراير ٦٣٠م). وقد أبلى فيها "خالد" بلاءً حسنًا، وقاتل بشجاعة، وثبت في المعركة بعد أن فرَّ من كان معه من "بني سليم"، وظل يقاتل ببسالة وبطولة حتى أثخنته الجراح البليغة، فلما علم النبي (صلى الله عليه وسلم) بما أصابه سأل عن رحله ليعوده.

ولكن هذه الجراح البليغة لم تمنع خالدًا أن يكون على رأس جيش المسلمين حينما خرج إلى "الطائف" لحرب "ثقيف" و"هوازن".

ثم بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) – بعد ذلك – إلى "بني المصطلق" سنة (٩هـ = ٦٣٠م)، ليقف على حقيقة أمرهم، بعدما بلغه أنهم ارتدوا عن الإسلام، فأتاهم "خالد" ليلاً، وبعث عيونه إليهم، فعلم أنهم على إسلامهم، فعاد إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخبره بخبرهم.

وفي (رجب ٩هـ = أكتوبر ٦٣٠م) أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) "خالدًا" في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى "أكيدر بن عبد الملك" صاحب "دومة الجندل"، فاستطاع "خالد" أسر "أكيدر"، وغنم المسلمون مغانم كثيرة، وساقه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فصالحه على فتح "دومة الجندل"، وأن يدفع الجزية للمسلمين، وكتب له النبي (صلى الله عليه وسلم) كتابًا بذلك.

وفي (جمادى الأولى ١٠هـ = أغسطس ٦٣١م) بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) "خالدًا" إلى "بني الحارث بن كعب" بنجران في نحو أربعمائة من المسلمين، ليخيرهم بين الإسلام أو القتال، فأسلم كثير منهم، وأقام "خالد" فيهم ستة أشهر يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، ثم أرسل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يخبره بإسلامهم، فكتب إليه النبي يستقدمه مع وفد منهم.

وبعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) شارك "خالد" في قتال المرتدين في عهد "أبي بكر الصديق" – رضي الله عنه – فقد ظن بعض المنافقين وضعاف الإيمان أن الفرصة قد أصبحت سانحة لهم – بعد وفاة النبي – للانقضاض على هذا الدين، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من تمرد على الإسلام ومنع الزكاة، ومنهم من ارتد عن الإسلام. وقد وقع اضطراب كبير، واشتعلت الفتنة التي أحمى أوارها وزكّى نيرانها كثير من أعداء الإسلام.

وقد واجه الخليفة الأول تلك الفتنة بشجاعة وحزم، وشارك خالدُ بن الوليد بنصيب وافر في التصدي لهذه الفتنة والقضاء عليها، حينما وجهه أبو بكر لقتال "طليحة بن خويلد الأسدي" وكان قد تنبأ في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) حينما علم بمرضه بعد حجة الوداع، ولكن خطره تفاقم وازدادت فتنته بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) والتفاف كثير من القبائل حوله، واستطاع خالد أن يلحق بطليحة وجيشه هزيمة منكرة فر "طليحة" على إثرها إلى "الشام"، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان له دور بارز في حروب الفرس، وقد استشهد في عهد عمر بن الخطاب.

وبعد فرار طليحة راح خالد يتتبع فلول المرتدين، فأعمل فيهم سيفه حتى عاد كثير منهم إلى الإسلام.

ثم سار خالد ومن معه إلى مالك بن نويرة الذي منع الزكاة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فلما علم مالك بقدومه أمر قومه بالتفرق حتى لا يظفر بهم خالد، ولكن خالدا تمكن من أسره في نفر من قومه، وكانت ليلة شديدة البرودة، فأمر خالد مناديًا أن أدفئوا أسراكم، وظن الحرس -وكانوا من كنانة- أنه أراد قتل الأسرى – على لغتهم- فشرعوا فيهم سيوفهم بالقتل، حتى إذا ما انتبه خالد كانوا قد فرغوا منهم.

وأراد خالد أن يكفّر عن ذلك الخطأ الذي لم يتعمده فتزوج من امرأة مالك؛ مواساة لها، وتخفيفًا عن مصيبتها في فقد زوجها الفارس الشاعر.

وخرج خالد – بعد ذلك – لقتال مسيلمة الكذاب الذي كان من أشد أولئك المتنبئين خطرًا، ومن أكثرهم أعوانًا وجندًا، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، انتهت بهزيمة "بني حنيفة" ومقتل "مسيلمة"، وقد استشهد في تلك الحرب عدد كبير من المسلمين بلغ أكثر من ثلاثمائة وستين من المهاجرين والأنصار، وكان أكثرهم من السابقين إلى الإسلام، وحفظة القرآن، وهو الأمر الذي دعا أبا بكر إلى التفكير في جمع القرآن الكريم؛ خوفًا عليه من الضياع بعد موت هذا العدد الكبير من الحفاظ.

ومع بدايات عام (١٢هـ = ٦٢٣م) بعد أن قضى أبو بكر على فتنة الردة التي كادت تمزق الأمة وتقضي على الإسلام، توجه الصديق ببصره إلى العراق يريد تأمين حدود الدولة الإسلامية، وكسر شوكة الفرس المتربصين بالإسلام.

وكان خالد في طليعة القواد الذين أرسلهم أبو بكر لتلك المهمة، واستطاع خالد أن يحقق عددًا من الانتصارات على الفرس في "الأبلة" و"المذار" و"الولجة"

و"أليس"، وواصل خالد تقدمه نحو "الحيرة" ففتحها بعد أن صالحه أهلها على الجزية، واستمر خالد في تقدمه وفتوحاته حتى فتح جانبًا كبيرًا من العراق، ثم اتجه إلى "الأنبار" ليفتحها، ولكن أهلها تحصنوا بها، وكان حولها خندق عظيم يصعب اجتيازه، ولكن خالدًا لم تعجزه الحيلة، فأمر جنوده برمي الجنود المتحصنين بالسهام في عيونهم، حتى أصابوا نحو ألف عين منهم، ثم عمد إلى الإبل الضعاف والهزيلة، فنحرها وألقى بها في أضيق جانب من الخندق، حتى صنع جسرًا استطاع العبور عليه هو وفرسان المسلمين تحت وابل من السهام أطلقه رماته لحمايتهم من الأعداء المتربصين بهم من فوق أسوار الحصن العالية المنيعة.. فلما رأى قائد الفرس ما صنع خالد وجنوده، طلب الصلح، وأصبحت الأنبار في قبضة المسلمين.

واستخلف خالد "الزبرقان بن بدر" على الأنبار واتجه إلى "عين التمر" التي اجتمع بها عدد كبير من الفرس، تؤازرهم بعض قبائل العرب، فلما بلغهم مقدم "خالد" هربوا، والتجأ من بقي منهم إلى الحصن، وحاصر خالد الحصن حتى استسلم من فيه، فاستخلف "عويم بن الكاهل الأسلمي" على عين التمر، وخرج في جيشه إلى دومة الجندل ففتحها.

وبسط خالد نفوذه على الحصيد والخنافس والمصيخ، وامتد سلطانه إلى الفراض وأرض السواد ما بين دجلة والفرات.

ثم رأى أبو بكر أن يتجه بفتوحاته إلى الشام، فكان خالد قائده الذي يرمي به الأعداء في أي موضع، حتى قال عنه: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد ابن الوليد".

ولم يخيب خالد ظن أبي بكر فيه، فقد استطاع أن يصل إلى الشام بسرعة بعد أن سلك طريقًا مختصرًا، مجتازًا المفاوز المهلكة غير المطروقة، متخذًا "رافع ابن عمير الطائي" دليلاً له، ليكون في نجدة أمراء أبي بكر في الشام: "أبي عبيدة عامر بن الجراح"، و"شرحبيل بن حسنة" و"عمرو بن العاص"، فيفاجئ الروم قبل

أن يستعدوا له.. وما إن وصل خالد إلى الشام حتى عمد إلى تجميع جيوش المسلمين تحت راية واحدة، ليتمكنوا من مواجهة عدوهم والتصدي له.

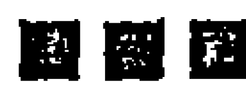
وأعاد خالد تنظيم الجيش، فقسمه إلى كراديس، ليكثروا في عين عدوهم فيهابهم، وجعل كل واحد من قادة المسلمين على رأس عدد من الكراديس، فجعل أبا عبيدة في القلب على (١٨) كردوسا، ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو، وجعل عمرو بن العاص في الميمنة على ١٠ كراديس ومعه شرحبيل بن حسنة، وجعل يزيد بن أبي سفيان في الميسرة على ١٠ كراديس.

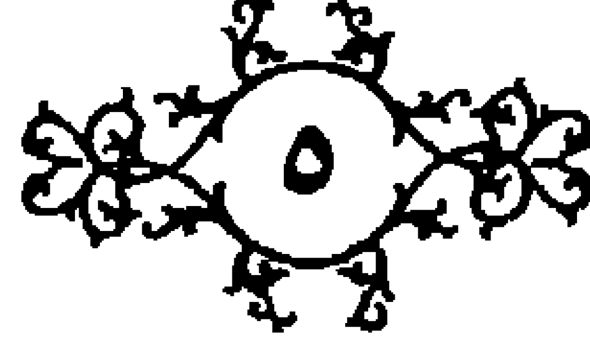
والتقى المسلمون والروم في وادي اليرموك وحمل المسلمون على الروم حملة شديدة، أبلوا فيها بلاء حسنا حتى كتب لهم النصر في النهاية. وقد استشهد من المسلمين في هذه الموقعة نحو ثلاثة آلاف، فيهم كثير من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم.

وتجلت حكمة خالد وقيادته الواعية حينما جاءه رسول برسالة من عمر بن الخطاب تحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق وتخبره بعزله عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح بدلا منه، وكانت المعركة لا تزال على أشدها بين المسلمين والروم، فكتم خالد النبأ حتى تم النصر للمسلمين، فسلم الرسالة لأبي عبيدة ونزل له عن قيادة الجيش.

ولم ينته دور خالد في الفتوحات الإسلامية بعزل عمر له وتولية أبي عبيدة بن الجراح أميرا للجيش، وإنما ظل خالد يقاتل في صفوف المسلمين، فارسا من فرسان الحرب وبطلا من أبطال المعارك الأفذاذ المعدودين.

وكان له دور بارز في فتح دمشق وحمص وقنسرين، ولم يفت في عضده أن يكون واحدا من جنود المسلمين، ولم يوهن في عزمه أن يصير جنديا بعد أن كان قائدا وأميرا؛ فقد كانت غايته الكبرى الجهاد في سبيل الله، ينشده من أي موقع وفي أي مكان رضى الله عنه.





عمرو بن العاص (رضى الله عنه)

OOO

لما مرض عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مرض الموت، وأحس بدنو الأجل غلبته العَبرة، وقال لابنه: كنت على ثلاث حالات عرفت نفسي فيها،

كنت أول شيء كافرًا، فلو مت حينئذ لوجبت لي النار.

فلما بايعت الرسول -صلى الله عليه وسلم- كنت أشد الناس حياء منه حتى إني ما ملأت عيني منه قط، فلو مت حينئذ لقال الناس: هنيئًا لعمرو أسلم على خير ومات على خير..

ثم تلبستُ بعد ذلك بأشياء فلا أدري أعليَّ أم لي؟

ثم أدار وجهه إلى الجدار وهو يقول:

اللهم أمرتنا فعصينا... ونهيتنا فما انتهينا

ولا يسعنا إلا عفوك يا أرحم الراحمين.

- ثم وضع يده في موضع الغلّ من عنقه ورفع طرفه إلى السماء وقال:

اللهم لا قويٌّ فأنتصر... ولا بريء فأعتذر

وما أنا بمستكبر ... وإنما مستغفر، فاغفر لي يا غفار

ولم يزل يرددها حتى فاضت روحه. وكانت في رمضان سنة ٤٣هـ.

عمرو بن العاص بن وائل السهمي قائد إسلامي عظيم تمتع بعقلية قيادية مميزة، بالإضافة لدهاء وذكاء مكنه من اجتياز العديد من المعارك والفوز بها، أعلن إسلامه في العام الثامن للهجرة مع كل من خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، وفي الإسلام كان ابن العاص مجاهداً وبطلاً، يرفع سيفه لنصرته، عندما أعلن إسلامه قال عنه رسول الله "صلى الله عليه وسلم" " أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ".

لقب "بداهية العرب" لما عرف عنه من حسن تصرف وذكاء، فما كان يتعرض إلى أي مأزق حتى كان يتمكن من الخروج منه، وذلك بأفضل الحلول الممكنة، فكان من أكثر رجال العرب دهاء وحيلة.

ولد عمرو بن العاص في الجاهلية والده هو العاص بن وائل أحد سادة العرب في الجاهلية، شرح الله صدر عمرو للإسلام في العام الثامن من الهجرة، ومنذ ذلك الحين كرس عمرو حياته لخدمة المسلمين فكان قائدا فذا تمتع بذكاء ودهاء كبير، قام الرسول "صلى الله عليه وسلم" بتوليته قائداً على الكثير من البعثات والغزوات، فكان احد القادة في فتح الشام ويرجع له الفضل في فتح مصر.

قبل أن يعلن عمرو بن العاص إسلامه كان له أحد المواقف مع النجاشي حاكم الحبشة والذي كان قد هاجر إليه عدد من المسلمون فراراً بدينهم من المشركين واضطهادهم لما عرف عن هذا الحاكم من العدل، ولكن قام المشركون بإرسال كل من عمرو بن العاص – كان صديقاً للنجاشي – وعبد الله بن ربيعة بالهدايا العظيمة

القيمة إلى النجاشي من أجل أن يسلم لهم المسلمين الذين هاجروا ليحتموا به، فرفض النجاشي أن يسلمهم لهم دون أن يستمع من الطرف الآخر وهم المسلمون ولما استمع لهم رفض أن يسلمهم إلى عمرو وصاحبه.

قال له النجاشي ذات مرة : يا عمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقًّا، قال عمرو: أنت تقول ذلك؟ قال: أي والله، فأطعني، فخرج عمرو من الحبشة قاصدًا المدينة، وكان ذلك في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة، فقابله في الطريق خالد بن الوليد وعثمان بن أبى طلحة، وكانا في طريقهما إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" فساروا جميعًا إلى المدينة، وأسلموا بين يدي رسول الله، وكان النجاشي قد أعلن إسلامه هو الآخر.

قال عمرو بن العاص عندما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال فقبضت يدي، فقال: مالك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط بماذا؟، قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟، وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله "ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة".

كانت أولى المهام التي أسندت له عقب إسلامه، حينما أرسله الرسول "صلى الله عليه وسلم" ليفرق جمعاً لقضاعة يريدون غزو المدينة، فسار عمرو على سرية "ذات السلاسل" في ثلاثمائة مجاهد، ولكن الأعداء كانوا أكثر عدداً، فقام الرسول "صلى الله عليه وسلم" بإمداده بمائتين من المهاجرين والأنصار برئاسة أبي عبيدة بن الجراح وفيهم أبو بكر وعمر، وأصر عمرو أن يبقى رئيساً على الجميع فقبل أبو عبيدة، وكتب الله النصر لجيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص وفر الأعداء ورفض عمرو أن يتبعهم المسلمون، كما رفض حين باتوا ليلتهم هناك أن

يوقدوا ناراً للتدفئة، وقد برر هذا الموقف بعد ذلك للرسول حين سأله أنه قال "كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم، وكرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم " فحمد الرسول الكريم حسن تدبيره.

بعد وفاة الرسول "صلى الله عليه وسلم" وفي خلافة أبي بكر "رضي الله عنه"، قام بتوليته أميراً على واحد من الجيوش الأربعة التي اتجهت إلى بلاد الشام لفتحها، فانطلق عمرو بن العاص إلى فلسطين على رأس ثلاثة آلاف مجاهد، ثم وصله مدد آخر فأصبح عداد جيشه سبعة آلاف، وشارك في معركة اليرموك مع باقي الجيوش الإسلامية وذلك عقب وصول خالد بن الوليد من العراق بعد أن تغلب على جيوش الفرس، وبناء على اقتراح خالد بن الوليد تم توحيد الجيوش معاً على أن يتولى كل قائد قيادة الجيش يوماً من أيام المعركة، وبالفعل تمكنت الجيوش المسلمة من هزيمة جيش الروم في معركة اليرموك تحت قيادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم وتم فتح بلاد الشام، انتقل بعد ذلك عمرو بن العاص ليكمل مهامه في مدن فلسطين ففتح منها غزة، سبسطية، ونابلس ويبني وعمواس وبيت جيرين ويافا ورفح.

كان عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" إذا ذُكر أمامه حصار "بيت المقدس" وما أبدى فيه عمرو بن العاص من براعة يقول: لقد رمينا "أرطبون الروم" قائدا رومانيا داهية "بأرطبون العرب" يقصد عمرو بن العاص.

بعد أن توالت انتصارات وفتوحات عمرو بن العاص في الشام، توجه نظره إلى مصر، فرغب في فتحها فأرسل إلى الخليفة ليعرض عليه الأمر وكان حينها عمر بن الخطاب متولياً الخلافة، وبعد تفكير وتردد اقتنع عمر بن الخطاب بفكرة عمرو.

وبالفعل قام ابن العاص بإعداد العدد والعتاد من أجل التوجه لفتح مصر فسار على رأس جيش مكون من أربعة ألاف مقاتل فقط، ولكن بعد أن قام الخليفة باستشارة كبار الصحابة في الأمر رأوا ألا يدخل المسلمون في حرب قاسية، وقام

عمر بن الخطاب بكتابة رسالة إلى عمرو بن العاص جاء فيها " إذا بلغتك رسالتي قبل دخولك مصر فارجع، وإلا فسر على بركة الله"، وحين وصل البريد إلى عمرو ابن العاص وفطن إلى ما في الرسالة، فلم يتسلمها حتى بلغ العريش، فاستلمها وفضها ثم سأل رجاله: انحن في مصر الآن أم في فلسطين؟، فأجابوا : نحن في مصر، فقال : إذن نسير في سبيلنا كما يأمر أمير المؤمنين".

توالت انتصارات عمرو فدخل بجيشه إلى مدينة الفرما والتي شهدت أول اشتباك بين الروم والمسلمين، ثم فتح بلبيس وقهر قائدها الروماني أرطبون الذي كان قائداً للقدس وفر منها، وبعد أن وصل المدد لجيش عمرو تابع فتوحاته لأم دنين، ثم حاصر حصن بابليون حيث المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل، لمدة سبعة أشهر وبعد أن قبل المقوقس دفع الجزية غضب منه هرقل واستدعاه إلى القسطنطينية ونفاه، فانتهز المسلمون الفرصة وهاجموا حصون بابليون مما اضطر الروم إلى الموافقة على الصلح ودفع الجزية.

توالت فتوحات عمرو بن العاص بعد ذلك في المدن المصرية الواحدة تلو الأخرى حتى بلغ أسوار الإسكندرية فحاصرها وبها أكثر من خمسين ألفاً من الروم، وخلال فترة الحصار هذه مات هرقل وجاء أخوه بعده مقتنعاً بأن لا أمل له في الانتصار على المسلمين، فاستدعى المقوقس من منفاه وكلفه بمفاوضة المسلمين للصلح.

وجاءت عدد من البنود في اتفاقية الصلح هذه منها: أن تدفع الجزية عن كل رجل ديناران ماعدا الشيخ العاجز والصغير، وأن يرحل الروم بأموالهم ومتاعهم عن المدينة، وأن يحترم المسلمون حين يدخلونها كنائس المسيحيين فيها، وأن يرسل الروم مئة وخمسين مقاتلاً وخمسين من أمرائهم رهائن لتنفيذ الشروط، وقام عمرو بن العاص بإرسال رسول إلى الخليفة عمر ليبلغه بشارة الفتح، وقد مهد فتح الشام لفتح مصر وذلك بعد ما علمه الروم والأقباط من قوة المسلمين.

قضى عمرو بن العاص في فتح مصر ثلاث سنوات، وقد استقبله أهلها بالكثير من الفرح والترحيب لما عانوه من قسوة الروم وظلمهم، وقد كانوا خير العون

لعمرو بن العاص ضد الروم، وكان عمرو يقول لهم: يا أهل مصر لقد أخبرنا نبينا أن الله سيفتح علينا مصر وأوصانا بأهلها خيرا، حيث قال الرسول الكريم "صلى الله عليه وسلم": ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا، فان لهم ذمة ورحما.

وقد كان عهد ولاية عمرو على مصر عهد رخاء وازدهار فكان يحب شعبها ويحبونه وينعموا في ظل حكمه بالعدل والحرية، وفيها قام بتخطيط مدينة الفسطاط، وأعاد حفر خليج تراجان الموصل إلى البحر الأحمر لنقل الغنائم إلى الحجاز بحراً، وأنشأ بها جامعا سمي باسمه ولا يزال جامع عمرو بن العاص قائماً إلى الآن بمصر، وظل عمرو والياً على مصر حتى جاء عثمان على الخلافة وقام بعزله.

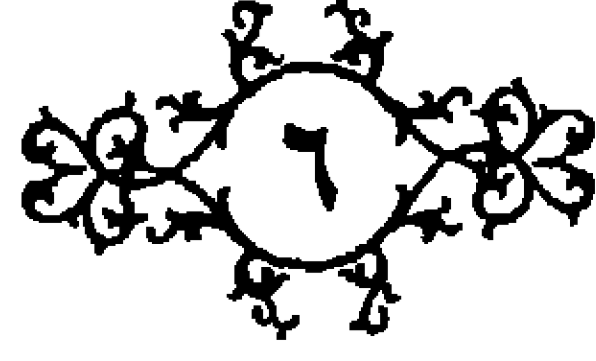
كان الأقباط في فترة حكم الروم يعانون من قسوتهم واضطهادهم، وإجبارهم على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الرومي، فجاءت إحدى المواقف الهامة والتي أكدت على مدى احترام المسلمين للديانات الأخرى، فقد كان للأقباط رئيس ديني يدعى بنيامين حين تعرض للقهر من الروم اضطر للفرار، وعندما علم المسلمون بالأمر بعد الفتح أرسلوا إليه ليبلغوه أنه في أمان، وعندما عاد أحسنوا استقباله وأكرموه، وولوه رئاسة القبط، وهو الأمر الذي نال استحسان وإعجاب الأقباط بالمسلمين، فأحسنوا التعامل معهم.

جاءت المعركة الثانية بين المسلمين والروم بعد أن علم ملك الروم أن الحامية الإسلامية بالإسكندرية قليلة العدد، فانتهز هذه الفرصة وأرسل بثلاثمائة سفينة محملة بالجنود، وتمكن من اختراق الإسكندرية واحتلالها وعقد العزم على السير إلى الفسطاط، وعندما علم عمرو بن العاص بذلك عاد من الحجاز سريعاً وجمع الجيش من أجل لقاء الروم ودحرهم، وبالفعل تمكن عمرو من قيادة جيشه نحو النصر فكانت الغلبة لجيش المسلمين، ولم يكتف ابن العاص بهذا بل سارع بملاحقة الروم الهاربين باتجاه الإسكندرية، وفرض عليها حصاراً وفتحها، وكسر

شوكة الروم وأخرجهم منها، كما قام بمساعدة أهل الإسكندرية لاسترداد ما فقدوه نتيجة لظلم الروم والفساد الذي قاموا به أثناء فترة احتلالهم للمدينة.

بعد معركة الإسكندرية، وأثناء خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه قام بعزل عمرو عن ولاية مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم في عهد معاوية ابن أبي سفيان عاد إليها عمرو مرة أخرى واستمر والياً عليها حتى وفاته.





عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه)

ooo

تأتي الوفاة لهذا الإمام والخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز، وكان أعظم ما قاده إلى طاعة الله ذكر الموت، والموت مصيبة كما سماه الله في كتابه حين قال:﴿ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾(المائدة:١٠٦) .

وكان الحسن البصري يقول: والله ما في الدنيا مصيبة أعظم من الموت " وكان يقول: " فضح الموت الدنيا، فلم يدع فيها لذي لب فرحاً ".

فلما حضرت سكرات الموت عمر دخل عليه الأطباء، فقال: هيهات.. هيهات! لقد تعالج قوم هود وعاد فماتوا بأطبائهم، فجلس حوله الأطباء، وقال:

- ما هو مرضي؟

- قالوا: نرى أنك أصبت بسم -وضع له سم في طعامه.

- فقال: ما هو علاجي؟ فوصفوا له العلاج.

- قال: والله لو كان دوائي في أن أرفع يدي اليمنى إلى أذني ما فعلت، والله ما أنا بحريص على الحياة وقد مللتها .

ثم استدعى خادمه وقال:

- أسألك بالله، أسألك بمن شق البحر لموسى، أسألك بمن يجمع الناس ليوم لا ريب فيه، أأنت وضعت السم لي في الطعام؟

- قال الخادم: إي والله، قال: فكم أعطوك من المال؟

- قال: أعطوني ألف دينار .

- قال: اذهب على وجهك أنت عتيق لوجه الله والله لا أمسك بسوء، فذهب الخادم ومرض عمر رضي الله عنه وأرضاه، ودخل عليه الناس يعودونه، فكلما عاده أحد.

- قال له عمر : اعف عني عفا الله عنك، ثم أدخل عليه الأطفال في آخر يوم من رمضان وهو مريض، فقبَّلهم ومسح على رءوسهم وبكى، وفي عيد الفطر يوم يخرج الناس في ثيابهم الجميلة، يوم يخرجون يتعايدون ويتزاورون، يوم تمد المواكب والسرادقات جلس فَي بيته، وأرسل إلى رجاء بن حيوة أحد العلماء الصالحين، قال:

- صلِّ بالناس فإني مرتهن اليوم وإني محبوس إن لم يطلقني الله.

- وخرج رجاء بن حيوة وخرج الناس، لكن ليس معهم الخليفة أمير المؤمنين، بقي في بيته مع ملائكة الرحمن:﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت:٣٠) .

فلما كان الضحى من يوم العيد قال لامرأته: اخرجي من بيتي؛ فإني أرى قوماً ليسوا بإنس ولا جن، أظنهم ملائكة، فخرجت وفاضت روحه إلى الحي القيوم، وكان يقول قبل وفاته لأهله:

- إذا غسلتموني وكفنتموني ووضعتموني في القبر فاكشفوا عن وجهي فإن ابيضّ فاهنأوا وامرءوا، وإن اسودّ فويل لي وويل لأمي.

قالوا:

- ولم؟

- قال: والله ما دفنت خليفة إلا كشفت عن وجهه فوجدت وجوههم مسودة.
وقال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

آل عمران:١٠٦ -١٠٧)

وصرع ذاك المصرع الذي لا بد لكل حي أن يصرعه:﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء ٨٨-٨٩)

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام:٩٤) .

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

(الفجر:٢٧-٣٠)

وقف عمر على المنبر ليتحدث إلى من في المسجد من الوزراء والعلماء والعباد والفقهاء، والجنود المجندة والجيوش المجيشة، فقال: "يا أيها الناس! بويعت بالخلافة على غير رغبة مني، فخذوا خلافتكم لا أريدها، فضج الناس بالبكاء، وقالوا: لا نريد إلا أنت، فقال: الله المستعان وعليه التكلان، وحسبي الله ونعم الوكيل" .

ولما انتهت الصلاة عرضت له الدواب والبغال ليركبها فأعرض عنها، وقال: أنا إلا رجل من المسلمين:﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:٨٣) ..

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(هود:١٥-١٦.

ومن زهد عمر بن عبد العزيز، أنه عاد إلى بيته، وترك قصر الخلافة الشاهق في دمشق، ونزل إلى غرفته، وجلس على الحصير وقال: هذا حظي من الخلافة، ثم استدعى زوجته الزاهدة فاطمة زوجة الخليفة وبنت الخليفة وأخت الخلفاء، وقال لها: " إني بعت نفسي من الله عز وجل، فإن كنت تريدين العيش معي فحيهلاً وسهلاً وإلا فالحقي بأهلك " .. فبكت وقالت: الحياة حياتك والموت موتك، ثم سلمت له ذهبها وفضتها وحليها إلى بيت المال، وعاد رضي الله عنه وأرضاه ليرد الأمة إلى الله الواحد القهار، عاد ليربيها من جديد مع ربها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فكان يصدق قوله فعله، وكان لا يشغله عن الله شاغل.

أما ليله فبكاء وسجود وتبتل وخشوع مع الله، وأما نهاره فتعليم للناس وعدل وإنصاف وبذل وعطاء، كان بعد كل صلاة ينادي المنادي: أين الفقراء؟ أين المساكين؟ أين المحتاجون؟ أين الذين يريدون الله؟ أين الذين لم يأخذوا من الدنيا شيئاً؟ فيبذل لهم المال، فتقام به قلوب حية وتحيا بهم أرواح كانت ميتة.

و دخل عليه أحد العباد من أهل المدينة، واسم هذا العابد زياد مولى ابن عياش، فقال لعمر بن عبد العزيز : "ما دهاك؟ ماذا أصابك؟ قال: وماذا تقول؟ قال: والله لقد رأيتك وأنت من أجمل الفتيان في قريش، تلبس اللباس اللين، وأصبحت في هذه الحالة، والله لو دخلت عليك في غير هذا المكان لما عرفتك، فبكى عمر وقال: والله لو رأيتني بعد ثلاثة أيام من دفني لأنكرتني شديداً، حين تسقط عيناي على وجنتي، وتخلع أذناي من رأسي، ويتغير خدي، وينهش بطني، إذاً لرأيت منظراً فظيعاً ؛ فبكى ذاك العابد".

ولما تولى الخلافة أرسل إلى علماء الأقاليم فقال: " أوصوني فإني قد توليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم " .. فكتب له محمد بن كعب : " يا أمير المؤمنين! والله الذي لا إله إلا هو ما بقي من الخلفاء على قيد الحياة إلا أنت، فاتق الله أن تُصرع كما صرعوا ".

وكتب له سالم بن عبد الله من أخواله: " يا أمير المؤمنين! صم هذا اليوم، حتى تلقى الله فتفطر عنده يوم يستبشر الصائمون بفطرهم "، وكتب له مطرف ابن عبد الله الشِّخِّير : " يا أمير المؤمنين! لو كان لك خصم لديد لأعجزك، فكيف بخصمين؟! فكيف بثلاثة؟! وكيف بك وكل واحد من رعيتك خصم لك يوم القيامة عند الله؟!!

فأخذ هذه الرسائل وطواها ينظر فيها كل يوم، وجمع سبعة من الصلحاء ومن الزهاد والعباد وقال: أنتم جُلاَّسي وسُمَّاري كل ليلة، أشترط عليكم ثلاثة شروط، الأول: ألا تغتابوا في مجلسي أحداً، والأمر الثاني: ألا تتحدثوا في الدنيا أبداً، والأمر الثالث: ألا تمزحوا وأنا جالس، فكانوا يجتمعون بعد صلاة العشاء، فيتحدثون في الموت -وما أدراك ما الموت؟!- وما قبل الموت وما بعده، ثم ينفضون من مجلسهم كأنهم قاموا عن جنازة.

وفي أثناء الخلافة كتب له سالم بن عبد الله بن عمر كتاباً فظيعاً شديداً مدهشاً، يقول: " يا أمير المؤمنين! والله لقد تولى الملك قبلك أناس ثم صرعوا، فها هنا مصارعهم في القبور فانظر إليها لترى، كانوا ينظرون بعيون إلى اللذات فأكلت، وكانوا يأكلوا في بطون فنهشت، وكانوا يمسون بخدود أكلها الدود، فاحذر أن تكون مع المحبوسين يوم القيامة يوم يُطلق العادلون ".

عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه وأرضاه - تولى الخلافة فنام بعد صلاة الظهر في ذاك اليوم، فقال له ابنه الصالح العابد المجاهد عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز -وعمره آنذاك تسع عشرة سنة- قال له: يا أبتاه! أتنام وقد توليت أمر

أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يسألك الفقير ويشكو إليك المسكين، ويتحاكم إليك المظلوم، فمن لك بهؤلاء إذا أتوا خصومك يوم القيامة.

أما عن عمر بن عبد العزيز وخوفه من الله، يروى عنه أنه لما تولى رضي الله عنه وأرضاه خلع كل لباس كان يلبسه، وأبقى ثوباً واحداً، فكان إذا أراد أن يغتسل يوم الجمعة نشف له ثوبه هذا بعد أن يُغسل، واغتسل ثم لبسه وصعد المنبر، لم يُبق قليلاً ولا كثيراً، يقول رضي الله عنه وأرضاه للناس: أيها الناس! وهو يخطب: إذا ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) قال: ما للشمس تكور؟ ثم قال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ (التكوير:٢) قال: ما للنجوم تتكدر؟ ثم بكى حتى صُرع على المنبر.

وحج بالناس فوقف في عرفة فأخذ الناس يتسابقون مع الغروب إلى مزدلفة فقال: " لا والله. ليس السابق اليوم من سبق جواده وبعيره، ولكن السابق من غفر له هذا اليوم " ونزل هو والأمراء في منتزه وبستان من البساتين، فلما جلسوا استأنسوا واستراحوا إلا هو جلس يبكي، قالوا: مالك؟ قال: هذه دنيانا وبساتيننا، فكيف بنا يوم العرض على الله إذا دخل الناس بساتينهم ولا بساتين لنا ؟! .. فبكى الناس.

و لما تولى الخلافة قال لأهله: إني قد آنست عقبة كؤداً لا يجوزها إلا المخف.

تقول امرأته: والله ما كان يأوي إلى فراشه إلا كما يأوي العصفور إلى عشه، وإنه ليرتجف صدره كل ليلة، فأقول: مالك؟ قال: أريد أن أنام فأتذكر قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ (الشورى:٧ فلا يأتيني النوم.

وكان الخطباء في عهده يسبون أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه وأرضاه، كما كان يفعل بعض خلفاء بنى أميةفنسخ هذا وأبدل الخطباء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)

وعن حُكم عمر بن عبد العزيز فقدكانت موازينه عنده التقوى، يقول: " والله ما رأيت متقياً لله إلا وددت أنني في جلده ".

استدعى يوم تولى الخلافة مولاه مزاحماً، وقال له: يا مزاحم ! -وهو مولى- رأيتك تصلي الضحى في شعب من الشعاب، حيث لا يراك إلا الله فأحببتك والله، فإذا رأيتني ظلمت فخذني بتلابيب ثوبي وقل: اتق الله يا عمر بن عبد العزيز . بينما هو جالس للناس إذا بثلاثة من الشباب عليهم ثياب جميلة، ومنظر بهي، دخلوا عليه في ديوان الحكم، فجلسوا بجانبه، فالتفت إليهم وقال لهم: من أنتم؟ قال أولهم: أنا ابن شريك بن سحماء تولى أبي ولاية كذا وكذا، فأعرض عنه عمر بن عبد العزيز كالمغضب، وقال للثاني: وأنت من أبوك؟ قال: أبي كان والي دار الحسبة في دمشق فأعرض عنه، وأتى إلى الرجل الثالث وقال: أنت ابن من؟ قال له:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فرُدت بكف المصطفى أحسن الرد

هذا الرجل أبوه قتادة بن النعمان من الأنصار، شارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة أحد، فلما قاتل ضرب بالسيف على عينه، فنزلت عينه حتى أصبحت على خده، فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها بيده الشريفة إلى مكانها، فكانت أجمل من أختها، فيقول هذا الابن:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه

فرُدت بكف المصطفى أحسن الرد

فدمعت عينا عمر بن عبد العزيز، وقال:

- تلك المكارم لا قعبان من لبن

وهكذا السيف لا سيف ابن ذي يزن

فلذلك رضي عن هذا وغضب عن هذين؛ لأنهما انتسبوا إلى الدنيا وانتسب هذا إلى الآخرة، والذي ينتسب إلى الآخرة أعظم عند الله من الذي ينتسب إلى الدنيا.

كان رضي الله عنه وأرضاه لا يرضى مظلمة، لما تولى دخل عليه الأمراء يبايعونه بالخلافة، فمدوا أيديهم، فقبض يده إلى حضنه رضي الله عنه وأرضاه، فقال

أولهم وهو شريك : بايعني، قال: أغرب عني غرب الله بك، والله لا تتولى لي عملاً أبداً، قال: ولماذا؟ قال: جلست أنت وأبناؤك في خيمة في الغزو والشمس تصيب الناس، وجلست تتظلل وتركت الناس في الشمس، والله لا تتولى لي، ثم تقدم له عدي بن أرطأة، فقال: اغرب عني! والله لا تتولى لي، قال: ولم؟ قال: جلدت فلاناً سبعين جلدة: لأنه آذى ابنك، فما غضبت لله ولا غضبت لرسول الله، ثم ولى العباد والزهاد فقامت الدنيا.

يقول ميمون بن مهران رضي الله عنه وأرضاه: والله لقد أخبرنا رعاة الأغنام أن الذئب في خلافة عمر بن عبد العزيز ما كان يعدو على الغنم، فلما توفي عمر في ذاك اليوم عدا الذئب على الغنم فعرفوا أنه مات، فسألوا الناس، فقالوا: مات في ذاك اليوم.

وقال ابن كثير : لما توفي رضي الله عنه وأرضاه نزلت في قبره صحيفة من السماء مكتوب فيها: براءة لعمر بن عبد العزيز من النار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾

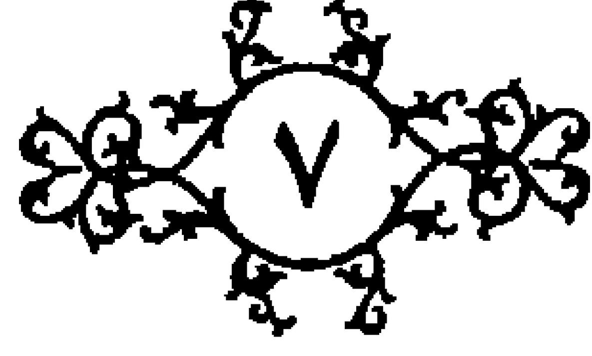
(فصلت:٣٠-٣٢)

كان عمر بن عبد العزيز قدوة لمن بعده لمن أراد أن يقتدي به، وليس هناك حاجب يحجب المسلم عن الحسنات ولا عن المناقب، وإنما يحجبه الهوى والشهوات والمعاصي، وهذا عمر بن عبد العزيز الذي جلس للناس معلماً ومربياً وموجهاً أنفق كل الأموال في طاعة الله، وما أخذ من الدنيا لا قليلاً ولا كثيراً، وكان من أشظف الناس عيشاً، ومن أشعثهم رأساً، دخل عليه ابن سلام فقال: يا أمير المؤمنين! قال: لبيك، قال: حدثني ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وما حدثك ثوبان ؟ قال: حدثني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن حوضي طوله كما بين أيلة، وصنعاء ".

فبكى عمر بن عبد العزيز حتى سقط من كرسي له من خشب، ثم أجلسوه فقال: لمن هذا الحوض؟ ومن يشرب منه؟ قال ابن سلام : يشرب منه الذي لا يتزوج المتنعمات، ولا يجلس على الديباج، ولا يعدد الأصناف (أى من الطعام) ولا يظلم الناس، فجلس وتربع، وقال: لا جرم، والله لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا أغسل ثوبي حتى يتسخ، ولا أجلس على ديباج حتى ألقى الله، علَّ الله أن يسقيني شربة من الحوض لا أظمأ بعدها أبداً.

ولما توفي حلت المصيبة بالمسلمين كافة، وأغلقت الحوانيت، وأغلقت القلوب بحزنها، والعيون بدموعها (رضى الله عنه وأرضاه).





سعد بن أبي وقاص

OOO

عُمِّرَ سعد بن أبي وقاص كثيرا وأفاء الله عليه من المال الخير الكثير لكنه حين أدركته الوفاة دعا بجبة من صوف بالية وقال كفنوني بها فإني لقيت بها المشركين يوم بدر واني أريد أن ألقى بها الله عز وجل أيضا وكان رأسه بحجر ابنه الباكي فقال له ما يبكيك يا بني ؟ إن الله لا يعذبني أبدا، وإني من أهل الجنة فقد كان إيمانه بصدق بشارة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كبيرا وكانت وفاته سنة خمس وخمسين من الهجرة النبوية وكان آخر المهاجرين وفاة، ودفن في البقيع .

سعد بن أبي وقاص من أوائل من دخلوا في الإسلام وكان فى السابعة عشرة من عمره، ولم يسبقه في الإسلام إلا أبو بكر وعلي وزيد رضي الله عنهم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

أبوه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهو ابن عم آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمه حمزة بنت سفيان بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهي ابنة عم أبي سفيان.

فهو من بني زهرة أهل آمنة بنت وهب أم الرسول - صلى الله عليه وسلم- فقد كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يعتز بهذه الخؤولة فقد ورد أنه -صلى الله عليه وسلم- كان جالسا مع نفر من أصحابه فرأى سعد بن أبي وقاص مقبلا فقال لمن معه :"هذا خالي فليرني أمرؤ خاله" .

سعد بن أبي وقاص دخل الإسلام وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان إسلامه مبكرا، ويتحدث عن نفسه فيقول:« " .. ولقد أتى عليّ يوم، واني لثلث الاسلام " ..!!»، يعني أنه كان ثالث أول ثلاثة سارعوا إلى الإسلام، وقد أعلن إسلامه مع الذين أعلنوه بإقناع أبي بكر الصديق إياهم، وهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوّام، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عُبيد الله.

يعتبر أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأنه الوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه فقال له يوم أحد: « " ارم سعدُ فداك أبي وأمي" ..»، ويقول على بن أبي طالب:« " ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدي أحدا بأبويه إلا سعدا، فإني سمعته يوم أحد يقول: ارم سعد.. فداك أبي وأمي" ». كان سعد يعدّ من أشجع فرسان العرب والمسلمين، وكان له سلاحان رمحه ودعاؤه. وكان مجاهداً في معركة بدر وفي معركة أحد.

كان الرسول -صلى الله عليه وسلم يجلس بين نفر من أصحابه، فرنا ببصره إلى الأفق في إصغاء من يتلقى همسا وسرا، ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لهم يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة وأخذ الصحاب يتلفتون ليروا هذا السعيد، فإذا سعد بن أبي وقاص آت وقد سأله عبدالله بن عمرو بن العاص أن يدله على

ما يتقرب به إلى الله من عبادة وعمل فقال له لا شيء أكثر مما نعمل جميعا ونعبد، غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغنا ولا سوءًا .

وقد أخفقت جميع محاولات رده وصده عن الإسلام، فلجأت أمه إلى وسيلة لم يكن أحد يشك في أنها ستهزم روح سعد وترد عزمه إلى وثنية أهله وذويه. لقد أعلنت أمه إضرابها عن الطعام والشراب، حتى يعود سعد إلى دين آبائه وقومه، ومضت في تصميم مستميت تواصل إضرابها عن الطعام والشراب حتى أوشكت على الهلاك. وحين كانت تشرف على الموت، أخذه بعض أهله إليها ليلقي عليها نظرة وداع مؤملين أن يرق قلبه حين يراها في سكرة الموت. وذهب سعد ورأى مشهد أمه وهي تتعذب ولكن إيمانه بالله ورسوله كان قد تفوّق على كل شيء. وقال لها: « " تعلمين والله يا أمّه.. لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء. فكلي إن شئت أو لا تأكلي " .» وعدلت أمه عن صومها، ونزل الوحي يحيي موقف سعد، ويؤيده فيقول:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة لقمان ١٥)

كان سعد بن أبي وقاص إذا رمى عدوا أصابه وإذا دعا الله دعاء أجابه، وكان الصحابة يردون ذلك لدعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- له اللهم سدد رميته، وأجب دعوته ويروى أنه رأى رجلا يسب طلحة وعليا والزبير فنهاه فلم ينته فقال له إذن أدعو عليك فقال الرجل أراك تتهددني كأنك نبي !فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه قائلا اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواما سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبه إياهم، فاجعله آية وعبرة فلم يمض غير وقت قصير حتى خرجت من إحدى الدور ناقة نادّة لا يردها شيء، حتى دخلت في زحام الناس ثم اقتحمت الرجل فأخذته بين قوائمها، ومازالت تتخبطه حتى مات.

وشارك في أُحد وتفرق الناس أول الأمر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ووقف سعد يجاهد ويقاتل فلما رآه الرسول -صلى الله عليه وسلم- يرمي جعل يحرضه ويقول له يا سعد ارم فداك أبي وأمي وظل سعد يفتخر بهذه الكلمة طوال حياته.

خرج سعد في ثلاثين ألف مقاتل للقاء الفرس المجتمعين في أكثر من مائة ألف من المقاتلين المدربين.. المدججين بأنواع متطورة من عتاد وسلاح ويتولى قيادة الفرس رستم، وقبل المعركة كانت الرسائل بين سعد وأمير المؤمنين الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب ومنها :

" يا سعد بن وهيب.. لا يغرّنّك من الله، أن قيل: خال رسول الله وصاحبه، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته.. والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء.. الله ربهم، وهم عباده.. يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا عليه، فالزمه، فإنه الأمر." ثم يقول له: " اكتب إليّ بجميع أحوالكم.. وكيف تنزلون..؟ وأين يكون عدوّكم منكم.. واجعلني بكتبك إلى كأني أنظر إليكم"..!!

ويكتب سعد إلى أمير المؤمنين فيصف له كل شيء حتى أنه ليكاد يحدد له موقف كل جندي ومكانه. وقد أوصى عمرُ سعداً بدعوتهم إلى الإسلام، وينفذ سعد وصية عمر، فيرسل إلى رستم قائد الفرس نفرا من صحابه يدعونه إلى الله وإلى الإسلام.

بعث سعد جماعة من السادات منهم: النعمان بن مقرن، وفرات بن حبان، وحنظلة بن الربيع التميمي، وعطارد بن حاجب التميمي، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب، يدعون رستم إلى الإسلام ودار الحوار معهم ومنهم ربعي بن عامر، فدخل على رستم وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت، واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه

وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم لكم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟

قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟

فقال: ويلكم لا تنظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

وبعث سعد أكثر من رسول لحوار رستم، وكان المرض قد اشتد على سعد وملأت الدمامل جسده حتى ما كان يستطيع أن يجلس، فضلا أن يعلو صهوة جواده ويخوض عليه معركة، عندئذ وقف في جيشه خطيبا، مستهلا خطابه بالآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٥)

وبعد فراغه من خطبته، صلى بالجيش صلاة الظهر، ثم استقبل جنوده مكبّرا أربعا: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. واستطاع جيش سعد هزيمة الفرس وقائدها رستم ووصل الجيش إلى المدائن.

كانت موقعة المدائن، بعد موقعة القادسية بقرابة عامين، جرت خلالهما مناوشات مستمرة بين الفرس والمسلمين، وقد استطاع سعد هزيمة الفرس بقيادة الجيش لعبور نهر دجلة وجهز كتيبتين، الأولى: واسمها كتيبة الأهوال وأمّر سعد عليها عاصم بن عمرو التميمي والثانية: اسمها الكتيبة الخرساء وأمّر عليها القعقاع ابن عمرو التميمي وقد نجحا في العبور وهزيمة الفرس.

ولاه عمر-رضي الله عنه -- إمارة العراق، فراح سعد يبني ويعمر في الكوفة، وذات يوم اشتكاه أهل الكوفة لأمير المؤمنين فقالوا إن سعدا لا يحسن يصلي ويضحك سعدا قائلا والله إني لأصلي بهم صلاة رسول الله، أطيل في الركعتين الأوليين وأقصر في الأخريين واستدعاه عمر إلى المدينة فلبى مسرعا، وحين أراد أن يعيده إلى الكوفة ضحك سعد قائلا أتأمرني أن أعود إلى قوم يزعمون أني لا أحسن الصلاة ؟!ويؤثر البقاء في المدينة.

وعندما حضرت عمر - الوفاة بعد أن طعنه المجوسي جعل الأمر من بعده إلى الستة الذين مات النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو عنهم راض وأحدهم سعد بن أبي وقاص، وقال عمر إن وليها سعد فذاك، وإن وليها غيره فليستعن بسعد

وقد اعتزل سعد في الفتنة الكبرى بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهم، ويأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئا من أخبارها، وقد ذهب إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، :ويقول له: يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر.

فيجيبه سعد -رضي الله عنه: " أريد من مائة ألف سيف، سيفا واحدا، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع" . فيتركه وعزلته.

وحين انتهى الأمر لمعاوية، واستقرت بيده مقاليد الحكم سأل سعدا:

مالك لم تقاتل معنا..؟؟

فأجابه:" إني مررت بريح مظلمة، فقلت: أخ .. أخ...، واتخذت من راحلتي حتى انجلت عني.."

فقال معاوية-رضي لله عنه: ليس في كتاب الله أخ.. أخ.. ولكن قال الله: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية.

أجابه سعد -رضي الله عنه- قائلا: " ما كنت لأقاتل رجلا قال له رسول الله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي".

بقى أن نقول إنه مما يروى عن سعد أنه كان قد رأى وهو ابن سبع عشرة سنة في منامه أنه يغرق في بحر الظلمات، وبينما هو يتخبط فيها، إذ رأى قمرًا، فاتبعه، وقد سبقه إلى هذا القمر ثلاثة، هم: زيد بن حارثة، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، ولما طلع الصباح سمع أن رسول الله (يدعو إلى دين جديد؛ فعلم أن هذا هو القمر الذي رآه؛ فذهب على الفور؛ ليلحق بركب السابقين إلى الإسلام.

وتظهر روعة ذلك البطل عندما حاولت أمه مرارًا أن ترده عن طريق الإيمان عبثًا، فباءت محاولاتها بالفشل أمام القلب العامر بالإيمان، فامتنعت عن الطعام والشراب، ورفضت أن تتناول شيئًا منه، حتى يرجع ولدها سعد عن دينه، ولكنه قال لها: أماه إنني أحبك، ولكن حبي لله ولرسوله أكبر من أي حب آخر.

ولازم سعد -رضي الله عنه- رسول الله (بمكة حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر مع المسلمين ليكون بجوار رسول الله) في محاربة المشركين، ولينال شرف الجهاد في سبيل الله، وحسبه أنه أول من رمى بسهم في سبيل الله وأول من أراق دماء الكافرين، فقد بعث رسول الله سرية فيها سعد بن أبي وقاص إلى مكان في أرض الحجاز اسمه سابغ، وهو من جانب الجحفة، فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ بسهامه، فكان أول قتال في الإسلام).

ويوم أحد، وقف سعد يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحارب المشركين، ويرميهم حتى نالته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، حين رآه فسر منه وقال: "يا سعد، ارم فداك أبي وأمي" (متفق عليه)، فكان سعد يقول: ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبويه لأحد قبلي، وكانت ابنته عائشة بنت سعد تباهي بذلك وتفخر، وتقول: أنا ابنة المهاجر الذي فداه رسول الله يوم أحد بالأبوين.

وذات يوم، مرض سعد، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوره، ويطمئن عليه؛ فتساءل سعد قائلاً: إن قد بلغ بي من الوجع، ما ترى وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا، فقال سعد: بالشطر (نصفه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا. ثم قال صلى الله عليه وسلم: "الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت بها، حتى ما تجعل في فيّ (فم امرأتك" (متفق عليه، وقد رزق الله سعدًا الأبناء بعد ذلك، فكان له إبراهيم، وعامر، وعمر، ومحمد، وقبلهم عائشة.

وقد كان رسول الله (يحب سعدًا، فعن جابر قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل سعد، فقال: "هذا خالي، فليرني امرؤ خاله" (الترمذي والطبراني وابن سعد).

وكان سعد مستجاب الدعوة أيضًا، فقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: "اللهم استجب لسعد إذا دعاك" (الترمذي).

وعين سعد أميرًا على الكوفة، أثناء خلافة الفاروق عمر -رضي الله عنه- الذي كان يتابع ولاته ويتقصى أحوال رعيته، وفي يوم من الأيام اتجه عمر- رضي الله عنه- إلى الكوفة ليحقق في شكوى أهلها أن سعدًا يطيل الصلاة، فما مر عمر بمسجد إلا وأحسنوا فيه القول، إلا رجلا واحدًا قال غير ذلك، فكان مما افتراه على سعد: أنه لا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسرية -يخرج بالجيش- فدعا سعد عليه قائلاً: اللهم إن كان كاذبًا، فأعم بصره، وأطل عمره، وعرضه للفتن، فكان ذلك الرجل يمشي في الطريق، ويغمز الجواري، وقد سقط حاجباه من عينيه لما سئل عن ذلك قال: شيخ مفتون، أصابته دعوة سعد.

وحينما اشتد خطر الفرس على حدود الدولة الإسلامية أرسل إليهم الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- جيشًا بقيادة سعد بن أبي وقاص، ليقابلهم سعد في معركة القادسية، واشتد حصار المسلمين على الفرس وأعوانهم، حتى قتل الكثير منهم، وعلى رأسهم القائد رستم، ودب الرعب في باقي جنود الفرس، فكان النصر العظيم للمسلمين يوم القادسية، ولم يكن لسعد هذا اليوم فقط في قتال الفرس، بل كان هناك يوم مجيد آخر للمسلمين تحت قيادته، في موقعة المدائن؛ حيث تجمع الفرس في محاولة أخيرة للتصدي لزحف المسلمين، وأدرك سعد أن الوقت في صالح الفرس، فقرر أن يهاجمهم فجأة، وكان نهر دجلة قد امتلأ عن آخره، في وقت الفيضان، فسبحت خيول المسلمين في النهر وعبرته إلى الضفة الأخرى لتقع المواجهة، ويحقق المسلمون نصرًا كبيرًا.

وعندما طعن أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، اختار عمر ستة من المسلمين ليتم اختيار خليفة منهم، وأخبر عمر أن الرسول (مات وهو عنهم راض، وكان من هؤلاء الستة سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-، حتى قال عمر: لو كنت مختارًا للخلافة واحدًا، لاخترت سعدًا، وقال لمن حوله: إن وليها سعد فذاك، وإن وليها غيره فليستعن بسعد، فكان عثمان بن عفان يستعين به في كل أموره.

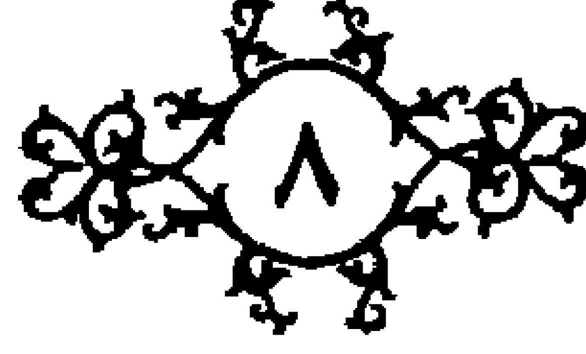
وحدثت الفتنة آخر أيام الإمام علي -رضي الله عنه- فكان سعد بعيدًا عنهم؛ واعتزلها، وأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئًا من أخبارها.

وعندما جاءه ابنه عامر يطلب منه أن يقاتل المتحاربين ويطلب الخلافة لنفسه، قال سعد في شفافية المسلم الصادق: أي بني، أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسًا؟ لا والله حتى أعطي سيفًا، إن ضربت به مسلمًا نبا عنه (أي لم يصبه بأذى، وإن ضربت به كافرًا قتله، ولقد سمعت رسول الله يقول: "إن الله يحب الغني الخفي التقي" (أحمد ومسلم).

وفي سنة (٥٥هـ)أوصى سعد أهله أن يكفنوه في ثوب قديم، كان عنده، وياله من ثوب يشرف به أعظم أهل الأرض، قال لهم: لقد لقيت المشركين فيه يوم بدر، ولقد ادخرته لهذا اليوم.

وتوفي رحمة الله عليه بالعقيق، فحمل على الأعناق إلى المدينة، ودفن بها ليكون آخر من مات من العشرة المبشرين بالجنة وآخر من مات من المهاجرين -رضي الله عنهم .





عبد الله بن الزبير.. رضى الله عنهما

ooo

في الساعات الأخيرة من حياة عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- جرى هذا الحوار بينه وبين أمه العظيمة (أسماء بنت أبي بكر) فقد ذهب إليها ووضع أمامها الصورة الدقيقة لموقفه ومصيره الذي ينتظره فقال لها : (يا أمّه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبقَ معي إلا من ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا، فما رأيك ؟).

فقالت له أمه : (يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق، فاصبر عليه حتى تموت في سبيله، ولا تمكّن من رقبتك غِلمَان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك أردت الدنيا فلبِئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قُتِلَ معك).

قال عبد الله : (هذا والله رأيي، والذي قمتُ به داعياً يومي هذا، ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله، ولكنّي أحببتُ أن أعلمَ رأيك، فتزيديني قوّة وبصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمّه فإنّي مقتول من

يومي هذا، لا يشتدّ جزعُك عليّ سلّمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني عن عمالي خطأ فرضيته بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربّي.. اللهم ! إني لا أقول هذا تزكية منّي لنفسي، أنت أعلم بي، ولكنّي أقوله تعزية لأمّي لتسلو به عني) .

قالت أمه أسماء : (إني لأرجو الله أن يكون عزائي فيك حسنا إن سبَقْتَني إلى الله أو سَبقْتُك، اللهم ارحم طول قيامه في الليل، وظمأه في الهواجر، وبِرّه بأبيه وبي، اللهم إني أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثِبْني في عبد الله بن الزبير ثواب الصابرين الشاكرين) وتبادلا معا عناق الوداع وتحيته.

وبعد ساعة من الزمان انقضت في قتال مرير غير متكافئ، تلقّى الشهيد ضربة الموت، وكان ذلك في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وأبى الحجّاج إلا أن يصلب الجثمان الهامد تشفياً وخِسة، وقامت أم البطل وعمرها سبع وتسعون سنة لترى ولدها المصلوب، وبكل قوة وقفت تجاهه لا تريم، واقترب الحجّاج منها قائلا : (يا أماه إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد أوصاني بك خيرا، فهل لك من حاجة ؟) .. فصاحت به قائلة : (لست لك بأم، إنما أنا أمُّ هذا المصلوب على الثّنِيّة، وما بي إليكم حاجة، ولكني أحدّثك حديثا سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : (يخرج من ثقيف كذّاب ومُبير) .. فأما الكذّاب فقد رأيناه، وأما المُبير فلا أراه إلا أنت .

وتقدم عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- من أسماء مُعزّيا وداعيا إياها إلى الصبر، فأجابته قائلة : (وماذا يمنعني من الصبر، وقد أُهْدِيَ رأس يحيى بن زكريا إلى بَغيٍّ من بغايا بني إسرائيل) .. يا لعظمتك يا ابنة الصدّيق، أهناك كلمات أروع من هذه تقال للذين فصلوا رأس عبد الله بن الزبير عن جسده قبل أن يصلبوه ؟؟.. أجل إن يكن رأس ابن الزبير قد قُدم هدية للحجاج ولعبد الملك، فإن رأس نبي

كريم هو يحيى عليه السلام قد قدم من قبل هدية لـ (سالومي) بَغيّ حقيرة من بني إسرائيل، ما أروع التشبيه وما أصدق الكلمات.

كان عبد الله بن الزبير جنينا في بطن أمه أسماء بنت أبي بكر، وهي تقطع الصحراء اللاهبة مغادرة مكة إلى المدينة على طريق الهجرة العظيم، وما كادت تبلغ (قباء عند مشارف المدينة حتى جاءها المخاض ونزل المهاجر الجنين أرض المدينة في نفس الوقت الذي كان ينزلها المهاجرون من الصحابة، وحُمِل المولود الأول إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقبّله وحنّكه، فكان أول ما دخل جوف عبد الله ريق الرسول الكريم، وحمله المسلمون في المدينة وطافوا به المدينة مهللين مكبرين فقد كَذَب اليهود وكهنتهم عندما أشاعوا أنهم سحروا المسلمين وسلّطوا عليهم العقم، فلن تشهد المدينة منهم وليدا جديدا، فأبطل عبد الله إفك اليهود وكيدهم.

وعلى الرغم من أن عبد الله لم يبلغ مبلغ الرجال في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا أن الطفل نما ونشأ في البيئة المسلمة، وتلقّى من عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- كل خامات رجولته ومبادئ حياته، فكان خارقا في حيويته وفطنته وصلابته، وكان شبابه طهرا وعفة وبطولة، وأصبح رجلا يعرف طريقه ويقطعه بعزيمة جبارة، وكانت كنيته (أبا بكر) مثل جدّه أبي بكر الصديق.

وقد كُلّم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غِلْمَةٍ ترعرعوا، منهم عبد الله ابن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي سلمة فقيل : (يا رسول الله، لو بايعتهم فتصيبهم بركتُك ويكون بهم ذكر) . فأتِيَ بهم إليهم فكأنهم تَكَعْكَعوا - أي هابوا- حين جيء بهم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاقتحم ابن الزبير أوّلهم، فتبسّم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال : (إنّه ابن أبيه) وبايعوه .

أتَى عبد الله بن الزبير النبيّ -صلى الله عليه وسلم- وهو يحتجم، فلمّا فرغ قال: (يا عبد الله، اذهب بهذا الدم فأهْرِقْهُ حيثُ لا يراكَ أحد) .. فلمّا برز عن

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمَدَ إلى الدم فشربه، فلمّا رجع قال : (يا عبد الله، ما صنعت ؟).. قال : (جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخاف عن الناس !).. قال : (لعلّك شربته ؟!).. قال : (نعم) .. قال : (ولِمَ شربت الدَّم ؟! ويلٌ للناس منك، وويلٌ لك من الناس !).. فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم .. وفي رواية أخرى قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- : (ويلٌ لك من الناس، وويلٌ للناس منك، لا تمسّك النارُ إلا قَسَم اليمين) .. وهو قوله تعالى : " وإن مِنكُمْ إلاّ وَارِدُهَا كانَ على ربِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً " .. (سورة المريم آية ٧١).

قال عمر بن عبد العزيز يوماً لابن أبي مُلَيْكة : (صِفْ لنا عبد الله بن الزبير).. فقال : (والله، ما رأيت نفساً رُكّبت بين جَنْبين مثل نفسه، ولقد كان يدخل في الصلاة فيخرج من كل شيء إليها، وكان يركع أو يسجد فتقف العصافير فوق ظهره وكاهله، لا تحسبه من طول ركوعه وسجوده إلا جداراً أو ثوباً مطروحاً، ولقد مرَّت قذيفة منجنيق بين لحيته وصدره وهو يصلي، فوالله ما أحسَّ بها ولا اهتزّ لها، ولا قطع من أجلها قراءته ولا تعجل ركوعه) .

وسئل عنه ابن عباس فقال على الرغم ما بينهما من خلاف : (كان قارئاً لكتاب الله، مُتَّبِعاً سنة رسوله، قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواريّ رسول الله، وأمه أسماء بنت الصديق، وخالته عائشة زوجة رسول الله، فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله) .

كان عبد الله بن الزبير من العلماء المجتهدين، وما كان أحد أعلم بالمناسك منه، وقال عنه عثمان بن طلحة : (كان عبد الله بن الزبير لا يُنازَعُ في ثلاثة : شجاعة، ولا عبادة، ولا بلاغة).

وقد تكلّم عبد الله بن الزبير يوماً والزبير يسمع فقال له : (أي بُنَيّ ! ما زلتُ تكلّم بكلام أبي بكر -رضي الله عنه- حتى ظننتُ أنّ أبا بكر قائمٌ، فانظُر إلى مَنْ تزوّج فإنّ المرأة من أخيها من أبيها) .

وأول من كسا الكعبة بالديباج هو عبد الله بن الزبير، وإن كان ليُطيّبُها حتى يجد ريحها مَنْ دخل الحرم.

قال عمر بن قيس : (كان لابن الزبير مئة غلام، يتكلّم كلّ غلام منهم بلغة أخرى، وكان الزبير يكلّم كلَّ واحد منهم بلغته، وكنت إذا نظرتُ إليه في أمر دنياه قلت : هذا رجلٌ لم يُرِد الله طرفةَ عين، وإذا نظرتُ إليه في أمر آخرته قلت : هذا رجلٌ لم يُرِد الدنيا طرفة عين) .

كان عبد الله بن الزبير وهو لم يجاوز السابعة والعشرين بطلا من أبطال الفتوح الإسلامية، وكان يرى أن (يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) آخر رجل يصلح لخلافة المسلمين إن كان يصلح على الإطلاق، لقد كان (يزيد) فاسدا في كل شيء ولم تكن له فضيلة واحدة تشفع له، فكيف يبايعه ابن الزبير، لقد قال كلمة الرفض قوية صادعة لمعاوية وهو حيّ، وها هو يقولها ليزيد بعد أن أصبح خليفة، وأرسل إلى ابن الزبير يتوعّده بشر مصير، هنالك قال ابن الزبير : (لا أبايع السَّكير أبدا) .. ثم أنشد.

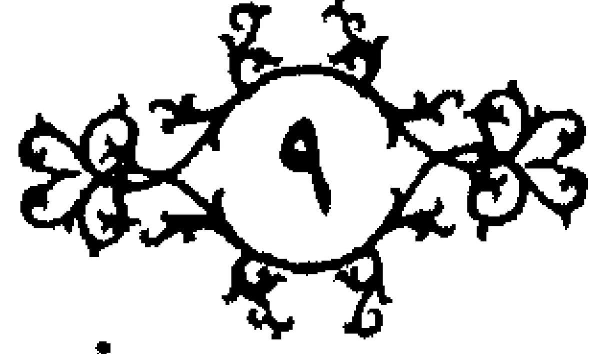
ولا ألين لغير الحق أسأله   حتى يلين لِضِرْس الماضِغ الحَجر

بُويَع لعبد الله بن الزبير بالخلافة سنة أربع وستين، عقب موت يزيد بن معاوية، وظل ابن الزبير أميرا للمؤمنين مُتَّخِذا من مكة المكرمة عاصمة خلافته، باسطا حكمه على الحجاز واليمن والبصرة والكوفة وخُراسان والشام كلها عدا دمشق بعد أن بايعه أهل هذه الأمصار جميعا، ولكن الأمويين لا يقرُّ قرارهم ولا يهدأ بالهم، فيشنون عليه حروبا موصولة، حتى جاء عهد (عبد الملك بن مروان) حين ندب لمهاجمة عبد الله في مكة واحدا من أشقى بني آدم وأكثرهم قسوة وإجراما، ذلكم هو (الحجاج الثقفي) عامله الله بما يستحقه الذي قال عنه الإمام العادل عمر بن عبد العزيز : (لو جاءت كل أمَّة بخطاياها. وجئنا نحن بالحجّاج وحده، لرجحناهم جميعا)!!

ذهب الحجّاج على رأس جيشه ومرتزقته لغزو مكة عاصمة ابن الزبير، وحاصرها وأهلها قُرابة ستة أشهر مانعا عن الناس الماء والطعام، كي يحملهم على ترك عبد الله بن الزبير وحيداً بلا جيش ولا أعوان، وتحت وطأة الجوع القاتل استسلم الأكثرون، ووجد عبد الله نفسه وحيدا، وعلى الرغم من أن فُرص النجاة بنفسه وبحياته كانت لا تزال مُهَيّأة له، فقد قرر أن يحمل مسئوليته إلى النهاية وراح يقاتل جيش الحجّاج في شجاعة أسطورية وهو يومئذ في السبعين من عمره.

لقد كان وضوح عبد الله -رضي الله عنه- مع نفسه وصدقه مع عقيدته ومبادئه ملازما له في أشد ساعات المحنة مع الحجّاج، فهاهو يسمع فرقة من الأحباش، وكانوا من أمهر الرماة والمقاتلين في جيش ابن الزبير، يتحدثون عن الخليفة الراحل عثمان بحديث لا ورع فيه ولا إنصاف، فعنَّفَهم وقال لهم : (والله ما أحبُّ أن أستظهر على عَدوي بمن يُبغض عثمانَ) .. ثم صرفهم ابن الزبير عنه، ولم يبال أن يخسر مائتين من أكفأ الرماة عنده.





صلاح الدين الأيوبي .. رحمه الله تعالى

OOO



أصيب الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بالحمى الصفراوية (وهي نوع من حمى الكبد) ليلة ١٦ صفر، ومكث أحد عشر يومًا في مرضه .

وفي ليلة موته، استدعى أحد قراء القرآن ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة، فلما أذن الصبح كان في آخر رمق في حياته، فلما وصل القارئ إلى قوله عز وجل: " لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم " تبسم وتهلل وجهه ثم فاضت روحه رحمه الله، ولم يترك في خزائنه سوى دينار واحد وستة وثلاثين

درهمًا، ولم يترك دارًا ولا عقارًا ولا مزرعة ولا شيئًا من الأملاك، بل كان زاهدًا عابدًا مجاهدًا رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام خيرًا.

لقد قيض الله عز وجل لهذا الدين رجالاً شجعانًا حملوا هَمَّ هذا الدين والدفاع عنه، وترك الدنيا وراء ظهورهم وامتلأت قلوبهم بقضية الإسلام، فلم يبق فيها مكانًا لغير الإسلام وأهله، وكان هؤلاء الرجال أوتادًا حفظ الله عز وجل بهم الإسلام وأهله. ومن هذا النوع السلطان الناصر صلاح الدين رحمه الله.

تقول لنا الحياة أن هناك من يصنع نفسه وهناك من يصنع المجتمع وهناك من يصنع التاريخ .. وهكذا كان القائد المسلم الأشهر "صلاح الدين الأيوبي" ، والذي سطّر صفحات من الذهب في التاريخ الإسلامي .. وجميعنا نستحضر المعاني الحلوة التي تجلت في سيرة هذا البطل .. معاني الجهاد والعزة والانتصار .

اسم "صلاح الدين" يحمل لدى الغربيين مرارتين، الأولى استرداده القدس وإنهاؤه المملكة الصليبية فيها، والثانية، سمعته الرائعة بالتسامح والفروسية، حتى صار، وهو العدو، المثل الأعلى لعدد كبير من فرسان الفرنجة في ذلك الزمان الغابر .

حاول "بطريرك القدس" وهو يستثير الناس في أوروبا– بصورة مزورة للقبر المقدس .. يدنسه المسلمون – أن يشوه سمعة صلاح الدين، لكن الوقائع التي رواها الصليبيون العائدون من الشرق، كذبت تلك الدعاية الزائفة .

بدأ صلاح الدين (يوسف بن أيوب ١١٣٧-١١٩٣م) الاهتمام بالحرب والسياسة وهو في الثامنة والعشرين من عمره، حين أرسله "نور الدين زنكي" مع الحملات إلى مصر، ثم صار الرجل الأول في الشام ومصر بعد وفاة نور الدين .

وقد شملت سلطنته ما بين برقة وأرمينيا واليمن، وبنى عددا من الحصون والمدارس و"البيمارستانات" (مستشفيات) .

وامتاز عهده بهندسة معمارية عسكرية .. ازدهرت خلالها هندسة المدن بالترافق مع ازدهار العلوم والصناعات والفنون، وامتد حكمه لمصر لأربعة وعشرين عاما، وللشام تسعة عشر عاما، وتوفى ودفن في دمشق بجوار الجامع الأموي .

صلاح الدين هو يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكان أبوه وأهله من قرية تقع شرق أذربيجان، من قبيلة "الروادية" الكردية .

كان لجده "شاذي" ولدان هما : أيوب وشيركوه، نزل بهما إلى تكريت، وفيها ولد لأيوب عام (٥٣٢هـ - ١١٣٧م) ولد دعاه يوسف، وفيها مات الجد . وفي تكريت تولى أيوب أعمالا، ثم خرج مع شيركوه إلى الموصل، حيث التحقا بخدمة صاحبها عماد الدين زنكي، ثم ابنه نور الدين محمود من بعده، صاحب دمشق وحلب، حيث تبوأ منزلة رفيعة عنده . وتلقب أيوب بـ "نجم الدين"، وشيركوه بـ "أسد الدين"، ويوسف بـ "صلاح الدين" .

نشأ صلاح الدين وتربى في مناخ مشبع بروح الجهاد، وكان يمتلك قلباً شجاعاً جسوراً . وذات مرة كان هو وكاتبه العماد الأصفهاني يركبان البحر، وحدث أن هاجت الأمواج، فحدثه الأصفهاني أنه يخاف من البحر، ولكنه وجد قائده لا يبالي، فسأله : كيف لا تخاف أنت، فقال له : ما هي أشرف الميتات، قال أشرف الميتات الموت في سبيل الله، قال فهذه هي غايتي، غايتي أن أموت أشرف الميتات، لا أموت على فراشي، أحسن ما أموت عليه أن أموت في سبيل الله، أن تصيبني ضربة بسيف أو رمية برمح أو طعنة بسهم فأقتل في سبيل الله .

وكان إلى جانب هيبته رقيق النفس والقلب، محبا للعلم، بعيد النظر، متواضعا، يشعر من يقترب منه بالحب مع الهيبة .

كان المشرق الإسلامي، في تلك الفترة، قد عرف صحوة حربية بدخول جموع السلاجقة الترك أراضي الخلافة العباسية، وحملهم أعباء الحكم والحروب فيها،

منذ عام ١٠٥٥م . ومن أروع ما فعلوه أنهم هزموا الإمبراطورية البيزنطية في موقعة "ملازكرد" عام ١٠٧١م حيث انتزعوا منها معظم آسيا الصغرى، كما صاروا حكام الشام، بما فيه القدس الشريف، بعد أن أخذوه من الفاطميين . .

عبرت جموع الصليبيين بعد القسطنطينية آسيا الصغرى، وهزمت السلاجقة في دوريليوم عام ١٠٩٧، ووقفت طويلا عند "إنطاكية" حتى احتلتها عام ١٠٩٨،

ثم انحدرت جنوبا فاحتلت القدس بعد مجزرة رهيبة خلفت وراءها ٧٠ ألف قتيل في يوليو ١٠٩٩، في يوم حالك من أيام التاريخ الإسلامي .

أسس الصليبيون منذ الأيام الأولى لوصولهم إمارة في "الرها" (في الشمال)، ثم إمارة في "إنطاكية"، ثم مملكة في القدس . وقبل أن تسقط طرابلس عام ١١٠٩، أقاموا باسمها الإمارة الإفرنجية الرابعة . بدأت المقاومة للاحتلال الصليبي منذ أيامه الأولى، وظلت في تصاعد مستمر وبناء قلاع فقطع دابر القوم الذي ظلموا لحوالي ٣٠ عاما، حتى ظهر الأتابك زنكي (١٠٨٥-١١٤٦)، الذي بدأ توحيد القوى الإسلامية . ويتمثل إنجازه الكبير في أنه استطاع أن يحتل الرها عام ١١٤٤ فألغى بذلك أول إمارة صليبية في المشرق، كان ذلك نقطة التحول في تاريخ الحروب الصليبية وبدء توازن القوى بين الطرفين .

كانت ردود الفعل الأوروبية على سقوط الرها عنيفة، ما أدى إلى تحريك الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩)، التي اشترك فيها لأول مرة ملوك أوروبيون : ملك فرنسا "لويس السابع" وإمبراطور ألمانيا "كونراد الثالث"، الذي سُحقت قواته الكثيفة على يد السلاجقة في معركة "دوريليوم" عام ١١٤٧ . أما قوات الملك لويس فقد وصلت إنطاكية بحرًا.

في اجتماع عكا ١١٤٨، قرر الصليبيون مهاجمة دمشق، وكاد الحصار الذي ضرب عليها أن ينجح، لولا الخلافات التي شبت بين ملوك الفرنجة حول توزيع الغنيمة، والتي كانت سبباً في فشل حملتهم وهزيمتهم .

كان زنكي قد توفى، فقطف الثمرة ابنه نور الدين محمود عام (١١١٨-١١٧٤)، الذي استطاع أن يضم دمشق إلى مملكته في حلب عام١١٥٤، وأن يحقق خطوات هامة في توحيد القوى الإسلامية، كان من أهمها فوزه في السباق مع مملكة القدس الصليبية للاستيلاء على مصر، حيث كانت الخلافة الفاطمية هناك في منتهى الضعف، نتيجة الخصومات التي كانت متفشية بين الوزراء والجيش، حيث استنجد بعضهم بنور الدين وآخرون بالصليبيين .

حين تمكن قائده صلاح الدين الأيوبي من الحكم في مصر، ألغى الخطبة للخليفة الفاطمي الأخير "العاضد"، الذي توفى في تلك الأثناء (١١٧١)، وأضحت مصر بذلك، الجناح الغربي لمملكة نور الدين التي صارت تطوق الإمارات الصليبية من الشرق في الشام ومن الغرب في مصر .

وكانت وفاة محمود السريعة بعد ذلك، قد تركت لصلاح الدين مهمة تسديد الضربة القاتلة للفرنجة بقيادته لتلك المملكة الموحدة . فقد استطاع، بالحرب والسياسة، أن يجمع في يديه قوى المنطقة الإسلامية، من شمال الجزيرة والشام، حتى أقاصي مصر واليمن وبرقة، وكان ذلك نذير النهاية لمملكة القدس والإمارات الإفرنجية الأخرى في طرابلس وإنطاكية . .

ثم كانت المعركة الفاصلة بين القوى الصليبية مجتمعة وبين جيش صلاح الدين في "حِطِّين" غربي طبرية في يوليو ١١٨٧ . ففي يوم من أيام الإسلام المشهودة سحقت بجسارة قوات صلاح الدين القوى الصليبية، وأسرت ملك القدس مع جمهور أمرائه، حتى قيل : "إن من شاهد القتلى قال : ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل" . وفي الثاني عشر من أكتوبر ١١٧٨ تم استرداد بيت المقدس، ودخلها المسلمون في ذكرى ليلة الإسراء والمعراج . .

ويجمع العديد من المؤرخين المعاصرين على أن دوافع الحروب الصليبية على ديار الإسلام كانت بعيدة كل البعد عن الدين، وإنها كانت إحدى نتائج الصراع

بين البابا والملوك والأباطرة في أوروبا، حيث كان يأمل الأول من وراء إشعالها، أن تتزايد سلطته وأن تتوحد الكنيستان البيزنطية والرومانية تحت رئاسته، كما كان وراءها الدافع الاقتصادي (النهب والاستيلاء) ورغبة القوى الجديدة في تجاوز النظام الإقطاعي .

تمثل في شخصية صلاح الدين نموذج الشخصية الإسلامية بكل جوانبها، تلك الشخصية صانعة التاريخ، صاحبة أعظم رسالة في الوجود، التي لم تر الإنسانية مثلها إلا في ظل الإسلام العظيم .

"قضى حياته صابرا على مر العيش وخشونته، مع المقدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى .. " كما يقول ابن شداد رحمه الله تعالى (هو القاضي بهاء الدين المعروف بـ ابن شداد، الذي عاصر صلاح الدين وخالطه وجالسه، وكتب سيرته في كتاب أسماه " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) .

ويحدثنا الأخير أيضا إنه كان -رحمه الله -كثير المروءة، ندي الوجه، كثير الحياء، منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد وإن كان على غير دينه، وكان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيب الفكاهة، حافظا أنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم، عارفا بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره .. وكان طاهر المجلس لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير.. وطاهر اللسان، فما رأيته أولع بشتم قط .. فما أحضر بين يديه "يتيم" إلا وترحم على مخلفه، وخبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفه، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه .. "

وقال في كرمه وتواضعه وحبه الجم للجهاد في سبيل الله تعالى : "كان خازنوه يخفون على الدوام بعض المال للطوارئ، لأنهم كانوا يعلمون أنه لو عرف السيد بذلك المخزون لأنفقه في الحال . وإذا أضاف البعض إليه لقب سلطان، فهو نفسه لم يستعمله قط . وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام

به، .. وأنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد .. ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا إلى آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه .. وقنع بالدنيا بالسكون في ظل خيمه .. ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا " .

وقال في شجاعته : "لقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤوس والعلم، وهو ثابت القدم في نفر يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم، ويخجلهم حتى يرجعوا للقتال، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم .. " .

أما الرحالة ابن جبير فقال يصف همته ونشاطه : كان "لا يأوي لراحة، ولا يخلد لدعة، ولا يزال سرجه مجلسه" .

وقال عبد اللطيف البغدادي يصف شعور من حوله تجاهه : "إن القريب منه لا يستطيع سوى أن يشعر بحب ممزوج بالهيبة" .

أما مؤرخ الفرنجة وليم الصوري فقال عنه : "حكمه مفعم بالحصافة، شجاع في الحرب، كريم لدرجة الإسراف .." .

ويروي ابن شداد عن رحمة صلاح الدين : "كنت أسير بجوادي إلى جانب السلطان قبالة الفرنجة، فأقبل نحونا أحد كشافة الجيش ومعه امرأة تنتحب، وتقرع صدرها، فقال لنا : لقد خرجت من عند الفرنجة، تريد مقابلة رئيسنا فأحضرناها.. وقالت المرأة : دخل أمس لصوص خيمتي وسرقوا ابنتي الصغيرة، وقضيت الليل بطوله أبكي، فقيل لي إن ملك المسلمين رحيم ؟، سوف نتركك تذهبين إليه، .. وها أنا ذي أتيت عاقدة عليك كل الآمال ... فتأثر صلاح الدين وفاض الدمع من عينيه، وأرسل في البحث عن الطفلة .. وأقبل فارس يحمل الطفلة.. وما أن رأتها حتى ارتمت على الأرض ومرغت وجهها في التراب " .

ويصف ابن شداد صبره وجلده في مرضه : "أما صبره فقد رأيته بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه .. بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئا على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع عن مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب، وهو صابر على شدة الألم .."

وجاء في وصيته لابنه : "أحذرك من الدماء، والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام .. ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقي أحدا .. واحذر ما بينك وبين الناس، فإن الله لا يغفر إلا برضاهم .."

توفي صلاح الدين في السابع والعشرين من صفر ٥٨٩ هـ .. قال "ابن شداد" في وفاته : "كان يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله، منذ فُقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة (دمشق) والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس ،

ولو تقبل تضحياتنا لكنت أنا وغيري، قد أعطينا حياتنا له " . .ثم يقول " إنه مات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجراما واحدا ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا .. لا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة" . وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب رسالة كان مما جاء فيها : " .. وقد زلزل المسلمون زلزالا شديدا، وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغتْ القلوب الحناجر .."

ومما قاله الكاتب الأصبهاني في رثائه :

لا تحسبوه مات شخصا واحدا		قد عم كل العالمين مماته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت		من كل قلب مؤمن روعاته

فما أحوج الإنسانية المنكوبة الآن - والمسلمين منها بخاصة - لمثل هذه الشخصيات، تكون بلسما لجراحها المروعة التي تئن وتصرخ منها صباح مساء، والتي أذاقها إياها "الرجل الأبيض" بقيمه المجرمة، التي سطرت في صفحات التاريخ سطورا كالحة من القتل والترويع والمذابح والإبادة والنهب والاستيلاء .

أما عن شخصيته رحمه الله، فكان زاهدًا في ملابسه، لم يلبس الناعم ولا الحرير قط، ولا يعرف أنه تخطى المكروه قط، بل كان همه الأوحد نصرة الإسلام، وهو مع ذلك شديد المواظبة على الطاعات والعبادات، خاصة صلاة الجماعة، حتى يقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل.

وكان محبًّا للعلم والعلماء والأتقياء والصالحين، وبذل يومًا فدية لأحد علماء المسلمين الأسرى عند الروم تقدر بستين ألفًا، وكان بنو قدامة المقدسيين من قادة جيوشه، وكان يواظب على سماع الحديث حتى سمع جزءًا من الحديث وهو واقف بين الصفين.

وقال: هذا موقف لم يسمع أحد في مثله حديثًا، وكان شديد التعظيم لشرائع الدين، وقد أمر بقتل الشهاب الهرودي لما ذاع أمر كفره وفجوره، وكان رحمه الله رقيق القلب، سريع الدمع، عنده من السماحة والعفو، حتى إن المؤرخين الغربيين رغم صليبيتهم قد اعترفوا له بذلك.

فقال استيفين سن: إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية، وقيل له: إن البطريرك خارج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جدًّا لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين من المسيحيين، فقيل للسلطان: لِمَ لم تُصادر هذا فيما يحمله وتستعمله فيما تقوي به أمر المسلمين؟

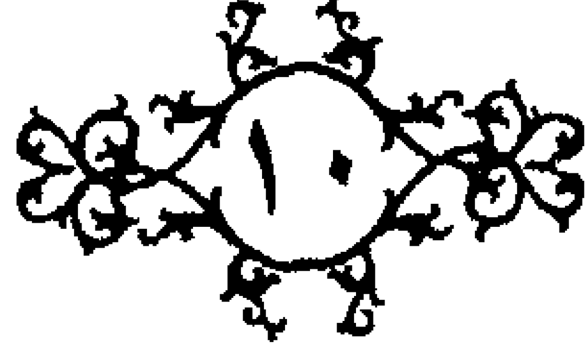
فقال السلطان: لا آخذ من غير العشرة دنانير ولا أغدر به. وعلى هذه الحادثة علّق مؤرخ آخر هو ستانلي لي بول قائلاً: وقد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقي على راهب مسيحي درسًا في معنى البر والإحسان.

وكان صلاح الدين محبًّا للجهاد والنصرة للدين، فكان من قوله: وفي نفسي أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره وابتعثتهم فيها حتى لا ألقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

ولقد عُرف في كتب التاريخ في الشرق والغرب بأنه فارس نبيل وبطل شجاع وقائد من أفضل من عرفتهم البشرية، وشهد بأخلاقه أعداؤه من الصليبيين قبل أصدقائه.

إنه نموذج فذ لشخصية عملاقة من صنع الإسلام.. هو محرر القدس من الصليبيين وبطل معركة حطين.





سيف الدين قُطُزُ.. رحمه الله تعالى

ооо



لكل بداية نهاية وبعد كل حياة موت.

وكانت نهاية الفارس سيف الدين قطز عقب إحرازه لنصر عين جالوت ووقف الزحف التتاري وردعه عن أراضي المسلمين، وفي طريق عودته إلى مصر وقبل أن يحتفل مع شعبها بالنصر الذي أحرزه وأهداه للمسلمين، تآمر عليه عدد من الأمراء الذين أضمروا له الحقد وأوغلوا قلب الظاهر بيبرس البندقداري نحوه، فقرر بيبرس التخلص منه والانفراد بالحكم، خاصة بعد أن أخلف قطز وعده له بتوليته على حلب،

فقام بمراقبته مع غيره من الأمراء وتحينوا الفرصة للقضاء عليه وكان لهم ما أرادوا حيث انتهزوا فرصة خروج قطز بمفرده فتعقبوه وانقض عليه بيبرس وغيره من الأمراء واخترقت سيوفهم جسده ليقتل الفارس بعد أن أحرز النصر الذي لم يهنأ بالاحتفال به وسط شعبه، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٢٦٠م.

يفتح التاريخ سجلاته ليظهر لنا أحد شخصياته البارزة، هو فارس مسلم وأشهر سلاطين دولة المماليك قدر له الله سبحانه وتعالى أن يكون سبباً في رفعة الإسلام والمسلمين وذلك عندما تمكن بحنكته العسكرية وقيادته لجيش المسلمين من إلحاق الهزيمة بالتتار وكسر شوكتهم ووقف زحفهم، هو الفارس سيف الدين قطز الذي تمكن من ضم معركة عين جالوت الحاسمة إلى سجل الانتصارات التي أحرزها المسلمون خلال التاريخ، وذلك خلال فترة حكم قصيرة تربع فيها على عرش سلطنة مصر، قبل أن يتم اغتياله غدراً على يد عدد من أمراء المماليك على رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري، ليلقى حتفه في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٢٦٠م.

كان المشهد الأخير من قصة بطل معركة عين جالوت حزينا مثيرا للشجن والتأمل، فبينما كان السلطان المظفر سيف الدين قطز في طريقه إلى القاهرة التي كانت تنتظره بالزينات وتستعد لاستقباله بما يليق، كان القدر يخفي له مؤامرة نفذها شركاؤه في النصر الذين استكثروا عليه أن يرى نشوة النصر في عيون مستقبليه، ويستشعر عظمة ما صنع لأمّته، فلقي حتفه على يد بيبرس في الصالحية في (١٦ من ذي القعدة ٦٥٨هـ = ٢٣ من أكتوبر ١٢٦٠م). ويبدو للناظر في حوليات التاريخ التي احتفظت بتفاصيل حياة هذا البطل أنه قد جاء لأداء مهمة عظيمة ومحددة، فما أن أداها على خير وجه حتى توارى عن مسرح التاريخ بعد أن خطف الأبصار وجذب الانتباه إليه على قِصر دوره التاريخي، لكنه كان عظيما وباقيا، فاحتل مكانته بين كبار القادة وأصحاب المعارك الكبرى.

والتاريخ لا يعتد بحساب الأزمان والأيام، وإنما يعتد بحجم التأثير الذي يتركه الرجل وإن كانت حياته قصيرة؛ فكثير من خلفاء المسلمين وحكامهم أمضوا

عشرات السنين دون أن يلتفت إليهم التاريخ أو ترتبط حياتهم بوجدان الناس ومشاعرهم، والدليل على ذلك أن عمر بن عبد العزيز تبوأ مكانته المعروفة في التاريخ بسنتين ونصف قضاهما في الحكم، وبقي ذكره حيا في القلوب، وعنوانا للعدل والإنصاف.

تروي المصادر التاريخية أن الاسم الأصلي لسيف الدين قطز هو "محمود بن ممدود"، وأنه ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذي تصدى بعد أبيه لهجمات المغول، وحقق عدة انتصارات عليهم، واسترد منهم بعض المدن التي استولوا عليها، لكنه لم يجد عونًا من الدولة العباسية، فتركته يصارعهم دون أن تمد إليه يدًا، حتى نجحت جحافل المغول سنة (٦٢٨هـ = ١٢٣١)م في القضاء على دولته التي كانت تقع في إقليم كرمان الحالي في جنوبي إيران، ثم لقي حتفه وحيدًا شريدًا على يد أحد الأكراد.

كان قطز من بين الأطفال الذين حملهم المغول إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق، ومضت حياته مثل غيره من آلاف المماليك الذين حملت مواهب بعضهم إلى القمة وتولي السلطة، أو قد تقصر مواهبهم فتبلغ بهم إلى أمير خمسة، أو تعلو قليلاً فيصبح أمير طبلخانة.

وتقص علينا بعض المصادر التاريخية أن قطز كان مملوكًا في "دمشق" ضمن مماليك ابن الزعيم، ثم انتقل إلى القاهرة، وأصبح من جملة مماليك عز الدين أيبك التركماني، وترقى عنده حتى صار أكبر مماليكه وأحبهم إليه وأقربهم إلى قلبه.

بعد نهاية الحكم الأيوبي في مصر اتفقت كلمة المماليك على اختيار شجرة الدر سلطانة للبلاد، في سابقة لم تحدث في التاريخ الإسلامي إلا نادرًا، غير أن الظروف لم تكن مواتية لاستمرارها في السلطنة، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة، فلم تجد بُدًّا من التنازل عن الحكم للأمير "عز الدين أيبك" أتابك العسكر الذي تزوجته وتلقب باسم الملك المعز.

ولم تسلس القيادة للسلطان الجديد في ظل ازدياد نفوذ زعيمهم "أقطاي" الذي تمادى في الاستخفاف بالملك المعز، ولا يظهر في مكان إلا وحوله رجاله ومماليكه في أبهة عظيمة كأنه ملك متوج، وبالغ في تحقيره للسلطان فلا يسميه إلا "أيبك"، وتطلعت نفسه إلى السلطنة، فاستشعر السلطان الخوف على عرشه بعد أن اشتد بغي أقطاي وكثرت مظالمه واستهانته بالرعية، فعزم على التخلص منه، وأعد خطة لذلك اشترك في تنفيذها أكبر مماليكه (قطز)، فكان ذلك أول ظهور له على صفحات التاريخ. ومن تلك اللحظة بدأ يشق طريقه نحو المقدمة.

هيأت الأقدار الطريق لقطز لكي يصل إلى الحكم، فلم يكد يهنأ الملك المعز بالتخلص من غريمه أيبك ويقبض على بعض المماليك البحرية ويجبر بعضهم على الفرار من مصر، حتى دب صراع بينه وبين زوجته شجرة الدر، انتهى بمقتلهما، وتولى "نور الدين على بن المعز أيبك" السلطنة، لكنه كان صبيًا يلهو ولا يصلح لمباشرة الحكم وتحمل المسئولية. وأصبحت مقاليد البلاد في يد "سيف الدين قطز" الذي بدأ نجمه في الظهور، وقام بنشر الأمن في البلاد والقضاء على المحاولات الفاشلة للأيوبيين لاسترداد مصر من أيدي المماليك، فزاد ذلك من قوة إحكامه على البلاد.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة ليقوم قطز بما ادخره له القدر من الشرف العظيم وتخليد اسمه بين كبار القادة والفاتحين، فكانت الأخبار السيئة تتوالى على القاهرة بسقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله، وتحرك جحافل المغول نحو الشام التي تساقطت مدنها الكبرى في يد هولاكو. كانت هذه الأنباء تزيد القلق في مصر التي كانت تخشى عاقبة مصير الشام، في الوقت الذي كان فيه السلطان الصبي غافلاً، يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة، ويلعب بالحمام مع الخدم!.

أفاق الملك الناصر صاحب حلب ودمشق على الحقيقة المرة، وأدرك أهداف المغول، وهو الذي راسلهم ليضع يده في أيديهم ليساعدوه في استرداد مصر،

فبعث بـ"ابن العديم" المؤرخ المعروف إلى مصر ليستنجد بعساكرها. فلما قدم إلى القاهرة عقد مجلسًا بالقلعة حضره السلطان الصبي وكبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة وفي مقدمتهم الشيخ "العز بن عبد السلام"، فسأله الحاضرون من الأمراء عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود، فأجابهم بقوله: "إذ لم يبق شيء في بيت المال، وأنفقتم ما عندكم من الذهب والنفائس، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها – ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء"، واتفق الحاضرون على ضرورة المقاومة والجهاد.

لم يعد أمام قطز بعد أن ازداد خطر المغول، وأصبحوا على مقربة من مصر سوى خلع السلطان الصبي، فانتهز فرصة خروج الأمراء إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية، وقبض على الملك المنصور واعتقله بالقلعة هو وأسرته في (٢٤ من ذي القعدة ٦٥٧هـ = ١٢ من نوفمبر ١٢٥٩م)، وأعلن نفسه سلطانًا، وبدأ في ترتيب أوضاع السلطنة، واسترضى كبار الأمراء بأنه لم يقدم على خلع السلطان الصبي إلا لقتال المغول؛ لأن هذا الأمر لا يصلح بغير سلطان قوي، ومنّاهم بأن الأمر لهم يختارون من يشاءون بعد تحقيق النصر على العدو، وبدأ في اختيار أركان دولته وتوطيد دعائم حكمه استعدادًا للقاء المغول.

وبعد توليه السلطنة بقليل جاء رسل المغول يحملون رسائل التهديد والوعيد، ولم يكن أمام قطز: إما التسليم -مثلما فعل غيره من حكام الشام- أو النهوض بمسئوليته التاريخية تجاه هذا الخطر الداهم الذي ألقى الفزع والهلع في القلوب، فجمع قطز الأمراء وشاورهم في الأمر فاتفقوا على قتل رسل المغول؛ قطعًا لتردد البعض في الخروج للقتال، وإشعارا للعدو بالقوة والتصميم على القتال، وبعد قتل الرسل بدأ السلطان في تحليف الأمراء الذين اختارهم، وأمر بأن يخرج الجيش إلى الصالحية، ونودي في القاهرة وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام.

وفي هذه الأثناء كان الأمير بيبرس البندقداري قد قدم إلى مصر بعد أن طلب الأمان من الملك المظفر قطز، ووضع نفسه تحت تصرفه في جهاده ضد المغول، فأنزله السلطان بدار الوزارة، وأحسن معاملته، وأقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها.

سار السلطان قطز بجيوشه بعد أن هيأها للجهاد، وبذل الأرواح في سبيل نصرة الله؛ فوصل غزة، ثم اتخذ طريق الساحل متجهًا نحو بحيرة طبرية، والتقى بالمغول، وكانوا تحت قيادة "كيتوبوقا" (كتبغا) في معركة فاصلة في صباح يوم الجمعة الموافق (٢٥ من رمضان ٦٥٨هـ = ٣ من سبتمبر ١٢٦٠) عند عين جالوت من أرض فلسطين بين بيسان ونابلس، وانتصر المسلمون انتصارا هائلاً بعد أن تردد النصر بين الفريقين، لكن صيحة السلطان التي عمت أرجاء المكان "وا إسلاماه" كان لها فعل السحر، فثبتت القلوب وصبر الرجال، حتى جاء النصر وزهق الباطل.

وأعاد هذا الظفر الثقة في نفوس المسلمين بعدما ضاعت تحت سنابك الخيل، وظن الناس أن المغول قوم لا يُقهرون، وكان نقطة تحول في الصراع المغولي الإسلامي، فلأول مرة منذ وقت طويل يلقى المغول هزيمة ساحقة أوقفت زحفهم، وأنقذت العالم الإسلامي والحضارة الإنسانية من خطر محقق.

وكان من شأن هذا النصر أن فر المغول من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات، ودخل السلطان قطز دمشق في آخر شهر رمضان وأقام بقلعتها، وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من السيطرة على سائر بلاد الشام، وأقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام، وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع البلاد، وبعد أن اطمأن إلى ما فعل قرر العودة إلى مصر في (٢٦ من شوال ٦٥٨هـ = ٤ من أكتوبر ١٢٦٠م).

ولما بلغ السلطان قطز إلى بلدة "القصير" من أرض الشرقية بمصر بقي بها مع بعض خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، وضربت للسلطان

خيمته، وهناك دبرت مؤامرة لقتله نفذها شركاؤه في النصر، وكان الأمير بيبرس قد بدأ يتنكر للسلطان ويضمر له السوء، وأشعل زملاؤه نار الحقد في قلبه، فعزم على قتل السلطان، ووجد منهم عونًا ومؤازرة، فانتهزوا فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، فابتعد عن حرسه ورجاله، فتعقبه المتآمرون حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان امرأة من سبى المغول فأجابه إلى ما طلب، ثم تقدم بيبرس ليقبل يد السلطان شاكرًا فضله، وكان ذلك إشارة بينه وبين الأمراء، ولم يكد السلطان قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة، في حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه، وانتهت بذلك حياة بطل عين جالوت.

وذكر المؤرخون أسبابًا متعددة لإقدام الأمير بيبرس وزملائه على هذه الفعلة الشنعاء، فيقولون: إن بيبرس طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب فلم يوافق، فأضمر ذلك في نفسه. ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم بعد أن حقق النصر وثبّت أقدامه في السلطة كان سببًا في إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم، وأيًا ما كانت الأسباب فإن السلطان لقي حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقُتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر.

ولد قطز أميراً مسلماً في ظل الدولة الخوارزمية فهو محمود بن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، الذي تم إختطافه عقب انهيار الدولة الخوارزمية عام ١٢٣١م على يد المغول، وحمل هو وغيره من الأطفال إلى دمشق وتم بيعهم في سوق الرقيق وأطلق عليه اسم "قطز"، ظل قطز عبدا يباع ويشترى إلى أن انتهى به المطاف في يد عز الدين أيبك أحد أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر.

تعلم قطز اللغة العربية والقرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامي، وعندما وصل إلى مرحلة الشباب تدرب على الفروسية والمهارات القتالية واستخدام السيف والرمح وغيرهما من فنون الحرب، ونظراً لمهارته ارتقى قطز سريعاً حتى صار

قائداً لجند أيبك، ثم قائداً للجيوش عقب تربع عز الدين أيبك على عرش السلطنة مع زوجته شجرة الدر.

بدأ دور قطز يتضح ويبرز أكثر عقب تولي عز الدين أيبك السلطنة في مصر وأصبح قطز يده اليمنى، ولكن لم تكن الأوضاع مستقرة بالبلاد فبالإضافة لتهديد التتار المستمر واستمرار زحفه على الدولة الإسلامية، كانت تدب الكثير من الخلافات الداخلية والتي كان منبعها فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ومن حوله من رجال وفرسان المماليك، فقد كان أقطاي يرغب في التربع على عرش السلطنة وانتزاعه من أيبك، وشعر الأخير بالخطر الذي يشكله أقطاي فقرر التخلص منه وأوكل بهذه المهمة إلى قطز، كما قام بالقبض على عدد من المماليك البحرية وفر الباقون إلى الشام.

ولم يدم الحال بالنسبة لأيبك بعد ذلك كثيراً حيث مالبث أن قتل، وقتلت من بعده زوجته شجرة الدر ليصعد المنصور نور الدين على بن المعز أيبك إلى كرسي السلطنة وكان طفلاً صغيراً لا يصلح لأمور السلطنة والحكم، فعمت الاضطرابات البلاد والتي كان يثيرها عدد من المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، بالإضافة لأطماع أمراء الشام الأيوبيين في الاستيلاء على الحكم، وتهديد التتار، فوقف قطز بالمرصاد للثورات الداخلية والاضطرابات جميعاً وتمكن من القضاء على ثورات أمراء المماليك البحرية ففروا إلى الشام، كما قاد الجيش وصد أمراء الشام الذين أرادوا غزو مصر، وتمكن من بث الاستقرار ونشر الأمن.

أصبح الوضع في مصر لا يحتمل وجود سلطان ضعيف في سدة الحكم خاصة مع الزحف التتاري المستمر، حيث سقطت بغداد وقضي على الخلافة العباسية.

وبدأ التتار في الاتجاه إلى الشام فأسقطوا المدن الواحدة تلو الأخرى حتى دخلوا دمشق، وأصبح خطرهم في طريقه إلى القاهرة هذا بالإضافة لوجود الصراعات الداخلية والخارجية للاستيلاء على الحكم، فقرر قطز عزل السلطان والإمساك بمقاليد الحكم وتمكن من إرجاع الاستقرار للدولة.

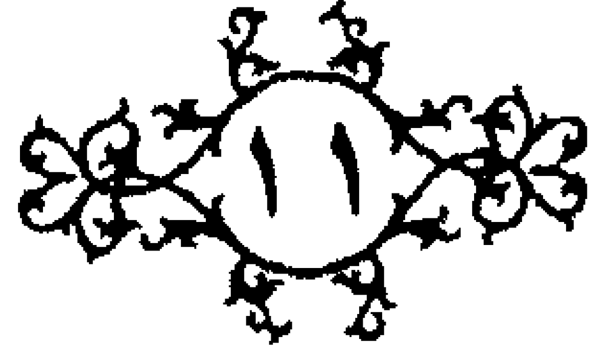
استمراراً للتوغل التتاري أرسل الزعيم التتاري هولاكو إلى قطز برسالة تمتلئ بالتهديد والوعيد مع عدد من رسله يدعوه للاستسلام، فما كان من قطز إلا أنه قام بحبس رسل هولاكو وبعد التشاور مع الأمراء تم قتلهم وعلقت جثثهم على أبواب القاهرة، في إشارة لهلاكو بعدم خوف المسلمين وقدرتهم على تحدي التتار والوقوف بوجهه.

اتخذ قطز قراره بالخروج لملاقاة التتار وردع قوتهم، وبدأ التجهيز للحرب فاستدعى أمراء المماليك البحرية الفارين في الشام فأحسن استقبالهم وكان منهم بيبرس البندقداري الذي أقطعه قطز قليوب وأعطاه الأمان وولاه على قيادة الجيوش، وعين الآخرين كأمراء على جيش المسلمين، كما تشاور مع الشيخ العز ابن عبد السلام في جمع الأموال من أجل الحرب، والذي قال له إنه لا يجب أخذ شيء من الناس إلا إذا كان بيت المال فارغاً، وأن يخرج الأمراء والتجار والأغنياء أموالهم وذهبهم وأن يتساوى الناس جميعاً في هذا، وبالفعل كان قطز أول شخص أخرج ماله من أجل التجهيز للحرب وأخرج باقي الأمراء أموالهم على مضض، ثم نادى قطز الجنود والأمراء للتكاتف من أجل مواجهة التتار.

بدأ تحرك قطز وجنوده لملاقاة التتار، والذين علموا بتقدم المسلمين فحشد القائد التتاري "كتبغا نوين" جنوده بعد مشاورة أعوانه وذهب لملاقاة المسلمين. فتلاقى الطرفان عند موقعة "عين جالوت" من الأراضي الفلسطينية في الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م، واشتعلت نيران الحرب بينهما، وانقض الفارس الشجاع قطز على جنود التتار يقاتل ببسالة باعثاً روح الحماس داخل جنوده، خالعاً خوذته شاهراً سيفه يسارع للشهادة، لا يبالي لسيوف الأعداء لا يبالي سوى لنصرة المسلمين صائحاً "وا إسلاماه" وثبت الله جنوده في أرض المعركة وكتب لهم النصر.

بهذا النصر الذي كتبه الله للمسلمين وقائدهم قطز تم إنقاذ الأراضي المسلمة وتراجع المغول عن دمشق ودخلها قطز وفرض سيطرته على سائر بلاد الشام، وأعاد الاستقرار مرة أخرى إلى الأراضي الإسلامية ثم أخذ قراره بالعودة مرة أخرى إلى مصر في الرابع من أكتوبر ١٢٦٠م.





عمر المختار..رحمه الله تعالى

OOO



بعد هذا الزمن المديد على إعدام الثائر الليبي عمر المختار بواسطة رودلفو غراتسياني، تحدث ليفي دال إيجيليو سجان عمر المختار عن الساعات الأخيرة التي قضاها عمر المختار في معتقله بمدينة سوسة .

أشار كاتب المقال في فقرات عنوان المقالة إلى عمر المختار باعتباره غاريبالدي ليبيا، وذلك بمناسبة توزيع فيلم عمر المختار أسد الصحراء على دور العرض العالمية بعد أن فرغ من إخراجه مصطفى العقاد السوري الجنسية، والذي

كان قد قام بإخراج فيلم الرسالة من قبل، وقد بلغت تكاليف الفيلم الأخير حوالى ٥٠ مليون دولار أمريكي، وقد تم الاعتماد في سيناريو شريط عمر المختار على الوقائع التاريخية .

ولكن برغم ذلك فقد تجاوز المخرج بعضاً من تلك الوقائع . وقد صرح مصطفى العقاد في مقابلة صحفية له مع مجلة " الدستور اللندنية " بقوله : " إن قيامي بإخراج فيلم عمر المختار في ليبيا، جعلني أكتشف ولأول مرة مدى فظاعة جرائم الفاشيست الطليان في ليبيا، حيث قام الجنرال رودلفو غراتسياني أثناء محاولاته اليائسة تنفيذ خطته في ترسيخ الاستيطان الاستعماري في ليبيا، قتل ٢٠٠،٠٠٠ نسمة من المواطنين الأبرياء طوال ثلاث سنوات فقط قبل عثوره على الثائر عمر المختار واعتقاله ثم يستمر الكاتب في توجيه بعض الانتقادات إلى الشريط منها استخدام نوع من السيارات الحربية أثناء محاصرة عمر المختار لاعتقاله كانت لم تستخدم بعد بواسطة القوات الإيطالية في أفريقيا، ثم يشير إلى أن الجلاد الذي وضع حبل المشنقة في رقبة عمر المختار لم يكن من بين الفاشيست الإيطاليين، بل كان زنجيًّا من أهالي البلاد يدعى محمود كان يعرف بلقب اللونقو " الطويل " وهو زنجي سكير مات أخيراً بضاحية البركة في مدينة بنغازي .

كما يروي أحد شهود العيان الذين عاصروه وعرفوه . وذلك وفقاً لما ذكره سجان الشهيد في اعترافاته لكاتب المقال . ولكن الذي يعنينا في هذا المقال ليس من وضع حبل المشنقة حول رقبة الشهيد .. فهو واحد، فسواء كان الجلاد الحقير هو محمود السكير أو غيره من المتعاونين مع الفاشيست الإيطاليين .

فالتاريخ لن يرحم أولئك الذين كانوا يتقربون من رودلفو غراتسياني سفاح ليبيا، فالذي يهمنا هنا أنه ساعد على توضيح بعض الجوانب الخفية في تاريخ بلادنا حيث أشار باولو باقانيني إليها خلال حواره مع ليفيو سجان الشهيد عندما تم اعتقاله في سوسة . وقد قام الكاتب بتقسيم مقاله إلى فقرات صغيرة لكي يمكن إدراك

تلميحاته إلى بعض النقاط التي يوردها على لسان السجان الذي قام بحراسة عمر المختار طيلة بقائه لبضع ساعات في سوسة .

كما نجد أن إحدى الفقرات بالمقال تعطي نبذة مختصرة عن الشهيد عمر المختار، حيث يورد أنه قد ولد بالبطنان عام ١٨٦٢م، ثم التحق فيما بعد بمدرسة الجغبوب القرآنية حيث قضى بها ٨ سنوات استطاع بلباقته ومهارته اكتساب ثقة معلميه مما ساعد على انتقاله إلى الكفرة حيث أسند إليه منصب شيخ زاوية القصور عندما بلغ من العمر ٤٠ عاماً .

وقد تزوج عمر المختار من ثلاث زوجات في حياته، كانت الزوجة الأولى من أقاربه توفيت بعد سنوات قليلة من اقترانه بها، أما الثانية فقد كانت ابنة أحد أعيان البلاد، والزوجة الأخيرة فقد كانت ابنة أحد المجاهدين توفيت خلال معركة وقعت ما بين المجاهدين بقيادة عمر المختار والقوات الإيطالية عام ١٩٢٧م.

وبعد احتلال بنغازي أصبح عمر المختار من أنشط المبشرين بالحرب المقدسة "الجهاد" ضد القوات الإيطالية، حيث كان يقوم بتحريض القبائل العربية وتدريب رجالها على السلاح، بالإضافة إلى أنه كان قد رفض عقد أية اتفاقيات من شأنها الخضوع للحكومة الإيطالية، حيث نجد غراتسياني يورد ذلك في مذكراته بقوله " لقد كان عمر المختار يقوم بتحريض سكان الجبل بالتحرش ضدنا بل ومهاجمة الحاميات العسكرية الإيطالية وقطع جميع الطرق في وجه قوافل التموين التي كانت تزود مراكز الحاميات العسكرية " كما حاول عمر المختار في يونيه عام ١٩٢٢م تكوين تحالف إسلامي مع الزعماء الوطنيين بإقليم طرابلس من أجل محاربة القوات الإيطالية .

ويمتاز عمر المختار بذكاء متوقد حاضر البديهة، كما أنه مثقف واسع الاطلاع خاصة في الأمور الدينية ويرجع ذلك إلى تعليمه الديني، وكان نقيًّا ورعاً عاش فقيراً طيلة حياته، فمنذ عام ١٩٢٢م إلى أن تم القبض عليه بقي على الجبل يقضي

معظم أيام حياته في التخطيط والتنظيم للهجمات الشرسة التي كان يقودها ضد جنود الحاميات العسكرية الإيطالية . فقد كان دائماً يحرص على قيادة المجاهدين بنفسه وأحياناً يكتفي بإدارة المعارك من بعيد .

وباتباعه أسلوب قيادة المعارك بنفسه كان يزيد من جذوة ارتفاع الروح المعنوية القتالية بين أتباعه ضد الإيطاليين، وعندما ترك إدريس السنوسي البلاد إلى مصر مع أتباعه، أصبح عمر المختار القائد الوحيد في البلاد، حيث كان يقوم بجمع المال وقيادة حرب التحرير، وقد كان بالإضافة إلى ذلك يجمع الأتاوات السنوية التي كانت تدفعها القبائل البرقاوية لصالح حركة الجهاد .

وبإصرار عمر المختار على خوض الحرب المقدسة ضد القوات الإيطالية بالرغم من قلة المؤن والعتاد بالإضافة إلى هروب الكثير من الشخصيات المرموقة إلى مصر وغيرها إلى البلدان المجاورة استطاع عمر المختار قيادة المجاهدين لمدة ١٥عاما دوخ فيها القوات الإيطالية التي كانت تعتبر من القوات المجهزة بأحدث الآليات العسكرية الراقية في ذلك الوقت، حيث جعل قادتها العسكر يشعرون بالخيبة والفشل بعد كل معركة يخوضها ضدهم .

وقد تم القبض على عمر المختار يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١، وفي يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣١ بسلوق جرى تنفيذ حكم الإعدام الصادر ضده شنقاً حتى الموت . وقد اعتبر المختار أحد شهداء الحرية ذلك لأنه استطاع أن يقدم أسلوباً جادًّا ليس فقط لليبيين، بل إلى جميع المضطهدين في العالم الذين كانوا يقاومون شتى أنواع الاستعمار من أجل نيل الحرية لشعوبهم المقهورة .

إن إعدام البطل عمر المختار بحضور الجنرال غراتسياني نفسه الذي حرص على إعطاء إشارة البدء في تنفيذ الحكم إلى الجلاد الطويل القامة والضخم الجثة الزنجي الذي كان يقف وراء عمر المختار فوق منصة المشنقة .

لم يوقف حركة الجهاد الليبي التي استمرت ضد القوات الإيطالية كما توقع عمر المختار أثناء مقابلة غراتسياني له في مدينة بنغازي .

وقد أشار رودلفو غراتسياتي إلى أحداث الحرب الليبية كافة خاصة فيما يتعلق بوصف مراحل عمر المختار إلى أن تم تنفيذ حكم الإعدام فيه، وذلك في كتابيه الأول بعنوان " برقة المهدأة " أما الثاني فقد كان بعنوان الكتاب الأول تقريباً ويورد الكتابان المذكوران بالتفصيل بيانات جغرافية للمناطق البرقاوية بالإضافة إلى حصر لأسماء الشخصيات التي لها علاقة بأحداث الحرب الليبية الإيطالية .

ولكن بالرغم من ذلك فإن غراتسياني قد حاول الإشارة بإيجاز إلى عملية نقل عمر المختار إلى سوسة بعد اعتقاله في سلطنة مباشرة، ولعل ذلك الإيجاز من غراتسياني يخفي المعاملة القاسية التي لقيها البطل عمر في اللحظات الأولى من أسره في سوسة قبل أن يتم اقتياده إلى بنغازي .

تلك اللحظات كان يجب على غراتسياني الإشارة إليها بالرغم من أنها تفضح المعاملة السيئة التي وجدها عمر فليس هناك أهم شيء لدى المؤرخ سوى محاولته معرفة تلك اللحظات في حياة عمر المختار وذلك من خلال الاعتماد على الفضول التاريخي لكي يصل إلى ردود الفعل التي كانت قد لازمت عمر المختار أثناء القبض عليه والذي كان يعتبر شخصية مهمة لما يتمتع به من وجاهة واستقامة بين مواطنيه، فقد كان عمر يعتبر العقل المفكر للمجاهدين في برقة .

فقد استطاع القيام بحشد وتدريب بالإضافة إلى تنظيم وقيادة المجاهدين بكل مهارة ورباطة جأش وعزيمة قوية لم تعرف الاستسلام في مقاومة القوات الإيطالية الفاشستية المجهزة بمختلف الأسلحة المتطورة وذلك طيلة سنوات الجهاد التي خاضها ضد قوات الغزو الإيطالي . وقد أورد غراتسياني في كتابه الأول من دون التوسع في الشرح اللحظات الأولى لاعتقال عمر المختار ونقله إلى سوسة حيث أمضى بضع ساعات هناك ثم انتقل بعدها إلى بنغازي . . حيث أشار في بعض فصول

كتابه قائلاً " لقد اتسم عمر المختار بالهدوء والصبر أثناء الاتصالات الأولية التي قام بها بعض المسؤولين الإيطاليين معه، حيث أجاب بهدوء على جميع الأسئلة الموجهة إليه بنبرة تحد وتمرد " .

وقد وصل عمر المختار إلى بنغازي يوم ١٢سبتمبر١٩٣١ عند تمام الساعة الخامسة مساء على ظهر الطراد الحربي أورسيني، حيث كان يرافقه متصرف الجبل والقائمقام كاستريوتا .

ومن خلال قراءة بعض فقرات من كتاب غراتسياني " برقة المهدأة " في طبعته الأولى يظهر جلياً للقارئ أن غراتسياني طمس بعض المعلومات التاريخية المهمة، حيث نجد المؤلف قد أشار إلى اعتقال عمر المختار بسرعة وبإيجاز لدرجة أنه اكتفى بعدم الإشارة إلى أسماء بعض الشخصيات التي حضرت بسرعة إلى مكان اعتقال المختار للتعرف عليه، بالرغم من أنه أشار إلى رتب تلك الشخصيات والوظائف التي كانت تشغلها، بالرغم من أنه كان من المعروف عن غراتسياني اهتماماته الدقيقة بالشخصيات الواردة خلال الوقائع التاريخية وذلك من حيث عنايته بذكر شتى التفاصيل الخاصة بتلك الشخصيات سواء كانت الأسماء والألقاب التي كانت تعرف بها بالإضافة إلى ذكر الوظائف التي كانت تشغلها .

إن غراتسياني قد أشار بغموض إلى شخصية متصرف الجبل الذي رافق عمر المختار إلى بنغازي، فلماذا لم يورد غراتسياني في الطبعة الأولى لكتابه المذكور اسم المتصرف الغامض .. ؟ بينما حاول بواسطة جبرية حتمية تاريخية أن يورد اسم داودياتشي لأقدميته في رتبة جنرال باعتباره متصرف الجبل الأخضر في جميع الطبعات التالية للكتاب، بينما حاول التستر على القاتل الحقيقي أغسطس ملاكريا والذي كان يعتبر متصرف الجبل الفعلي أثناء قضية اعتقال عمر المختار، فماذا كان وراء قصد غراتسياني عندما أغفل ذكر اسم متصرف الجبل في الطبعة الأولى من كتابه ؟ لماذا هذا الغموض وعدم ذكر متصرف الجبل ؟

ولإزالة هذا الغموض نقول إن متصرف الجبل هو المدعو أغسطس مالاكريا الذي كان أحد المتورطين عام ١٩٢٤م في حادثة قتل ماتيوتي زعيم الاشتراكيين الطليان مما جعل موسوليني يقربه إليه حيث أسند إليه منصب متصرف الجبل في ليبيا .

وقد تم نشر كتابي رودلفو غراتسياني وهما : " برقة المهدأة " و" السلام الروماني في ليبيا " بكل حرص وحكمة فقد كان نشر الكتابين المذكورين يهدف إلى غاية ما.. لذلك كان على المؤلف غراتسياني التحليق بعيداً عن بعض الوقائع التاريخية وذلك بحرصه على عدم ذكر اسم المجرم القاتل أغسطس مالاكريا خاصة فيما يتعلق بمناسبة إلقاء القبض على الشيخ عمر المختار، فقد حاول المؤلف إعادة إيراد الوقائع التاريخية لتلك الواقعة بصخب رنان بدلاً من ذكر الحقيقة بالتفصيل .

وإذا ما عدنا إلى الواقع نجد أن اعتقال عمر المختار قد تم بعد مناوشة بالذخيرة الحية حدثت ما بين المجاهدين بقيادة عمر المختار نفسه وسرية الصوراى للفرسان، حيث أصيب حصان عمر المختار بطلقة نارية فوقع على الأرض وعلى ظهره عمر المختار الذي أصيب بجرح بسيط، مما أدى إلى محاصرته بجميع جنود السرية بعد أن تعذر على أتباعه مساعدته على النهوض، مما جعله يحاول الاختباء تحت إحدى الشجيرات حيث لم يبق طويلا حتى تعرف عليه أحد المقاتلين الذي كان من بين جنود سرية الصوراي الإيطالية، حيث أخذ يصيح بأعلى صوته منادياً بقية الجنود قائلا " عمر .. عمر المختار أسرعوا.." مما جعل ضابط السرية يصدر أوامره لجميع الجنود بمحاصرة الجريح من أجل اتخاذ الاستعدادات السريعة لنقل عمر المختار إلى مقر القوات الإيطالية في سوسة.

وقد صادف أن كان غراتسياني في روما يستعد لأخذ القطار إلى باريس لزيارة معرض المستعمرات، وعندما علم باعتقال عمر المختار سافر بالطائرة رأساً إلى

طرابلس في الساعة الواحدة صباحاً .. ومن طرابلس سافر على متن طائرة عند الساعة ١٤ بعد الظهر إلى بنغازي وذلك لمشاهدة عمر المختار الذي كان مكبلا بالسلاسل يرقد في السجن تحت حراسة مشددة .

وقد كان لانتشار نبأ اعتقال عمر المختار صدى عميقاً بين فرق القوات العسكرية الإيطالية والمواطنين في البلاد، وقد وجد غراتسياني أن تلك فرصة ثمينة لا يجب التفريط فيها، فقام باستغلالها إعلاميا من أجل تدمير أسطورة البطل عمر المختار، كذلك من أجل إخماد استمرارية المقاومة نفسيا سيكولوجيا لدى المجاهدين الليبيين وكذلك في نفوس بقية المواطنين العرب حيث أخذ يلوح بالدرس القاسي الذي لحق بعمر المختار على حد قوله بسبب عناده وعدم استسلامه لسلطة الحكومة الإيطالية .

وقد تحدد مصير عمر المختار يوم ١٥سبتمبر١٩٣١ في صالون بالاس ليتوريا بمدينة بنغازي، حيث تم إجراء محاكمة صورية له تم فيها الحكم عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت .

وفي صباح يوم ١٦سبتمبر١٩٣١ كما يورد غراتسياني في كتابه " برقة المهدأة" بقوله : عند الساعة التاسعة صباحا بالضبط من يوم ١٦سبتمبر١٩٣١ وبحضور جميع أعيان القبائل البرقاوية في المعسكرات القريبة من بنغازي تم تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في عمر المختار زعيم الثوار المتمردين .

"إنا لله وإنا إليه راجعون" هذا ما ردده عمر المختار عندما وقف على منصة المشنقة، ولكن نجد أنه في الحقيقة وقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، قد قال بازدراء ومن دون مبالاة للجنود الطليان المحيطين به : " هكذا أنتم أيها التعساء .. ليس لديكم على الأقل رصاصتان تقتلونني بهما " .

هذا هو نص العبارة التي رواها ليفيو الذي كان يعتبر شاهد عيان على الحرب الليبية والذي تم بواسطته كشف غموض شخصية متصرف الجبل أغسطس مالاكريا،

كما أنه ساعد برواياته أن يسد ثغرة الساعات الأخيرة من حياة عمر المختار التي قضاها في معتقل بسوسة تحت الحراسة المشددة .

ولقد كان من أهم واجبات متصرف الجبل مالاكريا المكلف بها هي إخضاع سكان منطقة الجبل بالقوة، لذلك أصبح من واجبات فرقة الصوراي غير النظامية والتي كانت تعتبر رهن إشارة متصرف الجبل حماية القبائل في تلك المناطق من غارات رفاق عمر المختار الذين كانوا يقومون بتلك الغارات المتكررة على نجوع القبائل من أجل الحصول على الماشية والتموين اللازم بعد قيام غراتسياني بإغلاق الحدود الليبية المصرية بالأسلاك الشائكة لمسافة ٢٧٠ كم، من أجل منع وصول التموين للمجاهدين والذين كان يصلهم عن طريق الحدود المصرية .

وعندما تم إلقاء القبض على عمر المختار سارع متصرف الجبل للتعرف على هوية الأسير، لذلك فعندما فرغ من التأكد من شخصية عمر المختار قام بإيداعه لدى السجان ليفيو مساء يوم ١١سبتمبر١٩٣١ في سوسة وأشار إليه محذرا وهو يرفع سبابته في وجهه نحو عمر المختار قائلاً : "هل ترى هذا المتمرد .. احرص لا تدعه يهرب منك .. لأني سوف أقتله " .

وقد حاول المجاهدون من أتباع عمر المختار الإفراج عن زعيمهم بعدما علموا بوقوعه في الأسر بواسطة القوات الإيطالية .. وذلك بعد انتظار له لم يدم طويلاً .

ويصف شاهد العيان ليفي، عمر المختار قائلا : "كان شيخاً متوسط الطول عنيدا عيناه تشعان ببريق الدهاء والحيلة، ويبدو منظره كطائر جارح بسبب التقوس الذي يبدو في ظهره، بالإضافة إلى عمق التقاطيع التي تمتد من أعلى جبهته لتستمر فوق حاجبيه ثم تنحدر إلى أسفل حيث تتقاطع عند فمه ثم تتوارى عند ذقنه تحت لحيته البيضاء القصيرة، أما لون بشرته فإنه كان يميل إلى اللون الأسمر .

ويستطيع المرء أن يدرك مدى ما يتميز به عمر المختار من سمو وطموح بالإضافة إلى عزة النفس عن قرب، حيث أن تلك الصفات جميعا لا تنفي مدى ما يتصف به من نبل ووجاهة " .

وقد نظر عمر المختار إلى سجانه قائلا : هل تعرفني ؟ فأجاب ليفي بقوله " كلا لم أعرفك أبدا " ولكن عمر بادره بهدوء " إني قد رأيتك عدة مرات، فأنت معروف بين الأهالي بارتدائك الزي الوطني العربي، كما أنك تعتبر أشهر وأسرع قناص في إطلاق النار، أنا أعرف ذلك فالحرب هي التي جعلت منا أعداء . إن رجالي يعرفونك جيداً حيث يلقبونك باسم " الشيطان " فأنت الذي كنت تحرس بنات القبيلة عندما كن يقمن بزيارة سيدي عبد الواحد .. أتذكر رجالي عندما قاموا بمهاجمتك عند وادي الكوف .. لقد نجوت بأعجوبة من وابل الرصاص عندما اضطررت إلى تغيير الحصان الذي كنت تمتطيه والذي كان قد أصيب بطلقات الرصاص لثالث مرة .. فلنقل إن الله قد نجاك .. بعد توقف إطلاق النار .. هذا كل ما حدث وأنا الآن أعتبر نفسي سجينك " .

وعندما توقف عمر المختار عن الكلام، بادره ليفي بقوله : " سوف أعقد معك معاهدة سلام إلى غد .. فأنت لست سجيني فقط، بل أيضاً ضيفي في اليوم الأول، حيث يعتبر الضيف عندكم في ذلك اليوم ابن الله " ثم يستمر ليفي في روايته أن عمر المختار قد التفت إليه مجيبا إياه بقوله : "السلام عليك " حيث رد عليه ليفي وهو يتركه لوحده قائلا " وعليك السلام إلى غد " .

ويستمر السجان في روايته لكاتب المقالة السنيور باولو باقانيني بقوله " وعندما تركت عمر المختار وحده، ذهبت لإعداد الطعام له، والذي كان يتكون من طهي دجاجة له، وعندما قدمت له الطعام، اعتدل عمر في جلسته ولم تمر إلا ثوان وقد التهم الدجاجة حيث لم يترك منها إلا العظام بعد أن خرطها من اللحم بواسطة أسنانه الناصعة البياض .. وعندما شعر بنظراتي تتجه إليه التفت إلى قائلا " إن اللحم يعتبر غذاء رئيسيا لي ؛ لأنه يمنحني القوة .. " .

وبعد أن فرغ من التهام الطعام جلس وأخذ ينظر إلى بينما بادرته قائلا " أريد أن أسألك الآن " وبعد أن رد بالإيجاب وهو يعتدل في جلسته قلت له متسائلا : كيف استطعت أنت ورفاقك البقاء على قيد الحياة طويلا دون حماية وتموينات ؟ أجابني وهو يهز رأسه قائلا : نحن البدو مثل عصافير السماء التي تجد ما تأكله في المكان الذي يخيل إليك أنه يخلو من الطعام .. وبعد أن تركت عمر يسرح في خياله، نهض من مكانه وهو يزمجر غاضباً كالأسد متأثراً بما حصل له .. بينما أخذ يتفوه ببعض العبارات يرددها قائلا " الكلب الكلب .. حتى عمر غدر به .. حتى عمر كان له يهوذا " وعندما هدأ غضبه اقتربت منه حيث جلس وأخذ يروي كيف وقع من على حصانه الذي أصيب بجراح، ثم كيف حاول الاختباء تحت الشجيرات القريبة منه، ولكن أحد فرسان الصواري والذي كان من العرب استطاع اكتشاف عمر المختار وهو مختبئ تحت الشجيرة . (يصمت عمر قليلا .. ثم يضيف بحدة وغضب : إن العربي الذي اكتشفني تحت الشجيرة يعتبر أخي .. لم يسكت بل بدأ يصرخ عندما عرفني بأعلى صوته باسمي كاملا .. وهو يردد عمر .. عمر المختار، فلو أن ذلك الكلب الخائن لم يتفوه بكلمة واحدة عني فلربما تم نقلي مع بقية الأسرى كشخص عادي، فلا أحد يعلم فيما بعد فلربما أستطيع الهرب بمساعدة أحد رفاقي .

وطوال تلك الليلة التي قضاها عمر في سوسة، والتي لم يعرف أبدا بأنه سوف ينقل بواسطة البحر إلى بنغازي صباحا، أخذ يروي شتى القصص على مسامعي، بينما كان بين الحين والآخر يتململ وهو يتأوه قائلا" مكتوب .. مكتوب فالذي قد سطر فلا مفر منه .. فحياة الإنسان كالسبحة تتساقط حباتها متتالية مثل توارد الأفكار على الإنسان نفسه .. فمرة يشعر بالسعادة وأخرى بالحزن .. وهكذا إلى النهاية .. فمرة حظ سعيد وأخرى حظ سيء تعس .. فالمكتوب هو المكتوب لن يتغير أبدا .

وبعد أن توقف عن الكلام حدجني بنظرة وهو يقول : أنت شاب محارب مخلص.. فأنا مسرور جدا لأكون سجينك .. هذا بالإضافة إلى أنك متزوج من فتاة

مسلمة عربية من قومنا .. ولكن المسلمة لا تتزوج من مسيحي، فقاطعته قائلا : إن الفتاة العربية التي من قومك قد تزوجت من رجل طيب وأمين . ثم بسطت له يدي مصافحا .

ثم يستمر ليفي سجان الشهيد في سرد حكاياته عن الساعات الأخيرة في حياة البطل عمر المختار حيث يصف شخصية البطل المسلم المؤمن بالقضاء والقدر بقوله " وفي الحقيقة كان عمر رجلا يصلي لله منذ انبلاج الصبح إلى غروب الشمس مع نهاية كل يوم، رجلا يصلي لله ليلا بدلا من أن يتمشى .. رجلا يصلي لله من أجل أسرته وماشيته ثم الطريق الذي سوف يسلكه .. رجلا يصلي لله من أجل حماية حياة المسلمين جميعا ومن أجل مواصلة الكفاح العادل المقدس الذي أمر به الله سبحانه وتعالى .. الله أكبر .. الله أكبر .. ألقى عمر المختار نظرة إلى الخارج .. إن بزوغ الصبح لقريب هكذا قال وهو يتململ في مكانه ثم أضاف قائلا: " إن بزوغ النهار يكون طريا منعشا مثل صوت شابة تغني على البئر .. ثم يكون توالي النهار فيما بعد باعثا على السأم والملل مثل سير خطوات الجمل البطيئة .. أو حارق مثل حدوة الحصان الذي يركض مسرعا .. وأخيرا يأتي المساء وهو مثل لون الرماد .. إن الحياة مثل تعاقب النهار .. شعارها فعل وإرادة يكونان معا شيئا مهما في حياة الإنسان، ثم يتدخل القدر فيما بعد ليدل على مصير حياة الإنسان .. إن حتمية النهاية أو المكتوب "المقدر" بالنسبة للإنسان تأتي تلقائيا مثل نافورة مياه أو مسجد في الصحراء عندما تصل إليهما تجد نفسك تعبان وبالتالي غير قادر على مواصلة السير .. فتبقى تنتظر بجوارهما حلول المساء أو بمعنى آخر النهاية أو المصير، فأنت كما ترى أن حياتي قد رسمت مسيرتها منذ الولادة حتى النهاية، فحياتي ليست مثل حياة أولئك الشبان تبدأ مع شهر رمضان ولكنها كانت قد بدأت قبل ذلك، فأنا ولدت لأقود الآخرين ولأفهم ما جاء به القرآن الكريم من معانٍ .. بينما البعض الآخر يكتفي بتعلم قراءته فقط .

ثم قام عمر بخلع جرده عن كتفه، وبينما انهمك ليفترشه فوق حصيرة الديس استعدادا للنوم خرجت أنا – ليفي – لأقوم بالدورية الليلية المعتادة ممتطيا صهوة حصاني وذلك للتأكد من أن كل شيء يدور حول المعسكر على ما يرام، وما إن رجعت إلى عمر بعد أن تأكدت من الهدوء الذي كان يحيط بالمعسكر حتى وجدته مستغرقا في النوم، بينما ما زال رفاقه لم يعرفوا بعد المكان الذي كان يعتقد أن المختار لم يقبض عليه، بل تائه لم يستطع الوصول إليهم بسبب الجروح التي أصيب بها يجري مهرولا في الجبل مناديا بيأس : ياباتي .. ياباتي .. بينما كانت أسرته تشعر بالقلق عليه لعدم عودته مع رفاقه كالعادة .

" وفي الفجر عندما سمع عمر المؤذن ينادي المسلمين لأداء الصلاة بقوله: الله أكبر .. الله أكبر ... قام عمر من نومه وتوجه نحو القبلة بمكة وأدى الصلاة كبقية المسلمين . وفي الحقيقة وجدت نفسي (ليفي) معجبا بفلسفته في الحياة.. فهو يشعر في وجدانه بأنه محارب قد هزم ولكنه مع ذلك لم يفقد الهدوء وعزة النفس والوقار التي كانت تتميز بها شخصيته" .

وعند تمام الساعة السادسة صباحا قمت بمرافقته إلى الطراد الحربي أورسيني حيث تم التسليم والاستلام مع الجنود الذين اقتادوه إلى داخل الطراد الحربي بينما كان يلقي على تحية الوداع .. وعندما عدت إلى المعسكر، كنت أفكر في عمر المختار بينما كنت أهمس إلى نفسي في هدوء .. لربما أراه وربما لن أراه، أحقا إن الموتى لا يرجعون ؟ وما إن وصلت إلى المعسكر حتى قلت لنفسي .. يموت عمر .. لا مفر من ذلك . أما أن يقاسي إهانة الشنق كأي مجرم عادي أو أي شرير جاحد لله.. فهذا ما يعتبره المسلمون إهانة .. حيث يعتقدون أن حبل المشنقة عندما يلتف حول الرقبة لا يسمح بخروج الروح من الحلق .. وهكذا كما يعتقدون أن روح عمر سوف لن تستطيع الرجوع إلى الخالق !! هكذا كان يعتقد هذا الإيطالى.

وينتسب عمر المختار إلى قبيلة المنفة إحدى كبريات قبائل المرابطين ببرقة ولد عام ١٨٦٢م في قرية جنزور بمنطقة دفنة في الجهات الشرقية من برقة التي تقع شرقي ليبيا على الحدود المصرية..

تربى يتيما ..حيث وافت المنية والده مختار بن عمر وهو في طريقه إلى مكة المكرمة بصحبة زوجته عائشة.

تلقى عمر المختار تعليمه الأول في زاوية جنزور ثم سافر إلى الجغبوب ليمكث فيها ثمانية أعوام للدراسة والتحصيل على كبار علماء ومشايخ السنوسية في مقدمتهم الإمام السيد المهدي السنوسى قطب الحركة السنوسية، فدرس اللغة العربية والعلوم الشرعية وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ولكنه لم يكمل تعليمه كما تمنى.

ظهرت عليه علامات النجابة ورزانة العقل،، فاستحوذ على اهتمام ورعاية أستاذه السيد المهدي السنوسى مما زاده رفعة وسموًّا، فتناولته الألسن بالثناء بين العلماء ومشايخ القبائل وأعيان المدن حتى قال فيه السيد المهدي واصفاً إياه " لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم ".

فقد وهبه الله تعالى ملكات منها جشاشة صوته البدوي وعذوبة لسانه واختياره للألفاظ المؤثرة في فن المخاطبة وجاذبية ساحرة لدرجة السيطرة على مستمعيه وشد انتباههم،

شارك عمر المختار في الجهاد بين صفوف المجاهدين في الحرب الليبية الفرنسية في المناطق الجنوبية (السودان الغربي) وحول واداي. وقد استقر المختار فترة من الزمن في قرو مناضلاً ومقاتلاً ثم عين شيخاً لزاوية (عين كلك) ليقضي فترة من حياته معلماً ومبشراً بالإسلام في تلك الأصقاع النائية.

وبعد وفاة السيد محمد المهدي السنوسي عام ١٩٠٢م تم استدعاؤه حيث عين شيخاً لزاوية القصور.

عاش عمر المختار حرب التحرير والجهاد منذ بدايتها يوماً بيوم فعندما أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا في ٢٩ سبتمبر ١٩١١م وبدأت البارجات الحربية بصب قذائفها على مدن الساحل الليبي درنة وطرابلس ثم طبرق وبنغازي والخمس كان عمر المختار في تلك الأثناء مقيما في جالو بعد عودته من الكفرة حيث قابل السيد أحمد الشريف.

وعندما علم بالغزو الإيطالي سارع إلى مراكز تجمع المجاهدين حيث ساهم في تأسيس دور بنينه وتنظيم حركة الجهاد والمقاومة إلى أن وصل السيد أحمد الشريف قادماً من الكفرة. وقد شهدت الفترة التي أعقبت انسحاب الأتراك من ليبيا سنة ١٩١٢م أعظم المعارك في تاريخ الجهاد الليبي أذكر منها على سبيل المثال معركة يوم الجمعة عند درنة في ١٦ مايو ١٩١٣م حيث قتل فيها للأيطاليين عشرة ضباط وستون جنديا وأربعمائة فرد بين جريح ومفقود إلى جانب انسحاب الإيطاليين بلا نظام تاركين أسلحتهم ومؤنهم وذخائرهم.

ومعركة بو شمال عن عين ماره في ٦ أكتوبر ١٩١٣ وعشرات المعارك الأخرى.

وحينما عين أميليو حاكماً عسكريا لبرقة رأى أن يعمل على ثلاثة محاور :

الأول : قطع الإمدادات القادمة من مصر والتصدي للمجاهدين في منطقة مرمريكا .

الثاني : قتال المجاهدين في العرقوب وسلنطة والمخيلي..

والثالث :قتال المجاهدين في مسوس وإجدابيا.

لكن القائد الإيطالي وجد نار المجاهدين في انتظاره في معارك أم شخنب وشليظيمة والزويتينة في فبراير ١٩١٤م ولتتواصل حركة الجهاد بعد ذلك حتى وصلت إلى مرحلة جديدة بقدوم الحرب العالمية الأولى.

بعد الانقلاب الفاشي في إيطالي في أكتوبر ١٩٢٢ وبعد الانتصار الذي تحقق في تلك الحرب. تغيرت الأوضاع داخل ليبيا واشتدت الضغوط على السيد محمد إدريس السنوسي واضطر إلى ترك البلاد عاهداً بالأعمال العسكرية والسياسية إلى عمر المختار في الوقت الذي قام أخوه الرضا مقامه في الإشراف على الشؤون الدينية.

بعد أن تأكد للمختار النوايا الإيطالية في العدوان قصد مصر عام ١٩٢٣م للتشاور مع السيد إدريس فيما يتعلق بأمر البلاد وبعد عودته نظم أدوار المجاهدين فجعل حسين الجويفي على دور البراعصة ويوسف بورحيل المسماري على دور العبيدات والفضيل بوعمر على دور الحاسة وتولى هو القيادة العامة.

بعد الغزو الإيطالي على مدينة اجدابيا مقر القيادة الليبية أصبحت كل المواثيق والمعاهدات لاغية وانسحب المجاهدون من المدينة وأخذت إيطاليا تزحف بجيوشها من مناطق عدة نحو الجبل الأخضر.

وفي تلك الأثناء تسابقت جموع المجاهدين إلى تشكيل الأدوار والانضواء تحت قيادة عمر المختار كما بادر الأهالي إلى إمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح وعندما ضاق الإيطاليون ذرعا من الهزيمة على يد المجاهدين أرادوا أن يمنعوا عنهم طريق الإمداد فسعوا إلى احتلال الجغبوب ووجهت إليها حملة كبيرة في ٨ فبراير ١٩٢٦م وقد شكل سقوطها أعباء ومتاعب جديدة للمجاهدين وعلى رأسهم عمر المختار ولكن الرجل حمل العبء كاملاً بعزم العظماء وتصميم الأبطال.

ولاحظ الإيطاليون أن الموقف يملي عليهم الاستيلاء على منطقة فزان لقطع الإمدادات على المجاهدين فخرجت حملة في يناير ١٩٢٨م ولم تحقق غرضها في احتلال فزان بعد أن دفعت الثمن غاليا. ورغم حصار المجاهدين وانقطاعهم عن مراكز تموينهم إلا أن الأحداث لم تنل منهم وتثبط من عزمهم والدليل على ذلك معركة يوم ٢٢ أبريل التي استمرت يومين كاملين انتصر فيها المجاهدون وغنموا عتادا كثيرا.

وتوالت الانتصارات الأمر الذي دفع إيطاليا إلى إعادة النظر في خططها وإجراء تغييرات واسعة .

فأمر موسوليني بتغيير القيادة العسكرية حيث عين بادوليو حاكماً عسكريا على ليبيا في يناير ١٩٢٩م ويعد هذا التغيير بداية المرحلة الحاسمة بين الطليان والمجاهدين.

تظاهر الحاكم الجديد لليبيا في رغبته للسلام لإيجاد الوقت اللازم لتنفيذ خططه وتغيير أسلوب القتال لدى جنوده وطلب مفاوضة عمر المختار تلك المفاوضات التي بدأت في ٢٠ أبريل ١٩٢٩م.

واستجاب الشيخ لنداء السلام وحاول التفاهم معهم على صيغة ليخرجوا من دوامة الدمار. فذهب كبيرهم للقاء عمر المختار ورفاقه القادة في ١٩ يونيو١٩٢٩م في سيدي أرحومة. ورأس الوفد الإيطالي بادوليو نفسه، الرجل الثاني بعد بنيتو موسليني، ونائبه سيشليانو، ولكن لم يكن الغرض هوالتفاوض، ولكن المماطلة وشراء الوقت لتلتقط قواتهم أنفاسها، وقصد الغزاة الغدر به والدس عليه وتأليب أنصاره والأهالي وفتنة الملتفين حوله..

وعندما وجد المختار أن تلك المفاوضات تطلب منه إما مغادرة البلاد إلى الحجاز أو مصر أو البقاء في برقة وإنهاء الجهاد ..والاستسلام مقابل الأموال والإغراءات رفض كل تلك العروض وكبطل شريف ومجاهد عظيم عمد إلى الاختيار الثالث وهو مواصلة الجهاد حتى النصر أو الشهادة.

تبين للمختار غدر الإيطاليين وخداعهم ففي ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩م وجه نداء إلى أبناء وطنه طالبهم فيه بالحرص واليقظة أمام ألاعيب الغزاة.

وصحت توقعات عمر المختار ففي ١٦ يناير ١٩٣٠م ألقت الطائرات بقذائفها على المجاهدين.

دفعت مواقف المختار ومنجزاته إيطاليا إلى دراسة الموقف من جديد وتوصلت إلى تعيين غرسياني وهو أكثر جنرالات الجيش وحشية ودموية.. ليقوم بتنفيذ خطة إفناء وإبادة لم يسبق لها مثيل في التاريخ في وحشيتها وفظاعتها وعنفها **وقد تمثلت في عدة إجراءات ذكرها غرسياني في كتابه "برقة المهدأة":**

١ - قفل الحدود الليبية المصرية بالأسلاك الشائكة لمنع وصول المؤن والذخائر.

٢ - إنشاء المحكمة الطارئة في أبريل ١٩٣٠م.

٣ - فتح أبواب السجون في كل مدينة وقرية ونصب المشانق في كل جهة.

٤ - تخصيص مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة البيضاء والمقرون وسلوق من أواسط برقة الحمراء لتكون مواقع الاعتقال والنفي والتشريد.

٥ - العمل على حصار المجاهدين في الجبل الأخضر واحتلال الكفرة.

انتهت عمليات الإيطاليين في فزان باحتلال مرزق وغات في شهري يناير وفبراير ١٩٣٠م ثم عمدوا إلى الاشباك مع المجاهدين في معارك فاصلة وفي ٢٦ أغسطس ١٩٣٠م ألقت الطائرات الإيطالية حوالي نصف طن من القنابل على الجوف والتاج وفي نوفمبر اتفق بادوليو وغرسياني على خط الحملة من أجدابيا إلى جالو إلى بئر زيغن إلى الجوف وفي ٢٨ يناير ١٩٣١م سقطت الكفرة في أيدي الغزاة وكان لسقوط الكفرة آثار كبيرة على حركة الجهاد والمقاومة.

في معركة السانية في شهر أكتوبر عام ١٩٣٠م سقطت من الشيخ عمر المختار نظارته، وعندما وجدها أحد جنود الطليان وأوصلها لقيادته، فرآها غراتسياني فقال: "الآن أصبحت لدينا النظارة، وسيتبعها الرأس يوماً ما".

وفي ١١ سبتمبر من عام ١٩٣١م، وبينما كان الشيخ عمر المختار يستطلع منطقة سلنطة في كوكبة من فرسانه، عرفت الحاميات الإيطالية بمكانه فأرسلت قوات لحصاره ولحقها تعزيزات، واشتبك الفريقان في وادي بوطاقة ورجحت الكفة للعدو فأمر عمر المختار بفك الطوق والتفرق، ولكن قُتلت فرسه تحته وسقطت على يده مما شل حركته نهائياً. فلم يتمكن من تخليص نفسه ولم يستطع تناول بندقيته ليدافع عن نفسه، فسرعان ماحاصره العدو من كل الجهات وتعرفوا على شخصيته، فنقل على الفور إلى مرسى سوسه ومن ثم وضع على طراد الذي نقله رأسا إلى بنغازي حيث أودع السجن الكبير بمنطقة سيدي اخريبيش. ولم يستطع الطليان نقل الشيخ برا لخوفهم من تعرض المجاهدين لهم في محاولة لتخليص قائدهم.

كان لاعتقاله في صفوف العدو، صدى كبير، حتى إن غراسياني لم يصدّق ذلك في بادىء الأمر، وكان غراتسياني في روما حينها كئيباً حزيناً منهار الأعصاب في طريقه إلى باريس للاستجمام والراحة تهرباً من الساحة بعد فشله في القضاء على المجاهدين في برقة، حيث بدأت الأقلام اللاذعة في إيطاليا تنال منه والانتقادات المرة تأتيه من رفاقه مشككة في مقدرته على إدارة الصراع. وإذا بالقدر يلعب دوره ويتلقى برقية مستعجلة من بنغازي مفادها أن عدوه اللدود عمر المختار وراء القضبان.

فأصيب غراتسياني بحالة هستيرية كاد لا يصدق الخبر. فتارة يجلس على مقعده وتارة يقوم، وأخرى يخرج متمشياً على قدميه محدثاً نفسه بصوت عال، ويشير بيديه ويقول: "صحيح قبضوا على عمر المختار ؟ ويرد على نفسه لا، لا أعتقد." .

ولم يسترح باله فقرر إلغاء إجازته واستقل طائرة خاصة وهبط ببنغازي في نفس اليوم وطلب إحضار عمر المختار إلى مكتبه لكي يراه بأم عينيه.

وصل غرسياني إلى بنغازي يوم ١٤ سبتمبر وأعلن عن انعقاد "المحكمة الخاصة" يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١م وفي صبيحة ذلك اليوم وقبل المحاكمة رغب غرسياني في الحديث مع عمر المختار يذكر غرسياني في كتابه (برقة المهدأة)

"وعندما حضر أمام مكتبي تهيأ لي أن أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية. يداه مكبلتان بالسلاسل رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة وكان وجهه مضغوطا لأنه كان مغطيا رأسه (بالجرد ويجر نفسه بصعوبة نظراً لتعبه أثناء السفر بالبحر وبالإجمال يخيل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال له منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر ها هو واقف أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوت هادئ وواضح. "

غراتسياني: لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة لفاشستية ؟

أجاب الشيخ: من أجل ديني ووطني.

غراتسياني:ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه ؟

فأجاب الشيخ: لا شيء إلا طردكم ... لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهي فرض علينا وما النصر إلا من عند الله.

غراتسياني: لما لك من نفوذ وجاه، في كم يوم يمكنك إن تأمر الثوار بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتهم ؟.

فأجاب الشيخ: لا يمكنني أن أعمل أي شيء ... وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلنا الواحد بعد الآخر، ولا نسلم أو نلقي السلاح...

ويستطرد غرسياني حديثه "وعندما وقف ليتهيأ للانصراف كان جبينه وضاء كأن هالة من نور تحيط به فارتعش قلبي من جلالة الموقف أنا الذي خاض معارك الحروب العالمية والصحراوية ولقبت بأسد الصحراء.

ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنطق بحرف واحد فأنهيت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه إلى المحاكمة في المساء . وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتي ولكنه لم يتمكن لأن يديه كانتا مكبلتين بالحديد. "

عقدت للشيخ الشهيد محكمة هزلية صورية في مركز إدارة الحالفاشستي ببنغازي مساء يوم الثلاثاء عند الساعة الخامسة والربع في ١٥ سبتمبر ١٩٣١م، وبعد ساعة تحديداً صدر منطوق الحكم بالإعدام شنقاً حتى الموت، وعندما ترجم له الحكم، قال الشيخ "إن الحكم إلا لله . . . لا حكمكم المزيف ... إنا لله وإنا إليه راجعون" .

- وهنا نقدم نقلا حرفيا لمحضر المحاكمة كما ورد في الوثائق الإيطالية :

إنه في سنة ألف وتسعمائة وواحدة وثلاثين ؛ السنة التاسعة، وفي اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر، ببنغازي، وفي تمام الساعة ١٧ بقصر "الليتوريو" بعد إعداده كقاعة لجلسات المحكمة الخاصة بالدفاع عن أمن الدولة، والمؤلفة من السادة :

- المقدم الكواليير اوبيرتو فانتيري مارينوني، رئيسا بالوكالة، نيابة عن الرئيس الأصيل الغائب لعذر مشروع .

- المحامي د. فرانشيسكو رومانو (قاضي مقرر) .

- الرائد الكاواليير قوناريو ديليتلو (مستشار، أصيل) .

- رائد "الميليشيا التطوعية للأمن الوطني (الكواليير جوفاني منزوني، مستشار أصيل).

- رائد "الميليشيا التطوعية للأمن الوطني (الكواليير ميكيلي مندوليا، مستشار أصيل)، والرئيس بالنيابة عن الرئيس الأصيل، الغائب بعذر مشروع .

- بمساعدة الملازم بسلاح المشاة، ايدواردو ديه كريستوفانو (كاتب الجلسة العسكري بالنيابة) .

للنظر في القضية المرفوعة ضد : عمر المتخار، ابن عائشة بنت محارب، البالغ من العمر ٧٣ سنة، والمولود بدفنة، قبيلة منفة، عائلة بريدان، بيت فرحات؛ حالته

الاجتماعية : متزوج وله أولاد، يعرف القراءة والكتابة، وليست له سوابق جنائية، في حالة اعتقال منذ ١٢ سبتمبر ١٩٣١ .

المتهم بالجرائم المنصوص عليها وعلى عقوباتها في المواد ٢٨٤-٢٨٥-٢٨٦-٥٧٥-٥٧٦ (٣)، والمادة ٢٦، البنود : ٢ - ٤ - ٦ - ١٠، وذلك أنه قام، منذ عام ١٩١١م وحتى القبض عليه في جنوب سلنطة في ١١سبتمبر ١٩٣١ ، بإثارة العصيان وقيادته ضد سلطات الدولة الإيطالية، داخل أراضي المستعمرة، وباشتراكه في نصب الكمائن للوحدات المعزولة من قواتنا المسلحة وفي معارك عديدة وأعمال الإغارة للسلب والنهب واللصوصية مع ارتكاب جرائم قتل بدافع نزعته إلى القسوة والتوحش، وأعمال البطش والتنكيل، بقصد إحداث الدمار وسفك الدماء لفصل المستعمرة عن الوطن الأم .

بعد ذلك سمح للجمهور بدخول قاعة الجلسات، بينما جلس المتهم في المكان المخصص للمتهمين، تحت حراسة عسكرية، وهو طليق اليدين وغير مكبل بأغلال من أي نوع .

كما حضر وكيل النيابة العامة السينور "كواليير" أوفيتشالي جوسيبي بيديندو، كمدعٍ عسكري، والمكلف بالدفاع عن المتهم، المحامي، النقيب في سلاح المدفعية، روبيرتو لونتانو .

يعلن الرئيس افتتاح الجلسة . فيحضر أيضا المترجم السيد نصري هرمس الذي يطلب إليه الرئيس الإدلاء ببيانات هويته فيجيب :

- نصري هرمس، ابن المتوفى ميشيل، وعمري ٥٣ سنة، ولدت في ديار بكر ببلاد ما بين النهرين (العراق) رئيس مكتب الترجمة لدى حكومة برقة .

يكلفه الرئيس بأداء اليمين المقررة، بعد تحذيره حسبما هو مقرر، فيؤديها بصوت عال وبالصيغة التالية : (أقسم بأنني سأنقل الأسئلة إلى الشخص المقرر استجوابه بواسطتي بأمانة وصدق، وبأن أنقل الردود بأمانة) .

فيوجه الرئيس، عن طريق الترجمان، أسئلة للمتهم حول هويته، فيدلي بها بما يتفق مع ما تقدم، ومن ثم ينبه عليه بالإنصات إلى ما سيسمع . وعند هذه النقطة، يثبت في المحضر طلب وكيل النيابة بإعفاء المترجم نصري من المهمة بسبب وعكة ألمت به والاستعاضة عنه بالكوالبير لومبروزو بن آرونه وماريا قاندوس، المولود بتونس في ٢٧ - ٢ - ١٨٩١م، ومهنته صناعي .

فيكلفه الرئيس بأداء اليمين المقررة، بعد تحذيره نظاميا ؛

يتلو كاتب الجلسة صحيفة الاتهام، فيتولى الترجمان ترجمتها للمتهم، ويسرد بعدها قائمة المستندات والوثائق المتصلة بالدعوى، وبعد سردها يكلف الرئيس الترجمان بترجمتها، حيث إن المتهم غير ملم باللغة الإيطالية، ومن ثم يبدأ استجوابه حول الأفعال المنسوبة إليه ؛ فيرد عليها، ويتولى الترجمان ترجمة ردود المتهم عليها .

ويثبت بالمحضر أن المتهم يرد بانتظام عن كل اتهام حسب ما جاء في محضر استجوابه المكتوب، معترفا بأنه زعيم المقاومة في برقة وبهذه الصفة فهو الفاعل والمحرض لجميع الجرائم التي اقترفت في أراضي المستعمرة خلال العقد الأخير من الزمن، أي الفترة التي ظل خلالها الرئيس الفعلي للمقاومة .

وردا عن سؤال، يجيب :

منذ عشر سنوات، تقريبا، وأنا رئيس المحافظية . ويثبت هنا أن المتهم ظل يرد عن كل سؤال محدد حول تهمة بعينها، بقوله : لا فائدة من سؤالي عن وقائع منفردة، وما أرتكب ضد إيطاليا والإيطاليين، منذ عشر سنوات وحتى الآن، كان بإرادتي وإذني، عندما لم أشترك أنا نفسي في تلك الأفعال ذاتها .

وردا عن سؤال، يجيب : كانت الغارات تنفذ أيضا بأمري وبعضها قمت بها أنا نفسي .

يعطي الرئيس الكلمة لوكيل النيابة : بعد أن تناول الكلمة، أوجز مطلبه في أن تتكرم المحكمة، بعد تأكيد إدانة المتهم بالجرائم المنسوبة إليه، بإصدار حكم الإعدام عليه وما يترتب عليه من عواقب .

وينهي الدفاع، بدوره مرافعته بطلب الرأفة بالمتهم . وبعدما أعطى المتهم الكلمة كآخر المتحدثين، يعلن الرئيس قفل باب المناقشة، وتنسحب هيئة المحكمة إلى حجرة المداولة لتحديد الحكم .

عادت المحكمة بعد قليل إلى قاعة الجلسات ؛ لينطق الرئيس بصوت عال بالحكم بالإدانة، بحضور جميع الأطراف المعنية . فيقوم الترجمان بترجمة منطوق الحكم.

أثبت تحريريا كل ما تقدم بهذا المحضر الذي وقع عليه : كاتب المحكمة العسكري .

الإمضاء : ادواردو ديه كريستوفانو، الرئيس (المقدم الكاواليير أوميركو مانزولي).

كاتب المحكمة العسكرية، الإمضاء : ادواردوديه كريستوفاني .

الرئيس : (المقدم الكاواليير أوميركو مانزوني)

الإمضاء : أومبيرتو مانزوني.

- صورة طبق الأصل -

كاتب المحكمة العسكرية بالنيابة

التوقيع

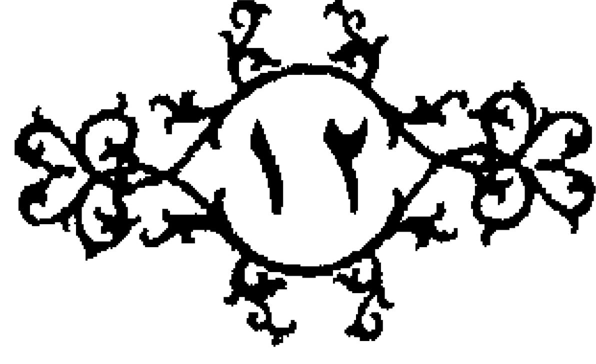
في صباح اليوم التالي للمحاكمة الأربعاء، ١٦ سبتمبر ١٩٣١م، اتخذت جميع التدابير اللازمة بمركز سلوق لتنفيذ الحكم بإحضار جميع أقسام الجيش والميليشيا

والطيران، وأحضر ٢٠ ألفا من الأهالي وجميع المعتقلين السياسيين خصيصاً من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم.

وأحضر الشيخ عمر المختار مكبل الأيدي، وعلى وجهه ابتسامة الرضا بالقضاء والقدر، وبدأت الطائرات تحلق في الفضاء فوق المعتقلين بأزيز مجلجل حتى لا يتمكن عمر المختار من مخاطبتهم، وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً سلم الشيخ إلى الجلاد، وكان وجهه يتهلل استبشاراً بالشهادة وكله ثبات وهدوء، فوضع حبل المشنقة في عنقه، وقيل عن بعض الناس الذين كان على مقربة منه أنه كان يأذن في صوت خافت أذان الصلاة، والبعض قال إنه تمتم بالآية الكريمة "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية" ليجعلها مسك ختام حياته البطولية. وبعد دقائق صعدت روحه الطاهرة النقية إلى ربها تشكو إليه عنت الظالمين وجور المستعمرين.

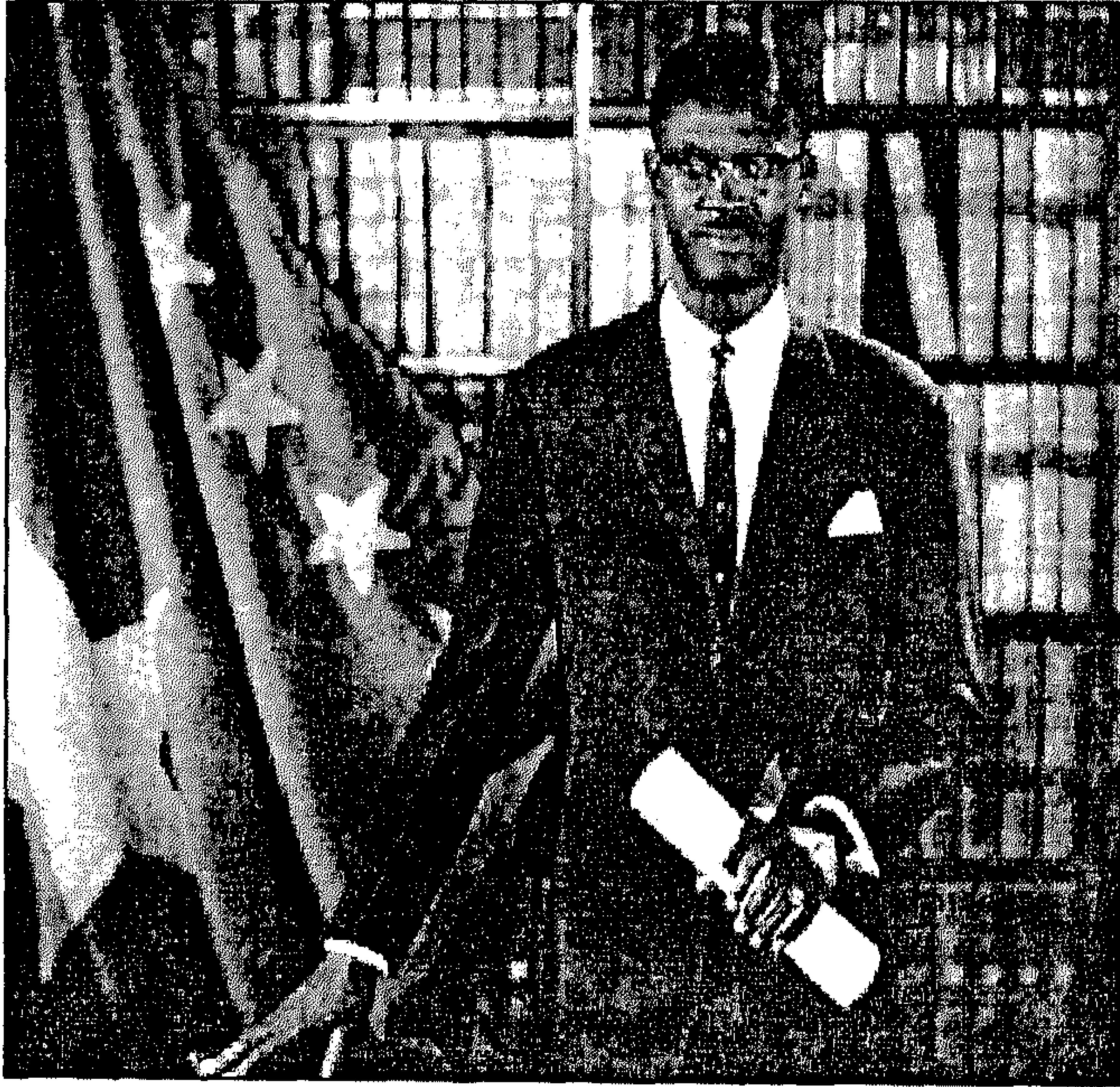
وسبق إعدام الشيخ أوامر شديدة الطبيعة بتعذيب وضرب كل من يبدي الحزن أو يظهر البكاء عند إعدام عمر المختار، فقد ضرب جربوع عبد الجليل ضرباً مبرحاً بسبب بكائه عند إعدام عمر المختار. ولكن علت أصوات الاحتجاج ولم تكبحها سياط الطليان، فصرخت فاطمة داروها العبارية وندبت فجيعة الوطن عندما علا الشيخ شامخاً مشنوقاً، ووصفها الطليان "بالمرأة التي كسرت جدار الصمت".





بياتريس لومومبا ..

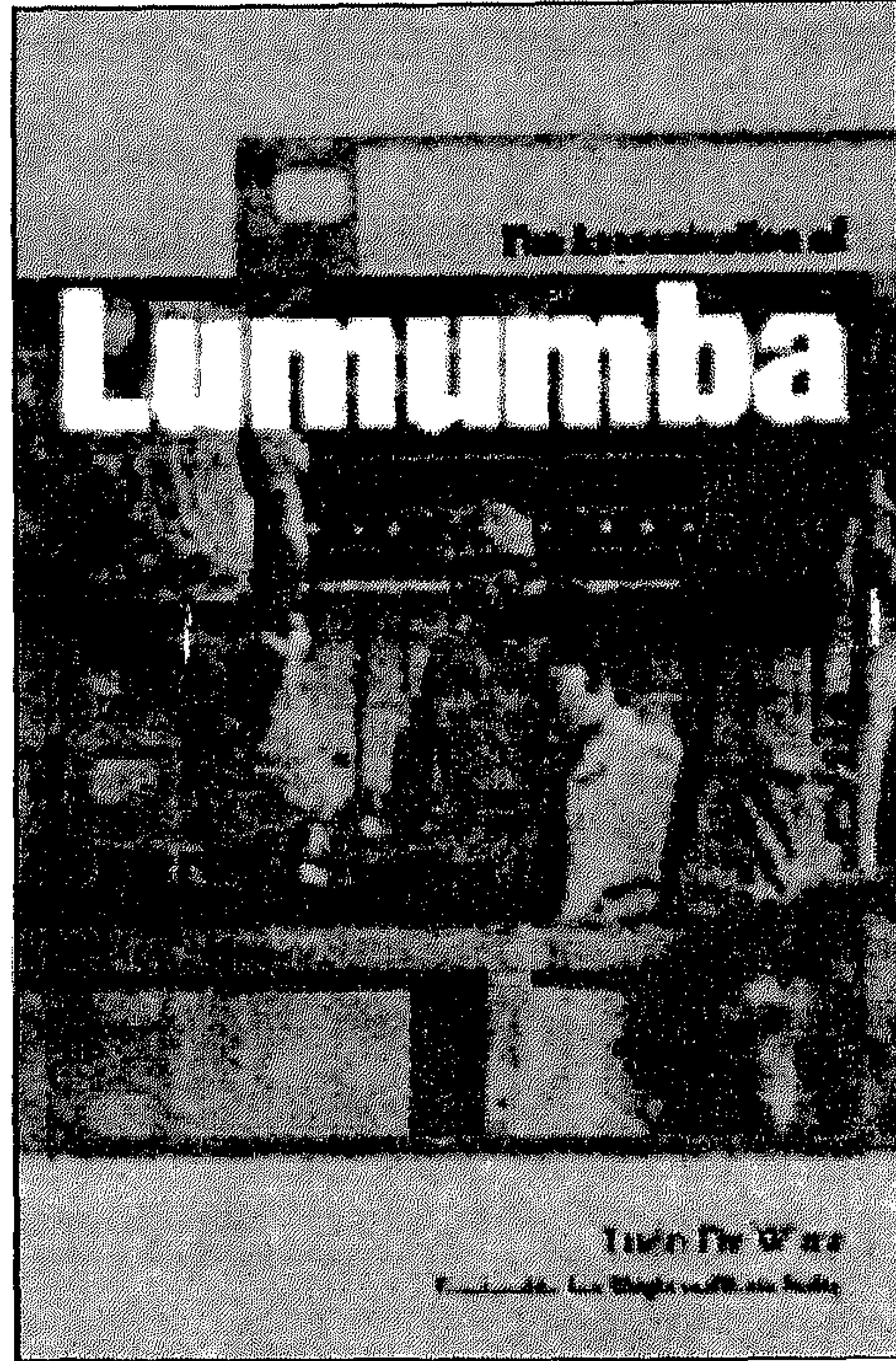
OOO



لا تزال صورة الزعيم الكونغولي بايتريس لومومبا (١٩٢٥ ١٩٦١) رمزًا للإلهام السياسي رغم رحيله من حوالي ٥٠ عامًا. فقد ظل لومومبا رمزًا للنضال السياسي ضد الاستعمار في أفريقيا والعالم الثالث وكان قائدًا لحركة قومية ناضلت للحصول على حقوق الكونغو ورئيسًا منتخبًا للوزراء، إلا أن الاستعمار البلجيكي والمنتفعين المحليين منه تآمروا عليه ليلقي حتفه في جريمة بشعة. وتنشر «وجهات نظر» فصلاً من كتاب عن أسرار اغتيال لومومبا، يروي اليوم الأخير في حياة المناضل الأفريقي الراحل.

كانت حاشية نتداكا (Nendaka) تتألف من ثلاثة جنود مختارين بعناية: بالوبا من كاساي الذي كانت كراهيته لرئيس الوزراء السابق تضمن تنفيذ الأوامر بصرامة، وقائدهم، اللفتننت زوزو (Zuzu) كان «وحشاً متعطشاً للدم». طبقًا لما قال بْرَسِّين: كانوا ينوون قطع مسافة الخمسين ومائة كيلومتر من العاصمة إلى ثيسفيل قبل الفجر. وقائد المعسكر الكولونيل بُبُزُ كان قد أصر على أن يأتي نتداكا بأسرع وقت. وبسبب التمرد الحديث جدًّا كان يريد مغادرة لومومبا قبل أن يستيقظ الجنود لأنه كان يخشي من حدوث شجار جديد أو أسوأ من ذلك. وصل نتداكا إلى مدخل معسكر هاردي نحو الساعة الرابعة صباحًا.

وبحسب أقوال بْرَسِّين، كان لديهم سجينان: موريس مبُل وجوزف أُكِيتُ يرافقان لومومبا في رحلته الأخيرة إلى موته. كان موريس مبُل، (٣٠ سنة، وزير الرياضة والشباب في حكومة لومومبا، وكذلك رئيس أركان الجيش الكونغولي فترة قصيرة. وجوزف أُكِيتُ (٥٠ سنة كان نائب رئيس مجلس الشيوخ قبل إغلاقه. لقد وقع كلاهما في أيدي جنود مُوبوتو في أثناء محاولة لومومبا الهرب إلى ستانليفيل، واعتقال أُكِيتُ جرى قرب كِكوت. مبُلُ اقترف غلطة بمخاطبة تجمع من مؤيديه عند بحيرة لِيبُلد الثاني قبل مغادرة ستانليفيل فجري اعتقاله عند مُوشِي. وجري الاحتفاظ بهما في لوزومو قرب لِيبُلدفيل، وذهب نتداكا لإحضارهما قبل أن يتابع إلى ثيسفيل. لكن في إحدي المراحل ذكّر لومومبا زميله السجين أُكِيتُ في رسالة. لو كان بْرَسِّين محقًّا في قوله إن نتداكا جلب معه أُكِيتُ، لكان أُكِيتُ قد نقل من سجن ثيسفيل. كان مبُلُ وأُكِيتُ قائدي جيش الحركة القومية الكونغولية، وكان نظام لِيبُلدفيل يعدهما الرئيسين الاسميين الممكنين للمحاولة الوطنية لحشد الدعم.



ذهب نن‌داكا وحاشيته مباشرة لمقابلة الكولونيل بُبُز، ومن الممكن أن الأول استلم رسالة من كاسا فوبو يأمره فيها بتسليم لومومبا، وبُبُز طلب منه أن يحضر هذه الوثيقة. وبعد ذلك توجه بُبُز ونن‌داكا وجنود الجيش الوطني الكونغولي إلى زنزانة لومومبا. وحالما رأي لومومبا نن‌داكا، لابد من أنه فهم أن الأمر قد تحول نحو الأسوأ. لقد أصبح رفيقه في السنة الماضية ألد أعدائه. كان نن‌داكا، مثل رئيس أمن مُوبوتو، مسئولاً عن التعذيب والقتل في مخيم السجناء الذي أُسس حديثًا في بينزا الواقعة على التلة خارج كِنشاسا، حيث كانت ثكنات المغاوير. وكان أيضًا العقل المدبر وراء الإرهاب في مناطق العاصمة الأكثر فقرًا. في بداية ديسمبر، قبل نقله إلى ثيسفيل، كان نن‌داكا قد ضرب لومومبا بشدة. وكزادي قال لاحقًا: علم لومومبا مباشرةً أن الأمور كانت سيئة. وبحسب أقوال اللفتننت الثاني شونبرودت: لم يكن لومومبا يريد أن «يذهب معه»، فقد كان وجلاً.

في نحو الساعة الخامسة، قبل الفجر بقليل، غادر لومومبا المخيم في موكب. كان بُبُزُ قد زود نَنداكا بمزيد من الرجال وبثلاث سيارات لأنه كان يعلم أن الجنود الكونغوليين كانوا على اتصال مع القبعات الزُرق المغاربة المتمركزين في ثيسفِيل؛ كان المغاربة يشكلون ثلث فرقة مغاوير جيش الكونغو الوطني في مخيم سُننكولو الذي كان في ثيسفِيل نفسها، بخلاف معسكر هاردي، الذي كان خارج المدينة. منذ التمرد الأخير في هاردي ازدادت المراقبة على الحامية المغربية، وبُبُزُ لم يكن يجازف قط ومنع دخول المغاربة إلى المخيم في الأيام القليلة السابقة.

استيقظ شونبرودت عند الساعة السادسة، وفي أثناء جولته الصباحية الباكرة في المخيم لاحظ أن مدخله كان مفتوحًا على مصراعيه. كان المدخل قد أبقي مغلقًا منذ وصول لومومبا، لذلك خمن فورًا أن لومومبا، وكان يعلم أنه يجب التخلص منه، لا بدّ أنه قد غادر. وبعد قليل أرسل بُبُزُ الرسالة اللاسلكية التالية إلى ليبُلدفيل: لقد جرى إرسال الرزمة. وهنا يتوقف دور بُبُزُ في تصفية لومومبا، لكن مهمة مذهلة كانت في انتظاره في جيش مُوبوتو. وبعد ذلك بفترة طويلة، صرح صحفي في شهادة إلى تحقيق أجرته الأمم المتحدة في اغتيال لومومبا ومُبُلُ وأكيتُ أنه قد استخدم استراتيجية لإغراء لومومبا إلى الخروج من معسكر هاردي. أخبروه أنه قد حدث انقلاب في لِيبُلدفيل، وأن كاسا فوبو ومُوبوتو وبُمبُكُ أصبحوا في السجن، وأن الجميع ينتظرونه بصبر نافد في العاصمة كي يشكل حكومة بأسرع ما يمكن. لكن شهادتنا تدل أن نَنداكا نفسه ذهب لإحضار لومومبا.

لم يكن يخطر على بال لومومبا أي أوهام بخصوص نيات ساعد مُوبوتو الأيمن عندما استدار الموكب نحو اليسار نحو ماتاداي والمحيط، بدلاً من اليمين والعاصمة. سار الموكب نحو ساعة ونصف على الأقل ليقطع مسافة ٦٠ كيلومترًا إلى لوكالا على طريق مرصوفة جزئيا فيها منحدرات وانعطافات خطيرة تتلوي بين التلال. عند نحو الساعة السابعة وصل الموكب إلى سهل كيمبالا زولولي، قرب لوكالا، وهناك بعد ساعة هبطت طائرة دارغون رَبِد على المهبط العشبي الصغير. كانت لوكالا مركزًا لقيادة

شركة الأسمنت الكونغولية (Congolese Cement Company، CICO). الربان لم يتبع الإجراءات المعتادة: لم يخبر الشركة بوصوله، ولم يحلق فوق القرية، والعادة جرت أن ترسل الشركة شخصًا ما لتحية الركاب عند وصولهم أو لإنزال الحمولة.

لم تستطع الهيئة العامة الأوربية في شركة الأسمنت الكونغولية أن تري ما كان يحدث. كان معمل الأسمنت على بعد ٥،١ كيلومتر من المهبط، وكان الأوربيون يسكنون في فناء مسور محاط بسياج يرتفع ٣ أمتار. بعد العمل كانوا يذهبون إلى منازلهم ويبقون هناك حتى صباح اليوم التالي، لكن في هذا الصباح تحديدًا توجه عدة موظفين كونغوليين إلى مهبط الطائرة ليروا ماذا يحدث. وعندما عادوا إلى العمل، سردوا (الأحداث) إلى موريس رينو المدير المالي. وبعد أن هبطت طائرة دارغون رَبِد، جر الجنود أشخاصًا أفريقيين يرتدون ملابس مدنية من إحدى السيارات المتوقفة هناك، ودفعوهم على متن الطائرة. تعرف الموظفون على واحد منهم، باتريس لومومبا، وكان وجهه مغطي بالدم. وفي صباح اليوم نفسه قام أندره مزِ وهو واحد من قادة حزب أباكو (Abako) حزب الرئيس كاسا فوبو، بزيارة رينو، ومن المؤكد من دون شك أنه عبّر عما كان يشعر به القادة في لِيبُلدفيل: ضوء في نهاية النفق أخيرًا.. لومومبا انتهى!.

أخذ فرنسوا بومون ربان طائرة دارغون رَبِد الفرنسي سبعة أشخاص على متن طائرته: نداكا وثلاثة جنود من الجيش الوطني الكونغولي وثلاثة أسري آخرين دُفعوا بشدة إلى داخل الطائرة. أمر بومون الجنود أن ينزعوا الحراب من بنادقهم لأنه كان يخشى أن يلحقوا الضرر بالطائرة التي أقلعت في نحو الساعة الثامنة وهبطت في نحو الساعة التاسعة في مانادو، على بعد نحو ٢٤٠ كيلومترًا من لوكالا. وفي اليوم التالي، أخبر بومون رئيسه، رِمُن لينار، وكذلك طيارًا ومالكاً مشاركاً لشركة إير بروس بما حدث في الليل. بينما كانت الطائرة تقلع بدأ الجنود بمعاملة السجناء بقسوة، لكن الطيار طلب منهم التوقف حالاً لأنه خشي من وقوع حادثة؛ (طائرة دارغون رَبِد طائرة صغيرة خفيفة ويختل توازنها بسهولة. يبلغ وزنها أقل من «٥،٢» طن ولا تستطيع أن تحمل أكثر من ثمانية أشخاص).

كانت طائرة الدي سي ٤ مع طاقمها واثنين من المسافرين وعلي متنها ينتظرون في مواندا، على شاطئ الأطلسي، منذ الساعة السابعة صباحًا. نزل نانداكا من طائرة دارغون رَيد وتبعه مرافقوه السجناء من جديد، وفي أثناء ذلك تحدث نانداكا إلى المسافرين في الطائرة: المفوضين كزادي وكليوفاس مُوكمبا، ثم كشف المقصد النهائي للسجناء الثلاثة: إلى زابِتفيل حيث يجب أن يؤخذوا فورًا. وبعد ملء مستودعات وقود الطائرة، أقلعت في نحو الساعة العاشرة. استدار الطيار فوق المحيط ليأخذ طريقًا أقصر إلى عاصمة النحاس، من طريق كوريدور أنغولا في الجنوب الشرقي، مقصرًا المسافة إلى نحو ١٨٠٠كم. كان على متن الطائرة كزادي، والسجناء الثلاثة وأربعة من أفراد الطاقم: الطيار البلجيكي، وبِيت فَن در ميرش، والضابط الأول الأسترالي جاك دِكْسِن وعامل اللاسلكي البلجيكي جان لوي دروغمان والمهندس الفرنسي روبير فاو.

وبعد نصف ساعة، أقلعت طائرة دي سي ٣ من مطار ندجيلي إلى بَكوَنغا وليس على متنها مسافرون: فقط الطاقم ويتألف من الطيار الأسترالي بُبّ وطسن وعامل اللاسلكي البلجيكي غي غوبليت والمهندس الفرنسي واسمه باتشنكو. قبل الإقلاع أخبر واطسن أفراد طاقمه: سنري إذا كانت هناك قوات للأمم المتحدة في بَكوَنغا.. سنري إن كان بالإمكان أخذ لومومبا إلى بَكوَنغا من دون أن تحرره قوات الأمم المتحدة. ربان طائرة الدي سي ٤ لم يخبر ندجيلي أن مقصده إليزابِتفيل، حتى بعد إقلاع الدي سي ٣. عندئذ أرسل مطار ندجيلي رسالة بنظام مورس البرقي إلى الدي سي ٣ التي قد كانت تجاوزت الآن كِكوِت، يقول إن مهمتها قد ألغيت، وأمر الربان بالعودة إلى لِيبُلدفيل، وجري اتصال باللاسلكي مع الدي سي ٤ في رحلة العودة. أخبر عامل اللاسلكي جان لوي دروغمان نظيره غي غوبليه على متن الدي سي ٣: نعلم أنك عائد إلى لِيبُلدفيل؛ نحن ذاهبون مباشرة إلى إليزابِتفيل؛ «في أثناء الرحلة لم يحاول ربان طائرة الدي سي ٤ بيت فَن درميرش، أن يتصل بإليزابِتفِيل أو لِيبُلدفيل لأن رسائل المورس يمكن التقاطها في جميع أنحاء الكونغو.

بعد مغادرة الدي سي ٤ مواندا عاد فِكتُر نداكا الذي تخلص أخيرًا من سجينه المحير إلى لِيبُلدفيل في طائرة دارغون رَبِد.

في صباح ذلك اليوم، بينما كانت الدي سي ٤ في طريقها إلى كَتَنْغَا، أرسل السفير دُبرِيه برقية من برازافيل إلى وزير الخارجية بيير وِغني، يقول إنه كان يجري نقل لومومبا إلى بَكوَنغا طبقًا لما جرى الاتفاق عليه في ندجيلي:

كان نقل لومومبا إلى بَكوَنغا قد تقرر بموافقة كَلُنجي، وسينفذ ذلك صباح اليوم كما يلي: مغادرة ثيسفيل إلى مواندا على إير بروس؛ ومن بواندا إلى بَكوَنغا على متن دي سي ٤. لقد جرى اختيار مواندا لعدم وجود قبعات زرق فيها. كزادي سيرافق لومومبا إلى بَكوَنغا. نؤكد أن يعامل لومومبا معاملة لائقة، لكن من الممكن أن يجري منعه من مغادرة معسكر هاردي. كل هذه العمليات تجري من دون معرفة الأمم المتحدة ومع جميع الاحتياطات المعتادة.

هل كان هذا خطًأ مقصودًا لتضليل الأمم المتحدة وتعطيل أي تدخل ممكن تقوم به القبعات الزرق؟، أم أن دُبرِيه نفسه لم يكن يعلم أكثر من ذلك؟، أو أن اتصالات كرُكار أو لهاي كذبت عليه؟، أم أن كرُكار لم يكن يعلم أيضًا؟.

في مساء يوم ١٧ يناير قام ضابط من الأمم المتحدة بزيارة إمَنويل كيني، السكرتير الأول للرئيس الكونغولي، ويظهر أن الخطة لإخفاء سر مغادرة لومومبا عن الأمم المتحدة قد نجحت. كان الضابط يريد أن يعلم المزيد عن مصير لومومبا، ولاسيما عن مقصد طائرة الدي سي ٤. حاول رادار الأمم المتحدة أن يتتبع مسير الطائرة لكنه أخفق. وكيني سأل الرئيس كاسا فوبو، لكنه بقي صامتًا صمت القبور، كما كان معروفًا عنه.

كانت الطائرة التي تقل لومومبا ومبُل وأُكِيت كبيرة ذات أربعة محركات وتتسع لخمسين مسافرًا، وكان كل شيء قد أعد لرحلة طويلة حيث كان على متنها اثنتان

وأربعون وجبة طعام. وقد صرح جميع أفراد الطاقم بعد ذلك بأنه قد أسيئت معاملة السجناء خلال الرحلة التي دامت عدة ساعات. لومومبا ومبُل وأُكِيت كانوا يجلسون أحدهم إلى جوار الآخر، يضعون أحزمة الأمان ومربوطين بحبال، وعيونهم وآذانهم وأفواههم كانت مغلقة بأشرطة لاصقة. كان الواحد تلو الآخر يجبر على الركوع في ممر الطائرة حيث كان الجنود يركلونهم أو يضربونهم بأعقاب بنادقهم، وحتي عندما كان لومومبا جالسًا في مقعده لم يتركوه لحظة واحدة.

كان أحد الجنود متكئًا على جانب الطائرة يركله تكرارًا في معدته. كانت فترة استراحة السجناء الوحيدة هي أنه عندما يتعب الجنود أنفسهم كانوا يستريحون أيضًا ويتناقلون زجاجة الويسكي فيما بينهم. وفي النهاية أصبح التعذيب يضايق الطاقم، وحاول فَن در ميرش أن يهدئ الجنود موضحًا لهم أن حركاتهم المفاجئة كانت تهدد سلامة الطائرة. سأل الربان كزادي إن كان ينوي أن يقتل السجناء على متن الطائرة، فأجاب مفوض دفاع مُوبوتو بأنهم سيصلون كَتَنْغَا أحياء. ومضي كزادي القوي نوعًا ما، بقبعته الخاكي، يدخن غليونه، ويراقب سلوك جنوده بصمت.

اقتلعوا لحية لومومبا وعدة خصلات من شعره وأجبروه على ابتلاعها، ويبدو أن هذا المنظر جعل أحد الجنود يشعر بالمرض. وقد مرض عامل اللاسلكي جان لوي دروغمان فعلاً من مشاهد العنف التي سببت له الأذي، كما يقول غوبليت، وطاردته الأحداث طوال حياته. حاول الطاقم مرارًا منع الجنود، لكنهم أخيرًا حبسوا أنفسهم في ممر القيادة ولم يخرجوا منها إلا بعد هبوطهم في إليزابِتفِيل. في مقابلة مع صحيفة (دربن سندي تربين/ Durban Sunday Tribune) بعد النقل بفترة قصيرة، قال الطيار الآخر الأسترالي جاك دِكْسِن إنه حاول عبثًا إبعاد الجنود عن لومومبا، كما يظهر أنه أخبر المفوضين غير المهتمين: «قولوا: علينا أن نهبط بلومومبا حيا». وفي عام ١٩٦٦م اعترف كزادي لجان فان ليرد (Jean Van Lierde) بأن السجناء قد عوملوا بوحشية في

أثناء الرحلة: «صحيح، لكن كما تعرف جنود الجيش الوطني الكونغولي وحوش. لم نستطع منعهم من ضرب السجناء. ليس لدينا أي سلطة عليهم. وحتي في هذه اللحظات، احتفظ لومومبا بروحه القتالية. في إحدي المراحل، بينما كان معذبوه في استراحة قصيرة، تعرف على صوت جوناس مُوكمبا، فبدأ يتحدث إليه. وادعي مُوكمبا فيما بعد أن لومومبا كان على وشك إقناعه بعدم تسليمه إلى تشومبي.

صوّر جاك دِكّسن بعض العذاب الذي أنزله الجنود في أثناء رحلة الطيران والتقط اللحظة التي خرج فيها السجناء من الطائرة في لوانو في وقت لاحق من ذلك اليوم. وبحسب أقوال الربان بُبّ وطسن، ضاع الفيلم الذي ظهّره دِكّسن في جنوب إفريقية؛ في الواقع عندما حاول واطسن استعادته أخبروه ببساطة أنه كان (أسود كاملاً. ربما حذّر أحدهم السلطات في كَتَنْغَا جنوب أفريقية، لذلك أصبحوا حذرين جدًا بعد المقابلة التي أجراها دِكّسن مع صحيفة (دربن سندي تربين عن تلك الرحلة الحافلة. هل لا يزال الفيلم محفوظًا في خزائن إدارة استخبارات جنوب أفريقية؟. على أي حال، كان السجناء في حالة سيئة جدًا عند وصولهم والصحفي كرستين ســوري كتب: إنها لحقيقة أن هؤلاء المساكين في حالة يرثي لها. لقد انتزعت خصلات من لحية لومومبا وشعره. وجهه متورم، ويحمل علامة جروح من نظارته التي حطمها معذبوه على وجهه.

مع ذلك، من غير الصحيح أن زوزو ورجاله عذبوا لومومبا ومْبُل وأُكيت حتى الموت بينما كانت الطائرة تهبط. هذه الحجة قدمها أناس أمثال تشومبي الذين كانوا يريدون أن يتفادوا المسئولية عن الأحداث التي وقعت في كَتَنْغَا. صرح الربان فَن در ميرش لاحقًا بأن السجناء قد أهينوا بقسوة في أثناء الرحلة، ولكنهم لم يكونوا يحتضرون عند الوصول.

وقد أكد بُبّ وطسن هذا القول، وهو ربان الدي سي ٣، الذي كان على علاقة طيبة مع طاقم الدي سي ٤.

في نحو الساعة الرابعة صباحًا بالتوقيت المحلي كانت الطائرة تقترب من عاصمة كَتَنْغَا، وفي برج المراقبة في لوانو، مطار إليزابتفيل، كان في نوبة الحراسة رجل اسمه لامبول. عندما طلب فَن در ميرش الإذن بالهبوط، أخبر لامبول فورًا مسئول المطار غي ددِكن الذي كان مكتبه تحت مكان لامبول بطابق، الذي بدوره طلب مشورة جيرار لينديكنز المسؤول عن اتصالات المطار. طائرة من لِيبُلدفيل، غير معلن عنها في كَتَنْغَا؟

طلب لامبول مزيدًا من المعلومات من الربان الذي أعطاه رقم تعريف الطائرة والغاية من الرحلة والمقصد، واسمه، ثم أعلن: معنا بعض الرزم الثمينة على متن الطائرة!!. لينديكنز وددِكن أدرك ماذا كان يجري فورًا؛ حسنًا علينا الآن أن نخبر إدارة الاستخبارات، علينا أن نخبر وزير الداخلية، علينا أن نخبر الرئيس.

مقر إقامة الرئيس تشومبي كان يقع في المكاتب السابقة لمجلس كَتَنْغَا الخاص (Katanga Special Committee). ردّ فرنسوا توماس الوزير الإقليمي لكَتَنْغَا في الفترة الاستعمارية على الهاتف، ثم أخبر بَرتِلو، سكرتير تشومبي الخاص، الذي كان يتحدث إلى فيبر في ذلك الحين وأخبر ددكن رئيس أركان الجندرمة أيضًا براد (Parrad) الذي أوصل المعلومات إلى مونُغُ.

من أجل اتخاذ إجراءات السلامة اللازمة في المنطقة المخصصة لطيران كَتَنْغَا العسكري (Avikat)، أمر الميجور براد ددِكن أن تبقي طائرة الدي سي ٤ في الجو مدة أطول قليلاً، وفورًا سد رئيس المطار المدرج بالبراميل وسيارات الإطفاء. وبعد استشارة مونُغُ، هاتف براد إلى معسكر ماسار وبعد ذلك أمر اللفتننت جولين غات أن يذهب إلى لوانو مع زمرة من الشرطة العسكرية.

كان ضابط الاستخبارات في الجندرمة، جو فردكت، قد عين لمتابعة الأحداث في المطار بأم عينيه. وبعد أن أدرك ما (الرزم قفز إلى سيارته الجيب وانطلق وحده إلى لوانو. وحتي قبل أن يستطيع غات تجميع رجاله، استدعي إلى وزارة الداخلية.

وعندما وصل في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وجد مونُغ وعدة أشخاص آخرين من عظيمي الشأن من النظام مجتمعين هناك.

وضع فِكتُر تِنيه اللفتننت غات في صورة الوضع وأعطاه الأوامر بأن يتولى أمر السجناء. وإجراء مؤقتًا تقرر أخذ السجناء إلى بيت برُوِز (Brouwez)، وهو منزل خال من السكان غير بعيد عن المطار ويبعد نحو ٨ كم عن مركز إليزابتِفيل. ذهب فِرشير مفوض الشرطة، الذي كان ينسق العملية كلها بحسب قول غات، ليري برُوِز فورًا، وهو مقيم أبيض، كي يصادر البيت، ثم ذهب إلى البيت وانتظر.

كان على مفوض الشرطة جورج سِغَرز أن يحضر مفرزة إلى لوانو لتعزيز قوة جنود غات الذي أسرع نفسه إلى معسكر ماسار ليجمع قواته. كانت فرقة الشرطة العسكرية من الجندرمة تتألف من فرقتين من الشرطة العسكرية والحرس الجمهوري، والميجور نوربرت ميوك كان آمر الفرقة رسميا، وكان أيضًا آمرًا لمعسكر ماسار. لكن بحسب بْرَسِّين، كان الكابتن غات الآمر الفعلي.

كان ميوك يجري كل المحادثات مع الجنود، لكنْ غات كان المسئول عن الأمور الأخرى، (كان هذا هو النظام داخل الجندرمة؛ وفي المراتب التابعة، كان الأفريقيون مسئولين رسميا، لكن بحسب اللفتننت غرَندِلِه، كان الضباط البلجيكيون «يتحكمون بحزم بكل روتينيا»)، وفي التطبيق كانت الفرقة الأولي من الشرطة العسكرية تحت إمرة اللفتننت ميشيل واللفتننت غرَندِلِه؛ وكانت الفرقة الثانية تحت إمرة اللفتننت غات، واللفتننت بليستن واللفتننت الثاني ليفا.

في معسكر ماسار طلب غات الضباط الأورُبيين الكبار والصغار الموجودين جميعهم، إضافة إلى مفرزتين كانتا دائمًا في الخدمة للمهمات العاجلة. نقلت ثلاث سيارات جيب وشاحنتان وآلية مدرعة الرجال الخمسين، واللفتننت غات أكّد فيما بعد أنه أخذ بعض الضباط للتعزيز، لأنه كان يخشي أن مقابلة لومومبا قد تحيي المشاعر القومية عند قواته. «لدي قدر كبير من أبناء بالوبا من كَتَنْغَا الشمالية في

وحدتي الآن» كان العدد الكبير من القوات يمثل إجراء أمان آخر: لم يكن يعلم كم كان عدد جنود الأمم المتحدة في المطار، ولا يعلم إن كانوا سيتدخلون.

وإضافة إلى ذلك، كان يخشي أنه إذا علم أبناء كَتَنْغَا ذوو الميول الوطنية بوصول لومومبا فإنهم سوف يأتون «جملةً إلى السهول كما حدث سابقًا عندما جرى الإعلان عن زيارة سيندوي (قائد بالوبَكات.

كان المطار محتشدًا ذلك اليوم لأن طائرة سابينا من برُكسل كانت على وشك الهبوط، وكان هناك نشاط على المهبط العسكري، تلاه اهتمام كبير من الرصيف. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبًا، انتشرت قوة كاملة من الأمن: شرطة غات العسكرية، وشرطة سِغَرز وآلية اللفتننت غرانديليه مع مدرعة من طراز غرِهاوند الخاصة بالسرجنت سَنْ.

أزيلت كل العوائق عن المهبط أعطي الإذن للربان فَن در ميرش بالهبوط. وعندما لامست الطائرة الأرض لم يكن في خزاناتها من الوقود ما يكفي إلا لطيران عشر دقائق. وهكذا انتهت ساعات السجناء الستة من الرعب، ولم يتبقَ لديهم سوى سبع ساعات أخري على قيد الحياة.

كانت تلك المرة الثانية التي يؤخذ فيها لومومبا إلى كَتَنْغَا كي يسجن. عندما حكم عليه بعد الاضطراب الذي حدث في نهاية أكتوبر ١٩٥٩م في ستانليفيل، نقلته السلطات الاستعمارية إلى سجن جادوتفيل في كَتَنْغَا، عندما كان نقله وسجنه عندئذ يمثلان ردة فعل نظام مشرِف على الموت.

وجب عليه بعد ذلك بزمن غير طويل أن يطلق سراح سجينه ويرسله إلى بروكسل، ليشارك في مباحثات الطاولة المستديرة التي اقترف فيها النظام الاستعماري انتحارًا ذاتيا على الطريقة اليابانية. لم يكن نقله في عام ١٩٦١م أقل رمزية، مع أنه هذه المرة كان عملاً بائسًا قام به نظام لِيبُلدفيل المتداعي والذي كان يأمل به

ضمان بقائه. ويمكن كذلك النظر إلى العلاقة بين عمليتي النقل من زاوية أخري: كان مفوض الشرطة جورج سِغَرز قد اعتقل لومومبا في عام ١٩٥٩م، وبعد محاكمته أخذه مفوض الشرطة فرانس فِرشير إلى كَتَنْغَا. كان سِغَرز وشرطته مشتركين في عملية الهبوط بلومومبا في لوانو يوم ١٧/ ١/ ١٩٦١م، ذهب فِرشير إلى البيت الذي كان السجناء سيقضون فيه بعض الساعات الرهيبة الأخري.

أراد الميجور فِيبَر، مستشار تشومبي العسكري، أن يؤكد مسئولية لِيبُلدفيل في المجري الدرامي للأحداث وأن يثبت أن السجناء كانوا على وشك الموت عندما وصلوا، وتشومبي كان غالبًا ما يكرر هذا القول بعد ذلك.

كان القائد الانفصالي المعروف بخداعه، منمقًا في إثبات وجهة نظره حيث ادعي أن كزادي أعطي مثالاً في ضرب السجناء بقبضتي يديه ويريد أن يري الجميع من دون استثناء الشعر الذي جرى انتزاعه من لحية لومومبا وشاربه. على كل حال كان واضحًا أن السجناء قد عوملوا بوحشية في أثناء الرحلة. رأي الكثير من الشهود الدم على وجه لومومبا ولاحظوا أنه قد جرى انتزاع خصلات من شعره وجزء من لحيته.

كان بنطاله ممزقًا وقميصه الأبيض مهلهلاً وملطخًا بالدم. وعندما وصلوا الأرض أطاح بهم الجنود والمشاهدون. الميجور سمال أفاد بعد ذلك أنه: «حدثت بعض الحركة بين الجمهور، لكن لم يحدث صراخ» .

حدث كل ذلك بسرعة؛ جرى ضرب الرجال الثلاثة بأعقاب البنادق. وبحسب بْرَسِّين، الذي يؤيد تفسيرات غات التي تحاول التخفيف من أهمية الأحداث «لم يكن هناك أي ضرب، سوى بعض الخشونة التي لم تكن أمرًا غريبًا يصدر عن الجنود، سواء كونغوليين كانوا أم من كَتَنْغَا».

وبحسب فَنْدِفَاله، «اختفي السجناء الثلاثة عن الأبصار بين مجموعة من الأوروبيين والكتنغيين الذين كانوا يومئون ويصرخون. حَدث صراخ وتلويح بالأسلحة وتهديد بالبنادق».

كان برج القيادة يقع على بعد عدة عشرات من الأمتار أمام مبني المطار و٢٥٥ مترًا من موقف الطيران العسكري، وعند أسفله كانت غرفة حراسة الأمم المتحدة، تشغلها منذ منتصف آب ١٩٦١م كتيبة سويدية.

كان هناك ستة جنود في ذلك اليوم، تحت قيادة ليندغرن، الذي شاهد المنظر، طبعًا من دون منظار، وكتب في التقرير:

ركلوهم الجنود وضربوهم بأعقاب بنادقهم ورموهم في سيارة الجيب، ثم قفز أربعة من الجندرمة إلى داخل السيارة وجلسوا. عندئذ صرخ واحد من السجناء الثلاثة. وبعدها قادت سيارة الجيب الموكب وانطلقت من المدرج نحو الطرف البعيد من المطار حيث كانت هناك فتحة في السياج.

لم تمضِ سوى خمس أو عشر دقائق منذ أن فتح باب الطائرة. لكن تقرير ليندغرن، وهو الشهادة الوحيدة الصادرة من شخص غريب، يؤكد التصريحات البلجيكية-الكتنغية عن عدة وقائع مهمة يمكن إثباتها بشأن إخلاء لومومبا ومبُلُو وأكيت.

أولاً: أساء جنود كَتَنْغَا معاملة السجناء على مرأي من ضباطهم البلجيكيين، وقد شارك واحد على الأقل من البلجيكيين في الضرب.

ثانيا: اشتراك الضباط البلجيكيين فيما حدث في لوانو يجعلهم، إلى حد ما، شركاء فيما حدث للسجناء بعد ذلك. ولا يمكن تفسير موقف الضباط في أثناء عملية الضرب العنيف علنًا في لوانو إلا بالموافقة على مزيد من الوحشية بعد ذلك. وبعد أن أبعد السجناء، قال الوزير كيبوي لفَنْدفَاله، وهما لا يزالان على أرض المطار: «إنه لأمر جيد أنك هنا»، لكن لم يعطِ أحد من الضباط البلجيكيين الأوامر بوقف العنف لاحقًا. والبرهان على أنهم كانوا يعلمون أنه سيستمر، موجود في المحادثة التي جرت بين بَرَسِّين وغات، الذي كان بحسب أقوال برَسِّين «المسئول عن تنسيق العملية».

وبَرَسِّين لم يوجه أي سؤال محرج إلا مرة واحدة وكان جواب الضابط صريحًا: «هل أسيئت معاملتهم في المطار؟»، « في المطار؟، لا. لم يكن هناك الوقت الكافي».

بعد ذلك بوقت قصير كتب الصحفي بيير دَفِستَر (Pierre Davister)، الذي غطى انفصال كَتَنْغَا، مقالته عن وصول لومومبا إلى كَتَنْغا في صحيفة (بُرْكَوابا؟. كانت الكلمات تنساق بسهولة له، وكالمعتاد أيضًا كان مستعدا لحماية نظام كَتَنْغَا. في رأيه تقع مسئولية الشروع بالنقل على الرئيس كاسا فوبو ومُوبوتو، ولا أحد غيرهما.

كان باستطاعة كل من كان حاضرًا عند هبوط طائرة السجناء أن يرى «أنهم أصيبوا بالأذى على نحو واضح» في أثناء الرحلة. ولو كان لنا أن نصدق دَفِستَر فإنه حتى على أرض كَتَنْغَا كان مصير القادة الوطنيين الثلاثة بأيدي لِيبُلدفيل:

انهال جنود مُوبوتو بوابل من الضربات على لومومبا بأعقاب بنادقهم. كان الأمر يخص أناسًا ذوي نفوذ، وكان الناس، في هذه الحالة موظفو المطار، متأثرين كثيرًا. طُرح السجناء، فعلاً، في سيارة الجيب، وكان جنود الجيش الوطني الكونغولي أنفسهم يدوسون بأقدامهم على لومومبا الذي كان مستلقيا في أرض السيارة، ليثبتوا بذلك من جديد أنه لا شيء أكثر من مجرد سجين، تجدر معاملته بقسوة وضربه تكرارًا.

كان الصحفي يأمل أن النقل سيجلب مكاسب سياسية لكَتَنْغَا التي أثبتت بقبولها لومومبا أنها اضطلعت بعمليات معادية له.

في الفصل الماطر، تشرق الشمس في نحو الساعة الخامسة صباحًا وتغيب نحو الرابعة بعد الظهر، لذلك كان الوقت لا يزال نهارًا عندما وصل الموكب في نحو الساعة الخامسة إلى منزل برُوِز، الذي يبعد ٥،٣ كم عن المطار على طول

الطريق القديم من لوانو إلى إليزابِتفِيل عبر أرض معشوشبة ذات أشجار قليلة دائمة الخضرة، إلى جانب مدرسة لتربيه (LEtrier) لركوب الخيل، ومزرعة لُبُندوار (Le pondoir) حيث كان يسكن لوسيان برُوِز (Lucien Brouwez) وهو صاحب مزرعة لتربية الدواجن مع عائلته.

كانوا على وشك الانتقال إلى منزل جديد، بأثاث قليل على بعد عدة مئات من الأمتار، وتقرر أن يقيم السجناء هنا. الشرطة كانت قد أغلقت جميع المنافذ، ولم يستطع أحد رؤية الموكب، ما عدا ربما الناس الذين يسكنون الأكواخ القليلة من الطين والقش في منتصف الطريق بين المطار والبيت.

كانت القوات المسلحة تعرف المنطقة جيدًا، حراس الرئيس الخيالة كانوا يستعملون المنطقة للتدريب، وغالبًا ما كانت وحدات من الحرس تزور فيرلان (Verlaines) الذي كان يدير مدرسة لتربيه.

بعد عملية تفتيش المنزل، التقي غات بفِرشير واتفقا على تنظيم الحرس، لأنه كما قال غات: «لم أستطع أن أسحب احتياطيي، الذين كانت لديهم مهمات أخري يقومون بها، مثل حفظ القانون والنظام في المناطق المجاورة».

في هذا الوقت كان هناك، إضافة إلى السجناء، ستة أو سبعة من أفراد شرطة كَتَنْغَا العسكرية وستة بلجيكيين (غات، فِرشير، غرَندِله، سون، تينيه، وهوِغني) داخل المنزل أو حوله. وبعد ذلك بوقت قصير، وصل سابوي ومومبا والمفوض سِغَرز ومعهم اثنان أو ثلاثة من رجال الشرطة، ولحقهم اللفتننت مِتشل واللفتننت الثاني ليفا مع مفرزة من الشرطة العسكرية.

كانت مهمة حراسة المنزل من اختصاص الجنود، بينما كان الشرطة يقومون بمراقبة الطرق المجاورة. جلس غرَندِله على الشرفة، وكانت عربته المدرعة تقف أمام المنزل، ومدفعها مصوب نحو المدينة.

دخل ليفا، الذي نظم أمر الدفاع عن المنزل إلى غرفة المعيشة حيث كان السجناء جالسين على الأرض الإسمنتية، وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم. لاحظ ليفا أن الحبل الذي يربط مْبُلُ وأُكِيتُ معًا «كان يحفر في لحمهما. فككتُ رباط السجينين، لكن أحدهما شتمني قائلاً: «أيها الأبيض القذر». فلطمته في وجهه».

مفتش الشرطة رفايل مومبا (الذي أصبح بعد ذلك محاميا في محكمة الاستئناف في برُكسل قال إن لومومبا كان «قد ضُرب ضربًا مبرحًا»، وإنه كان «يرتدي ثوبًا أبيض ممزقًا» ما يدل على أنه أسيئت معاملته داخل المنزل.

قال اللفتننت غات إنه لايستطيع أن يؤكد ذلك لأنه ذهب ليفحص المحيط حالما دخل إلى هذا السجن المؤقت، ولم يدخل إلى غرفة المعيشة إلا بعد انتهاء مهمته «وهناك كانت تجري حراسة السجناء من قادة مفرزتي ورجال آخرين».

لكن الكولونيل فَنْدِفَاله لم يراوغ: بل يعترف أن السجناء عُذِّبوا مرة ثانية بعد وصولهم إلى منزل برُوِز مباشرة.

حبس غات الرجال الثلاثة في الحمام ووضع المفتاح في جيبه، وبعد ذلك أعطي أسبابًا متناقضة لما فعل بالقول إنه أراد أن يمنع الجنود من ضرب السجناء، وإنه أراد أن يمنع لومومبا من محاولة إقناع الجنود بإطلاق سراحه. ونظرًا إلى العدد الكبير من الضباط البلجيكيين الحاضرين، فإن السبب الثاني يبدو بلا أساس، والسبب الأول ليس أفضل. وعلي ضوء ما حدث يجب إسقاطه لأنه هاجس إنساني في غير محله بعد حدوث الواقعة. وتفسير هوِغني، نائب السكرتير الخاص لوزير الدفاع، أكثر إقناعًا. يجب تجنب أي محاولة لتحرير السجناء من الخارج بأي ثمن «كنا - نحـن - نخشـي وصول الغانيين وكذلك الحشود . . قد يأتي الشعب».

ذهب سِغَرز ليري لومومبا في الحمام. هذا المفوض أدي دورًا في قمع مظاهرات معادية للاستعمار في ستانليفيل عام ١٩٥٩م، وفي اعتقال لومومبا في ذلك الوقت،

وأخبر برَسِّين بالقول: «عرفتي وعرفته، وطبعًا لم أحببه قط». بقي عدة دقائق فقط مع لومومبا من دون حتى التحدث إليه، وكان ينتظر من رئيس الوزراء السابق أن يأخذ بزمام المبادرة، لكن عبثًا . . «لم يتذمر . . ولم يقل لي شيئًا».

قال لومومبا لأحد الجنود: «أشعر بالعطش». ذهب الجندي وعاد بدلو مملوء بالماء إلى نصفه ورماه في وجهه، قائلاً: «خذ، اشرب!». سِغَرز قال: «اهتاج الجنود، أما أنا فلم أجد أن هذا الأمر سار حقا»، بقيت معهم عن قصد لأن حضوري خفّف من وحشيتهم قليلاً»، وقال أيضًا إنه في فترة قصيرة خرج فيها ليتحدث مع سابوي «ضُرب لومومبا ضربًا شديدًا: لم أرَ الضربات توجه إليه لكن كان يبدو أنه عومل معاملة سيئة».

وعندما زار غرَندِلِه السجناء في الحمام كان لومومبا جالسًا على الأرض ويداه مربوطتان خلف ظهره. لقد أثر فيه موقف السجين الذي ضرب ضربًا مبرحًا، أذكر أن عزة نفسه هزت مشاعري». علم فَنْدِفَالِه لاحقًا أن رأس لومومبا في إحدي اللحظات قد ارتطم بقوة بحوض الحمام لدي تلقيه لطمة قوية للغاية.

عندما ذهب هويغ لرؤية السجناء «كان لومومبا يئن وهو خائر القوي، وقد انطوي على نفسه». وعندما أخبره كيبوي أنه على وشك الموت، يظهر أن لومومبا قال: «عند هذه المرحلة الأمر غير مهم»، و«ليست هناك مشكلة».

لم يكن لدي بَرتِلو، سكرتير تشومبي الخاص، أدني شك في أن تشومبي ووزراءه ذهبوا لرؤية السجناء مرة على الأقل وأن «كل واحد منهم ضرب لومومبا مرة أو عدة مرات». ومن ناحيته ذكر ضابط الصف رُوجِفُر أنه في أثناء الزيارة التي قام بها تشومبي ووزراؤه نحو الساعة التاسعة مساء أخذ السجناء إلى غرفة المعيشة حيث بدأ الجنود والوزراء جميعًا كذلك «يضربونه»، واستمر الجنود يضربونهم بعد أن غادر أكثر الوزراء. ولم يبقَ سوى تشومبي ومونُغُ وسابوي وكيمبا للتشاور مع اللفتننت غات.

لم يكن وزراء كَتَنْغَا فقد الذين أساؤوا معاملة السجناء، بل لقد قام الحراس بفعل ذلك أيضًا؛ والكولونيل فَنْدِفَاله واضح جدا بهذا الخصوص، وملاحظاته مهمة. فهو يعترف أن من قاموا بالتعذيب كانوا بلجيكيين أو رجالاً تحت إمرة ضباط بلجيكيين، لكن من الواضح أن سلامة لومومبا الجسدية لم تكن أولوية لدي الحراس أيضًا. ذكر اللفتننت غرَندِله بعد ذلك أن مِتشل أعطاه أمرًا في منزل برُوز: «إذا وصلت قوات سويدية أو مغربية من الأمم المتحدة، فإنه مطلوب منه أن يطلق النار عليهم لدي رؤيتهم . . وإذا حدثت كارثة، فإن قتل لومومبا أفضل من ترك الأمم المتحدة تحرّره». ويقول في مكان آخر إن اللفتننت مِتشل أمره بأن «ينهي لومومبا»، إذا حاول الهرب.

يلخص مؤلفا (من قتل باتريس لومومبا؟ الأحداث بما يلي: «هناك شيء واحد مؤكد: لم تكن حكومة كَتَنْغَا مستعدة، لذلك كانت ملزمة أن تستجيب بسرعة وأن ترتجل من دون اللجوء إلى مستشاريها السياسيين البلجيكيين. من المؤسف أن الأمور أخذت منحى مختلفًا». وهنا يتبع بْرَسِّين وكسترغا خط الكولونيل فَنْدِفَاله الذي كتب في عام ١٩٧٥م، لكي يقلل من قيمة دوره:

في المساء، تشاور تشومبي وكيمبا وكيبوي وسَمَلَنج من دون أي من مستشاريهم الأورُبيين، وانضم إليهم مونُغ بعد ذلك. قرروا التخلص منه . . ماذا كانت دوافعهم؟..الانتقام، الكراهية القبلية، أو الحاجة إلى محو كل آثار العنف الذي لحق به.؟ إنهم لم يقدّروا العواقب السياسية لسلوكهم الجماعي.

لكن الأحداث انكشفت على نحو مختلف تمامًا. بعد الساعة الخامسة كان فَنْدِفَاله وسمال في مقر قيادة الجندرمة حيث قابلا الضابطين الكبيرين فيبر وبراد، وبعد قليل فردِكت الذي أخبرهم أن مونُغ قال له في المطار، عن مصير السجناء: «سينتهي الأمر هذه الليلة». فرضية برَسِّين تشير عدة مرات إلى المناقشات بين الرسميين البلجيكيين بشأن ساعات لومومبا الأخيرة، وليس في ذلك ما يدهش.

نادرًا ما كان برَسِّين، الذي كان حاضرًا في واحد من هذه الاجتماعات، يطرق هذا الموضوع بشهاداته، لكنه يعترف بأنهم عندما اجتمعوا في مقر قيادة الجيش، قال فَنْدِفَاله إنه كان مقتنعًا «بأن قتل لومومبا كان مسألة ساعات فقط»، وفردِكت كان متشائمًا بالقدر نفسه.

لكن برَسِّين يكتب أن الضباط الآخرين كانوا يأملون أن يغير تشومبي رأيه في القتل؛ ألم يتفق مع مستشاريه البلجيكيين الذين كانوا، بالإجماع، يعدون أن قتل السجناء السياسيين غير مناسب؟. وعند تلك النقطة، كما يقول برَسِّين، كانوا لا يزالون غير عارفين أن تشومبي قد وافق من حيث المبدأ على القتل من دون معرفتهم.

وأيا كانت الحقيقة، لم يجر اتخاذ أية مبادرة في مقر قيادة الجيش لإنقاذ أرواح لومومبا ومبلُ وأُكِيت. بعد الاجتماع، ذهب فَنْدِفَاله وفيبر وسمال لرؤية البرفسور كلمِنِس الذي كان يسكن في الطابق الثالث من مبني إمُّكا (Immokat) في مركز المدينة. كان الحاضرون في هذا الاجتماع الطارئ البرفسور كلمِنِس نفسه والضباط فَنْدِفَاله وفيبر وسمال والمساعدين البلجيكيين في المجلس الاستشاري: غروسجان وبرَسِّين. وافتتح فيبر الاجتماع بهذه الكلمات: «كنا نريده .. وأمسكنا به.. ونحن الآن في حالة مزرية». برَسِّين وصف المزاج العام بالمتشائم: «لم يكن لدي أحد أي أوهام فيما ما سيكون مصير السجناء». ومع حضور برَسِّين هناك، فإنه لا يقول شيئًا عما تقرر في الاجتماع، لكنه يذكر فقط أنه لم يجر القيام بشيء لإنقاذ السجناء. يتخلص برَسِّين وكسترغا من تورطهما على النحو التالي: «ما الذي يمكن فعله سوى انتظار نتائج المناقشات التي كانت ستجريها حكومة كَتَنْغَا في مقر إقامة الرئيس؟». وبحسب أقوال هذين المؤلفين، ذهب ذوو الرتب العالية البلجيكيون، بمن فيهم الكولونيل فَنْدِفَاله، الجريء، كالعادة إلى بيوتهم ببساطة، بينما نظم تابعوهم أمر الاغتيال بناء على أوامر من حكومة كَتَنْغَا.

وبحسب أقوال برَسِّين وكسترغا، لم يكن لدي ذوي الرتب العالية البلجيكيين السلطة الكافية للتدخل بسرعة ونجاح، ومع ذلك كان بإمكانهم أن يروا بأنفسهم أن اللفتننت غات قد تولى المسئولية عن السجناء وغادر المطار معهم. وسنذكر بعد ذلك أن برَسِّين يصف فَنْدِفَاله بأنه «رئيس الجندرمة الخفي».

من الواضح لو أن الكولونيل أمر اللفتننت غات والضباط البلجيكيين الآخرين بإنقاذ حياة لومومبا، لكانت الأحداث قد أخذت منحى مختلفًا.

لم يكن السبب الفعلي لهذه السلبية البلجيكية أو الرضوخ أو الموافقة الضمنية على تطور المأساة عمليا بل سياسيا؛ كان فَنْدِفَاله وفيبر يعلمان أن سلامة لومومبا الجسدية لم تكن أولوية لدي برُكسل التي حققت هدفها الرئيس بنقل لومومبا: منع عودة لومومبا السياسية وإنقاذ نظام لِيبُلدفيل.

بعد نقل لومومبا، أصبح من الواضح أن الاحتفاظ به مدة أطول سيكون مضرا لنظام كَتَنْغَا. ذكرت نشرة أخبار تاريخها ٢٣ يناير أن الأمم المتحدة كانت قلقة بشأن موجة من العواطف الوطنية. في لوينا كانت القبعات الزرق المغربية توزع الأسلحة على الثوار الوطنيين، وفي لوبودي (Lubudi) طلبت القبعات الزرق من جنود كَتَنْغَا أن ينفصلوا عن تشومبي، وأعلن ضباطهم علنًا دعمهم «للومومبا ولبالوبكات» وفي جدُتفيل (Jadotville)، اندلع إطلاق الرصاص بين الجندرمة والقبعات الزرق المغربية الذين وضعوا بعض الوطنيين تحت حمايتهم.

يشرح مفوض الشرطة فرانس فِرشير بصراحة في تقريره السري أن قتل لومومبا كان الحل الوحيد:

هذا القتل يجب أن يحدث، مادام أنه ليس هناك جريمة واحدة من الجرائم التي اقترفها لومومبا، من دون دليل، ولاسيما من دون أي أساس قانوني يمكن أن تخدم ذريعة لإدانة قانونية. لومومبا يجب أن يختفي . . إن لومومبا الحي، حتى

في اسجن، يمثل خطرًا كبيرًا. إنه يحظي بثقة الجماهير، إلا في كَتَنْغَا العليا (Upper Katanga) وكانت ستستمر له أكثرية فعلية في البرلمان.

في مساء يوم ١٧ يناير، بعد بعض التفكير، قرر فَنْدِفَاله وشركاه ألا يرجئوا قتل لومومبا، وبذلك يكونون قد أعطوا الضوء الأخضر لموته، آملين بذلك أن تهدأ العاصفة سريعًا. وعلى المدى المتوسط، قد يكون موت القائد الوطني مفيدًا.

وقد اعترف فيبر بدقة لبْرَسِّين في ١٩٨٧م. بحسب أقواله، كان الاغتيال أمرًا «توصل أبناء بانتوس إليه بأنفسهم». لكن فيبر «أدرك أنه، برأي المستشارين الأوروبيين، كان لومومبا مركز الفوضى التي حدثت بعد الاستقلال في الكونغو حيث إن «تحييده» سيكون مفيدًا في المستقبل».

حدث برقية دَسبْرِمُن لِندِن التي تضع مصير لومومبا في أيدي تشومبي من الحرية السياسية لحركة قوي الضغط البلجيكية-الكتنغية. وبينما أدي تابعو فَنْدِفَاله وكلمِنس دورًا حاسمًا في نقل السجناء إلى منزل برُوز، وفي الاغتيال وتلفيق محاولة الهرب، وأخيرًا التخلص من الجثث، كانا فَنْدِفَاله وكلمِنس يحاولان أن يحددا العواقب السياسية. عبّر بيير آدم (Pierre Adam)، وهو قس في القسم العسكري، بوضوح عن الهواجس البلجيكية عندما أرسل مساء يوم ١٧ يناير الرسالة الهاتفية التالية إلى الميجور فيبر في مقر الجندرمة: «الشيء الأهم أنه ليس هناك أي دم على أيدينا».

كان هذا القسيس يعلم إلى ما سيؤدي الاعتقال، والقسيس الجندي هذا كان ينظر إلى الجهة الأخرى وينتظر حتى ينتهي كل شيء.ا. لم يتدخل الضباط البلجيكيون الكبار لإنقاذ السجناء الثلاثة.

لم يكن مويس تشومبي، رئيس دولة النحاس، في المطار عندما هبطت طائرة الدي سي ٤ «برزمها» الثمينة. كان الميجور براد قد حاول أن يتصل به في مقر

إقامته، لكنه لم ينجح في ذلك، لأن الرئيس كان في سينما بَلَس يشاهد فيلمًا. وأخيرًا اتصل به سكرتيره الخاص جاك بَرتلو هاتفيا وأعلمه بوصول لومومبا.

هرع تشومبي إلى مكتبه حيث وصل الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان معه عدة وزراء أيضًا. يصف برَسِّين الأعمال هناك في ذلك اليوم بـ «اجتماع لوزارة كَتَنْغَا» دام «عدة ساعات» كان موضوع الحديث «القضية الشائكة: ماذا يفعلون بالسجناء»؟.

كان ما سمّاه برَسِّين اجتماعًا وزاريا في الواقع ترددًا مشوشاً لأصحاب المقامات الرفيعة من كَتَنْغَا الذين كانوا يحاولون أن يقرروا متى سيقتل لومومبا، ومن الذي سيقتله.

لم يكن أي بديل لهذا مقبولاً. كان إطلاق سراح لومومبا غير وارد، ودَسبْرِمُن لِندِن كان حازمًا: لومومبا يجب أن يذهب إلى كَتَنْغَا. لكن لا يمكن الاحتفاظ به في السجن إلى أجل غير مسمي لأن ذلك يزيد من الضغط الدولي على النظام، والأمم المتحدة قد تُجبر على التصرف. وفي أسوأ حالات السيناريو، قد تنشق وقد يصبح على الأمم المتحدة أن ترفع يد الحماية عن إليزابتِفيل.

وإضافة إلى ذلك، لم يكن للسجن كبير معنى. إن بقاء لومومبا في السجن ورقة مساومة لإنجاز الحل السياسي لأزمة الكونغو قد يعني إعطاءه دورًا في الكونغو الجديدة، وهذا بدقة هو السبب في استثنائه من قبل كَتَنْغَا ودافعي رواتبها البلجيكيين الذين كانوا يبذلون جهدهم لمحو كل آثار الوطنية الكونغولية.

لم يكن قتل لومومبا بعد محاكمة صورية يعد بديلاً صالحًا أيضًا. كيف سيكون رد فعل المجتمع الدولي إذا أصدرت «محكمة» الحكومة على لومومبا حكمًا بالموت؟ وفق اقتراح قدمه الكولونيل فَنْدِفَالِه في إحدى المراحل؟.

عندما بدأ «الاجتماع الوزاري» كان أكثر شخصيات النظام أهمية، الوزيران مونُغُ وكيبوي وكذلك كيتنغي، في طريقهم إلى منزل برُوِز، وكان كزادي وموكمبا

وزوزو في مقر إقامة تشومبي. في وقت لاحق مساءً، ذهب وفد لِيبِّلدفيل لتناول طعام العشاء مع كليوفاس موكيبا وهو أحد وزراء كَتَنْغَا. اجتماع وزارة غريب: بعض أعلي الوزراء غائبين؛ وأفراد من نظام لم تكن إليزابتفيل تثق بهم كانوا حاضرين؛ كان الكحول يراق بوفرة، وكان الوزراءً والرئيس يجيئون ويذهبون . . ليتناولوا العشاء أو ليذهبوا لإساءة معاملة السجناء. عند الساعة السادسة قام تشومبي نفسه يرافقه مونُغ وكيبوي بزيارة قصيرة للسجناء. فعل وزراء كَتَنْغَا الشيء نفسه، وفي الوقت نفسه، كان بعض الناس يجيئون ويذهبون إلى مقر تشومبي يتحدثون . . ويسكرون.

كانت السكرتيرة البلجيكية لتشومبي، سيرفيه، في مقر الإقامة، وفي وقت لاحق ذكرت أن كلاًّ من تشومبي وكيبوي وكيمبا شرب زجاجة وِسكي في ذاك المساء.

وقال برُير الساقي البلجيكي إنهم ظلوا يشربون طوال الليل وإن الصراخ والأصوات كانت تتعالى مع انقضاء الساعات. ولاحظ أيضًا أن تشومبي ووزراءه عادوا في وقت متأخر من الليل بعد أن كانت الجريمة قد اقترفت. أخبر فيبر أنهم كانوا «مخمورين بالكامل» كما كان السكرتير الخاص بَرتِلو صريحًا: «الوزراء يشربون وبعضهم ثملون».

غادر الجميع مقر الإقامة بالتدريج؛ كزادي ومونُغ ذهبا إلى مطعم، واللفتننت زوزو إلى فندق (غراند هوتيل لِيبُلد ٢/ Grand Hotel Leopold II) الواقع في مركز المدينة. وعندما عاد تشومبي ومونُغ وكيبوي وكيمبا وكيتنغي وفِرشير إلى منزل برُوز كان القرار بقتل السجناء قد جرى اتخاذه.

ليس هناك أي عنصر مادي في كل الشهادات التي جمعها برَسِّين يثبت الزعم الذي دافع عنه بْرَسِّين في تحريه و«من قتل باتريس لومومبا» أن تشومبي كان في وضع حرج. وفي الساعات القليلة القادمة، كان عليه أن يتخذ قرارات حاسمة ويبذل جهدًا كبيرًا في محاولة لتهدئة من يكرهون لومومبا. ليس هناك أي دليل أنه جرت أي دراسة جدية لأي بديل وكان على تشومبي أخيرًا أن يستسلم «للصقرين» كيبوي

وموڠغ، اللذين كانا يريدان إطلاق الرصاص على السجناء مباشرة. يحاول برَسِّين أن يشرح هذه المحاولة ليجعل تشومبي «الحمامة» ملمحًا إلى الفرق التقليدي بين قبائل بابيكي «وهم الفاتحون الذين كانوا يعيشون من الغنائم ومن سيطرة الشرطة المحكمة (كان مونغُمن موبيكي) و«الفلورنتين» Florentine قبائل بالوندا (تشومبي من مولوندا). لكن الوحيدين الذين يدعون أن تشومبي اقترح إبقاء لومومبا في السجن، وتعليق «محاكمته» (باستثناء تشومبي نفسه) كانوا بول براد، وماري ابنة تشومبي، وماريو سباندري والبروفيسور كلمِنس. لمح الثلاثة الأخيرون من بين هؤلاء إلى التصريحات التي جاءت على لسان تشومبي نفسه. وبقية وصفه مشابهة على نحو عجيب لرواية تشومبي عن نهاية لومومبا.

لم تخدم تصريحات تشومبي إلا غرضًا واحدًا: إلقاء مسئولية الجريمة على الآخرين. كل شيء يشير إلى أن تأكيدات موڠغ ومومبا كانت صحيحة: وافق الجميع على البطش بالسجناء في تلك الأمسية تحديدًا.

أشار عدة أشخاص من المتورطين إلى أن القرار النهائي لاغتيال السجناء في المساء نفسه جرى اتخاذه في لحظة نشوة: كان الوقت متأخرًا في المساء والخمرة بدأت تلعب بالرؤوس. قال بَرتلو إنه كانت هناك «إراقة خمر كثيرة في مقر إقامة تشومبي للاحتفال بوصول لومومبا»، والأكثر من ذلك: «لم يكن الوزراء قد اتخذوا القرار بقتل لومومبا، لكنهم ارتكبوا خطيئة، لكونهم مخمورين، في زيارته».

ليس هناك من شك في أن الحل في التصفية السريعة أصبح لا بد منه عندما انقضى الليل، ولا يستطيع أي شخص أن يثبت أن أيا منهم كان ضده. ومهما كانت الحقيقة، جرى اتخاذ القرار في مرحلة ما، وجرى الاتفاق على أن فِرشير يجب أن يرتب أمر القتل. ولإعطاء الجريمة مظهرًا شبيهًا بالشرعية، يعلن برَسِّين وكسترغا أن «حكومة كَتَنْغَا: حكمت على لومومبا، ومبُل وأكيتُ بالموت».

في كتاب «من قتل باتريس لومومبا» جرى وصف زيارة الوزراء الأخيرة للومومبا على النحو التالي: «قبل الساعة التاسعة بزمن قصير، قطع وصول سيارات كبيرة

محشوة بالناس الهدوء الحائر الذي كان يسود منزل برُوز»، ولكنه لم يصل إلى السجناء الذين كانوا يعانون سوء العذاب. لم يعطهم وصول تشومبي ومومونغو وكيبوي وكيمبا وسَمَلَنج وكيتنغي وفِرشير أي هدوء أو استراحة.

جنديان جلبا السجناء إلى غرفة الجلوس حيث كان الوزراء ينتظرون، وكان كل منهم أكثر سكرًا من الآخر. جلس البلجيكيون غات وسون وليفا ورُوجفُر وفِرشير هناك في أوقات متفرقة، وبحسب أقوال الأخير بدأ الكتنغيون فورًا يضربون السجناء. قال بَرتِلو: إن كل وزراء كَتَنْغَا ضربوا لومومبا، وأضاف: إن سَمَلَنج «يتباهى بذلك في اليوم التالي». سكرتيرة الرئيس الخاصة لاحظت في اليوم التالي أن بذلة تشومبي كانت «ملطخة بالدم»، كما أن الساقي في مقر الإقامة أخبر بَرتِلو أنه عندما عاد الرئيس في وقت متأخر من الليل كان مغطى بالدم».

وفي نحو الساعة التاسعة عاد بعض الوزراء إلى مقر إقامة الرئيس، وتركوا تشومبي ومونُغ وكيمبا وكيبوي وكينغي وسابوي وغات ورُوجفُر وفِرشير في منزل برُوز. وبينما كان تشومبي ومونُغ وغات يتجاذبان أطراف الحديث، بدأ الحراس يضربون السجناء من جديد. وبحسب أقوال رُوجفُر، قال مونُغ لغات: «نعلم أنك ستقوم بتنفيذ كل المهمات التي سنطلب إليك القيام بها بخصوص الأشخاص المعنيين».

وأضاف الشاهد أن مونُغ قال Anakufa باللغة السواحلية (ومعناها يجب أن يموت)، التي رد عليها تشومبي بالقول: «لا، لا، لا». كان القرار قد اتخذ، في ذلك الوقت، كما سيتضح لاحقًا، وكانت الاستعدادات تجري للتنفيذ. وبرَسِّين نفسه يعترف بأن هذا الحوار كان مختلفًا من دون شك، لكنه «يكشف الحالة العقلية في ذلك الوقت». إن ما تبينه هذه الحكاية هو الزعم الرئيس الذي دافع عنه كل المتعاونين السابقين مع كَتَنْغَا الانفصالية.

إن الكتنغيين كانوا يؤيدون التشدد و«الصقور» (مونُغ) هيمنوا على «الحمائم» (تشومبي)، وكان البلجيكيون أدواتهم. في الواقع، كان مفوض الشرطة فرنس فِرشير يدير العمليات في أثناء ساعة لومومبا ومبُلُ وأكِيت الأخيرة.

وما إن وصل فِرشير إلى برُوز حتى أخبر غات أنه يجب إبعاد السجناء وأنهم (باستعمال عبارة برَسِّين نفسها) قد «حكمت حكومة كَتَنْغَا عليهم بالموت». وبناء على طلب فِرشير نظم اللفتننت غات مرافقة من جنود مخلصين. وبحلول ذلك الوقت كان مكان القتل والشرطة المختارون لتنفيذ المهمة قد تقرروا.

أُخذ الشرطة إلى مكان القتل لتحضير مقبرة السجناء؛ غات وفِرشير أفادا لاحقًا بأن القبور كانت قد حفرت عندما وصل الموكب.

لذلك جرى اتخاذ القرار لتنفيذ الجريمة قبل زيارة تشومبي وزملائه الأخيرة إلى منزل برُوز، ربما في مقر إقامة الأول، بعد الساعة الثامنة مساء ولكن ليس بعد الساعة التاسعة. يقول فِرشير إنه ذهب ليرى السجناء نحو الساعة السابعة مساءً، ثم تناول العشاء في البيت حيث اتصل به تشومبي هاتفيا يطلب إليه أن يأتي فورًا إلى مقر إقامته.

وصل فِرشير إلى هناك بين الساعة الثامنة والثامنة وثلاثين دقيقة مساءً، قبل إعطاء الشرطة الضوء الأخضر للقيام بإجراءات التنفيذ. هذا الوقائع مهمة، وتجعل من المستحيل تبرئة أي شخص بأن الاغتيال كان غلطة قام بها بضعة كتنغيين مخمورين.

وفي مرحلة ما، تغير الميزان لمصلحة التصفية الفورية، وعندما اتخذ القرار كان هناك اثنان من الأوروبيين حاضرين في مقر إقامة تشومبي: سكرتيرته سيرفيه وفرانس فِرشير الذي سيؤدي دورًا رئيسًا في الفصل الأخير من الدراما في الساعات التي ستلي. وفي الخلفية كان هناك بلجيكيون آخرون: غير ثملين، عديمو العاطفة، متحفظون، لكنهم كانوا يدبرون أمر التصفية بكفاءة.

في نحو الساعة العاشرة ليلاً، دُفع السجناء داخل سيارة في موكب مؤلف من أربع سيارات أمريكية وسيارتي جيب. في السيارات الثلاث الأولى كان الرئيس تشومبي

والوزراء كيتنغي، مونُغ وكيبوي والمفوض سابوي، وربما الوزير كيمبا، إضافة إلى السائقين. كان اللفتننت غات في السيارة الرابعة، يقودها المفوض فِرشير، إضافة إلى السجناء المقيدين بالسلاسل في الخلف.

في سيارة الجيب الأولي التي كان فيها جهاز لاسلكي من الموجة القصيرة، كان السائق ومِتشل، وسون وميوك. في السيارة الثانية كان السائق وساكيلا وخمسة من الشرطة العسكرية. غادرت السيارة منزل برُوِز وانعطفت نحو اليمين تجاه مفرق الطرق القريب، وبعد عدة مئات من الأمتار أخذ الموكب مسارًا ضيقًا إلى اليسار يؤدي إلى الطريق الذي يصل لوانو بإليزابتِفيل، ثم انحرف يسارًا ثانية إلى الطريق الإسفلتية نحو جدُتفيل.

عبرَ الموكب الأرض المعشوشبة وقري كيبمب ولوكوني وهي مركز مناجم، وتومبوي ومحطة تشيلاتيمبو. انطلقت السيارات الأمريكية بأقصى سرعة، ووجدت سيارات الجيب صعوبة في اللحاق بها، وبعد تشيلا تيمبو بستة كيلو مترات وصلوا إلى مفترق طرق. تبع الموكب دربًا إلى اليمين يؤدي إلى موادينغوشا المشهورة بشلالات (كُرنيه/ Cornet) ومحطة إميل فرانكوي الكهرمائية، وهي منطقة مستنقعية وموطن لأسراب كثيرة من الطيور.

وعلي بعد ثلاثمئة متر وصل الموكب إلى فسحة في الأراضي المشجرة. كانت الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة ليلاً: استغرقت مسافة الخمسين كيلو مترًا أقل من ٤٥دقيقة.

بعد ذلك بوقت قصير أُخرج السجناء من السيارة. كانوا حفاة ولا يرتدون سوى بناطيلهم وستراتهم. أزال فِرشير القيود. كان يسير خلف لومومبا الذي سأله: «ستقتلوننا، أليس كذلك؟»، وكان رد فِرشير ببساطة: «نعم». كانت هذه الكلمات الوحيدة التي جرى تبادلها مع السجناء منذ غادروا منزل برُوِز.

وبحسب فِرشير تقبل لومومبا بجرأة إعلان موته الوشيك. وقف السجناء على الممر يحيط بهم الجنود ورجال الشرطة. قال فِرشير: كانوا لا يزالون واقفين، أي أنهم قد تحملوا آثار الضرب في الساعات السابقة. أخبرهم فِرشير أن الرصاص سيطلق عليهم. وبحسب غات «جرى إعطاؤهم الوقت للاستعداد، ليقولوا صلواتهم».

قال فِرشير إن لومومبا رفض العرض. وفي تلك الأثناء استعدت فرقة إطلاق النار الأولى المكونة من جنديين وشرطيين. كان الشرطيان يحملان بندقيتين رشاشتين من نوع (Vigneron)، وكان الجنديان يحملان بندقيتين من نوع (FAL)، ويبدو أن أحدًا ترنم بلحن محلي. أخذ فِرشير جوزف أُكيتُ إلى شجرة، وبحسب الأول، قال الثاني: «أريد أن تعتنوا بزوجتي وأولادي في لِيبُلدفيل». لكن أحدهم أجاب: «نحن في كَتَنْغَا ولسنا في ليو». اتكأ أُكيتُ على الشجرة ووجهه نحو فرقة القتل المستعدة على بعد ٤ أمتار. انهمر وابل قصير من الرصاص، سقط على إثره نائب رئيس مجلس الشيوخ السابق ميتًا. ورُمي جثمانه في القبر فورًا. وبعد «الصغير» جاء دور «الكبير» كما قال فِرشير لاحقًا.

أسند المفوض مويس مبُلُ إلى الشجرة، وكانت جولة جديدة من الرصاص من فرقة أخرى للقتل أوقعته أرضًا. وأخيرًا واجهت زمرة قتل ثالثة لومومبا. قال فِرشير، الذي أخذه إلى الشجرة لاحقًا، إن لومومبا كان يرتجف عندما اقتيد إلى طريق القبر لكنه كان «صامتًا» مذهولاً تمامًا، وعيناه زائغتان ولم يبدِ أي مقاومة. وابل هائل من الرصاص.. جسد رئيس الوزراء السابق أصبح كالغربال لكثرة ثقوب الرصاص. بعد التنفيذ، التقطنا نحو نصف كيلو غرام من الرصاصات الفارغة، وعندما زار برَسِّين المنطقة بعد سبع وعشرين سنة. كانت الشجرة الكبيرة لا تزال مثقّبة بالرصاص.

كان لومومبا يعلم علم اليقين أنه قد كُتب عليه الموت قتلاً. قبل عدة أشهر كان قد قال: «إذا مت غدًا فسيكون السبب أن أبيض قد سلّح أسود». في اليوم الذي

مات فيه، لم يكن لومومبا قد بلغ السادسة والثلاثين من العمر، بعمر روبسبير (Robespierre) نفسه، ذلك المدافع الآخر عن دولة أمة حديثة عندما مات هو الآخر.

يعتبر باتريس لومومبا رمزاً للتحرر الإفريقي.. والرجل الذي قاد الكونغو إلى الاستقلال ثم قتل غدراً.. وقتله حوّله إلى رمز إلا انه أوجد لغزاً دائماً "من أصدر الأمر بقتله؟".

و تتفق آراء الخبراء أن بلجيكا التي انهت قرناً كاملاً من الحكم الاستعماري في الكونغو في ٣٠يونيو ١٩٦٠، تآمرت للإطاحة برئيس الوزراء الوحيد المنتخب ديمقراطيا في الكونغو. ويصر البعض على أن بعض رجال النخبة، وبينهم الملك بودوان، مسؤولون مباشرة عن إعدامه.

وقد أضاف جاك براسين الخبير البلجيكي الرئيسي في الأحداث التي توالت حتى اغتيال لومومبا، حبكة جديدة إلى الجدال. فهو يقول أنه فيما لعب ضباط بلجيكيون دوراً معيناً فإن الرجل الذي أصدر الأمر مباشرة بالقتل هو غودوفروا مونونغو، وزير داخلية كاتانغا، المقاطعة الغنية بالنفط التي حاولت الانفصال عن الكونغو بعد الاستقلال.

الظروف المحيطة بموت لومومبا مثار جدل على الدوام في افريقيا وبلجيكا، وغالبية الأدلة تشير بإصبع الاتهام نحو أسياد الكونغو الاستعماريين السابقين.

وفي العام ٢٠٠١أعلنت لجنة حكومية أن السلطات البلجيكية تتحمل "مسؤولية معنوية" لقتل لومومبا الذي كان عازماً على تأميم شركات المناجم الغربية الكبرى في مقاطعة كاتانغا في جنوب الكونغو.

وقد أثبت التحقيق أنه بعد أن أطاح الجنرال جوزف موبوتو بلومومبا بانقلاب في ٤سبتمبر ١٩٦٠زج بلومومبا في السجن في العاصمة كينشاسا، وفي ١٧يناير

١٩٦١قام مسؤولون بلجيكيون بنقل لومومبا واثنين من وزرائه بالطائرة إلى كاتانغا.

وسرت تكهنات بأن الولايات المتحدة وبريطانيا متورطتان في الأمر. فلقد كانت الحرب الباردة في ذروتها واعتبر الزعيم الكاريزمي لومومبا خطراً لمحاولته التقرب من الاتحاد السوفياتي. وكان إنتاج كاتانغا من الأورانيوم قد زاد من اهتمام اللاعبين العالميين في الميدان.

وفي أواسط السبعينيات قالت لجنة تابعة للكونغرس الأميركي إن العملاء الأميركيين حبكوا مؤامرات لقتل لومومبا إلا أنها لم تعثر على دليل بأنهم شاركوا في قتله فعلاً.

وكائناً من كان الضالعون الآخرون يصر براسين على أن الأمر المباشر بالقتل جاء من القيادة في كاتانغا التي كان اقتصادها تحت سيطرة شركة (اتحاد المناجم البلجيكية التي قامت بتمويل الحركة الانفصالية في المقاطعة.

وقال براسين إنه بنى استنتاجاته على مقابلات طويلة أجراها مع شهود عيان ناجين بينهم ضباط وسياسيون بل وطيارى طائرة الركاب التابعة لشركة سابينا التي نقلت السجناء إلى كاتانغا.

وسمح براسين للاسوشيتدبرس بمراجعة تقريره الذي يضم صوراً عديدة ورسوماً لموقع الجريمة. وهو ينوي التبرع بأوراقه إلى متحف تاريخ إفريقيا الوسطى قرب بروكسيل.

وقال براسين إن قادة كاتانغا، وبينهم الرئيس مويز تشومبي الذي عينته بلجيكا، لم يعلموا بمجيء لومومبا إلا بعد هبوط الطائرة في مطار عاصمة المقاطعة، والتي تحمل اليوم اسم لومومباشي. وعقد تشومبي ووزراؤه اجتماعاً عاجلاً قرب المطار ليقرروا ما ينبغي عمله بالرجال الثلاثة.

وقال براسين، الذي كان في ذلك الحين يعمل في القنصلية البلجيكية في كاتانغا (ولاحقاً كتب أطروحته للدكتوراه عن تلك الأحداث: إن قرار قتل الرجال الثلاثة اتخذه مونونغو الذي أصر على أنه يجب أن يعدموا. وأراد تشومبي وآخرون إبقاء لومومبا في السجن غير أنهم رضخوا في النهاية لضغوط مونونغو للقضاء عليه.

وأضاف براسين: "عندما أعرب تشومبي عن خشيته من المضاعفات العالمية التي قد تنجم عن مثل هذه الخطوة، رد مونونغو: لا يهمنا ذلك. وأمر مونونغو ضباطاً بلجيكيين مفرزين للعمل مع شرطة كاتانغا بتحضير فرقة رمي بالرصاص بعد أقل من خمس ساعات من وصول السجناء وتم إعدامهم بالرشاشات. وتم تقطيع الجثث وتحليلها بالأسيد وجرى سحق العظام المتبقية.

وفي حين اعتبر القادة الكاتانغيون لومومبا عدوا خطراً بسبب تصميمه على إبقاء الكونغو موحدة، فقد ظل عدوا حتى مماته، فالقتل حول لومومبا إلى رمز لتحرير أفريقيا وقاد إلى عزل كاتانغا عن العالم الخارجي.

وهدد الاتحاد السوفياتي بالتدخل واتهم الغرب بالتآمر لإبقاء الكونغو تحت الحكم الاستعماري الجديد، وقامت قوة من الأمم المتحدة قوامها ٢٠,٠٠٠ رجل بإعادة توحيد الكونغو بعد سنتين من الحروب مع ثوار كاتانغا.

ووصف مؤرخ في متحف تاريخ أفريقيا الوسطى اتهامات براسين بأنها رواية معقولة، ولكنه قال إنها لا تكشف عن مدى ضلوع بلجيكا.

وقال المؤرخ اريك كينس: "السؤال الذي لا يزال مطروحاً هو ما إذا قامت الحكومة عن قصد بتدبير نقل لومومبا إلى كاتانغا حيث كان يوجد أعظم أعدائه من أجل ضمان أنهم سيقتلونه... هل كانوا يأملون بأن يقتله الكتانغيون، أم أنهم كانوا يعتقدون فعلاً أن مونونغو سوف يبقيه في السجن؟. وعلى أي حال، يقول كينس إن موت لومومبا عن ٣٥سنة أسس لشهرته كمناهض للاستعمار، ويضيف: "وبقتله

خلق خصومه أسطورة عن غير قصد، لو بقي على قيد الحياة ربما كان سينتهي به المطاف كديكتاتور إفريقي نموذجي، أما كرمز فإنه سيعيش شابا إلى الأبد في تاريخ القارة.. كبطل مناهض للإمبريالية أعطى حياته من أجل حرية إفريقيا.

ورفض مؤرخ آخر.. وهو لودو دي ويت – الذي نشر في العام ١٩٩٩كتاباً عن الاغتيال وضع المسؤولية على كاهل الحكومة البلجيكية – استنتاجات براسين. وقال دي ويت: "إن براسين يبرئ البلجيكيين من المسؤولية المباشرة لأعمال الحكومة التبع التي كانت تحت سيطرتهم التامة". وبعد أيام قليلة من مصرع لومومبا – أعلن مونونغو – الذي توفي سنة ١٩٩٢– أن لومومبا قتل أثناء محاولته الفرار: "وإذا اتهمنا الناس بقتل لومومبا، سأرد عليهم: هاتوا البرهان".

أما تشومبي، رئيس كاتانغا السابق، فقد مات في ظروف غامضة في أثناء وجوده في الإقامة الجبرية في الجزائز سنة ١٩٦٩، وكانت طائرته قد اختطفت إلى الجزائر قبل سنتين من ذلك، وقد نفت ابنته ماري التي تعيش الآن في بروكسل، للأسوشيتدبرس مسؤوليته عن مقتل لومومبا، وقالت: "لقد كان مونونغو مسؤولاً عن الشؤون الأمنية، ولم يكن لوالدي أي علاقة بذلك".

فى يونيو ١٩٦٠ أصبح بياتريس لومومبا أول رئيس للوزراء بعد الاستقلال عن بلجيكا. ولكن بلجيكا احتفظت بثرواتها الضخمة من المعادن فى مقاطعة كاتانجا. وكان لرجال إدارة أيزنهاور ارتباطات مالية بالمجموعة البلجيكية التى تنهب هذه الثروة. وفى يوم الاحتفال بالاستقلال أعلن لومومبا أمام ممثلي الدول الأجنبية عن ضرورة تحرير بلاده اقتصاديا كما تحررت سياسيا وعدد قائمة بالمظالم التى يتعرض لها مواطنوه من قبل أصحاب الثروات البيض. وأظهر لومومبا بوضوح كونه شيوعيا. وانصبت اللعنات على رأسه.

بعد حوالى ١١ يوماً انسحبت مقاطعة كاتانجا فى شهر سبتمبر وقام الرئيس بعزل لومومبا عن رئاسته للوزارة بتحريض من الولايات المتحدة وفى يناير ١٩٦١ تم

اغتياله بأمر من دوايت أيزنهاور. تلا ذلك أعواما عديدة من الصراعات الداخلية والفوضى وصعود موبوتو سيسيسكو وهو رجل معروف بعمالته للمخابرات المركزية الأمريكية.

واستمر موبوتو يحكم البلاد بالفساد والقهر لأكثر من ٣٠ عاماً. عاش أثناءها شعب زائير فى فقر مدقع على الرغم من الثروات الوفيرة الطبيعية الموجودة على أرضه، وذلك فى الوقت نفسه الذى قام فيه موبوتو بنهب بلايين الدولارات.

لم يكن لومومبا قائدا كونغوليا وطنيا وحسب، وإنما كان زعيما من زعماء العالم الثالث ونجما لحركات الاستقلال في إفريقية حيث لا يزال إلى يومنا هذا مصدرا للإلهام السياسي في القارة الأفريقية.

فقد ظهر لومومبا في زمن كانت الثورة على الاستعمار في العالم كله في أوجها، واغتياله لم يكن القصد منه فقط التخلص منه كشخص وإنما أيضا الهجوم الاستعماري المعاكس بهدف وقف مد حركات التحرر الوطني في المستعمرات، والقضاء على إنجازاتها.

ولد " قاتل لومومبا " الخائن تشومبي في ١٠ نوفمبر ١٩١٩ لأسرة ملكية تنتسب إلى شعب لواندا، وتلقى تشومبي تعليمه في مدرسة إرسالية. وفي عام ١٩٥١ انتخب في مجلس مقاطعة كاتانغا الاستشاري، وفي وقت لاحق صار رئيسا لحزب كوناكات الموالي لبلجيكا في كاتانغا الغنية بمواردها الاقتصادية.

في عام ١٩٦٠ شارك بصحبة زعماء التحرر الوطني في مؤتمر الكونغو المنعقد في العاصمة البلجيكية بروكسل، بقصد مناقشة الاستقلال عن بلجيكا. وهناك دعا إلى نظام فيدرالي موسع في الكونغو يتكون من ولايات مستقلة.

فاز حزب كوناكات بزعامة تشومبي بمجلس كاتانغا التشريعي في انتخابات ما قبل الاستقلال. ثم أعلن انفصال كاتانغا بعد حصول الكونغو على الاستقلال

واستعان ببلجيكا، وعين ضابطا بلجيكيا على رأس قواته، ورفض التعاون مع الحكومة الكونغولية المركزية التي يرأسها لومومبا.

انتخب تشومبي رئيسا لكاتانغا في أغسطس ١٩٦٠. واستعان بمليشيات أجنبية ليقاتل القوات الدولية.

اتهمته الأمم المتحدة بقتل رئيس حكومة الكونغو بمحاولة قتل باتريس لومومبا في كاتانغا في يناير ١٩٦١.

اعتقل تشومبي من قبل الحكومة المركزية في أبريل ١٩٦٢، ثم أطلق سراحه بعد تعهده بإعادة مقاطعة كاتانغا إلى الكونغو. غير أن تشومبي نقض عهده، وعاد ليقاتل الحكومة المركزية، فدخل في معارك مع القوات المحلية والدولية، حتى اضطر إلى الاستسلام بشرط السماح له بالسفر إلى المنفى سنة ١٩٦٣.

عاد للبلاد بناء على طلب الرئيس كازافوبو الذي عينه رئيسا للوزراء في حكومته، فخدم حتى أقاله كازافوبو سنة ١٩٦٥.

اتهم تشومبي بالتآمر على الحكومة المركزية وتدبير قتل لومومبا فهرب إلى أسبانيا سنة ١٩٦٦. ثم حكم عليه غيابيا بالإعدام. وفي يونيو اختطف تشومبي إلى الجزائر بتهمة التآمر السابقة، وبقي في الإقامة الجبرية حتى مات سنة ١٩٦٩.

و قد ظهرت مؤخرًا وثائق المخابرات البلجيكية والأمريكية والأمم المتحدة في دراسة لعالم اجتماعي بلجيكي هو "لودو دي ويت" في كتاب "اغتيال لومومبا"، وهي الدراسة التي حركت البرلمان البلجيكي للتحقيق في هذه القضية، ولنبدأ القصة من جذورها .

هذه القصة وقعت على أرض الكونغو، وقد اشتقت اسمها من نهر الكونغو، وهي تشغل الجزء الأكبر من حوضه، وقد وقعت هذه المنطقة تحت الاحتلال البلجيكي منذ عام ١٨٧٨، وذلك تحت ستار باسم "الجمعية الدولية الإفريقية"، وكان الغرض الظاهري منها "محاربة تجارة الرقيق، وتمدين إفريقيا".

وفي عام ١٨٨٥ اعترف مؤتمر برلين بحق ملك بلجيكا الشخصي في تملك هذا الإقليم، الذي أصبح يعرف باسم ولاية الكونغو الحرة، وبدأت بلجيكا تعمل على تثبيت أقدامها بوسيلتين: الأولي المؤسسات التبشيرية التي سيطرت على الجانب الاجتماعي، والتعليم؛ لضمان خضوع البلاد، وعدم وجود كوادر من الوطنيين تستطيع تنمية البلاد من ناحية، ومن ناحية أخرى محاربة النفوذ الإسلامي المتغلغل في المنطقة، وهنا تأتي الوسيلة الثانية؛ حيث استخدمت بلجيكا أسلوب حرب الإبادة لوقف النفوذ الإسلامي، فعمدت إلى تدمير المحطات التجارية العربية والإسلامية، وارتكاب المذابح الجماعية للأهالي، وقد أدت هذه السياسة إلى هبوط عدد سكان الكونغو إلى نحو النصف خلال أربعين سنة.

وفي عام ١٩٠٨ بدأت بلجيكا في تنظيم الإقليم، بحيث صار هناك إدارة حكومية للمنطقة، على رأسها حاكم يتبع وزارة المستعمرات البلجيكية في بروكسل، وقد كانت المصالح البلجيكية في الإقليم تصل إلى أكثر من ٦٠٠ مليون فرنك بلجيكي في عام ١٩٦٠، وترتكز المصالح على الماس والنحاس في منطقة "كاتانجا"، بالإضافة إلى الخشب والمطاط والبن في الغابات.

وفي هذا البلد ولد "باتريس إيمري لومِومبا" في عام ١٩٢٥ بقرية "كاتاتا كوركومبي" بإقليم كاساي، وتلقى التعليم الأوَّلي بالمدارس التبشيرية، ثم التحق بمدرسة لتدريب عمال البريد في "ليوبولدفيل".

وفي السنة التاسعة عشرة من عمره عمل موظفًا للبريد بمدينة "ستانلي فيل"، وفي هذه الفترة عاش "لومومبا" أقسى صور الفصل العنصري بين السكان الأوربيين البيض وسكان البلاد الأصليين الزنوج، وبدأت مشاعر الوطنية تحركه، واستثمر حركته الطبيعية من خلال عمله، فعقد علاقات وثيقة مع القبائل الإفريقية المختلفة، وعمل على ربط الخيوط بين القوى الوطنية.

وفي الوقت نفسه عمل على أن يدرس القانون والاقتصاد بنظام المراسلة، واستطاع اجتياز عدة دورات دراسية، ولكن القوى الاستعمارية رصدت هذا النجم الصاعد،

ومن ثَمَّ عملت على تدبير تهمة سرقة له، وذلك بعد ١١سنة من بدء تعيينه، وبالفعل يتم سجنه، وفي السجن يعاني أبشع أنواع الاضطهاد ضد المواطنين، وبعد خروجه يعمل في عدة أعمال تعينه على إعالة أسرته حتى أغسطس في عام ١٩٥٨م.

وفي أغسطس عام ١٩٥٨ تفرغ "لومومبا" للعمل السياسي، وقد كان مؤتمر "أكر" في ديسمبر عام ١٩٥٨، الممهد لمنظمة الوحدة الإفريقية بمثابة أول ظهور لشخصيته على الساحة الإفريقية، وبعده مباشرة أسس حزب الحركة الوطنية الكونجولية، وذلك بعد سماع السلطات بالنشاط السياسي الوطني.

وكان الاستعمار البلجيكي يأمل أن يأتي من خلالها بأشخاص يحكمون البلاد من أبناء البلاد، ويكون ولاؤهم لبلجيكا، ولكن "لومومبا" حدد هدف حركة حزبه في الاستقلال والوحدة الوطنية، ورأس تحرير جريدة أطلق عليها اسم "الاستقلال"، وقام بالاتصال بعدة أطراف إقليمية ودولية؛ لتأييد حق بلاده في الاستقلال.

وكعادة الاستعمار تجاه القيادات الوطنية تم اعتقاله في عام ١٩٥٩، وفي أثناء وجوده في السجن تعقد السلطات الانتخابات العامة، فيأتي السجين وحزبه بأعلى نسبة أصوات.

ويخرج من السجن إلى بلجيكا؛ ليشترك في مؤتمر المائدة المستديرة في "بروكسل"؛ لبحث مستقبل الكونغو، وفي ٢١ يونيو عام١٩٦٠ يتم تعيينه أول رئيس وزراء وطني للكونغو، ويتم انتخاب "كازافوبو" رئيسًا للجمهورية .

وفي يونيو عام ١٩٦٠ يأتي ملك بلجيكا إلى الكونغو، وذلك لإعلان استقلال الكونغو، ويطالب الملك الوطنيين بعدم اتخاذ إجراءات متسرعة أو غير مدروسة، فيدمروا المدينة التي خلفها البلجكيون لهم، فيقوم لومومبا من مقعده.

وبالرغم من أنه ليس له كلمة رسمية في الحفل، إلا أنه يتجه إلى المنصة متوجهًا لأبناء وطنه بالكلمة قائلاً: "أيها المناضلون من أجل الاستقلال، وأنتم اليوم منتصرون.. أتذكرون السخرة والعبودية التي فرضها علينا المستعمر، أتذكرون إهانتنا، وصفعنا طويلاً؛ لمجرد أننا زنوج في نظره، لقد استغلوا أرضنا، ونهبوا

ثرواتنا، وكان ذلك بحجج قانونية؛ قانون وضعه الرجل الأبيض منحازًا انحيازًا كاملاً له.. ضد الرجل الأسود. لقد تعرضنا للرصاص والسجون، وذلك لمجرد أننا نسعى للحفاظ على كرامتنا كبشر".

وبعد هذا الاجتماع مباشرة أصدر لومومبا عدة قرارات؛ لإبعاد البلجيكيين عن إدارة شؤون البلاد، وكان لا بد من وقف هذا الرجل، وقد أراد لومومبا أن يمنع استغلال الاستعمار لأي جبهة وطنية، فجمع جميع القوى الوطنية في حكومته التي استمرت ثمانية أشهر، ولكن النفوس الضعيفة تظهر في مثل هذه المواقف، فيظهر "مويس تشومبي" الذي تربى في أحضان الاستعمار وعلى فتات موائدهم، فيعلن استقلال أغنى إقليم بالبلاد عن الحكومة المركزية، وهو إقليم كاتانجا، إقليم الماس والنحاس.

ويقوم تشومبي في ١١ يوليو عام ١٩٦٠، بإعلان الحرب على حكومة لومومبا، ولكن من أين له بجنود من وطنه؟ فتأتي له بلجيكا بالمرتزقة من أوروبا، ويطالب لومومبا تدخل الأمم المتحدة لحماية استقلال البلاد ووحدة أراضيها، وليت لومومبا ما فعل، إذ تبدأ الضغوط البلجيكية والأمريكية للحفاظ على مصالح الاستعمار في إفريقيا، ولكن لومومبا لم يخضع للترغيب أو الترهيب.

فجأةً يختفي لومومبا في ١٧ يناير عام ١٩٦١م، وفجأة تظهر جثته مع جثث بعض أخلص رفاقه قتلى في كاتانجا في ٥ فبراير، وتنتهي حياة الرجل، ويذهب الجميع إلى أن الخائن تشومبي هو الذي قام باختطافه وقتله، بناء على خطة بلجيكية تم فيها رشوة شريك آخر هو قائد جيشه ورفيق دربه موبوتو سيسي سيكو، عرفت باسم خطة "باراكودا" وبدعم من المخابرات الأمريكية التي تكشف وثائقها رسائل "دالاس" إلى مندوب وكالة المخابرات الأمريكية بالمنطقة صديق تشومبي بضرورة التخلص من لومومبا، وأنه "يأتي على قمة الأولويات القصوى في عملنا".

ويظهر دور شريك آخر في المؤامرة، الأمم المتحدة، إذ تكشف سجلاتُها كل تعليماتِها برفع جميع أشكال الحماية عن لومومبا، وتكشف الوثائق المختلفة أن عملية الخطف تمت في ١٧ يناير ١٩٦١ وتم نقله، هو ورفاقه إلى مدينة "إليزابيث فيل" (لومومباشي حاليًا وهناك تم تنفيذ عملية القتل في رئيس الوزراء ورفاقه في حضور مسئولين بلجيكيين، ومسئول المخابرات الأمريكية، ومسئولين من الأمم المتحدة منهم مساعد السكرتير العام للشؤون السياسية "هايزنش ويشهوف"، ولكن ربك بالمرصاد، فقد زادت شهوة الخائن تشومبي؛ حيث طمع في حكم الكونغو، وذهب إليه جمع من السادة الدوليين، منهم "همرشولد" سكرتير عام الأمم المتحدة، وكثير ممن شاركوا معه في قتل لومومبا، فإذا بصديق الأمس يصير عدوهم، ويدبر حادثًا في نفس الإقليم "كاتانجا" لطائرتهم، ويلحق هذا الجمع جميعًا بلومومبا، وذلك في ١٨ سبتمبر ١٩٦١، ويفوز الخائن تشومبي على الجميع، ولكن متاع قليل؛ حيث يتم القبض عليه في الجزائر في عام ١٩٦٨م، وتنتهي حياته في ٣٠ يونيو ١٩٦٩، وترفض بلاده دفنه في ترابها، فيدفن عند أسياده في بلجيكا!!

وقد فضح الدور الأمريكي في اغتيال لوومبا بتجنيد تشومبي ومعه موبوتو قائد الجيش، صدر مؤخرًا كتاب آخر بعنوان " مكافحة الحرب الباردة في منطقة ساخنة" ، يروي فيه لاري دلفين أحد كبار الضباط المتقاعدين في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية أحد الأحداث المثيرة الخطيرة التي عايشها، وهى قصة خيانة لوومبا ومقتله بأيدي أعوان أمريكا وعملائها وعلى رأسهم الخائن تشومبي!

يروي لاري دلفين بالتفصيل تجربته كمدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في الكونغو خلال مطلع عقد الستينيات من القرن الماضي. وفيما يلي القصة كما أوردها دلفين في كتابه :

" الرئيس الاميركي الذي أصدر أمر اغتيال زعيم إفريقي هو دوايت أيزنهاور والزعيم الإفريقي هو باتريس لوممبا رئيس وزراء الكونغو عند بداية الستينيات.

آنذاك صار الكونغو فور إعلان استقلاله في عام ١٩٦٠ من أهم مسارح الحرب الباردة الدائرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي علما أن لوممبا كان مثله مثل جمال عبدالناصر وكوامي نكروما (غانا) وفيديل كاسترو - من طليعة الزعامات الوطنية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية التي كانت تلقى تضامنا ودعما من موسكو.

في هذا الظرف وصل لاري دلفين لفتح أول محطة للـ «سي آي إيه» في الكونغو. كانت هناك فوضى عارمة نشأت عن أزمة قبلية عقب انتخابات عامة اكتسحها حزب باتريس لوممبا وبالتالي تولى منصب رئيس الوزراء حاملا أجندة اشتراكية. هكذا كان ظاهر الأمر ولكن في حقيقة الأمر لم يكن الصراع السياسي القبلي سوى واجهة لصراع قوى دولية حول النفوذ في أغنى دولة إفريقية من حيث الثروات المعدنية الثمينة خاصة اليورانيوم والذهب والنحاس والألماس.

وكانت الأجندة الرئيسية التي كلف بها رجل الـ «سي.آي.إيه» الجديد هي التمهيد السياسي لدخول رؤوس الأموال الأميركية عن طريق تحييد الحركة الوطنية الاستقلالية التي كان يتزعمها لوممبا. وعلى هذا المنوال كانت هذه الأجندة تتطلب تقسيم البلاد جغرافيا.. بمعنى فصل الإقليم الذي تنحصر داخله الثروات الطبيعية ليكون على المدى البعيد دولة مستقلة تحت حكم عميل كونغولي للولايات المتحدة.

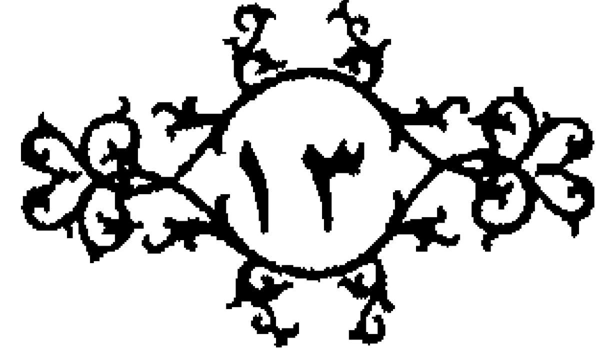
بناء على هذه الاستراتيجية كان على رأس اولويات دلفين إقصاء لوممبا عن سلطة الحكم. هنا تلقى دلفين أمر الرئيس أيزنهاور باغتيال الزعيم الإفريقي. ويروي لنا دلفين أن واشنطن بعثت إليه خبيرا كيماويا وصل بالفعل إلى الكونغو لتدبير أمر قتل لوممبا عن طريق السم. وتحديدا مادة سامة ممتزجة بمعجون أسنان.

لكن - يقول دلفين - جرى تعديل الخطة لاحقا بحيث تنفذ عملية الاغتيال دون أن يبدو أن الولايات المتحدة متورطة فيها.

في هذه الأثناء جرى تنفيذ خطة فصل الإقليم الغني بالمعادن - إقليم كاتنغا- وعين حاكما له عميل كونغولي أميركي يدعى مويس تشومبي.

وبإشارة سرية من دلفين إلى قائد الجيش الكونغولي جوزيف موبوتو، الذي كانت الـ «سي آي إيه» قد استقطبته كعميل، قبض موبوتو على لوممبا وبعث به مقيدا في طائرة خاصة إلى حاكم كاتنغا الذي قتله فور وصوله. وكانت المكافأة الأميركية التي تلقاها موبوتو هي تصعيده إلى منصب رئيس جمهورية الكونغو".





طومان باي ..

OOO



في يوم الأحد ١٥ من أبريل ١٥١٧م أُخرج طومان باي من سجنه، وسار وسط حرس عدته ٤٠٠ جندي إلى باب "زويلة"، حيث نصبت له مشنقة فتقدم لها هادئ النفس ثابت الجنان والناس من حوله يملأون المكان حيث لقي حتفه وسقط ميتا؛ فصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزنا وألما، وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام ثم دُفنت في قبة السلطان الغوري، وبموته انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العباسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

عند باب زويلة توقف ركب السلطان الأسير طومان باي.. كان في حراسة ٤٠٠ جندي من الانكشارية.. وكان مكبلا فوق فرسه.. وكان الناس في القاهرة قد خرجوا ليلقوا نظرة الوداع على سلطان مصر.

وتطلع طومان باي إلى (قبو البوابة) فرأى حبلا يتدلى، فأدرك أن نهايته قد حانت.. فترجل.. وتقدم نحو الباب بخطى ثابتة.. ثم توقف وتلفت إلى الناس الذين احتشدوا من حول باب زويلة.. وتطلع اليهم طويلا.. وطلب من الجميع أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات.. ثم التفت إلى الجلاد، وطلب منه أن يقوم بمهمته.

ولعل مشهد شنق طومان باي على باب زويلة كان وراء اهتمام المؤرخين بهذا الباب الذي يعد أهم الأبواب " بوابات الدخول إلى القاهرة والخروج منها "، لا سيما وأن هذا الباب دون غيره قد ارتبط بأحداث جسام في التاريخ المصري .. نعم دون كل أبواب القاهرة القديمة.. النصر.. الفتوح .. القراطين .. سعادة .. التوقين .. الشعرية وغيرها من الأبواب التي بناها حكام مصر لترد عنهم كيد المعتدين، وليدق عليها الزائرون فتفتح لهم مصاريعها، واختلف علماء الآثار حول عددها، ولم يتبق منها سوى عدد محدود للغاية لا يتعدى أصابع اليد الواحدة، منها باب زويلة !!

فمن هذا الباب التاريخي الشهير.. باب زويلة.. دخل الخليفة المعز لدين الله، قبل ألف عام إلى عاصمته الجديدة التي أمر بتأسيسها " القاهرة ".

و كان سليم الأول قد قام بإرسال قوة للقبض عليه(طومان باى) فأتت به إليه، وأخذ السلطان يتأمله معجبا بشجاعته وفروسيته، ثم عاتبه واتهمه بقتل رسله الذين أرسلهم لمفاوضته في الصلح، فنفى طومان باي التهمة عن نفسه، وبرر استمراره في القتال بأن الواجب يحتم عليه هذا، وكاد السلطان العثماني من إعجابه بشجاعة طومان باي أن يعفو عنه، ولكنه لم يفعل بحجة أن لا بقاء لملكه في مصر ما دام طومان باي على قيد الحياة.

وكانت قصة طومان باي قد بدأت عندما شهدت مدينة المنصورة بمصر صرخة ميلاد دولة المماليك سنة ١٢٥٠، حيث أبلى فرسانها في جهادهم ضد حملة لويس التاسع بلاء حسنا، وضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء، حتى مُنيت الحملة بالفشل ولحق بها عار الهزيمة، وترتب على هذا النصر المبين أن علت مكانة فرسان المماليك، وارتفع شأنهم باعتبارهم القوة التي هيأت لها الأقدار أن تنهض بمهمة الدفاع عن العالم الإسلامي الذي كانت تتناوشه قوتان: إعصار المغول القادم من الشرق، وخطر الصليبيين القابع في بلاد الشام.

وقد نجح المماليك بعد قيام دولتهم في التصدي لهذين الخطرين؛ حيث انتصر "قطز" في عين جالوت بفلسطين على المغول في سابقة لم تحدث من قبل، في الوقت الذي عجز فيه الأيوبيون حكام الشام في التصدي للمغول بتخاذلهم عن المواجهة والقتال، ثم تابع خليفته "الظاهر بيبرس" استكمال المسيرة الظافرة في الجبهتين معا، فحارب المغول والصليبيين، وألحق بهما هزائم فداحة.

واكتسب المماليك شرعيتهم في الحكم وتقدير الناس لهم باعتبارهم حماة الإسلام والمدافعين عن أهله وأرضه، وظلت دولتهم تقوم بهذا الدور في الفترة الأولى من عهدها المعروفة باسم دولة المماليك البحرية حتى كان لهم شرف إخراج الوجود الصليبي من الشام، والقضاء على خطر المغول، ثم تابع السلاطين المماليك في الفترة الثانية المعروفة باسم دولة المماليك البرجية القيام بهذا الدور في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات الصليبين الذين نقلوا نشاطهم العسكري إلى البحر المتوسط واتخذوا من قبرص ورودس مركزًا لنشاطهم.

ثم أصاب دولة المماليك ما يصيب الدول في أواخر عهدها من ضعف ووهن، فلم تعد قادرة على أن تقوم بدورها الفعال كما كانت تقوم به من قبل، وتهددها خطر البرتغاليين في الخليج العربي بعد أن تنامت قوتهم بعد اكتشافهم طريق "رأس الرجاء الصالح"، وكثرت فيها المنازعات بين قادتها وأمرائها.

هذا، في الوقت الذي تصاعدت فيه قوة الدولة العثمانية الفتية، وتطلعت إلى المشرق الإسلامي لتضمه إلى سلطانها بعد أن نجحت في بسط نفوذها، وتوسيع دولتها في أوروبا، ولم تكن دولة المماليك وهي في هذه الحالة تستطيع أن تدفع قدرها المحتوم وترد الخطر الداهم الذي أحدق بها من كل جانب، ولكنها حاولت في صحوة تشبه صحوة الموت أن تسترد عافيتها، فلم تفلح فأفسحت مكانها لمن يستكمل المهمة، ويقود المسيرة.

ساءت العلاقة بين العثمانيين والمماليك، وفشلت محاولات الغوري في عقد الصلح مع السلطان العثماني "سليم الأول" وإبرام المعاهدة للسلام، فاحتكما إلى السيف، والتقى الفريقان عند "مرج دابق" بالقرب من حلب في ٢٤ من أغسطس عام ١٥١٦.

وأبدى المماليك في هذه المعركة ضروبا من الشجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل أقدام العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة، حتى فكّر سليم الأول في التقهقر، وطلب الأمان، غير أن هذا النجاح في القتال لم يدم طويلا فسرعان ما دب الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، وانحاز بعضها إلى الجيش العثماني بقيادة "خاير بك".

وسرت إشاعة في جيش المماليك أن الغوري سقط قتيلا، فخارت عزائمهم ووهنت قوتهم، وفرّوا لا يلوون على شيء، وضاع في زحام المعركة وفوضى الهزيمة والفرار، نداء الغوري وصيحته في جنوده بالثبات والصمود وسقط عن فرسه جثة هامدة من هول الهزيمة، وتحقق للعثمانيين النصر الذي كان بداية لأن يستكمل سليم الأول فتوحاته في الشام وأن يستولي على مدنه واحدة بعد أخرى، بعدها سلَّم معظمها له بالأمان دون قتال.

واتفقت كلمة الأمراء في مصر على اختيار "طومان باي" للسلطنة، فأخذ يستعد لمقاومة العثمانيين وعزم للخروج لقتالهم ولا ينتظر مجيئهم، ولكنه اصطدم

بتخاذل المماليك، واستهانتهم بخطورة الموقف، وعدم تقديرهم للمسئولية في الوقت الذي أرسل فيه السلطان سليم الأول رسالة إلى طومان باي يعرض عليه الصلح ويبقيه على حكم مصر في مقابل أن يقر بتبعيته للدولة العثمانية، غير أن هذه المساعي السلمية لم تكلل بالنجاح.

واضطر طومان باي إلى مواصلة الاستعداد للقتال، فخرج إلى "الريدانية" وتحصّن بها فحفر خندقا على طول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحاول شحذ همة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى؛ فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانية إلا في خلال النهار حتى يراهم السلطان، وفي المساء يعودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم.

ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم طومان باي وهو في الريدانية بتوغل العثمانيين في البلاد المصرية حاول جاهدا أن يقنع أمراءه بمباغتة العثمانيين عند الصالحية، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكنهم رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانية كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم، لكنه لم يغن عنهم شيئا، فقد تحاشت قوات العثمانيين التي تدفقت كالسيل مواجهة المماليك عند الريدانية عندما علمت تحصيناتها، وتحولت عنها، واتجهت صوب القاهرة، فلحق بهم طومان باي.

والتحم الفريقان في معركة هائلة في ٢٣ من يناير ١٥١٧وأبلى طومان باي في المعركة بلاء حسنا، وقتل "سنان باشا الخادم" الصدر الأعظم بيده، وكثر القتلى بين الفريقين، غير أن العثمانيين حملوا على المماليك حملة زلزلت الأرض من تحتهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وانسحب طومان باي ومن بقي معه إلى نواحي الفسطاط، ودخلت طلائع الجيش العثماني مدينة القاهرة، وأخذوا يتعقبون جنود المماليك في كل مكان.

في يوم الإثنين ٢٦ من يناير عام ١٥١٧ دخل سليم الأول مدينة القاهرة في موكب حافل، يتقدمه الخليفة العباسي والقضاة، وقد أحاطت به جنوده الذين امتلأت بهم شوارع القاهرة، يحملون الرايات الحمراء شعار الدولة العثمانية.

ولم يكد يهنأ سليم الأول بهذا الفتح حتى باغته طومان باي في "بولاق"، واشترك معه المصريون في هذه الحملة المفاجئة، وأشعلوا في معسكر سليم الأول النيران، وظن الناس أن النصر آتٍ لا محالة، واستمرت مقاومة المماليك أربعة أيام وليال، وظهروا فيها على العثمانيين، حتى إنه خطب لطومان باي في القاهرة في يوم الجمعة، وكان قد دعي لسليم الأول في الجمعة التي سبقتها، غير أن هذا الفوز لم يحسم المعركة لصالح طومان باي؛ إذ سرعان ما لجأ الجنود العثمانيون إلى سلاح البنادق، وأمطروا به من فوق المآذن الأهالي والمماليك، فأجبروهم على الفرار، وفرَّ طومان باي إلى "البهنا" التي تقع غربي النيل في جنوب القاهرة.

ظل طومان باي يعمل على المقاومة بما تيسر له من وسائل، واجتمع حوله كثير من الجنود وأبناء الصعيد حتى قويت شوكته، غير أنه أدرك أن هذا غير كافٍ لتحقيق النصر، فأرسل إلى سليم الأول يفاوضه في الصلح، فاستجاب له السلطان العثماني، وكتب له كتابا بهذا، وبعث به مع وفد من عنده إلى طومان باي، لكن الوفد تعرض لهجوم من بعض المماليك وقتل بعض رجاله؛ فحنق السلطان سليم الأول وخرج لقتال طومان باي بنفسه، والتقى الجيشان قرب قرية "الوردان" بالجيزة في الأول من من إبريل ١٥١٧، حيث دارت معركة حامية استمرت ثلاثة أيام، وكلفت الفريقين الكثير من القتلى إلى أن تمكن العثمانيون من إنهائها لصالحهم وذلك عندما لجئوا إلى سلاح البنادق وامطروا بها من فوق المآذن الأهالي والمماليك فأجبروهم على الفرار .

وهرب طومان باي إلى منطقة " البهنا " جنوب القاهرة بعدما رأى عدم تمكنه من الاستمرار بالمقاومة. أما الأمراء فقد استسلموا للقوات العثمانية.

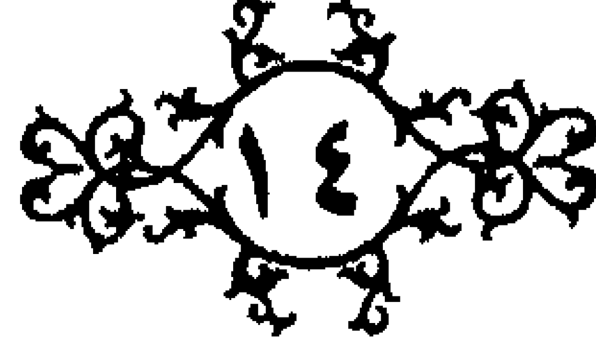
وبعد يومين، استسلمت المدينة مرة أخرى للعثمانيين بعد أن طلب الأهالي الأمان فأعلن عفوا عاما عن جميع الذين استسلموا من جراء أنفسهم وكما أمر بمعاقبة كل من رفض الاستسلام.

ورغم ذلك فإن طومان باي لم يستسلم وراح ينظم الصفوف وصار هناك الكر والفر لكلا الطرفين حتى كاد أن يقتل السلطان نفسه بإحدى الغارات في بولاق، مع ذلك فالمعركة من حي إلى آخر حتى المعركة الأخيرة بمنطقة " وردان " - إمبابة حاليا بمحافظة الجيزة - حيث انكسرت شجاعة المقاومة أمام القوة الهائلة والعتاد الضخم، فهرب طومان باي ولجأ إلى الشيخ حسن بن مرعي، وهنا تبدأ واحدة من أشهر قصص الخيانة، وبطلها أحد أشهر الخونة في التاريخ المصري والعربي !!

وللأسف فقد كان هذا الخائن هو الشيخ حسن مرعي الذي تحول جذريا عن مواقفه السابقة حتى مع طومان باي نفسه، وأصبح نسخة من " بروتس " ولكن مع بعض التعديل !!

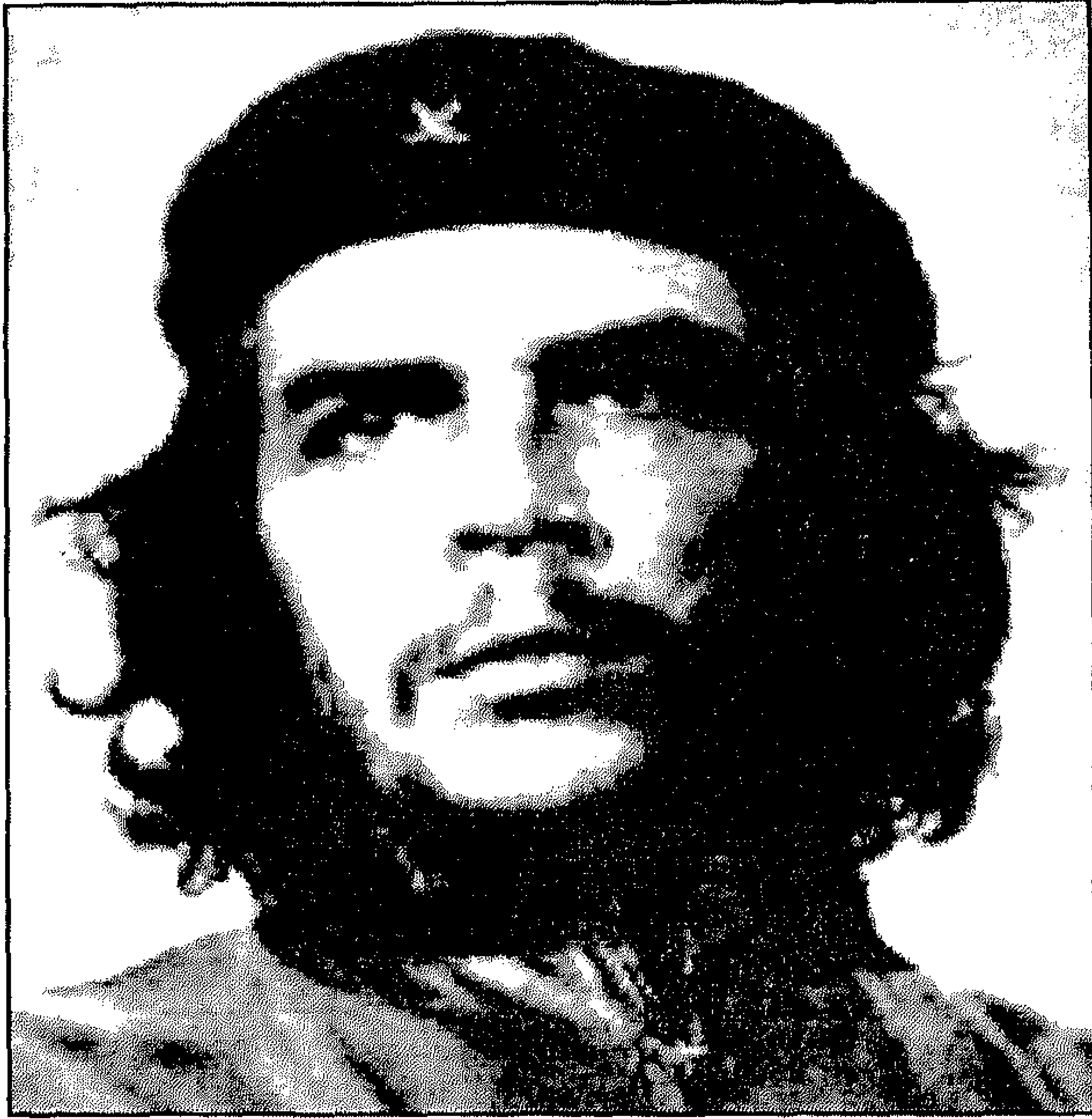
لم يكن ليخطر أبدًا على بال طومان باي أن الشيخ حسن مرعي الذي كان قد أخرجه في الماضي القريب من السجن الذي كان قد دخله أيام عمه السلطان "قلنصوة الغوري " يمكن أن يكون هو نفس الرجل الذي يشي به، ويُبَلِّغ عنه السلطان سليم الأول ليقبض عليه، ورغم إعجاب السلطان بشجاعته وبحواره الصلب أمامه، إلا أنه أمر بشنقه.





تشـي جيفارا

OOO



في يوم ٨ أكتوبر من عام ١٩٦٧، جاءت الأخبار المحبطة لتعلن عن مصرع ارنستو تشـي جيفارا في أحراش بوليفيا في معاركه الضارية وزملائه الأبطـال ضـد القوات البوليفية المدججة بقوات من المارينز الأميريكان، والذين طوال تسعة أشهر طوال من المعارك والكر والفر ما استطاعوا أن يقضـوا عليهم وكبدهم جيفارا بخطة الداهية آلاف القتلى من الجنود البوليفيين والأميريكان، وسيطرت جماعات جيفارا على مساحات واسعة من الأحراش وتوغلوا داخل القرى

المحيطة بالأحراش حيث وكانت في كل مرة تزداد أعداد الثوار المنضوين للثوار الذين أنهكوا الحكومة وأجهدوا القوات المسلحة البوليفية كثيراً. وماكان يخطر ببال جيفارا وهو المحنك في الحروب ويعرف تماماً متي يهاجم ومتي ينسحب ومتي تهدأ أصوات بنادقه وأن يجيء مصرعه بيد أقرب أصدقائه القدامى وخيانة أقرب الأصدقاء ليست جديدة في التاريخ ولن يكون مصرعه حالة نادرة في التاريخ، فقيصر روما وقبل الميلاد قتله أقرب أصدقائه بروتس، ودخلت آخر كلمات القيصر وقبل موته التاريخ حيث قال لقاتله وقبل أن يهوي على الأرض من طعنة الخنجر " حتى أنت يابروتس ! ".

قتل جيفارا في بوليفيا أثناء محاولة لتنظيم ثورة على الحكومة هناك، وتمت عملية القبض عليه بالتنسيق مع المخابرات الأمريكية حيث قامت القوات البوليفية بقتله. وقد شبّت أزمة بعد عملية اغتياله وسميت بأزمة " كلمات جيفارا " أي مذكراته بعد أن حوله قاتلوه وأسيادهم الأمريكيون إلى أسطورة دفعوا ولا يزالون يدفعون ثمنها .

ولا أدل على ذلك من أن معظم أنظمة الحكم في أمريكا اللاتينية الآن تسير على نهج جيفارا، بل أنه كان رغم موته منذ سنوات طويلة هو الدافع لرؤساء هذه الأنظمة في الانعتاق من عبودية بلادهم للعم سام الأمريكي !!

وقد تم نشر هذه المذكرات بعد اغتياله بخمسة أعوام وصار جيفارا رمزا من رموز الثوار على الظلم. نشر فليكس رودريجيس، العميل السابق لجهاز المخابرات الأميركية (CIA) عن إعدام تشي جيفارا. وتمثل هذه الصور آخر لحظات حياة هذا الثوري الأرجنتيني قبل إعدامه بالرصاص بـ "لا هيغويرا" في غابة "فالي غراندي" ببوليفيا، في ٩ أكتوبر من عام ١٩٦٧.

وتظهر الصور كيفية أسر تشي جيفارا، واستلقائه على الأرض، وعيناه شبه المغلقتين ووجهه المورم والأرض الملطخة بدمه بعد إعدامه. كما تنهي الصور كل الإشاعات حول مقتل تشي جيفارا أثناء معارك طاحنة مع الجيش البوليفي.

ومن مدة، كشف فليكس رودريجيس النقاب عن أن أيدي تشي جيفارا بُترت من أجل التعرُّف على بصمات أيديه.

و قد ألقي القبض على اثنين من الثوار، فاعترفوا تحت قسوة التعذيب أن جيفارا هو قائد الثوار. فبدأت حينها مطاردة لشخص واحد. بقيت الـ " سي . آي . إيه" على رأس جهود الجيش البوليفي طوال الحملة، فانتشر آلاف الجنود لتمشيط المناطق الوعرة بحثا عن أربعين رجلا ضعيفا وجائعا.

في يوم ٨ أكتوبر١٩٦٧ وفي أحد وديان بوليفيا الضيقة هاجمت قوات الجيش البوليفي المكونة من ١٥٠٠ فرد مجموعة جيفارا المكونة من ١٦ فرداً، وقد ظل جيفارا ورفاقه يقاتلون ٦ ساعات كاملة وهو شيء نادر الحدوث في حرب العصابات في منطقة صخرية وعرة، تجعل حتى الاتصال بينهم شبه مستحيل.

وقد استمر "تشي" في القتال حتى بعد موت جميع أفراد المجموعة رغم إصابته بجروح في ساقه إلى أن دُمّرت بندقيته (م-٢) وضاع مخزن مسدسه وهو مايفسر وقوعه في الأسر حياً. نُقل "تشي" إلى قرية "لاهيجيرا"، وبقي حيًّا لمدة ٢٤ ساعة، ورفض أن يتبادل كلمة واحدة مع من أسروه.

وفي مدرسة القرية نفذ ضابط الصف "ماريو تيران" تعليمات ضابطيه: "ميجيل أيوروا" و"أندريس سيلنيش" بإطلاق النار على "تشي".

دخل ماريو عليه متردداً فقال له "تشي": أطلق النار، لا تخف؛ إنك ببساطة ستقتل مجرد رجل"، لكنه تراجع، ثم عاد مرة أخرى بعد أن كرر الضابطان الأوامر له فأخذ يطلق الرصاص من أعلى إلى أسفل تحت الخصر حيث كانت الأوامر واضحة بعدم توجيه النيران إلى القلب أو الرأس حتى تطول فترة احتضاره، إلى أن قام رقيب ثمل بإطلاق رصاصه من مسدسه في الجانب الأيسر فأنهى حياته.

وقد رفضت السلطات البوليفية تسليم جثته لأخيه أو حتى تعريف أحد بمكانه أو بمقبرته حتى لا تكون مزاراً للثوار من كل أنحاء العالم.

ومن أقوال جيفارا الخالدة التي لا يزال حكام دول أمريكا اللاتينية يرددونها في خطبهم :

- إنني أحس على وجهي بألم كل صفعة تُوجَّه إلى مظلوم في هذه الدنيا، فأينما وجد الظلم فذاك هو وطني.
- الثورة قوية كالفولاذ، حمراء كالجمر، باقية كالسنديان، عميقة كحبنا الوحشي للوطن .
- لا يهمني أين ومتى سأموت بقدر ما يهمني أن يبقى الوطن .
- الثوار يملئون العالم ضجيجاً كي لا ينام العالم بثقله على أجساد الفقراء.
- إن الطريق مظلم وحالك، فإذا لم تحترق أنت وأنا فمن سينير الطريق.
- لن يكون لدينا ما نحيا من أجله .. إن لم نكن على استعداد أن نموت من أجله .

وهكذا وبعد أكثر من ٤٠ عاما على اغتياله، لا تزال حرب جيفارا - نصير الفقراء وقائدهم وشهيدهم، رمز التمرد على وحشية الظلم والاستغلال - على الأمريكيين مستمرة، وحرب الإمبرياليين على تشي غيفارا الصورة والرمز والشعلة، القضية والثورة أيضًا مستمرة !!

في أحد أيام شهر أكتوبر من عام ١٩٦٧، ألقي بجثة مشوهة في قبر جماعي، وتمنى القتلة ألا يأتي أحد لإعادة الاعتبار للقبر المجهول. اعتقدوا أنهم بتحطيم الرجل سيحطمون أسطورته، ولكنهم كانوا على خطأ.

عام ١٩٦٨، غضب شبان العالم وخرجوا إلى الشوارع معلنين أنهم يستطيعون إنهاء الحروب وتغيير ملامح العالم. وقد تحول هذا الرجل الثائر بعد موته إلى شهيد لقضاياهم، وأصبح يمثل أحلام ورغبات الملايين ممن يحملون في قلوبهم وفي أيديهم صوره.

وبعد أكثر من أربعين عامًا على اغتياله، لا تزال حرب جيفارا - نصير الفقراء وقائدهم وشهيدهم، رمز التمرد على وحشية الظلم والاستغلال - على الأمريكيين مستمرة، وحرب الإمبرياليين على تشي غيفارا الصورة والرمز والشعلة، القضية والثورة أيضًا مستمرة !!

وربما لو عاد الزمن بالأمريكيين إلى الوراء لما أصروا على تنفيذ جريمتهم، وتصفية جيفارا جسديًا، بعد أن أدركوا مع الوقت أن هذه الجريمة النكراء حولت الرجل إلى رمز وأسطورة، وثائر أممي سيغير مجرى التاريخ، وسوف يخرجهم بعد موته من أمريكا اللاتينية، بتحويله شعوبها إلى طاقة ثورية جبارة تقلب الدنيا على الأمريكيين رأسًا على عقب !!

إرنستو جيفارا دِلاسيرنا .. يلقب بـ"تشي جيفارا"، أو بـ" التشي"، أو " تشي".. ثوري كوبي أرجينتيني المولد، وكان رفيق فيدل كاسترو.. ويعتبر أشهر مناضل ثوري فذ في التاريخ !!

درس الطب في جامعة بيونس آيرس وتخرج عام ١٩٥٣، وكان مصاباً بالربو فلم يلتحق بالخدمة العسكرية. قام بجولة حول أمريكا الجنوبية مع أحد أصدقائه على متن دراجة نارية وهو في السنة الأخيرة من الطب وكونت تلك الرحلة شخصيته وإحساسه بوحدة أميركا الجنوبية وبالظلم الكبير الواقع من الإمبرياليين على المزارع البسيط. توجه بعدها إلى غواتيمالا، حيث كان رئيسها يقود حكومة يسارية شعبية، كانت من خلال تعديلات - وعلى وجه الخصوص تعديلات في شؤون الأرض والزراعة- تتجه نحو ثورية اشتراكية. وكانت الإطاحة بالحكومة الجواتيمالية عام ١٩٥٤ بانقلاب عسكري مدعوم من قبل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

في عام ١٩٥٥ قابل جيفارا المناضلة اليسارية "هيلدا أكوستا " من "بيرو" في منفاها في جواتيمالا، فتزوجها وأنجب منها طفلته الأولى، وهيلدا هي التي جعلته يقرأ للمرة الأولى بعض الكلاسيكيات الماركسية، إضافة إلى لينين وتروتسكي وماو تسي تونغ ماو.

سافر جيفارا للمكسيك بعد أن حذرته السفارة الأرجنتينية من أنه مطلوب من قبل المخابرات المركزية، والتقى هناك راؤول كاسترو المنفي مع أصدقائه الذين كانوا يجهزون للثورة وينتظرون خروج فيدل كاسترو من سجنه في كوبا. ما إن خرج فيديل كاسترو من سجنه حتى قرر جيفارا الانضمام للثورة الكوبية، وقد رأى فيدل كاسترو أنهم في أمس الحاجة إليه.

وفي ١٩٥٩ اكتسح رجال حرب العصابات هافانا برئاسة فيدل كاسترو وأسقطوا الديكتاتورية العسكرية لفولجنسيو باتيستا. هذا برغم تسليح حكومة الولايات المتحدة وتمويلها لباتيستا ولعملاء الـ المخابرات المركزية الأمريكية " سي . آي . إيه " داخل جيش عصابات كاسترو.

دخل الثوار كوبا على ظهر زورق ولم يكن معهم سوى ثمانين رجلا لم يبق منهم سوى ١٠ رجال فقط، بينهم كاسترو وأخوه "راءول" وجيفارا، ولكن هذا الهجوم الفاشل أكسبهم مؤيدين كثيرين خاصة في المناطق الريفية، وظلت المجموعة تمارس حرب العصابات لمدة سنتين وخسروا نصف عددهم في معركة مع الجيش.

كان خطاب كاسترو سبباً في إضراب شامل، وبواسطة خطة جيفارا للنزول من جبال سييرا باتجاه العاصمة الكوبية تمكن الثوار من دخول العاصمة هافانا في يناير ١٩٥٩ على رأس ثلاثمائة مقاتل، ليبدأ عهد جديد في حياة كوبا بعد انتصار الثورة وإطاحتها بحكم الديكتاتور "باتيستا".

وفي تلك الأثناء اكتسب جيفارا لقب " تشي" الأرجنتيني، وتزوج من زوجته الثانية " إليدا مارش"، وأنجب منها أربعة أبناء بعد أن طلّق زوجته الأولى.

برز تشي جيفارا كقائد ومقاتل شرس جدا لا يهاب الموت وسريع البديهة يحسن التصرف في الأزمات. لم يعد جيفارا مجرد طبيب بل أصبح قائدا برتبة عقيد، وشريك فيدل كاسترو في قيادة الثورة، وقد أشرف كاسترو على استراتيجية المعارك بينما قاد وخطط جيفارا للمعارك .

و صدر قانون يعطي الجنسية والمواطنية الكاملة لكل من حارب مع الثوار برتبة عقيد، ولم توجد هذه المواصفات سوى في جيفارا الذي عيّن مديرا للمصرف المركزي وأشرف على محاكمات خصوم الثورة وبناء الدولة في فترة لم تعلن فيها الثورة عن وجهها الشيوعي، وما أن أمسكت الثورة بزمام الأمور -وبخاصة الجيش- حتى قامت الحكومة الشيوعية التي كان فيها جيفارا وزيراً للصناعة وممثلاً لكوبا في الخارج ومتحدثاً باسمها في الأمم المتحدة. كما قام بزيارة الاتحاد السوفيتي والصين، واختلف مع السوفييت على إثر سحب صواريخهم من كوبا بعد أن وقعت الولايات المتحدة معاهدة عدم اعتداء مع كوبا.

تولى جيفارا بعد استقرار الحكومة الثورية الجديدة -وعلى رأسها فيدل كاسترو- على التوالي، وأحيانا في نفس الوقت المناصب التالية: سفير منتدب إلى الهيئات الدولية الكبرى، ومنظم الميليشيا، ورئيس البنك المركزي، ومسئول التخطيط، ووزير الصناعة.

ومن خلال هذه المناصب قام الـ"تشي" بالتصدي بكل قوة لتدخلات الولايات المتحدة؛ فقرر تأميم جميع مصالح الدولة بالاتفاق مع كاسترو؛ فشددت الولايات المتحدة الحصار على كوبا، وهو ما جعل الحكومة الكوبية تتجه تدريجيا نحو الاتحاد السوفيتي. كما أعلنت عن مساندتها لحركات التحرير في كل من: تشيلي، وفيتنام، والجزائر.

وسعى جيفارا لإقامة مجموعات حرب عصابات في الكونغو لمقاومة الاستعمار. ومع أن فكرته لم تلق صدى واسعا لدى بعض القادة، أصر جيفارا على موقفه،

وتموه بملابس رجل أعمال ثري، لينطلق في رحلة طويلة سافر فيها من بلد إلى آخر ليواجه المصاعب تلو الأخرى.

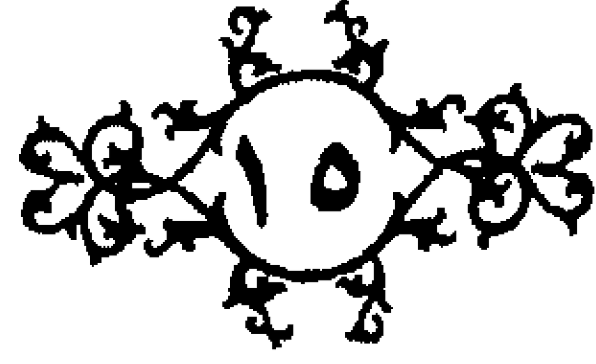
ذهب "تشي" لأفريقيا مسانداً للثورات التحررية، قائدا لـ ١٢٥ كوبيا، ولكن فشلت التجربة الأفريقية لأسباب عديدة، منها عدم تعاون رؤوس الثورة الأفارقة، واختلاف المناخ واللغة، وانتهى الأمر بالـ "تشي" في أحد المستشفيات في براغ للنقاهة، وزاره كاسترو بنفسه ليرجوه العودة، لكنه بقي في زائير (جمهورية الكونغو الديمقراطية محارباً بجانب قائد ثورة الكونغو باتريس لومومبا، لكنه فجأة ظهر في بوليفيا قائدا لثورة جديدة، ولم يوثق هذه المرحلة سوى رسائله لفيديل كاسترو الذي لم ينقطع الاتصال معه حتى أيامه الأخيرة.

لم يكن مشروع "تشي" خلق حركة مسلحة بوليفية، بل التحضير لرص صفوف الحركات التحررية في أمريكا اللاتينية لمجابهة النزعة الأمريكية المستغلة لثروات دول القارة.

ومنذ بداية عام ١٩٦٧ وجد جيفارا نفسه مع مقاتليه العشرين، وحيداً يواجه وحدات الجيش المدججة بالسلاح بقيادة السي آي إيه في براري بوليفيا الاستوائية. أراد جيفارا أن يمضي بعض الوقت في حشد القوى والعمل على تجنيد الفلاحين والهنود الحمر من حوله، ولكنه أجبر على خوض المعارك مبكراً.

وقد قام "تشي" بقيادة مجموعة من المحاربين لتحقيق هذه الأهداف، وقام أثناء تلك الفترة الواقعة بين ٧ نوفمبر ١٩٦٦ و٧ أكتوبر ١٩٦٧ بكتابه يوميات المعركة.





المهاتما غاندي ..

OOO



تألم غاندي من سفك الدماء الذي أعقب تقسيم الهند وإقامة دولة باكستان في عام ١٩٤٧، وواجهته هزيمته وإخفاقه في تحقيق دولة علمانية يعيش فيها الهندوس والمسلمون بانسجام، وحزنه على وفاة زوجته المخلصة كاستوربا، التي توفيت في عام ١٩٤٤، هذا الشخص كانت سنوات حياته الأخيرة متسمة بالاكتئاب وعدم الثقة بالنفس.

لم ترق دعوات غاندي للأغلبية الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة، واعتبرتها بعض الفئات الهندوسية المتعصبة خيانة عظمى فقررت التخلص منه،

وبالفعل في ٣٠ يناير ١٩٤٨ أطلق أحد الهندوس المتعصبين ثلاث رصاصات قاتلة سقط على أثرها المهاتما غاندي صريعا عن عمر يناهر ٧٩ عاما.

يلاحظ أن غاندي قد تعرض في حياته لست محولات لاغتياله، وقد لقي مصرعه في المحاولة السادسة. . ثم جاءت النهاية .

في الساعة الرابعة والنصف من مساء ذات ليلة أو بعد ذلك بدقائق قليلة، كان غاندي في قصر (بيرلا) يتحدث مع السردار باتل نائب رئيس وزراء الهند، ولكن قطع حديثه ونظر إلى ساعته وقال لمحدثه: دعني أذهب.. ثم أردف: إنها ساعة الصلاة.

ثم قام ونهض معتمدا على كتفي حفيدتي أخته، الآنستين آفا ومانو، وسار إلى المنصة التي اختارها ليشرف منها على جموع المصلين الذين ألفوا أن يشاركوه الصلاة ثم صعد في بطء الدرجات الثلاثة المؤدية إلى المنصة، فتقدم إليه شاب قصير ممتلئ ثم ركع عند قدمي غاندي، ووجه إليه الخطاب قائلا: لقد تأخرت اليوم عن موعد الصلاة.

فأجاب المهاتما: نعم قد تأخرت.

ولم يكن هذا الشاب سوى ناثورام فنياك جودس محرر جريدة (هندور اشترا) المتطرفة، التي لم تكف عن اتهام غاندي بخيانة قضية الهندوكيين بتسامحه مع المسلمين، ولم يكد يتم المهاتما هذه الجملة القصيرة حتى انطلقت ثلاث رصاصات، من مسدس برتا صغير، أصابت اثنتان منهما بطنه، والثالثة صدره، وهتف غاندي: "أي رام.. أي رام "ثم سكت ولم يتكلم ولم يكن رام هذا سوى بطل من أبطال القصص الدينية تقص سيرته كنموذج رفيع للتضحية وبذل النفس. ولفظ غاندي بكلماته الأخيرة قائلا لقاتله: "إنه خطئي أنا ' لأنني لم أعلمك الحب" .

أضيئت إلى جانب رأسه، خمس شمعات تمثل العناصر الخمس: الهواء، والضوء، والماء، والأرض، والنار.

وفي لحظات انطلق النبأ إلى الهند بأسرها، وعم البلاد الشعور بالحزن ومن ضمن القصص التي رويت أن عروسين كانا قد تهيئا للزفاف، فلم يكد يصدمهما النبأ الفاجع حتى أوقفا مراسيم الزواج وذهب كل منهما إلى بيته ليشارك الأمة في حزنها القومي وليشارك الإنسانية في حدادها الإنساني.

كانت وفاة غاندي وفاة رمزية حقا، ويزيد في دلالة رمزها أن غاندي كان في الليلة السابقة يرتل نشيدا ذائعا في بلده بورباندر التي ولد فيها قائلا: "هذه دنيا غريبة.. فإلى متى سألعب فيها لعبة الحياة".

قال عنه آينشتاين: "إنه يقترب من الاستحالة أن يمتلئ قلب بالحب والرحمة لإنسان من دم ولحم كما كان ذلك عند غاندي".

لم يكن غاندي جنرالا أو حاكما عسكريا أو ملكا أو فاتحا ..بل كان رجلا عرشه على القلوب.. هكذا وصفه مشيعوه ..إنه المهاتما غاندي الزعيم الروحي للهند، وزعيم الثورة السلمية التي أدت إلى استقلال الهند عن بريطانيا، استقلال حاز عليه بالحب مرددا " يمكننا الانتصار على خصمنا فقط بالحب وليس بالكراهية، فالكراهية شكل مهذب للعنف وهي تجرح الحاقد ولا تمس المحقود عليه أبدا".

ولد "موهندس كرمشاند غاندي" الملقب بـ "المهاتما" (٢أكتوبر ١٨٦٩ – ٣٠ يناير ١٩٤٨ في عائلة محافظة لها باع طويل في العمل السياسي .وعاش طفولة عادية ثم تزوج حسب التقاليد السائدة وله من زواجه هذا أربعة أولاد. سافر غاندي إلى بريطانيا لدراسة القانون وحصل على شهادة جامعية تمكنه من ممارسة مهنة المحاماة. وبعد ذلك عاد إلى الهند ولما لم يجد فرصة عمل في الهند ذهب إلى جنوب إفريقيا عام ١٨٩٣ بعد أن تلقى عرضا للعمل هناك حيث كانت جنوب إفريقيا

يومها مستعمرة بريطانية حيث عاش فيها ٢٢ عاما وتعتبر تلك الفترة التي قضاها بجنوب أفريقيا من أهم مراحل تطوره الفكري والسياسي.

تعلّم غاندي روح التضحية الذاتية من والدته بوتليبا التي وصفها بأنها "قديسة ذات تديّن عميق" ، وكانت أمه نباتية، وغالباً ما تلتزم بالصوم، تلك الممارسة الروحية التي استخدمها ابنها فيما بعد كأداة سياسية.

لقد انطلق غاندي من مبدأ البحث عن الحقيقة ليصل إلى أننا في هذا الكون نعيش لهدف وغاية، وأننا حتى نصل إلى الحقيقة لابد لنا من أن نعرف طريقنا في هذه الحياة والغاية من وجودنا، وقد عرف غاندي أن الإنسان وُجد لكي يكون مفيداً لغيره، وليقدم ما يستطيع من أجل خير الجميع، جميع الكائنات في هذه الأرض.

يقول حفيده راجموهان غاندي في حديثه عنه : " نعم، عندما ولد، "يقصد غاندي" ، كانت عائلته تحتل مكانة مرموقة فى "بورباندار" وهو ميناء صغير شمال بومباي. وكان والده "كارا مشاند" وزيرا أول لدى الأمير الذى كان يحكم المدينة.

بالاضافة إلى هذا، كانت عشيرة غاندى تنتمى إلى طبقة "سامية" هى طبقة التجار المسمين بـ"البانيا".

ويقول راجموهان أن غاندى الذى كان يسمى موهانداس / أي القديس تزوج وهو فى الثانية عشرة من عمره من فتاة جميلة جدا لكنها كانت أمية. وقد ظلت هذه الفتاة زوجته حتى النهاية.

وفى لندن حيث درس القانون، أصبح غاندى نباتيا. كما أنه اكتشف المسيحية، وقرأ الإنجيل بتمعن شديد. وعن الفترة التى أمضاها غاندى فى جنوب افريقيا، يقول حفيده راجموهان :عاش جدى فى افريقيا الجنوبية عشرين عاما ومنذ وصوله إلى هناك، وجد نفسه مجبرا على مواجهة العنصرية، وثمة حادث لا يزال ماثلا فى ذاكرة الهنود.

حدث ذلك فى القطار يوم ٢١ مايو ١٨٩٣ وكان غاندى فى الرابعة والعشرين من عمره آنذاك. وكان من ركاب الدرجة الأولى، غير عارف بأن القوانين العنصرية تحرّم عليه ذلك وقد قام أحد الركاب البيض بالتبليغ عنه. وبالرغم من أن غاندى كان قد دفع ثمن تذكرته، وكان يرتدى بدلة ثمينة، فإنه طرد بالقوة من عربة الدرجة الأولى. والشعور بالإذلال والمهانة الذى انجرّ عن ذلك هو الذى دفعه إلى النضال من أجل حقوق الهنود الذين كانوا كثيرين فى جنوب إفريقيا فى ذلك الوقت.

ولكن كيف يتخلص من الاحتلال؟ البعض نصحوه بضرورة اللجوء إلى الكفاح المسلح. غير أنه رفض ذلك رفضا قاطعا. ولعل قراءته لأعمال الروائى الروسى العظيم تولستوى هى التى "أنقذته من داء العنف". لذا دعا إلى النضال بالطرق السلمية، وأسس حزبا، وأصدر جريدة حملت اسم "رأي الهند" وشيئا فشيئا أصبح مناضلا سياسيا معروفا، ومحاميا ناجحا".

ولكن لماذا اختار غاندى النضال السلمي؟عن هذا السؤال يجيب راجموهان غاندى قائلا: "لقد تأثر جدى كثيرا بأفكار الكاتب الأمريكى دافيد تورو، صاحب فكرة "العصيان المدني". ومثله، كان يعتقد أن المواطنين لهم الحق والواجب فى عصيان القوانين اللاأخلاقية.وفى النهاية كان غاندى يرى أن النضال السلمى هو التكتيك النضالى الوحيد المحتمل ضد الإمبراطورية. فقد كان يعلم أن كل حركة مسلحة فى مواجهة القوة العسكرية البريطانية مآلها الفشل.

يقول: "لكي يرى المرء روح الحقيقة في كل شيء، وجهاً لوجه، يتعين عليه أن يحب أحقر الكائنات حبه لنفسه، والرجل الذي يطمح إلى ذلك لا يستطيع أن يعتزل أي حقل من حقول الحياة، وهذا هو السبب الذي من أجله قادني تعبدي للحقيقة إلى حقل السياسة".

كانت الهند في بدايات القرن العشرين، كما وصفها "جواهر لال نهرو"، مجتمعاً بالغ اليأس والإحباط، وشعباً لا يملك قوت يومه، وبلداً يتحكم الأجنبي في مفاصله.

واستمر هذا الوضع طويلاً إلى أن جاء غاندي إلى وطنه الهند عائدا من جنوب أفريقيا .

عاد غاندي إلى الهند عام ١٩١٤ بعد نضاله ضد المستعمر بجنوب افريقيا ليواجه عدوا أكثر شراسة وهو الاستعمار الإنجليزي الذي يعيث في أرض الهند فسادا، ويحتكر ثرواته، ليعيش الانسان الهندي تحت خط الفقر.

وبدأ غاندي ينشر مبادئه في العمل على مقاومة الاستعمار بالاستغناء عن السلع الإنجليزية، والاكتفاء بما هو ضروري للحياة، وتحسين وضع طبقة المنبوذين .

تمثلت أولى خطوات تطبيق هذه الإستراتيجية في قصة "مسيرة الملح".. فحينما حرّمت بريطانيا على الهند استخراج الملح، قام غاندي باستخراجه بنفسه من مياه البحر، وحرض شعب الهند على ذلك؛ لكي يضرب لهم ولجميع المتضررين من الاستعمار في العالم المثل على كيفية إيجاد بدائل للسلع التي تتم مقاطعتها.

وتعود قصة مسيرة الملح إلى أوائل عام ١٩٣٠ حينما أعلن غاندي أنه سيقود مسيرة تمثل أول حركة عصيان مدني باصطحاب جماعة من مؤيديه للعمل على إلغاء قانون الملح الذي رفع ضريبة إنتاجه لصالح التجار الإنجليز. وطالب غاندي الحاكم برفع هذه المظالم، وإلا خرج في مسيرة يمكن أن تعرض أمن الدولة للخطر.

ولما أهملت الحكومة إنذار غاندي قام غاندي يوم ١٢ مارس ١٩٣٠ ومعه ٧٩ فردا بمسيرة قطعوا فيها مسافة قدرها ٣٠٠كم استمرت لبضعة أسابيع متواصلة لم يستريحوا فيها إلا يوم الإثنين من كل أسبوع؛ وذلك من أجل هدف محدد، وهو إعدام الملح المستورد!

وسرعان ما انتشر خبر هذه المسيرة في كل أرجاء الهند؛ حيث صمم الهنود على استخراج الملح من البحر، ومقاطعة الملح الإنجليزي؛ تطبيقاً لنصيحة غاندي صاحب وأول منفذ لتلك الفكرة الذي سجن بسببها لمدة عام كامل!

كثيرا ما ردد غاندي موضحا بعض مبادئ عقيدته " المجاهد في معركة عدم العنف يجب أن يكون أقرب ما يكون من الإنسان الكامل. وكلما طهرنا أنفسنا من العنف، كلما زدنا فضلا وعندها لن يتردد أحد في الإيمان بقوة الحب. وإذا عمت الدنيا هذه القوة لأحدثت ثورة في مثلنا العليا ولمحت الاستبداد ولقضت على الروح المربية النامية أبدا والتي تئن تحت نيرها الأمم إلى حد الموت".

وقد أوضح غاندي أن اللاعنف لا يعتبر عجزاً أو ضعفاً، ذلك لأن "الامتناع عن المعاقبة لا يعتبر غفراناً إلا عندما تكون القدرة على المعاقبة قائمة فعليا"، وهي لا تعني كذلك عدم اللجوء إلى العنف مطلقاً قائلا : "إنني قد ألجأ إلى العنف ألف مرة إذا كان البديل إخصاء عرق بشري بأكمله".

وتتخذ سياسة اللاعنف عدة أساليب لتحقيق أغراضها منها الصيام، والمقاطعة، والاعتصام، والعصيان المدني، والقبول بالسجن، ويشترط غاندي لنجاح هذه السياسة تمتع الخصم ببقية من ضمير وحرية تمكنه في النهاية من فتح حوار موضوعي مع الطرف الآخر.

وكانت فكرة المقاطعة عند غاندي بسيطة واضحة؛ فقد رأى أن سلطة البريطانيين في الهند قائمة على تعاون جميع الهنود معهم.. فإذا أمكن سحب هذا التعاون فلن تستطيع قوات الاحتلال والحكومة الهندية الموالية لها البقاء.

كان على غاندي أن يحرر مواطنيه من الخوف أولا، سواء الخوف من أجهزة المستعمر القمعية، أو الخوف على النفس ولقمة العيش والمصالح الذاتية. وقد نجح في ذلك عبر إشعار مواطنيه بأن كرامتهم مُهانة وحقوقهم مستباحة مكرراً على مسامعهم "إن الإنجليز موجودون هنا ليس بسبب قوتهم، وإنما بسبب ضعفنا وخوفنا وتشتتنا".

وما أن تحقق له ذلك حتى طالب شعبه بالانتقال إلى المرحلة التالية التي لم تكن سوى مقاطعة مؤسسات المحتل وتنظيماته ومعاهده وبضائعه، والاعتماد بدلاً من ذلك على الذات في كل شيء.

حيث قاد غاندي حملة مقاطعة الملابس الأجنبية من أجل تحرير الاقتصاد الوطني. وخصص أربع ساعات يومياً لينسج بنفسه قماشا على مغزل يدوي حتى يصير مرة أخرى قدوة للناس، فيستخدموا هذا القماش البسيط المغزول داخل البلاد وبأيدي أبنائها بدلا من شرائهم المغازل البريطانية التي أودت بحياة صناعة النسيج في الهند.

وبالفعل جاء الهنود والأغنياء والتجار بما كان لديهم من المنسوجات الواردة من الخارج فألقوا بها في النار، وفي مدينة "بومباي" وحدها أكلت ألسنة اللهب مائة وخمسين ألف ثوب من القماش المستورد.

وامتدت هذه الروح الوطنية إلى لجوء الهنود في مقاطعتهم السلمية للمستعمر إلى أساليب كثيرة، منها الانقطاع عن العمل في مؤسسات المستعمر، والامتناع عن استخدام أوعيته الاقتصادية من بنوك وشركات ومقاطعة مناسباته واحتفالاته، ورد ما حصلوا عليه منه من أوسمة وشهادات ومكافآت، وهجر مدارسه ومعاهده ومراكزه، بالإضافة إلى تنظيم المسيرات الصامتة، ورفع الأعلام السوداء على المباني، وتشكيل لجان جمع التبرعات لدعم المحتاجين والمتضررين من الانقطاع عن العمل في دوائر المستعمر، واتباع متطلبات اقتصاد الحرب من تقشف ونبذ للبذخ. كما أعلن المهاتما غاندي رفضه أن يحلق ذقنه بشفرات الحلاقة البريطانية، فترك ذقنه حتى حلقها بشفرات مصنوعة ببلاده! مرددا: "كلوا ما تنتجون، والبسوا ما تصنعون، وقاطعوا بضائع العدو؟".

وقد سجن غاندي لآخر مرة في عام ١٩٤٢. وبلغ مجموع المدد التي قضاها في السجن لأسباب سياسية سبع سنوات. حتى توجت الحركة الغاندية بالانتصار في أغسطس عام ١٩٤٧، حينما وافق الإنجليز مضطرين على الخروج من الهند. وانتهت السيادة البريطانية حينما أسقط ملك بريطانيا عن نفسه لقب "إمبراطورية الهند". وظفرت الهند باستقلالها بعد أن فصلت عنها الولايات ذات الأغلبية الإسلامية وكونت منها دولة باكستان.

وكان غاندي يقول أنه "إذا كان المستعمر متوحشاً، فلا يجب أن ننافسه في توحشه، ولنثبت للعالم أننا أصحاب حضارة وسلوكيات أرقى".

كان المهاتما غاندي برفضه للاستعمار والعنف هو العامل الأساسي المؤثر في تشكيل وجهة النظر الهندية نحو القضية الفلسطينية. ففي إحدى افتتاحيات صحيفة الهاريجان في عام ١٩٣٨، عبَّر غاندي عن تعاطفه مع يهود أوربا المضطهدين، ولكن هذا لم يمنعه من أن يرى الفلسطينيين على أنهم بشر وليسوا مجرد وحدات إحصائية. ومن هذا المنظور أدان غاندي الصهيونية واتجاهاتها العدوانية وكتب يقول: "إن الدعوة لإنشاء وطن لليهود لا تعني الكثير بالنسبة لي، ففلسطين تنتمي للعرب تماماً كما تنتمي إنجلترا للإنجليز أو فرنسا للفرنسيين، ومن الخطأ فرض اليهود على العرب، وما يجري الآن في فلسطين لا علاقة له بأية منظومة أخلاقية".

وفي المقال نفسه حذر غاندي يهود فلسطين من الصهيونية والعدوانية العرقية، وتساءل: "لماذا لا يقوم اليهود الصهاينة، شأنهم شأن كل شعوب الأرض، بأن يجعلوا وطنهم البلد الذي وُلدوا فيه ويكسبون رزقهم على أرضه"، ثم أضاف: "إذا لم يكن لليهود أي وطن غير فلسطين كما يدعون، فهل يمكنهم أن يتقبلوا فكرة طردهم من بقية أرجاء العالم".

وقد حاول الفيلسوف الصهيوني مارتن بوبر إقناع غاندي بوجهة النظر الصهيونية فكتب له قائلا: "إن المستوطنين الصهاينة لم يأتوا إلى فلسطين بوصفهم مستعمرين، ولم يأتوا من الغرب ليقوم السكان الأصليين بالعمل نيابة عنهم، إنهم يعملون بأيديهم ويحملون المحراث على أكتافهم". ثم أضاف بوبر في لغة صوفية، "هذه الأرض تعرفنا لأننا نعرفها". ولم يكلف غاندي خاطره بالرد على خطاب بوبر.

في كتابه "قصة تجاربي مع الحقيقة، سيرة المهاتما غاندي بقلمه" الذي أصدرته دار العلم للملايين في بيروت بترجمة منير البعلبكي، يسرد غاندي

تجارب كثيرة وحوادث كثيرة يصف فيها طريقته في تطهير ذاته، والتحكم بشهواته، وضبط نفسه، فقد كان يعتبر الغذاء هو أساس الصحة "كان غاندي نباتيا، وقد امتنع عن أكل اللحم، والذي يعني عنده كل ما تنتجه الحيوانات كالحليب والبيض أيضاً، وكان امتناعه هذا لسبب ديني فأكل اللحم حرام في شريعته الهندوسية، وكان كلما أخطأ سارع فصام لتكفير خطاياه، وانتهى سعيه للتطهير الذاتي الخاص به لاعتزال زوجته مبرراً أنه إذا وصل لطهارة الفكر لن تخطر على البال الشهوة أصلا !!

مرضت زوجته مرضا خطيرا ذات مرة، وكان يعالجها بطرقه الخاصة بالاعتماد على الماء والتراب، وتوسل لها أن تجتنب الحبوب والملح، ولكنها رفضت، وليساعدها فقد قاطع الحبوب والملح عاما كاملاً، مما جعلها تلتزم بنصيحته .

وخاطب شاعر الهند الأكبر طاغور غاندي قائلاً: "إن كلامك بسيط يا سيدي، وليس بسيطاً كلام أولئك الذين يتحدثون عنك".

يقول بأن امرأة جاءت لغاندي من مسيرة يومين وكانت قد جلبت معها طفلها وقالت لغاندي إنني أحضرت طفلي الذي يحبك كي تنصحه بأن لا يأكل السكر فإن الأطباء حذروه من أكل السكر ولكنه لا يقتنع بكلامهم ولا كلامي.

فقال غاندي : اذهبي وتعالي بعد أسبوعين .

قالت المرأة وهي غاضبه: أنا أتيتك مسافرة يومين بالقطار والآن تعيدني بقولك المقابلة انتهت تعالي بعد أسبوعين واجلبي ولدك معك.

فقال :نعم

فذهبت وعادت بالوقت المحدد وقالت له أنا التي أتيتك منذ أسبوعين.

فقال : أتيتيني بشأن ولدك والسكر.

فقالت: نعم وهي مستغربه كيف استطاع أن يتذكرها مع أنه لم يرها سوى ثوان ولم يعرها أي انتباه.

فقال: للولد يا ولد أتحبني فقال الولد نعم قال أنا لا آكل السكر فإن كنت تحبني فلا تأكله.

فقالت:الأم ولماذا أرجعتني بالمرة الماضية ؟

قال :حكيم الهند : في المرة الماضية كنت آكل السكر ولحبي لولدك منعت نفسي من أكل السكر حتى أستطيع أن أنصحه بما لا يعيبني.

ويحكى أيضا أن غاندي كان يجري للحاق بقطار وقد بدأ القطار بالسير وعند صعوده القطار سقطت إحدى فردتي حذائه .. فما كان منه إلا أن أسرع بخلع الفردة الثانية ورماها بجوار الفردة الأولى على سكة القطار !

فتعجب أصدقاؤه وسألوه : " لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟ "

فقال :غاندي بكل حكمة : " أحببت للذي يجد الحذاء أن يجد فردتين فيستطيع الانتفاع بهما، فلو وجد فردة واحدة فلن تفيده" .

ولد المهاتما غاندي في الثاني من أكتوبر/تشرين الأول ١٨٦٩ في بور بندر بمقاطعة غوجارات الهندية من عائلة محافظة لها باع طويل في العمل السياسي، حيث شغل جده ومن بعده والده منصب رئيس وزراء إمارة بور بندر، كما كان للعائلة مشاريعها التجارية المشهورة. وقضى طفولة عادية ثم تزوج وهو في الثالثة عشرة من عمره بحسب التقاليد الهندية المحلية .

بعد انتهائه من دراسة القانون في بريطانيا عام ١٨٨٢م عاد إلى بلاده الهند في تموز ١٨٩١م بعد حصوله على الإجازة الجامعية التي تخوله ممارسة مهنة

المحاماة. إلا أنه واجه مصاعب كثيرة، بدأت بفقدانه والدته التي غيبها الموت، واكتشافه أن المحاماة ليست طريقاً مضموناً للنجاح. وقد أعاده الإخفاق من بومباي إلى راجكوت، فعمل فيها كاتباً للعرائض، خاضعاً لصلف المسؤولين البريطانيين. ولهذا السبب لم يتردد في قبول عرض للتعاقد معه لمدة عام، قدّمته له مؤسسة هندية في ناتال بجنوب إفريقيا. وبدأت مع سفره إلى جنوب إفريقيا مرحلة كفاحه السلمي في مواجهة تحديات التفرقة العنصرية.

أسس غاندي ما عرف في عالم السياسية بـ"المقاومة السلمية" أو فلسفة اللاعنف (الساتياراها)، وهي مجموعة من المبادئ تقوم على أسس دينية وسياسية واقتصادية في آن واحد ملخصها الشجاعة والحقيقة واللاعنف، وتهدف إلى إلحاق الهزيمة بالمحتل عن طريق الوعي الكامل والعميق بالخطر المحدق وتكوين قوة قادرة على مواجهة هذا الخطر باللاعنف أولا ثم بالعنف إذا لم يوجد خيار آخر

وقد تأثر غاندي بعدد من المؤلفات كان لها دور كبير في بلورة فلسفته ومواقفه السياسية منها "نشيد الطوباوي" وهي عبارة عن ملحمة شعرية هندوسية كتبت في القرن الثالث قبل الميلاد واعتبرها غاندي بمثابة قاموسه الروحي ومرجعا أساسيا يستلهم منه أفكاره.وكتاب "حتى الرجل الأخير" للفيلسوف الإنجليزي جون راسكين .

ماذا قال غاندي عن الإسلام : "أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.

لقد أصبحت مقتنعا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذالك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود،وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته.هذه الصفات هي التي مهدت الطريق. وتخطت المصاعب وليس السيف."

قال أيضـا : "بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول محمد أجد نفسي بحاجة أكثر إلى التعرف على حياته العظيمة ."

إنجازاته في جنوب أفريقيا : كانت جنوب أفريقيا مستعمرة بريطانية كالهند وبها العديد من العمال الهنود الذين قرر غاندي الدفاع عن حقوقهم أمام الشركات البريطانية التي كانوا يعملون فيها. وتعتبر الفترة التي قضاها بجنوب أفريقيا (١٨٩٣ - ١٩١٥) من أهم مراحل تطوره الفكري والسياسي حيث أتاحت له فرصة لتعميق معارفه وثقافاته والاطلاع على ديانات وعقائد مختلفة، واختبر أسلوبا في العمل السياسي أثبت فعاليته ضد الاستعمار البريطاني. وأثرت فيه مشاهد التمييز العنصري التي كان يتبعها البيض ضد الأفارقة أصحاب البلاد الأصليين أو ضد الفئات الملونة الأخرى المقيمة هناك.

وكان من ثمرات جهوده آنذاك:

- إعادة الثقة إلى أبناء الجالية الهندية المهاجرة وتخليصهم من عقد الخوف والنقص ورفع مستواهم الأخلاقي.
- إنشاء صحيفة "الرأي الهندي" التي دعا عبرها إلى فلسفة اللاعنف.
- تأسيس حزب "المؤتمر الهندي لنتال" ليدافع عبره عن حقوق العمال الهنود.
- محاربة قانون كان يحرم الهنود من حق التصويت.
- تغيير ما كان يعرف بـ"المرسوم الآسيوي" الذي يفرض على الهنود تسجيل أنفسهم في سجلات خاصة.
- ثني الحكومة البريطانية عن عزمها تحديد الهجرة الهندية إلى جنوب أفريقيا.

- مكافحة قانون إلغاء عقود الزواج غير المسيحية.

- قرر غاندي في عام ١٩٣٢ البدء بصيام حتى الموت احتجاجا على مشروع قانون يكرس التمييز في الانتخابات ضد المنبوذين الهنود، مما دفع بالزعماء السياسيين والدينيين إلى التفاوض والتوصل إلى "اتفاقية بونا" التي قضت بزيادة عدد النواب "المنبوذين" وإلغاء نظام التمييز الانتخابي .

ومن أقوال لمهاتما غاندي :

- لا أحب كلمة "التسامح" لكن لا أجد كلمة أفضل منها.

- الغضب وانعدام التسامح أعداء التفاهم .

- الكراهية تقتل دائما والحب لا يموت أبدا.

- مايكون حقيقة بالنسبة لشخص مًّا يكون خطأ بالنسبة لآخر.

- الحياة لغز يجب أن نعيشه لا مشكلة يجب أن نحلها .

- السعادة عندما تتوافق الأقوال مع الأفعال.

- الخطأ لايصير حقيقة وهو ينتشر ويتعدد والحقيقة لا تصير خطأ لأن لا أحد يراها.

- كل إنسان مسؤول عن عقيدته.

- من الخطأ اعتقاد أن كل شيء لا نستطيع فهمه أواستيعابه خطأ.

- عندما يقرر العبد أن لا يبقى عبدا فإن قيوده تسقط.

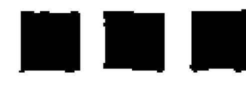
- بما أنني رميت سيفي فإن كأس الحب هو كل ماأستطيع أن أهديه لمن يتعرض لي.

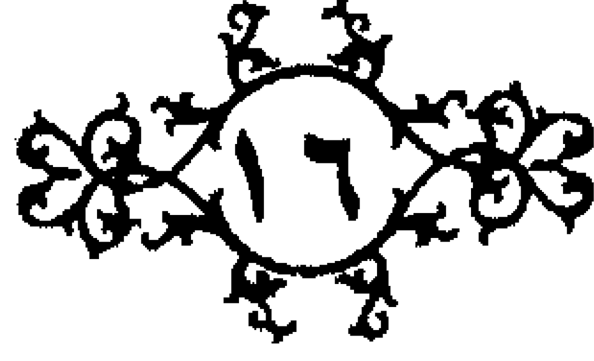
- الأنظمة الاقتصادية التي تهمل الأخلاقيات والمشاعر كتماثيل الشمع: تبدو حية لكن تنقصها حياة الإنسان الحقيقي ،الإنسان من جلد وعظم.

-الديمقراطية عليها أن تضمن نفس الفرص بالنسبة للضعيف كما للقوي.

- كل واحد على حق من وجهة نظره لكن من المستحيل أن يكون الكل مخطئا.

- السماء والأرض بداخلنا .





نابليون ..

ooo



عندما وقع أشهر قائد في التاريخ وهو نابليون بونابرت أسيرا في يد قوات الحلفاء بقيادة انجلترا بعد هزيمة (ووترلو) وتم نفيه إلى جزيرة قاحلة في جنوب المحيط الأطلسي، اسمها (سانت هيلانة) . راح بالتأكيد يتذكر ما مر به من أيام المجد، وأيام الهزيمة، إلى أن مات مصابا بالسرطان في ٥ مايو ١٨٢١م.

ومعروف أنه هرب من مصر عام ١٧٩٩م ليبدأ انقلابا يتولى بعده السلطة في فرنسا، وهو الذي أشرف على مراجعة القانون الفرنسي الذي أعطى الكثير من

الحريات للشعب الفرنسي، ثم انطلق ليكون إمبراطورية أوربية هائلة إلى أن هزم في روسيا، ثم هزم بعد أن تحالفت عليه أوربا في معركة الأمم، حيث سقطت باريس في أيديهم في ١١ أبريل ١٨١٤، وتنازل عن العرش، ونفي إلى جزيرة (ألبا) في الساحل الشمالي الغربي لإيطاليا، ولكن نابليون صاحب الطموحات التي لا تحد، عاد إلى فرنسا من جديد، وحكم مائة يوم، حيث تصدى له الحلفاء بقيادة انجلترا وتحت قيادة القائد دوق ولينجتون، حيث هزم في موقعة ووترلو الشهيرة.. وهنا فر إلى باريس، وتنازل عن العرش، ونفي إلى جزيرة سا نت هيلانة.

العجيب أن نابليون وهو في سنوات تألقه لم يكن يؤمن إطلاقا بشيء اسمه الحظ..كان كل شيء عنده محسوبا بالقلم والمسطرة.

المعارك العسكرية ممكن الانتصار فيها من خلال خطط موضوعة، يتسم بالعلم والمنطق ولا مجال للهزيمة في ظل هذه الخطط المحكمة. والسياسة لابد أن تحقق النتائج المرسومة لها طالما أعد لها الإعداد الجيد.

ولكن هذه الأفكار عن الموضوعية والتخطيط، بدأ يتحفظ عليها يوم غزا روسيا، وتألبت عليه قوي الطبيعة البالغة القسوة، بجانب المقاومة الروسية، مما جعله يفقد نصف مليون جندي، ويعرف معنى الهزيمة.

كما أنه أيقن أن هناك القدر الذي لا يمكن الإفلات منه، وأحس بهذه السطوة في المعارك التي خاضها وفشل فيها، فقد كان يقول قبل أن يخوض معركة (ووترلو) التي هزم فيها، وانتهي دوره التاريخي بعدها.. قال نابليون قبل هذه المعركة.

"هاتف داخلي ينبئني أن النتيجة سوف لا تكون سارة، وإني أعزو فشلي إلى أفول نجمة حظي".

هكذا اعترف نابليون في أيامه الأخيرة بأن هناك أمورا من الصعب التحكم فيها، فوق قدرة البشر، ومن هنا عرف الرجل الذي لم يكن يؤمن بكلمة المستحيل، أن المستحيل قد يصبح حقيقة لا نعرفها في بعض الظروف.

كان نابليون يردد: إن الحظ يعمل ضدي..وكان يظن أنه بعد أن انتهي به المطاف سجينا في جزيرة (سانت هيلانة) أنه سوف يعيش البقية الباقية من عمره هادئ البال بعد أن عاش حياته السابقة كلها في طموحات تكوين إمبراطورية فرنسية بالغة الاتساع، تشمل بجانب أوربا أجزاء من آسيا وإفريقيا، ولكنه رأى أحلامه وهي تتهاوى، ورأى مجده وهو يتساقط، وأنه الآن حبيس جزيرة جرداء وآن له أن يستريح!

ولكن نابليون لم يكن يتصور أن نهاية حياته لن تكون راحة.. ولن يكون فيها ما يصبو إليه من سكينة اليأس، وأن سجانه سوف يعاملونه بقسوة بالغة لا تليق بالإمبراطور نابليون، الذي دوي اسمه وشهرته في كل مكان!

ولم يكن يدري أن الإنجليز سوف يحولون حياته إلى جحيم لا يطاق في تلك الجزيرة القاحلة القابعة في جنوب المحيط الأطلنطي.

لم يكن يتصور أن حاكم هذه الجزيرة التي تخضع للنفوذ الانجليزي سوف يعامله بصلف وغرور.. وأنه مجرد أسير.. وكان هذ الرجل الإنجليزي اسمه (هدسون لو.. وكان يقول:

أنا آمر القائد بونابرت أنه أسيري!! وقد سمعه نابليون يقول ذلك، فرد عليه في حدة وغضب:

- أنا لست أسير أحد.. إنما أنا ضيف الأمة الإنجليزية!!

ويرد عليه الحاكم الإنجليزي :

- هذا هراء.. وسأرغمه على طاعتي أو أضعه في القيود والسلاسل.

وعاملوه معاملة في غاية القسوة والإذلال، حتى عبر عن ذلك أحد أصدقاء نابليون بونابرت بقوله:

إنهم يقتلون بوخز الإبر رجلا عجزت عن هزيمته جيوش أوربا!

وما أكثر ما احتد النقاش بين نابليون وسجانه، وكان نابليون يقول لهم إنه سيد أوربا، وسيظل اسمه في التاريخ، بينما لن يعرف التاريخ عن سجانه هذا شيئا.

وقال له نابليون يوما:

- إنك تضحكني!

وقرر نابليون ألا يلقى هذا الحاكم مرة ثانية، لأنه يثير فيه الغضب، وبالفعل لم يلتق به هذا الحاكم بعد ذلك إلا ونابليون على سرير المرض.

وهكذا ظلت الحرب التي ظن أنه قد نبذها وباعدها بقبوله المنفي تلاحقه، وتأبى أن تتركه، وظلت الحرب ناشبة إلى يوم مماته، ولكنها كانت حربا ضد الطغيان الذي حاول أن يفرضه عليه هدسون لو، كانت حرب صغائر وسفاسف يثيرها مستبد ضئيل الشأن على رجل فقد كل شيء، وعزيز قوم ذل.

وصار نابليون يعتقد أن هذه المعركة هي الحلقة الأخيرة من المعارك التي دامت طوال حياته ضد الانجليز. وكان (هدسون لو) في نظره يمثل الانجليز.

قال لليدي مالكوم:

- لقد لبست تاج فرنسا الإمبراطوري، وتاج إيطاليا الحديدي، وإنجلترا الآن تقدم لي تاجا أروع وأعظم، وهو إكليل الشوك..

فالاهانة والتحقير والاستبداد تزيد في شهرتي، وإني أعزو إلى انجلترا تألق مجدي وكان يعزي نفسه بقوله:

- غيري من الناس يخفضهم فشلهم، أما أنا فقد رفعني الفشل إلى أسمى المراتب، ولم يستطع أن يواجه حقيقة أن حبسه كان ثمنا تقاضته الأقدار لطموحه

المتناهي، ومطامعه البعيدة، وللحيوات البشرية التي حطمها وأسال دماءها في حروبه العديدة، ولكنه كان في منفاه، وقد أثقلته المصائب وأذلته الأحزان أشجع منه في أيام مجده والدنيا عليه مقبلة.

كان نابليون في أيامه وساعاته الأخيرة عظيما وجلدا صبورا، كان رجلا، وقد صبر صبرا جميلا على حظه العاثر.

هكذا كانت نهاية قائد من أعظم قواد التاريخ طالما صال وجال.. وطالما حلم بإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس.. وقد ذهب عنه كل هذه الطموحات، وعرف معنى الهزيمة.. وعرف الشتات والغربة وقضبان السجون، ثم انتهى كل ذلك ولم يبق إلا مرارة الذكريات وما لاقاه في منفاه من عذابات حتى وفاته أو مقتله كما تشير بعض المصادر التاريخية !

وقد توصل الباحثون الإيطاليون مؤخرا إلى خلاصة بأن الإمبراطور الفرنسي الراحل نابليون بونابرت لم يمت مسموماً على يد متآمرين فرنسيين وبريطانيين كانوا لا يزالون قلقين من تشكيله تهديداً لسلطتهم حتى بعد نفيه. وكان الباحثون قد فحصوا خصلات الشعر العائدة إلى مراحل مختلفة من حياة نابليون وليس تلك التي تعود إلى السنوات الست الأخيرة من حياته التي قضاها في جزيرة سانت هيلانه في جنوبي المحيط الأطلسي التي نفي إليها. وقارن الباحثون بين خصلات شعر نابليون وشعر رأس أقاربه بمن فيهم زوجته جوزفين وابنه نابليون الثاني، كما فحصوا خصلات شعر استخرجت من العديد من المتاحف الفرنسية والإيطالية وعشر خصلات شعر عشوائية حصلوا عليها من أشخاص يعيشون في أيامنا المعاصرة.

ووجد الباحثون أن الشعر الذي يعود إلى حوالي ٢٠٠عام يحتوي إجمالاً على كمية من الزرنيخ أكبر بمائة مرة من النسبة الموجودة في شعر الأشخاص المعاصرين.

وهذه النتيجة تطابقت مع مختلف الأبحاث السابقة التي كشفت أن الزرنيخ كان أكثر استخداماً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مما هو مستخدم اليوم في العديد من أوجه الحياة البشرية. غير أن الدراسة وجدت أيضاً أن كمية الزرنيخ الموجودة في شعر نابليون الكبير أعلى من تلك الموجودة في شعر رأس ابنه المحفوظ في أحد متاحف جزيرة كورسيكا.

وقال أنجيلو سانتاغوستينو خبير الأنسجة في جامعة بيكوكا في ميلانو إن هذه النتيجة تؤشر إلى "تعرضه المستمر لمادة ضئيلة الكمية" في سانت هيلينا. غير أنه أضاف "يبدو أنه من غير المحتمل أن تكون وفاة نابليون مرتبطة بتسميم جنائي عن سابق تصور وتصميم".

وكانت المزاعم حول تعرض الإمبراطور الفرنسي للتسميم على يد أحد المسؤولين الذي تظاهر بأنه صديق للإمبراطور الراحل، تسود منذ وفاة نابليون نتيجة مرض السرطان في المعدة عن ٥١عاماً، وهو السبب الرسمي المعلن للوفاة. غير أن الباحثين نفوا هذه المزاعم بحجة أن المستوى العالي من الزرنيخ المكتشف في شعر نابليون قد يكون عائداً على الأرجح إلى نوع مثبت الشعر الذي كان يستخدمه، وربما إلى الكمية الكبيرة من الزرنيخ التي كانت تستخدم في تلك الأيام للصق ورق الجدران.

وكان نابليون نصّب نفسه إمبراطوراً في العام ١٨٠٤ بعدما وصل إلى السلطة من صفوف الجيش الفرنسي الذي كان أحد قادته.

واحتل نابليون معظم القارة الأوروبية إلى أن تعرض لنفيه الأول إثر حملة مدمرة على روسيا في العام ١٨١٤، غير أنه عاد إلى فرنسا في العام التالي متمتعاً بدعم متجدد، لكنه واجه مجدداً الهزيمة النكراء في معركة واترلو. ويقول البعض إن الحاكم البريطاني لجزيرة سانت هيلينا تآمر مع الكونت الفرنسي تشارلز دو مونتولون لاغتيال نابليون خوفاً من أن يفر من الجزيرة ويعود إلى فرنسا .

نابليون بونابرت، إمبراطور فرنسا وصاحب الانتصارات المتعددة وأعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ، ولد في ١٥ آب ١٧٦٩ في جزيرة كورسيكا التي كانت فرنسا قد استولت عليها قبل ولادته بخمسة عشر شهراً، وتلقى تعليمه وتدريبه العسكري -في فرنسا- تخرج وهو في السادسة عشرة من عمره سنة ١٧٨٥ ميلادية.

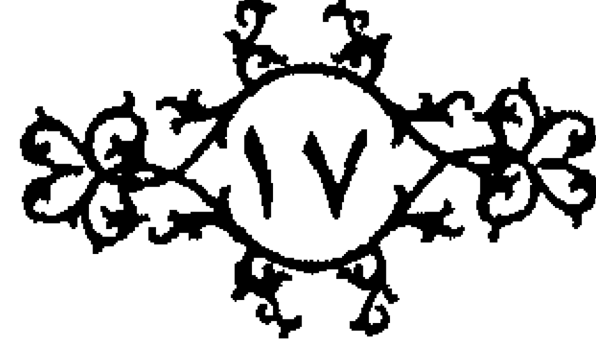
برتبة ملازم ثان في الجيش الفرنسي، وفي سنة ١٧٩٦ أصبح قائداً للجيش الفرنسي في إيطاليا، وبفضل انتصاراته في الجبهة الإيطالية بين الأعوام ١٧٩٦-١٧٩٧ عاد إلى فرنسا بطلاً وطنياً، في سنة ١٧٩٨قام بحملته الشهيرة على مصر ومن ثم على فلسطين التي كانت نهايتها الفشل الذريع لنابليون وجيشه، بعد مغادرة نابليون مصر في أعقاب فشله باحتلال عكا (١٧٩٩) عاد إلى فرنسا ليشارك في انقلاب عسكري كانت نتيجته قيام حكومة جديدة وتعيين نابليون القنصل الأول لفرنسا وسرعان ما أصبح حاكماً دكتاتورياً بفرنسا، واثناء حكمه لفرنسا أدخل اصلاحات جوهرية، وخاصة في النظام الإداري والتشريعي واهتم كذلك باصلاح النظام المالي والقضائي، وأنشأ بنك فرنسا ،ولعل أهم أعماله ماعرف بـ (دستور نابليون) عرف عن نابليون قصر قامته وعشقه للنساء وفشله بحياته الزوجية وذكائه النادر، أحرز بفضل نبوغه وعبقريته انتصارات باهرة في ميادين القتال والمعارك، كما عرف عنه بأنه لم يكن يشرع في رسم أي خطة حربية إلا وهو يمص أقراص السوس، كما كان خطه في الكتابة رديئاً جداً، حتى إن البعض ظن أن رسائله رموز أو خرائط حربية، وقال عنه المقربون منه إنه كان غريب الأطوار، وكان نابليون قائداً بارعاً للمدفعية، ووطنياً متطرفاً جاءت فرصته بشكل خاص في سنة ١٧٩٣ عندما حاصر الفرنسيون مدينة تولون واستردوها من البريطانيين، وأصبحت انتصاراته فيما بعد كبيرة إذ حكم أوروبا بأسرها تقريباً، وأرسل نابليون إلى مصر بهدف القضاء على تجارة انكلترا مع الهند، لكن حملته انتهت بالفشل أمام الأسطول الانكليزي فعاد إلى فرنسا واعلن نفسه مستشاراً ثم لقب بالإمبراطور ودخل الحرب عام ١٨٠٥ ثانية ضد أعظم ثلاث قوى وهي بريطانيا والنمسا وروسيا،

فتجح في دحر النمسا وروسيا في استرلتين ثم هزم بروسيا عام ١٨٠٦، وتحدت روسيا حلف نابليون فهاجمها عام ١٨١٢ متغلباً على الجيش الروسي ولكنه عندما دخل موسكو كان أهلها قد دمروها وكان جيشه جائعاً تعباً من برد الشتاء في روسيا، وتبين أن عدد جنوده القتلى هناك حوالى ٢٥ ألفاً ،

وكانت معركة واترلو التي وقعت عام ١٨١٥ قرب بروكسل آخر المعارك الخاصة بالقائد الفرنسي نابليون بونابرت، وقد وضعت هذه المعركة حدا لطموحاته السياسية التي كانت تهدف إلى حكم أوروبا، وكانت هزيمته ساحقة وبعد تنازل نابليون عن منصبه، نفي إلى جزيرة إلبا قبالة ساحل إيطاليا ،

وأمضى هناك اقل من سنة قبل أن يقرر العودة لحكم فرنسا لانه وجد أن الحلفاء في مؤتمر فيينا كانوا غير قادرين على تسوية خلافاتهم، وكان يأمل في أن يستغل هذا الشقاق لاستعادة السلطة ولكن الحلفاء تكاتفوا ضده وسار نابليون إلى بلجيكا ليواجه ذلك التهديد، وتولى دوق ولنغتون قيادة القوات المتحالفة لبلجيكا وبريطانيا وهانوفر وهولندا وتلقت القوات الفرنسية هزيمة ساحقة وبعد الهزيمة فشل نابليون في تجميع جيش جديد، ولم يكن أمامه من خيار سوى التنحي عن منصبه مرة ثانية... توفي نابليون بونابرت في ٥ أيار عام ١٨٢١ بمنفاه في جزيرة سانت هيلانه في المحيط الأطلسي .





جان دارك ..

ooo



ولدت جان دارك عام ١٤١٢م بمدينة "دومريمي" شمال شرق فرنسا، وتوفيت عام ١٤٣١م في التاسعة عشرة من عمرها بمدينة "روون" في إقليم نورماندي شمال البلاد بعد أن أحرقت قوات الاحتلال جسدها حية واتهموها بالإلحاد.

ترجع شهرة جان دارك إلى نجاحها في رفع حصار قوات الاحتلال الإنجليزية عن مدينة "أورليانز" الفرنسية عام ١٤٢٩؛ حيث استطاعت جان دارك لقاء الملك الفرنسي "شارل السابع" بمدينة "شينون" وأقنعته بالمهمة العسكرية التي نذرت نفسها لها وهي تخليص أورليانز من براثن الإنجليز.

وتقدمت "جان" التي كانت تبلغ حينها ١٣ عاما على رأس جيش صغير وتمكنت من الانتصار في معركة بمدينة "باتاي" وطرد جيش الاحتلال من أورليانز.

وعرفت جان دارك منذ ذلك الحين باسم "لابوسيل دورليانز" (La Pucelle d'Orlenas) أي عذراء أورليانز.

أُحرقت جان وهي في التاسعة عشرة بتهمة الهرطقة والسحر وألقي رمادها في نهر السين: وتقول عن هذا: بعد أن أبلغوني بأنهم سيقيدونني إلى شجرة ويحرقوا جسدي، قلت لهم: "لو كنت في مكان إعدامي، وشاهدت الزبانية يشعلون النيران التي تلتهب حين يلقون لها بالأخشاب الجافة، ولو كنت في وسط اللهيب، حتى آنذاك لن أعترف بالمزيد، ألح على تكرار ما قلته حتى ساعة الموت.ليس لدي المزيد من الأقوال".

يوم الإعدام .. تُليت عليها موعظة من قبل رجال الكنيسة، استمعت لها بهدوء لكنها انهارت باكية وأخبرتهم أنها قد سامحتهم على فعلتهم وطلبت منهم الدعاء لها.. يقال إن عدداً من القضاء وبعض الحاضرين بكوا بصمت وأحسوا بغصة فلم يتفوهوا بكلمةٍ واحدة في حين شعر البعض الآخر بنفاد صبر وطالب بتعجيل الحكم!

لم تكن هذه سوى لحظات من الساعات الأخيرة في حياة جان دارك أو " عذراء أورليانز " – كما تلقب – ففي يوم ٢١ فبراير من عام ١٤٣١ .



في ذلك اليوم، وفي قاعة باردة من قصر روان، حيث جلس بشكل نصف دائري خمسة وأربعون من رجال الكنيسة بدأت محاكمة جان دراك في مركز الدائرة، وعلى كرسي صغير جلست المتهمة " الساحرة " مكبلة بالأصفاد - أمام هؤلاء الرجال . افتتح الكاهن كوشون المحاكمة بسيل من التهم صبها على رأس المسكينة وتتراوح بين الشعوذة والفجور . والواقع أن أحداً من الحضور لم يكن مخدوعاً بحقيقة الأمر.

فالتهم التي ذكرت ليست سوى تغطية لما هو أدهى وأكثر خطرا على البعض . لقد طردت جان دارك هذه الانكليزية من اورليان عام ١٤٩٢ . وبعد شهرين توجت ولي العهد ملكاً على فرنسا تحت اسم شارل السابع مكان الملك الإنجليزي هنري السادس .

هذا هو سبب محاكمة " الساحرة " وهذا هو أيضاً سبب محاكمتها في روان، التي تعتبر عاصمة الإنكليز في فرنسا، ومن قبل جماعة تعتبر عملية لانكلترا .

عندما طلب منها رئيس المحكمة كوشون أن تقسم على الإنجيل بأن تقول الحقيقة في إجابتها عن أسئلة القضاة، رفضت أن تقسم إلا على ما يتعلق، في هذه الإجابات، بها وبعائلتها أما فيما يختص بالأمور الأخرى، كالوحى الذي ينزل عليها وينير خطواتها من وقت لآخر، فقد أجابت بتصميم أنها لن تفصح عنه إلا لملكها شارل السابع، حتى ولو كلفها رفضها هذا حياتها .

لم يفد إصرار رئيس المحكمة أمام ثبات موقف جان . وعندما سألها أن تذكر اسمها وألقابها ومكان ولادتها، أجابت بكل هدوء أن اسمها جان وأنها ولدت في دومريمي من أب فلاح وأم علمتها الخياطه والحياكة، أما الألقاب، فليس لها شيء منها وقد انتهزتها فرصة لتذكر مآسي قريتها مع الجنود الانكليز الذين كثيراً ما كانوا يقومون بأعمال النهب والسلب والحرق فيها، مما كان يدفع أهلها للنزوح والالتجاء إلى أماكن أخرى مجاورة .

لم يرق للرئيس، لكنه احتوى الانفعال . بعدها، سألها :

مم تشكِين ؟

من الأغلال التي تقيد رجلي

هذه الإغلال وضعت لأنك حاولت الهرب من السجن

هذا طبيعي . فكل سجين يتمنى الهرب .

هنا انتقل الرئيس إلى موضوع آخر وسأل المتهمة :

متى بدأت بسماع الأصوات الخفية أو ما تسميه الوحي ؟

منذ سن الثالثة عشرة وكنت عندها في حديقة البيت ظهر أحد الأيام، إنه صوت آت من عند الله لهدايتي إلى الطريق القويم.

باي شكل ظهر عليك هذا الصوت ؟

لن أعطي جواباً عن هذا السؤال . كل ما يمكنني قوله هو أن الصوت أمرني بالتوجه إلى أورليان لتحريرها من الإنكليز وتتويج ملك فرنسا عليها .

هل استقبلك الملك بسهولة ؟

نعم

لماذا ؟

لأن الملك، هو أيضاً، لديه بعض الإيحاءات .

كيف ؟

لا يمكنني الإجابة يمكنك أن تذهب عنده وتسأله .

هنا رفع الرئيس الجلسة لتعقد يوم السبت في ٢٤ شباط فبراير وفي ذلك اليوم أيضاً حاول الرئيس كوشون مرة أخرى أن ينتزع من جان داراك ما عجز عن انتزاعه منها في السابق وهو أن تقسم على أن تقول كل شيء بما في ذلك حقيقة مصدر الوحي وأسراره ولكن إصرار جان داراك على موقفها الرافض عمق لديه الخيبة، وهذا الإصرار على أن علاقتها بربها هي علاقة مباشرة ولا تمر بأي وسيط والكنيسة وسيط جعل الفتاة تقع في الفخ الذي نصبه لها كوشون . هنا وبعد نجاح خطته، أعطى الرئيس الكلام لعضو المحكمة جان بوبير، الذي بدأ باستجوابها بما يلي :

متى سمعت هذا الصوت آخر مرة ؟

سمعته البارحة واليوم .

في أية ساعة ؟

سمعته ثلاث مرات، صباحاً وظهراً ووقت القداس .

ماذا كنت تفعلين البارحة عندما أتاك الصوت ؟

كنت نائمة، والصوت هو الذي أيقظني .

كيف ؟ بهز الذراع ؟

أيقظني دون أن يلمسني .

هل كان الصوت في غرفتك ؟

كلا ، كان في القصر .

هل شكرت الصوت وركعت على ركبتيك ؟

نعم . وطلبت منه أن يساعدني . والآن، يطلب مني هو أن أكون شجاعة .

وهنا ، التفتت إلى كوشون، كما لو كانت تنفذ ما طلب منها الصوت في شجاعة، وقالت له :

أحذرك، أنت من تقول إنك حاكمي، مما تفعل . أنا مرسلة من الرب فتنبه للخطر....

كان من الممكن أن يكفهر جو المحكمة لهذا التهديد يصدر بوجه الرئيس من فتاة بسيطة كجان دارك، لولا أن احتواه كوشون على مضض، ولولا أن تدخل بوبير على الفور قائلاً لها :

وهل تعتقدين أن قول الحقيقة يغضب الله ؟

لم تعر جان أي اهتمام للسؤال، بل أكملت :

لقد أوصاني الصوت أن أبوح به للملك دون سواه . وهذه الليله بالذات، كلفني برسالة له على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إليه . وأريد أن تصل إليه .

ألا يمكنك إقناع صاحب الصوت أن ينقل الرسالة بنفسه إلى الملك ؟

لا أعرف . فهذا يتعلق بإرادة الرب .

هنا، بدأ بوبير يفقد صبره :

أليس لهذا الصوت وجه وعيون ؟

لن أقول لك شيئاً من هذا .

اتعتقدين أنك تحت رحمة الرب ؟

إن لم أكن كذلك، فالرب يحيطني بها، وإن كنت، فهو يديمها على .

لقد أدهش الجواب الحضور، وجلهم من كبار اللاهوتيين . وهذا الجواب، بجرأته وعمقه وصفائه، أعطى برهاناً آخر على أن هذه الفتاه تنعم بسر خارق.

لكن المحكمة معقودة، لا لتظهر إعجابها ودهشتها، بل لتحاكم جان دارك بتهمة الشعوذة لذلك، كان لا بد من تبديد ما علق في الأذهان من إيجابيات للفتاة، وهذا ما فعله كوشون عندما رفع الجلسة .

ولما عادت المحكمة والتأمت، كان لا بد من محو الانطباع السابق المتألق في أذهان الحضور، هذه المهمة أخذها بوبير على عاتقه :

هل كنت تلعبين مع أولاد قريتك وترعين معهم القطعان ؟

نعم . عندما كنت صغيرة .

هل تعرفين شجرة الجن ؟

نعم . وكنت أذهب إليها أحياناً مع بعض بنات القرية . لكني لم أجد أية جنية . كما أني لا أومن بوجود الجن .

هنا أيضاً، لم يوفق بوبير في الإيقاع بالفتاة المسكينة .

هل تودين يا جان لبس ثوب امرأة ؟

لا مانع لدي، على الرغم من أن ما ألبسه يعجبني لأن الرب لم يعترض عليه .

لقد قصد بوبير أن يبرز جريمة جان، كما كان ينظر آنذاك، يلفت انتباه المحكمة إلى ما تلبسه جان وهو بزة عسكرية يلبسها المحاربون، دون سواهم .

هل ينبعث أمامك نور عندما يتحدث إليك الصوت ؟

نور وهاج !

هذه الجرأة، تبديها فتاه بسيطة أمام محكمة بهذه الضخامة وذاك المقام، كلفت جان إجراءات مشددة في سجنها فيوم السبت في ١٧ آذار — مارس ١٤٣١، كان قد مضى عليها أسبوع كامل دون أن تخرج من زنزانتها . وإذا ما أضيف هذا التشدد إلى إجراءات أخرى عرفنا مدى ما تركه موقفها من أثر سيء في نفوس حاكميها . لقد نقلت إلى سجن علماني يحرسه جنود إنكليز . ومعروف كم حاربت دارك الإنكليز . وهذا مخالف للقانون الذي يفرض على من يحاكم عن طريق كنيسة أن يحجز في سجن كنسي . يضاف إلى ذلك أنه يجب أن تكون في سجن نسائي ومحروسة من قبل حراس من النساء . ومما يبرز التحيز، هو أنه لم يعين محام للدفاع عنها . ناهيك عن أن أتعاب هيئة المحكمة كانت على عاتق الإنكليز دون سواهم . والفضيحة الكبرى في هذه القضية هي أن المحكمة أعلنت، منذ انعقادها في الجلسة الأولى،

أن جان ستسلم إلى الانكليز لتحاكم من قبلهم، إذا ما قررت المحكمة تبرأتها . كل هذا يعني بوضوح أن المحاكمة برمتها ليست سوى تمثيلية يراد بها تغطية الحقيقة وهي مطالبة الانكليز لرأس من أقسمت على إخراجهم من فرنسا .

الجلسه الآن تعقد في زنزانة السجينة . وفيها تولى جان دي لافونتين الاستجواب مكان بوبير :

هل لك أن تقيمي حبك للكنيسة وخدماتك لها ؟

أحب الكنيسة وأتفانى في دعمها بكل ما أوتيت من قوة، وأود لو تسمحون لي بحضور القداديس . أما أعمالي، فأترك لرب السماء تقييمها، الرب الذي أرسلني إلى شارل، الملك الحقيقي لفرنسا، وبالمناسبة أقول لكم إن الفرنسيين سينتصرون على الانكليز في معركة حاسمة . تذكروا أني قلت لكم ذلك يوماً .

هل تقبلين حكم الكنيسة مهما كان ؟

أنا أقبل بحكم الرب . ولما كان الرب والكنيسة واحداً، فلماذا نوقع أنفسنا في متاهات السؤال؟

هناك كنيسة مظفرة يذوب فيها الرب والقديسون والملائكة . وهناك كنيسة ملتزمة تشمل البابا والكرادلة والأساقفة . هذه الكنيسة معصومة عن أي خطأ لأنها بأمره الروح القدس فهل تتصاعين للكنيسة الملتزمة، الكنيسة الأرضية ؟

سؤال محرج . هل ترد بالسلب وتعتبر خارجة على الكنيسة وتحاكم على هذا الأساس ؟

لقد فهمت المأزق . لكنها اختارت طريقها منذ وقت طويل .

لقد أرسلت إلى ملك فرنسا من قبل الرب . وإلى الرب أقدم حساب ما فعلت وما سأفعل .

هل تقبلين بالإفصاح عما رفضت الإفصاح عنه أمام قداسة البابا ؟

بالتأكيد . خذوني أمامه وسأقول له كل شيء.

كان الجواب واضحاً ومحكماً . لكن المرسوم هو أن تقاد جان دارك أمام الإنكليز وليس أمام البابا . وهذا السؤال يدل على النية المبيتة من قبل لافونتين:

هل يكره الرب الإنكليز ؟

لا أعلم مشاعر الرب اتجاه الإنجليز كل ما اعرفه هو انهم سيطردون من فرنسا، باستثناء من سيموت منهم على أرضها .

من دفعك إلى الرسم ملائكة بأذرع وأرجل وثياب ؟ هلى يظهرون عليك على هذه الصورة ؟

هكذا هم مرسومون في الكنيسة .

لماذا هم اثنان فقط ؟

لأن رايه الجيش المهاجم للانجليز يقودها الرب بواسطة القديسة كاترين والقديسة مارغريت . اللتين قالتا لي : "تسلمي أنت هذه الرايه باسم رب السماء"؟

هل يعتمد الأمل في النصر على الراية أو عليك بالذات ؟

إنه يعتمد على الرب .

لماذا كانت رايتك وحدك حاضرة عند تنصيب الملك وليست رايه سائر القواد؟

لأنها هي التي جاهدت . فهي إذا التي تستحق هذا التكريم .

هل تقبلين خلع لباسك العسكري ولبس ثوب نسائي للذهاب إلى القداس ؟

أقبل. ولكني سأعيد بزتي العسكري وأعود إلى الجهاد حالما أخرج من الكنيسة.

هنا، وقد أخذ الضيق مأخذه في نفس رئيس المحكمة، أمر برفع الجلسة . وما هي إلا لحظات حتى رأت جان دارك نفسها ثانية في زنزانتها وجهاً لوجه أمام حراسها الإنكليز .

ثلاثة أشهر مرت والفتاة حبيسة الزنزانة . ثلاثة أشهر عاشت فيها بعذاب نفسي وجسدي فلما أصاب سجيناً اخر . ومع ذلك، فإنها لم تركع . ولما كان يقتضي الانتهاء من هذه القضية خوفاً من تفاقمها وانعكاساتها، فقد قررت جامعة باريس، الملتئمة بكامل هيئتها في ١٥ ايار- مايو ١٤٣١، أن تتبنى لائحة من اثنى عشر اتهاماً رئيساً. هذه اللائحة قدمت من قبل كوشون نفسه مرفقه بكتاب من ملك انكلترا . جميع هؤلاء وجهوا إلى جان دارك تهمة الشعوذة والهرتقة والوثنية، كما وجهوا إليها تهمة قتل الإنكليز والتعطش للدم المسيحي .

وفي ٢٣ مايو، طلب من المتهمة العودة عن " أخطائها وتصرفاتها المشينة " لكنها رفضت بإصرار " حتى ولو رأت النار التي سيحرقونها بها تشتعل " .

٢٤ مايو في هذا اليوم كان كل شيء قد هُيئ للحكم وللتنفيذ . الحكم بالموت حرقاً . واستكمالاً لفصول المهزلة، دعي الناس لحضور الجريمة . وعلى رأس هؤلاء، ملك انكلترا الحقيقي، وأسقف ونشستر وهيئة المحكمة . ومقابل المنصة الرئيسية، منصة الشرف، وقفت جان دارك .

بدأ " الاحتفال " بخطاب ألقاه في وجه المتهمة المحامي غليوم، صديق كوشون الشخصي :

جان أنت ساحرة ومهرتقة وخارجة على الكنيسة . وملكك الذي أراد استرجاع ملكه بواسطة امرأة، هو في الواقع، مثيلك . ثم أكمل بلهجة أكثر ليونة :

أنا أرثي لحالك . عودي عن أقوالك وإلا، فإن الحكم سيكون قاسياً عليك .

إنك تتعب نفسك كثيراً لتثنني عن عزمي ولتحضني على إنكار الحق .

هنا، انبرى جاك كالو، سكرتير ملك انجلترا، وأخرج من كم سترته ورقة سطر عليها بضعة أسطر، هي الدليل على أن كل شيء قد هيء مسبقاً، صرخ غليوم ملتفتاً نحو جان :

وقعي على هذه الورقة وإلا فإنك ستنتهين إلى النار .

أذعنت جان بصوت ضعيف . لكن مفاجأة غير متوقعة حصلت . فقد ثار الانكليز الموجودون في المنصة على الرئيس كوشون نفسه وسائر أعضاء المحكمة متهمين اياهم بنقض الاتفاقية والخيانة: لقد أعتبروا أن الورقة التي عرضت على جان دارك للتوقيع ستؤدي، عند توقيعها، إلى تبرئة المتهمة وعدم تسليمها إلى الانكليز . ماذا كانت تحوي هذه الورقة التي وقعتها الفتاة المسكينة بعد أن شنت عليها حرب نفسية رهيبة ؟ إنها اعتراف منها بالشعوذة ونكران لسماعها صوت الرب كما أنها تعهدت بالامتناع عن لبس الثياب العسكرية . أما كوشون، العميل الأمين الأسياده الانكليز، فقد سارع، عندما ثارت ثائرة هؤلاء الأسياد، إلى تطمينهم، وإمعاناً في ذلك فقد عجل في إصدار حكمه على جان دارك : السجن مدى الحياة على الخبز والماء لتغسيل خطاياها ولتكف عن اقتراف غيرها .

امتقع لون المسكينة عند سماعها الحكم وعرفت أنها وقعت في الفخ الذي نصب لها، فتوقيعها على الوثيقة لم يكن الهدف منه سوى إهانتها وهدر كرامتها، لا لإنقاذها، كما ذكر أمامها.

أما الإنكليز فقد ظلوا على انفعالهم . صحيح إن جان دراك ستمضي بقية أيامها في السجن، لكن الصحيح أيضاً هي انها ستبقى حية، في حين دبروا ما دبروا ودفعوا ما دفعوا لتنتهي عدوتهم إلى النار وليتخلصوا منها إلى الأبد .

عادت جان دراك إلى زنزانتها لتلبس، كما تعهدت، لباس امرأة لكن، لم تمض سوى ثلاثة أيام حتى شوهدت تعود إلى لبس الزي العسكري . فما الذي حدث حتى تنقض السجينة تعهدها ؟ الأمر غاية في البساطة، لقد أمرها سجانها الانكليز بذلك بقصد إعادتها إلى محاكمة جديدة وبالتالي، إصدار الحكم بحرقها حية. وهكذا وفي اليوم الرابع للمحاكمة الأول، بعد يوم واحد من نقضها القسري لتعهدها، عادت المسكينة لتواجه المحكمة والمصير المرسوم، جرت المحاكمة — المهزلة وحكم على جان دارك بالاعدام حرقاً، ورضي الإنكليز .

وبعد خمسة وعشرون عاما على موت جان دارك وفي ٧ يوليو سنة ١٤٥٦، كان أناس كثيرون يتجمهرون في باحة قصر روان ليستمعوا خاشعين إلى حكم آخر يقضي، هذه المرة بإعادة اعتبار الشهيدة . كبار رجال الكنيسة في باريس وريمس وكوتانس ومعهم شقيق جان دارك التأموا في اجتماع تاريخي ليعلن كاهن ريمس باسمهم ما يلي .

"نعلن باسم الرب، الحسيب الوحيد على أعمالنا، أن المحاكمة التي ذهبت جان دارك ضحية انحرافها وعمالتها، باطلة، وأن الحكم الصادر عنها هو أيضا باطل كما نعلن أن جميع الاتهامات بالشعوذه والهرتقة الموجهة إلى الشهيدة باطلة، هي الأخرى لذلك فإننا نحكم بإلغائها جميعاً" .

ما أن انتهى الكاهن من قراءة وثيقة البراءة، حتى ظهرت علامات الرضا على وجوه الحضور وهمهمات الموافقة على شفاههم . وإمعاناً في التكريم، توجه الجميع إلى مقبرة سان اوين، حيث انتزع احتيالاً اعتراف جان دراك بالشعوذة وإنكارها لسماع صوت الرب . وهناك قرأ كاهن ريمس حكم البراءة ثانية على مسمع من الحضور . وقد تكرس هذا الحكم من قبل البابا نفسه .

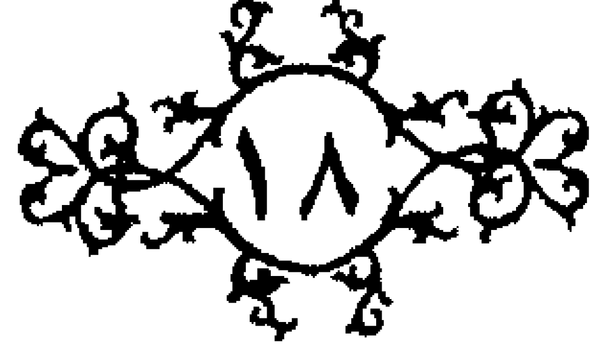
كان هذا تتويجاً لجهود دامت سبع سنوات، سبع سنوات مليئة بإجراءات بإعادة محاكمة شاقة ومثيرة . أعيد النظر بكل الوثائق . فندت كل الأقوال ودحضت جميعاً .

وقد أشرف على هذه العملية كبار القضاة ورجال القانون من الملك شارل السابع، ملك جان دارك، الذي تنبأت المسكينة بانتصاره على الانكليز وبعودته إلى عرش بلاده . وقد صدقت النبوءة .

وقد بقيت جان دارك مصدر إلهام للعديد من المبدعين الفرنسيين، وخرجت الكثير من الأعمال الأدبية التي تروي قصتها. ومن أشهر هذه الأعمال قصيدة "كريستين دو بيزان" في عام ١٤٢٩م وكانت جان دراك حية، وحملت عنوان: "جان دارك ".

وكذلك المأساة المسرحية التي وضعها الأديب "شولر" عام ١٨٠١ وجاءت تحت عنوان: "عذراء أورليانز". كما وضع "شارل بيجي" في عام ١٨٩٧ المأساة الثلاثية التي حملت عنوان: "جان دارك". وفى عام ١٩٢٨ أنتج "كارل دريير" فيلما بعنوان: "آلام جان دارك".





السلطان عبد الحميد الثاني ..رحمه الله

ooo



"انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، ولقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت دولة الخلافة يوما فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا أمر لا يكون. إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة"

السلطان عبد الحميد الثاني إستانبول ١٩٠١م

كانت هذه آخر وصايا السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الشخصية التاريخية التي أثارت جدلا كثيرا خرج بأحكام متباينة على الرجل؛ حيث ينظر إليه البعض على أنه مصلح عادل، حكم دولة مترامية الأطراف متعددة الأعراق بدهاء وذكاء، ومدّ في عمر الدولة والخلافة العثمانية، ووقف ضد الأطماع الاستعمارية الغربية لاقتسام تركة "رجل أوربا المريض"، مستفيدًا من تضارب هذه الأطماع، فضلا عن موقفه الحازم والرافض لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين..

بينما ينظر إليه آخرون على أنه مستبد ظالم ديكتاتور، حكم هذه الإمبراطورية الشاسعة لمدة ٣٣ عامًا حكمًا فرديا، كانت كلمته هي الأولى والأخيرة؛ واضطهد الأحرار، وقتل بعضهم، وطارد البعض الآخر، ولم يسلم منه إلا من خضع له.

إلا أن القارئ والمستطلع الواعي يحتاج إلى أن ينظر بعينيه الاثنتين متفحصا وجهتي النظر السابقتين؛ حتى لا تصاب رؤيته بالأحادية فيصدر أحكامًا صارمة وجائرة على شخصيات وأحداث متعددة الجوانب والأبعاد، وفي هذا إهدار لقيمة التاريخ الذي سجّل لنا حسنات الرجل وسيئاته.

ولد عبد الحميد يوم الأربعاء (١٦ شعبان ١٢٥٨ هـ = ٢٢ سبتمبر ١٨٤٢م، وهو ابن السلطان عبد المجيد الأول الذي يعد أول سلطان عثماني يضفي على حركة التغريب في الدولة العثمانية صفة الرسمية، وعُرف عهده بعهد التنظيمات، الذي يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي.

أما أمه فهي "تيرمشكان" جركسية الأصل توفيت عن ٣٣ عاما، ولم يتجاوز ابنها عشر سنوات، فعهد بعبد الحميد إلى زوجة أبيه "بيرستو قادين" التي اعتنت بتربيته، وأولته محبتها؛ لذا منحها عند صعوده للعرش لقب "السلطانة الوالدة".

تعلم عبد الحميد اللغتين العربية والفارسية، ودرس الكثير من كتب الأدب والدواوين الشعرية والتاريخ والموسيقى والعلوم العسكرية والسياسية، وكان يحب

مهنة النجارة ويقضي فيها الوقت الكثير، وما تزال بعض آثاره النجارية موجودة في المتحف.

توفي والده وعمره ١٨ عامًا، وصار ولي عهد ثان لعمه "عبد العزيز"، الذي تابع نهج أخيه في مسيرة التغريب والتحديث، واستمر في الخلافة ١٥ عاما شاركه فيها عبد الحميد في بعض سياحاته ورحلاته إلى أوروبا ومصر.

التقى عبد الحميد في خلافة عمه بعدد من ملوك العالم الذين زاروا إستانبول. وعُرف عنه مزاولة الرياضة وركوب الخيل والمحافظة على العبادات والشعائر الإسلامية والبعد عن المسكرات والميل إلى العزلة، وكان والده يصفه بالشكاك الصامت.

قتل السلطان عبد العزيز في مؤامرة دبرها بعض رجال القصر، واعتلى العرش من بعده مراد الخامس شقيق عبد الحميد، ولكنه لم يمكث على العرش إلا ٩٣ يومًا فقط، حيث تركه لإصابته باختلال عقلي.

بويع عبد الحميد بالخلافة في (٩ شعبان ١٢٩٣ هـ = ٣١ أغسطس ١٨٧٦، وكان في الرابعة والثلاثين من عمره، وهو الخليفة السابع والعشرون في الخلفاء العثمانيين، وتولَّى العرش مع اقتراب حرب عثمانية روسية جديدة، وظروف دولية معقدة، واضطرابات في بعض أجزاء الدولة، خاصة في البلقان.

اجتمعت الدول الكبرى في إستانبول في مؤتمر "ترسخانة" في (٥ ذي الحجة ١٢٩٣ = ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م، لمناقشة الحرب القادمة، وتزامن ذلك مع إعلان المشروطية الأولى (الدستور، ثم افتتاح مجلس المبعوثان (النواب المنتخب من الولايات العثمانية المختلفة، حيث بدأت الخطوات الحثيثة نحو النظام البرلماني. ومع دق طبول الحرب العثمانية الروسية سحبت الدول الكبرى سفراءها من إستانبول، وتركت العثمانيين وحدهم أمام الروس.

وقعت الحرب في منتصف عام (١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧م، وعرفت بحرب ٩٣، وتعد من كبرى حروب ذلك الوقت، ومني فيها العثمانيون بهزيمة كبيرة، واقترب الروس من إستانبول لولا تكتل الدول الأوروبية ضد روسيا، وحضور الأسطول الإنجليزي إلى ميناء إستانبول، وأمليت على العثمانيين معاهدتي صلح هزليتين هما: آيا ستافانوس، وبرلين، اقتطعت فيهما بعض أراضي الدولة العثمانية، وفُرضت عليها غرامات باهظة، وهُجِّر مليون مسلم بلغاري إلى إستانبول.

شعر السلطان عبد الحميد بأنه أجبر على قرار الحرب بسبب ضغوط مدحت باشا -الصدر الأعظم - الذي حرّض طلبة العلوم الدينية العليا للقيام بمظاهرات تجبر السلطان على الحرب. تصاعد الرأي العام على إثر هذه المظاهرات داعيا إلى الحرب. رأى السلطان أن هناك قصورًا في الرأي العام ممثلا في المجلس الذي دفع بالأمة إلى الحرب في غير وقتها وبدون استعداد لها أو حاجة إليها؛ لذلك قام بتعطيل الحياة النيابية إلى أجل غير مسمى في (٩ صفر ١٢٩٥ هـ = ١٣ فبراير ١٨٧٨م)، واستمر هذا التعطيل مدة ثلاثين عاما ونصفاً، بعد حياة نيابية استمرت عاما واحدا. والملاحظ أن السلطان لم يلغِ الدستور أو ينحيه، بل استمر نشر الدستور في النشرة السنوية للدولة طيلة ٣١ عاما متوالية دون انقطاع، وإن كانت أحكامه لم تطبق. ولم يجتمع مجلس الأعيان، ولكنهم استمروا في تقاضي مرتباتهم بصورة رسمية مدى الحياة.. وعلى هذا الأساس فإن السلطان أدار دولته بصورة شخصية دون مجلس، في ظل دستور يمنع تدخل السلطان في شؤون الحكومة؛ لهذا وسم السلطان بصفة المستبد والديكتاتور.

وقد استصوب السياسي الألماني بسمارك ما فعله السلطان عبد الحميد من حل مجلس المبعوثان (النواب)، وعلَّق عليه بقوله: "إن لم يكن قوام الدولة شعبًا واحدًا، فإن ضرر مجلسها يكون أكبر من نفعه".

حكم السلطان حكمًا فرديا من مقر إقامته في قصره، وربط جميع مؤسسات الإمبراطورية بشخصه، غير أنه لم يستعمل القوة القسرية في حكمه، حيث لم

يتدخل الجيش في الشؤون الداخلية، وإن اعتمد السلطان على تحريات الأمن التي قامت بالعديد من التجاوزات.

ويلاحظ أن السلطان عبد الحميد كان بعيدًا عن سفك الدماء أو أسلوب الاغتيالات وتصفية معارضيه، وكان لا يلجأ إلى عقوبة السجن إلا في القليل، ثم يغيرها بالنفي. ولم يصدّق خلال سلطته الطويلة إلا على خمس عقوبات إعدام فقط، وهي أقل عدد من عقوبات الإعدام في تاريخ تركيا كلها.

بلغت الديون العثمانية الخارجية عند تولي السلطان عبد الحميد الثاني حوالي ٢٥٢ مليون قطعة ذهبية، وهو مبلغ كبير بمقياس ذلك العصر، فأقنع السلطان الدول الدائنة بإسقاط ١٤٦ مليونًا. ولتسديد المبلغ الباقي وُضعت بعض مؤسسات الدولة تحت تصرف مؤسسة الديون العمومية، وتمكن بهذه الوسيلة من تسديد هذه الديون، وكان حريصًا طوال عهده على عدم الاستدانة من الخارج إلا في أضيق الحدود.

كان عبد الحميد الثاني يرى ضرورة العمل على توحيد القوى الإسلامية لمجابهة الروح الاستعمارية الطامعة في الدولة العثمانية؛ لذلك سعى إلى طرح شعار الجامعة الإسلامية، وجعلها سياسة عليا لدولة الخلافة، فعمل على تدعيم أواصر الأخوة بين مسلمي الصين والهند وإفريقيا، ورأى في ذلك الشعار وسيلة لتوحيد الصفوف حوله وحول دولته في الداخل والخارج؛ فاستعان بمختلف الرجال والدعاة والوسائل لتحقيق غرضه، فأقام الكليات والمدارس، وربط أجزاء الدولة بـ٣٠ ألف كيلومتر من البرق والهاتف، وبنى غواصة وعني بتسليح الجيش.

إلا أن أعظم مشروعاته الحضارية هو سكة حديد الحجاز لتيسير الحج على المسلمين، بحيث يستعاض بهذا المشروع عن طريق القوافل الذي كان يستغرق السفر به أربعين يومًا، وانخفضت المدة بالخط الحديدي إلى أربعة أيام.

وقد خلق هذا المشروع العملاق حماسة دينية بالغة بعدما نشر عبد الحميد الثاني بيانًا على المسلمين يدعوهم فيه للتبرع، وافتتح القائمة بمبلغ كبير؛ فتهافت المسلمون من الهند والصين وبقية العالم على التبرع، باعتبار أن هذا المشروع هو مشروع المسلمين أجمعين. ووصل أول قطار إلى المدينة المنورة في (رجب ١٣٢٦ هـ = أغسطس ١٩٠٨م)، بعد ثمانية أعوام من الحماسة والعمل الدائبين.

كان السلطان شخصيا غير مرغوب فيه بالنسبة للدول الأوروبية؛ لأنه يمسك في قبضته ملايين المسيحيين، وبصفته خليفة للمسلمين فإن له نفوذا وسلطانا روحيا على رعايا الدول الأوروبية المسلمين.

لم يكن من الممكن لأي من الدول الكبرى أن تقتطع أجزاء من الدولة العثمانية في أوروبا أو البلقان في ظل وجود عبد الحميد الثاني؛ لذا أخذت فكرة إسقاطه تكتسب ثقلا كبيرًا في لندن وباريس.

كما أن سياساته فيما يتعلق بالجامعة الإسلامية وسكة حديد الحجاز وبغداد، ونجاحه في تشييد سكة حديد بغداد برأسمال ألماني (وبذلك استطاع إدخال ألمانيا إلى قائمة الدول المتنافسة في منطقة خليج البصرة الغنية بالبترول، وضمن عدم اقتراب بريطانيا، وحماية السكة الحديد باعتبار ألمانيا صاحبة امتيازها كل ذلك أقلق إنجلترا، وأثار عدم ارتياح روسيا، وخلق صلابة في التصميم الأوروبي على ضرورة التخلص من هذا الخليفة الماكر الذي استطاع بدهائه تحييد القوى الأوروبية.

كان الحادث المهم الذي أثار أوروبا ضد السلطان عبد الحميد هو رفضه إسكان وتوطين المهاجرين اليهود في فلسطين، فقد كانت أوروبا المسيحية تريد تصدير مشكلة اليهود التي تعاني منها إلى الدولة العثمانية.

وكان أول اتصال بين: "هرتزل" – رئيس الجمعية الصهيونية، والسلطان عبد الحميد، بعد وساطة قام بها سفير النمسا في إستانبول، في (المحرم ١٣١٩ هـ=

مايو ١٩٠١م)، وعرض هرتزل على السلطان توطين اليهود في فلسطين، وفي المقابل سيقدم اليهود في الحال عدة ملايين من الليرات العثمانية الذهبية كهدية ضخمة للسلطان، وسيقرضون الخزينة العثمانية مبلغ مليوني ليرة أخرى.

أدرك السلطان أن هرتزل يقدم له رشوة من أجل تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وبمجرد تحقيقهم لأكثرية سكانية سيطالبون بالحكم الذاتي، مستندين إلى الدول الأوروبية.. فأخرجه السلطان من حضرته بصورة عنيفة.

يقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته عن سبب عدم توقيعه على هذا القرار: "إننا نكون قد وقَّعنا قرارًا بالموت على إخواننا في الدين". أما هرتزل فأكد أنه يفقد الأمل في تحقيق آمال اليهود في فلسطين، وأن اليهود لن يدخلوا الأرض الموعودة (فلسطين) طالما أن السلطان عبد الحميد قائمًا في الحكم مستمرا فيه.

كانت صلابة عبد الحميد الثاني سببًا رئيسًا في تأخير مشروع الصهيونية العالمية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؛ لذلك سعى اليهود للإيقاع بالسلطان وتشويه صورته أثناء حكمه، وكذلك في التاريخ، وتغلغل بعضهم في جمعية الاتحاد والترقي التي أسقطت السلطان، وكان على رأسهم "عمانويل كراسو".

عاش الأرمن كغيرهم من الأجناس التي ضمتها الإمبراطورية العثمانية، واحتل بعضهم منصب الوزير، وكان تعدادهم داخل الدولة لا يزيد على مليوني شخص. ونصت معاهدة برلين على إجراء إصلاحات لصالح الأرمن في ٦ ولايات عثمانية في الأناضول، ولم تكن تبلغ أكبر نسبة لكثافتهم السكانية في أي ولاية أكثر من ٢٠٪، إلا أن السلطان رفض تطبيق هذه المادة من المعاهدة؛ فقام الأرمن -بإيعاز من بعض الدول الكبرى- بارتكاب مذابح بشعة ضد المسلمين القرويين، حيث بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء، وقطعوا عورات الرجال وحرقوا المساجد، ولم يجد عبد الحميد بُدًا من مواجهة هذا الإرهاب الصليبي، فشنت بالتالي الصحافة الغربية حملة شعواء عليه ووصفته بالسلطان الأحمر.

كذلك عمل السلطان على تشكيل فرق من الأكراد لحماية المسلمين العزل في الأناضول عرفت بأفواج الخيالة الحميدية. ويقول أحد المؤرخين: "إن هذه السياسة حافظت على الوجود الكردي والمسلم في الأناضول حتى اليوم".

لم يكتف الأرمن بإشاعة الفوضى وارتكاب المذابح بحق القرويين، بل قاموا بأعمال شغب في إستانبول نفسها سنة (١٣١٣ هـ = ١٨٩٢م) و(١٣١٤ هـ = ١٨٩٣م)، وقد واجهتها القوات العثمانية بحزم، أما الدول الكبرى فتركت الأرمن لحالهم بعد أن أوقعتهم في الأزمة، فحاول الأرمن جذب انتباه الدول العظمى إليهم فخططوا لاغتيال السلطان عبد الحميد سنة (١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥م) فيما عرف بحادث القنبلة، لكنهم فشلوا في اغتيال السلطان، ومات بعض الأمراء والجنود، وقبض على المتآمر البلجيكي "جوريس"، لكن السلطان عفا عنه، بل استخدمه في جمع معلومات له في أوروبا.

الاتحاد والترقي هو أول حزب سياسي في الدولة العثمانية، ظهر عام (١٣٠٨هـ= ١٨٩٠م) كحزب سري يهدف إلى معارضة حكم عبد الحميد الثاني والتخلص منه، وبعدما اكتشف السلطان أمر الحزب سنة (١٣١٥ هـ = ١٨٩٧م) نفى الكثير من أعضائه إلى الخارج، وهرب بعضهم إلى باريس، ثم اجتمع المعارضون لحكم السلطان في باريس في (ذي القعدة ١٣١٩ هـ = فبراير ١٩٠٢م) في مؤتمر أطلقوا عليه "مؤتمر الأحرار العثمانية"، واتخذ قرارات مهمة، منها تأسيس إدارات محلية مستقلة على أساس القوميات، وهو ما يعني تمزيق الإمبراطورية العثمانية، غير أن هذا القرار اعترض عليه بعض الحاضرين في المؤتمر، ثم طالب المؤتمرون من الدول الأوروبية التدخل لإنهاء حكم السلطان عبد الحميد وإقصائه عن العرش.

افتتح الاتحاد والترقي فروعًا له داخل الدولة العثمانية التحق بها عدد كبير من الضباط الشباب وذوي الرتب الصغيرة، ثم تزايد عدد الضباط حتى قيل إن كل ضباط الجيش العثماني الثالث في البلقان سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨م) كانوا منضمين إلى الاتحاد والترقي.

وتحالفت الجمعية مع الثوار في البلقان، وأهدرت عصابات البلغار واليونانيين كثيرًا من دماء المسلمين بالاتفاق مع الاتحاديين بغرض هدم النظام الحميدي. وبدأ الاتحاديون في قتل الموظفين العثمانيين الذين لا يتعاونون معهم.

بعد كثير من الاضطرابات والوقائع قرر السلطان عبد الحميد استئناف تطبيق الدستور في جمادى الآخرة (١٣٢٦ هـ = يوليو ١٩٠٨م)، وتولت جمعية الاتحاد والترقي الحكم، وأعلنت تطبيقها لمبادئ الثورة الفرنسية.

والواقع أن تولي الاتحاد والترقي الحكم لم يؤسس الديمقراطية، وإنما تحول النظام إلى حزب واحد وديكتاتورية واحدة حوت جميع العناصر الراغبة في تمزيق الدولة. وكما يقول أحد المؤرخين: "لو كانت المشروطية الثانية نتيجة حركة شعبية، لأمكن تخطي الخطوة الأولى للديمقراطية" ، وكان ضباط الاتحاد والترقي يقولون بأن المشروطية الثانية هي ضيعتهم وحدهم دون غيرهم، واقترن إعلان الدستور ببعض الحوادث المؤلمة للدولة العثمانية؛ إذ أعلنت بلغاريا وكريت انفصالهما عن الدولة العثمانية والانضمام لليونان، واستقلت البوسنة والهرسك.

رأى الاتحاديون ضرورة التخلص من السلطان عبد الحميد وإسقاط حكمه، واتفقت هذه الرغبة مع رغبة الدول الأوروبية الكبرى خاصة بريطانيا التي رأت في ذلك الخطوة الأولى لتمزيق الإمبراطورية العثمانية، وشعر اليهود والأرمن أنهم اقتربوا كثيرًا من أهدافهم؛ لذلك كانت أحداث ٣١ مارت (هو الشهر الأول من شهور السنة الرومية، ويقابل شهر إبريل، مع فارق بين الشهرين مقداره ١٨ يوما) ويوافق يوم (٢١ ربيع أول ١٣٢٧ هـ = ١٣ إبريل ١٩٠٩)؛ حيث حدث اضطراب كبير في إستانبول قتل فيه بعض جنود الاتحاد والترقي.

وعلى إثر ذلك جاءت قوات موالية للاتحاد والترقي من سلانيك، ونقلت إلى إستانبول، وانضمت إليها بعض العصابات البلغارية والصربية، وادعت هذه القوات أنها جاءت لتنقذ السلطان من عصاة إستانبول، وأراد قادة الجيش الأول الموالي

للسلطان عبد الحميد منع هذه القوات من دخول إستانبول والقضاء عليها إلا أن السلطان رفض ذلك، وأخذ القسم من قائد الجيش الأول بعدم استخدام السلاح ضدهم؛ فدخلت هذه القوات إستانبول بقيادة محمود شوكت باشا وأعلنت الأحكام العرفية، وسطوا على قصر السلطان وحاولوا الحصول على فتوى من مفتي الدولة بخلع السلطان لكنه رفض، فحصلوا على فتوى بتهديد السلاح.

واتهم المتآمرون الثائرون السلطان بأنه وراء حادث ٣١ مارس، وأنه أحرق المصاحف، وأنه حرّض المسلمين على قتال بعضهم بعضًا، وهي ادعاءات كاذبة كان هدفها خلع السلطان عبد الحميد، وأعلنوا عزله.

ندب الثائرون أربعة موظفين لتبليغ السلطان بقرار العزل، وهم: يهودي وأرمني وألباني وجرجي، وهكذا أخذ اليهود والأرمن ثأرهم من عبد الحميد الثاني. واعترف الاتحاديون بعد ذلك بأنهم أخطؤوا في انتخابهم لهذه الهيئة.

تنازل السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش لأخيه محمد رشاد في (٦ ربيع آخر ١٣٢٧ هـ = ٢٧ إبريل ١٩٠٩م)، وانتقل مع ٣٨ شخصًا من حاشيته إلى سلانيك بطريقة مهينة ليقيم في المدينة ذات الطابع اليهودي في قصر يمتلكه يهودي بعدما صودرت كل أملاكه وأمواله، وقضى في قصره بسلانيك سنوات مفجعة تحت رقابة شديدة جدا، ولم يسمح له حتى بقراءة الصحف.

وقد تُوفِّي السلطان عبد الحميد الثاني في (٢٨ ربيع آخر ١٣٣٦ هـ = ١٠ فبراير ١٩١٨م) عن ستة وسبعين عامًا، واشترك في تشييع جنازته الكثير من المسلمين، ورثاه كثير من الشعراء، بمن فيهم أكبر معارضيه "رضا توفيق" الذي كتب يقول:

عندما يذكر التاريخ اسمك

يكون الحق في جانبك ومعك أيها السلطان العظيم

كنا نحن الذين افترينا دون حياء

على أعظم سياسيي العصر

قلنا: إن السلطان ظالم، وإن السلطان مجنون

قلنا لا بد من الثورة على السلطان

وصدقنا كل ما قاله لنا الشيطان

وعندما تمر بنا الذكرى الستون للنكبة العربية والإسلامية في فلسطين الحبيبة وكلنا يجب أن نعرف أن ما يدور هو جزء من مؤامرة أعد لها بصبر وإحكام ومنذ عشرات السنين قبل قيام هذا الكيان المسخ وهنا نقف أمام وثيقة هي غاية في الأهمية عن حدث وقع في آخر ايام الدولة العثمانية بدايات القرن العشرين المنصرم وقبل قيام دولة إسرائيل بعشرات السنين .. إنها وثيقة تاريخية هامة بخط السلطان عبد الحميد الثاني:وتتضمن رسالة كان قد وجهها السلطان بعد خلعه إلى شيخه الشاذلي محمود أبي الشامات، وإليكم الرسالة مترجمة حرفياكما ترجمها الشيخ أحمد القاسمي الدمشقي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، وإلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات،وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامي

أعرض أني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي :

إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلا ونهارا، وأعرض أنني مازلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم

اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا على بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)،

ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف،وأخيرًا وعدوا بتقديم ١٥٠ مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهبا،

فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

(إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهبا - فضلا عن ١٥٠ مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهبًا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والمحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضا).

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سلاكسك) فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين...

وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال،وأعتقد أن ما عرضته كافٍ في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه. ألثم يديكم المباركتين،

وأرجو واسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي على جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم لقد أطلت عليكم التحية،ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علما،ونحيط جماعتكم بذلك علما أيضا.

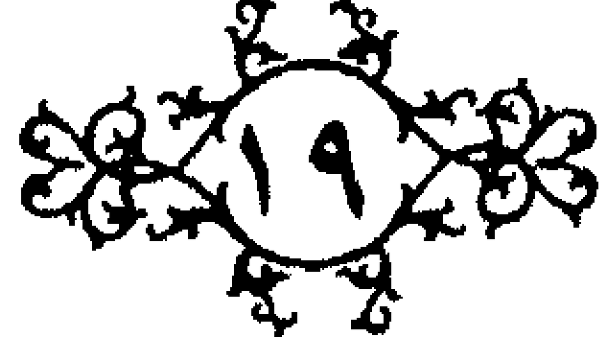
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين

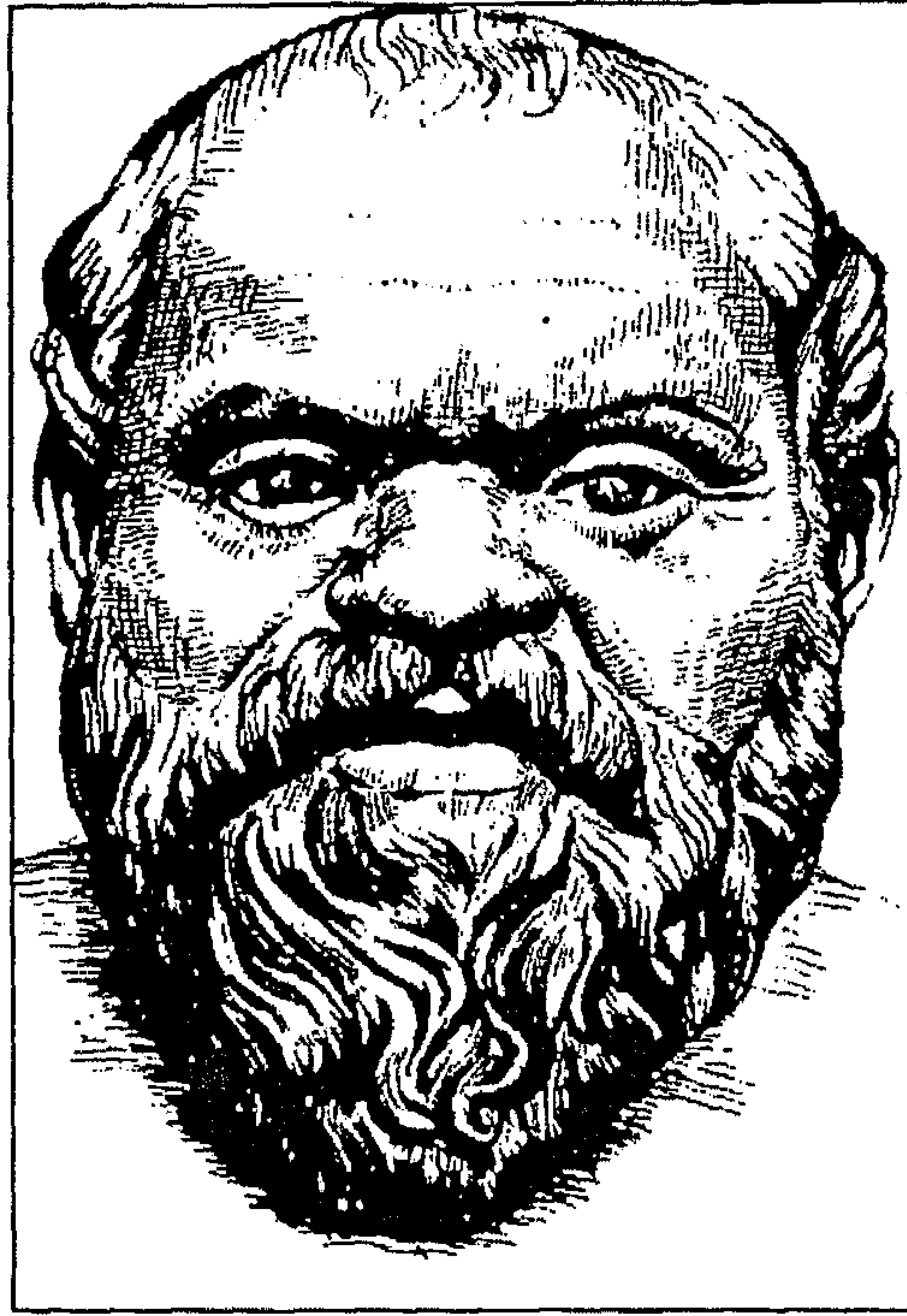
عبد الحميد بن عبد المجيد





سقراط ..

ooo



لحظة الحكم عليه بالإعدام تنبأ سقراط علانية، وعلى مرأى ومسمع من القضاة الذين قرروا إرساله للموت بأنه لن يكون الضحية الأخيرة للسلطة العمياء . وقال إن التاريخ سيشهد من بعده أن لا خاتمة، أو نهاية لقافلة العظماء، الذين يُقَدَّمُون للموت، من وقت لآخر، تارة باسم الشعب، وتارة باسم الدين، وتارة أخرى باسم المصلحة العامة !!

وقال سقراط : في الجو المشبع بالخوف من زوال مكسب، أو تصدع سلطان، أو نهاية حكم، يفقد أولو الأمررشدهم، وتظلِم قلوبهم، ويتخبطون في قراراتهم، فيصدرون أحكامًا على أعظمهم شأنًا، أو أكثرهم علمًا، أو أكبرهم حكمة، كأنه أحقر وأحط المجرمين " !!

ولم يقف سقراط أعظم فلاسفة التاريخ، وأول زعيم لأول حركة تنويرية في التاريخ دعت إلى تغليب العقل على الجهل والخرافة، عند هذا الحد، فقد تنبأ أيضًا بأنه سيأتي اليوم الذي سيعود فيه اسمه إلى قائمة الخالدين فقال : " وبعد الحكم الجائر ضد العظماء والحكماء لا يلبث أن يزول الظرف الذي أملى على أولي الأمر حكمهم الجائر، وتهمد الغلواء، وترقد العاصفة، وينقشع الضباب، وتسطع الحقيقة، فيأتي بعدهم من يرفع لهم التماثيل في الساحات، ويزين المدائن بأسمائهم، فيُخَلَّدُون كأكبر المصلحين، فيما يطوي النسيان ذكرى من أقدموا على إدانتهم، أو يُشَار إليهم باعتبارهم الأدنى والأحقر !!

وما أن انتهى سقراط من كلمته، أو بمعنى أدق نبوءته، حتى حكم عليه بالموت بشرب السم، فرضخ للقرار الظالم، واستسلم لنهايته . مات سقراط في عام ٤٠٠ قبل الميلاد، ولكنه خلد نفسه بفكره، وأصبح منذ ذلك الوقت، وحتى يومنا هذا من عظماء التاريخ الذين لا تزيدهم الأيام إلا توهجًا وبريقًا .

وقد ورد وصف دقيق، للساعات الأخيرة، التي قضاها سقراط أعظم وأشهر فلاسفة التاريخ، قبل أن يتناول السم، ويسلم الروح، بحضور بعض تلاميذه، ومنهم أفلاطون، الذي سجل هذه الملاحظات، في إحدى محاوراته .

" نهض ودخل غرفة الحمام، بصحبة أقريطون، الذي أشار إلينا بأن ننتظر، فانتظرنا نتحدث ونفكر في أمر الحوار، وفي هول المصاب، لقد كنا كمن ثكل أباه، وأوشكنا أن نقضي ما بقي من أيامنا كالأيتام، فلما تم اغتساله وفدت نساء أسرته، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه، على مسمع من أقريطون، ثم صرفهن وعاد إلينا. "

"ها قد دنت ساعة الغروب، فقد قضى داخل الحمام وقتا طويلا، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا، ولكنا لم نفض في الحديث، وما هي إلا أن جاء السجان وهو خادم الأحد عشر، ووقف على جانبه وقال: " لست أتهمك يا سقراط بما عهدته في غيرك من الناس من سورة الغضب، فقد كانوا يثورون ويصيحون في وجهي حينما آمرهم بتجرع السم، ولم أكن إلا صادعا بأمر أولي الأمر. أما أنت، فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المكان، فليس يخامرني شك أنك لن تنقم علي، فليس الذنب ذنبي، كما تعلم،إنما هي جريرة سواي ... وبعد، فوداعا، وحاول أن تحتمل راضيا ما ليس من وقوعه بد، وإنك لتعلم فيم قدومي إليك." ثم استدار فخرج منفجرا بالبكاء.

فنظر إليه سقراط وقال: " لك مني جميل بجميل، فسأصدع بما أمرتني به" ثم التفت إلينا وقال: يا له من فاتن! إنه ما انفك يزورني في السجن، وكان يحادثني الحين بعد الحين، ويعاملني بالحسنى ما وسعته، انظروا إليه الآن، كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلي، فلزام علينا، يا أقريطون، أن نفعل ما يريد. مر أحدا أن يجيء بالقدح إن كان قد تم إعداد السم، وإلا فقل للخادم أن يهيئ شيئا منه. فقال أقريطون: ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلال، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا في ساعة متأخرة، بعد أن كانوا يأكلون ويشربون وينغمسون في لذائذ الحس، فلا تتعجل إذن إذ لا يزال في الوقت متسع."

"فقال سقراط: نعم يا أقريطون، لقد أصاب من حدثتني عنهم فيما فعلوا، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعا يجنونه، وإني كذلك لعلى حق في ألا أفعل كما فعلوا، لأنني لا أظن أني منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة، إني بذلك إنما أحتفظ وأبقى على حياة قد انقضى أجلها فعلا، إني لو فعلت ذلك سخرت من نفسي. أرجو إذن أن تفعل ما أشرت به ولا تعص أمري. فلما سمع أقريطون هذا، أشار إلى الخادم فدخل، ولم يلبث إلا قليلا حتى عاد يصحبه السجان يحمل قدح السم".

فقال سقراط: أي صديقي العزيز! إنك قد مرنت على هذا الأمر، فأرشدني كيف أبدأ؟ فأجاب الرجل: لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك، ثم ترقد فيسري السم، وهنا ناول سقراط القدح، فحدق بالرجل بكل عينيه، يا أشكراتس، وأخذ القدح جريئا وديعا لم يرع ولم يمتقع لون وجهه .

هكذا تناول القدح وقال: ما قولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة، أفيجوز هذا أم لا يجوز؟ فأجاب الرجل: إننا لا نعد، يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافيا. فقال: إني أفهم ما تقول، ومع ذلك فيحق لي بل يجب على أن أصلي للآلهة أن توفقني في رحلتي من هذا العالم إلى العالم الآخر، فلعل الآلهة تهبني هذا؟ فهو صلاتي لها .

ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطا، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة. أما وقد رأيناه يشرب السم، وشهدناه يأتي على الجرعة كلها، فلم يعد في قوس الصبر منزع، وانهمر مني الدمع مدرارا على الرغم مني، فسترت وجهي وأخذت أندب نفسي، حقا، إني لم أكن أبكيه، بل أبكي فجيعتي فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق، ولم أكن أول من فعل هذا، بل إن إقريطون، وقد ألفى نفسه عاجزا عن حبس عبراته، نهض وابتعد، فتبعته، وهنا انفجر إبولودورس الذي لم ينقطع بكاؤه طول الوقت في صيحة عالية وضعتنا جميعا موضع الجبناء، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط، فقال: ما هذه الصرخة العجيبة ؟! لقد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعا على هذا النحو، فقد خبرت أنه ينبغي للإنسان أن يسلم الروح في هدوء، فسكوتا وصبرا، فلما سمعنا ذلك اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تتخلخلان، كما قال،ثم استلقى على ظهره، كما أشير له أن يفعل، وكان الرجل الذي ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حينا بعد حين، ثم ضغط بعد هنيهة على قدميه وسأله: هل تحس، فأجاب أن لا، ثم ضغط على ساقه، وهكذا صعد ثم صعد، مشيرا لنا كيف أنه برد وتصلب، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال: ستكون الخاتمة حين يصل السم إلى القلب.

فلما أخذت البرودة تتمشى في أعلى فخذيه كشف عن وجهه، إذ كان قد دثر نفسه بغطاء وقال(وكانت هذه آخر كلماته): إنني يا إقريطون مدين بديك لأسكلبيوس، فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين، ثم سأله إن كانت لديه رغبة أخرى، ولم يكن لهذا السؤال من جواب، وما هي إلا دقيقة أو دقيقات حتى سمعت حركة، فكشف عنه الخادم، وكانت عيناه مفتوحتين فأقفل أقريطون فمه وعينيه."

سقراط هو أحد أعظم فلاسفة الإغريق عبر التاريخ. وُلِدَ سنة ٤٦٩ ق.م. ولم يحصل سوى على النزر اليسير من التعليم في بواكير عمره. لكنه اطلع فيما بعد على ذخيرة الفكر والفلسفة اليونانية وتبحر في ثقافة أهل أثينا حتى أصبح علماً من أعلامها يشار إليه بالبنان.

مارس سقراط النحت لفترة من الزمن لكنه تخلى عن تلك المهنة وراح يجوب شوارع أثينا وأسواقها متحدثاً إلى كل شخص يقابله. أما حديثه فكان يدور في معظم الأحيان حول الروح والخلود والأخلاق الفاضلة.

عمل ما بين عامي ٤٣٢ و٤٢٩ ق.م في معسكر بوتيديه وحارب في معركتي ديليوم وأمفيبوليس. وبعد معركة أرجينوسا رفض أن يلعب أي دور آخر في الحياة العامة، لا سيما عندما طالب المشاغبون بإعدام عشرة جنرالات لم يتمكنوا من دفن الموتى في تلك المعركة. وبالمثل فقد رفض الدكتاتورية رفضاً قاطعاً عندما أمره الدكتاتوريون اعتقال ليون سلاميس الذي كان بريئا من التهم الموجهة إليه.

عمل سقراط أستاذاً لكنه لم يكن محبوباً من قبل مواطني أثينا. فمظهره كان منفرا كونه كان أصلع،غليظ الشفتين، مفلطح الأنف وقبيح الشكل. أضف إلى ذلك ثيابه الرثة التي لم تكن أحسن حالاً من ثياب الشحاذين.

وقد حاول اختزال احتياجاته إلى أدنى حد ممكن تشبهاً بالآلهة من حيث الكمال والترفع عن الماديات. أما زوجته زنثيب فقد كانت – على ذمة المؤرخين – امرأة

شرسة الطباع، سليطة اللسان، عيّابة، عيّارة، نقّاقة، ملحة وملحفة في الانتقاد وقد تحمّلها كضرب من التهذيب الذاتي والرياضة الروحية.

كان عنده العديد من الأصدقاء المستنيرين من بينهم أفلاطون وكريتو وألسيبياديس وزينوفون وفيدون وأقليدس وميغارا وأرستيبوس. ومع ذلك فقد كان عمله محصوراً مع شباب أثينا الذين أرادهم أن ينتهجوا سلوكاً أدبيا ويتمرسوا بالأخلاق الفاضلة. وقد كان مثله الأعلى هو معرفة الذات وكان لا يكف عن الترديد "اعرف نفسك".

الشر بالنسبة له كان نتيجة للجهل. وكل ما كان خيّراً ونافعاً وجميلاً اعتبره واحداً من حيث الجوهر بالرغم من اختلاف المسميات. وكان يقول: ما من أحد يفعل الشر بمحض إرادته وأن الفضيلة يمكن تلقينها لمن يرغب في أن يصبح فاضلا.

كما كان يقول إن أفضل الحكام أحكمهم وليس بالضرورة أكثرهم تحصيلا للعلم. لأن الحكام الحكماء يشعرون بمسؤولية تجاه الناس فيسعون لإسعادهم ويعملون على تحسين أوضاعهم.

طريقته المعروفة بالسقراطية أكسبته شهرة واسعة في كل بلدان حوض البحر المتوسط، إذ كانت عبارة عن استجواب يغري حتى أذكى الناس بالنقاش والتباين في وجهات النظر. وكان يخفي معرفته خلف ستارة من الجهل المفتعل. وعن طريق سلسلة من الأسئلة المنتقاة بعناية تمكن من معرفة ما أراد معرفته من كل من كان يحاوره أو يستمع إليه.

وفي عام ٣٩٩ ق.م حُكم عليه بالموت بتهمة المناداة بآلهة جديدة ورفضه لعبادة مقدسات المدينة وإفساده لأخلاق الشباب. وأثناء المحاكمة دافع عن نفسه بما عرف بمبررات سقراط لكن هيئة المحلفين المؤلفة من ٥٠٠ فرد أدانته بأكثرية ضئيلة.

في صباح اليوم الذي شهد موته طرد زوجته السيئة الخلق من زنزانته بسبب عويلها وصراخها الصاخب. ويقال بأنه صرف الساعة الأخيرة من حياته بهدوء وسكينة متحدثاً إلى أصدقائه عن خلود النفس. ومع بزوغ الفجر شرب سم الشوكران المُعد خصيصاً للمحكوم عليهم بالموت، وسار بضع خطوات ثم استلقى على أريكته ومات ميتة هادئة.

وهكذا قضى سقراط الذي غالباً ما كان يردد :

- "كثيرة هي الأشياء التي لا حاجة لي بها!" وقد أبّنه تلميذه وصديقه أفلاطون بهذه العبارة المؤثرة:
- " مات سقراط الذي ما رأينا أنبل منه في مماته مثلما لم نعرف أعدل وأحكم منه في حياته."

و تكمن عظمة سقراط في كونه ابن مأساته، التي تجمعت خيوطها حوله بقسوة وعلى مدى سني عمره وإذا كانت بداياتها تعسة فقد كانت نهاياتها مفجعة !

وُلِدَ سقراط في أسرة فقيرة لم تكن تمتلك حتى كلفة تعليمه مبادئ القراءة والكتابة . الأب نحات مغمور اسمه " سفرونيسك "، والأم امرأة طيبة القلب تدعى " فاناريتا " .

وُلد سقراط وعاش في أثينا . وكان يعاني من تهكم السفهاء على صورته، ووصفهم له بالرجل القبيح المنظر، بسبب عينيه الجاحظتين وأنفه الأفطس، ووجهه الممتلئ، ناهيك عن ثيابه المهملة والمكونة من معطف صوفي لا أزرار له ولا حزام . وفوق كل ذلك، فإنه لا يمشي إلا حافي القدمين، في الصيف كما في الشتاء .

كما عانى سقراط كثيرًا من زواجه من " زانْثِب " التي عُرف عنها حسب الروايات أنها كانت حادة الطبع ويصعب العيش معها. وقد أنجبت له طفلين. سقراط كان

تعيسا في حياته الخاصة فقد كانت زوجته ثرثارة دائمة الشكوى تستخدم لسانها بنفس الطريقة التي يستخدم بها سائق العربة كرباجه الطويل في إلهاب ظهور جياده .

وكان الفيلسوف الكبير يحاول دائما أن يتفادها ويهرب من شرها .. فيصحو في ساعة مبكرة من الصباح قبل أن تشرق الشمس ثم يسرع بتناول طعام الإفطار الذي يتألف عادة من قطع الخبز الجاف المغموس في النبيذ .. ثم يرتدي ملابسه ويسرع بالخروج من البيت ولايعود إليه إلا بعد حلول المساء .

سألوه يوما " أين كنت تقضي تلك الساعات الطويلة بعيدا عن بيتك وزوجتك وأبنائك الثلاثة ؟؟"

فقال " كنت أذهب إلى معبد من المعابد الصغيرة في أثينا وأجلس في ركن منه لأفكر وأتأمل .. فإذا مللت الجلوس وحدي خرجت أبحث عن حمام أغتسل فيه . ثم أبحث بعد ذلك عن الناس لأجلس إليهم وأستمع إلى مايقولون " .

وقالوا له " لماذا اختاروك أحكم الحكماء في اليونان " .. فقال لهم في هدوء وهو يمسح على لحيته الطويلة بكلتا يديه " ربما لأني الرجل الوحيد الذي يعرف بأنه لا يعرف شيئا على الإطلاق " .

في البداية تعلم سقراط مهنة أبيه، وأتقنها لدرجة مذهلة، ورغم أنها لم تكن تدر في ذلك الوقت عائدًا طيبًا، إلا أن سقراط كان راضيًا قانعًا لا يكل ولا يمل .

وظل سقراط يعمل مع أبيه حتى جاء يوم، حدث فيه ما لم يكن في الحسبان . فقد دار حوار مثير بينه وبين نفسه، كما جاء على لسانه فيما بعد، انتهى بتحول خطير في حياته . حدث سقراط نفسه : " إنك تفني ذاتك، وتميت نفسك، حتى تنقل صورة جامدة إلى الحجر، لا روح فيها، ولا تفكر في أن تصقل نفسك، فتجعل منها تمثالا حيا، يجسد الحقيقة الأعلى " !

وعلى الفور، تخلى سقراط عن المطرقة والازميل، وانصرف كلية للبحث عن الحقيقة، وعندما طالبه والده بالعودة إلى النحت قال له : الآثار الفنية مهما بلغت درجة من الجمال تبقى صماء، أما البشر فينطقون، وبي حاجة لسماعهم " .

هكذا بدأ سقراط، وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره طريقه في الحياة، وهو نفس طريقه للفناء، ولكن الرجل الفقير لم يكن لديه من المال ما يدفع منه لكبار رجال العلم والفلسفة، الذين يفدون لأثينا، لتقديم دروسهم لكل من يحب ويهوى!

ولكن الشاب الدؤوب قرر أن يعلم نفسه بنفسه، ويستخدم عقله للإنارة ليس عقله فقط، وإنما عقول الناس . وهنا اكتشف سقراط عبقريته، ورجاحة عقله، ورؤيته الثاقبة، فلم يُسلم بشيء، أو يأخذه على علته، بل كان يُعمِل فكره في كل شيء متأملا، فاحصًا، مستقصيًا، مستقرئا . وكانت قولته المعروفة : إذا قال أحد إن شيئا هو كذا فهل نُسَلِّم بأنه كذلك، أم نفحص ما يقوله هذا القائل ؟!

ورغم بساطة هذا الموقف إلا أنه كان خطيرًا، بل وينذر بشر مستطير، فقد وجد سقراط نفسه – وجهًا لوجه – أمام السلطة الحاكمة في أثينا، وآلهة المدينة، اللتين وجد فيهما بالعقل والمنطق كل مظاهر الخلل والاعوجاج والخروج عن قواعد المنطق، وأنهما أبعد ما يكونا عن الصواب، فراح يفند موقفيهما، ويوقظ الوعى لدى الناس، ويبصرهم بحقوقهم، ومن هنا كانت أزمته مع السلطة ورجال الدين، والتي دفع فيها سقراط حياته عن طيب خاطر كأول رجل في التاريخ يعدم بسبب فكره !!

نعم .. راح سقراط يجوب شوارع أثينا وأسواقها متحدثاً إلى كل شخص يقابله. أما حديثه فكان يدور في معظم الأحيان حول الروح والخلود والأخلاق الفاضلة.

و كان عند سقراط العديد من الأصدقاء المستنيرين من بينهم أفلاطون وكريتو وألسيبياديس وزينوفون وفيدون وأقليدس وميغارا وأرستيبوس. ومع ذلك فقد كان

عمله محصوراً مع شباب أثينا الذين أرادهم أن ينتهجوا سلوكاً أدبيا ويتمرسوا بالأخلاق الفاضلة. وقد كان مثله الأعلى هو معرفة الذات وكان لا يكف عن الترديد "اعرف نفسك".

الشر بالنسبة له كان نتيجة للجهل. وكل ما كان خيّراً ونافعاً وجميلاً اعتبره واحداً من حيث الجوهر بالرغم من اختلافْ المسميات. وكان يقول: ما من أحد يفعل الشر بمحض إرادته وأن الفضيلة يمكن تلقينها لمن يرغب في أن يصبح فاضلا.

كما كان يقول إن أفضل الحكام أحكمهم وليس بالضرورة أكثرهم تحصيلا للعلم. لأن الحكام الحكماء يشعرون بمسؤولية تجاه الناس فيسعون لإسعادهم ويعملون على تحسين أوضاعهم. كما سبق وذكرنا

وتعد محاكمة من أشهر المحاكمات في التاريخ، فقد كانت محاكمة الفيلسوف الكبير أو كما يحلو لتلاميذه تسميتة " المعلم الأول " محاكمة للفكر والعقل وكل من يبحث عن الحقيقة والخير. وقد أثارت محاكمة سقراط جدالا واسعا لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا. وهذا راجع إلى مكانته المتميزة على الساحة الفلسفية والفكرية. . هذه المحاكمة التي خلدها أفلاطون في عدد من محاوراته، وخاصة محاورة " الدفاع " مما جعلها من أشهر المحاكمات في التاريخ.

ومن المعروف أن أفلاطون حاول استغلال هذه المحاكمة للنيل من الديمقراطية اليونانية وبيان قصور نظامها القضائي، وقد أثرت الصورة التي رسمها أفلاطون بصفة خاصة على كثير من الكتاب والمفكرين إلى يومنا هذا في اتهام النظام القضائي في الديمقراطية الأثينية بالظلم وعدم احترام حرية الفكر .

قُدّمَ سقراط للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية. وكان سقراط يُلمحُ إلى أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم.

خمسمائة قاض وقاض جلسوا، الواحد بجانب الاخر، على المدرج ذي المقاعد الخشبية المغطاه بالحصر، وفي مواجهتهم، رئيس المحكمة محاطاً بكاتبه والحرس. وفي أسفل المدرج وضع الصندوق الذي سيضع فيه القضاة أحكامهم بعد انتهاء المحاكمة . الجلسة علنية . ولا يسمح فيها لغير الرجال بالحضور .

أما الطقس، فقد كان جميلاً، مما أدخل الارتياح إلى نفوس الجميع وجعلهم يأملون بجلسة كاملة لا يربك مجراها مطر يهطل على الرؤوس أو برد يعطل تواصل الأفكار . وإذا بدا لنا أن انعقاد محكمة في الهواء الطلق أمر مستغرب بل وطريف، اليوم، فلنتذكر أننا في أثينا، في صباح من أصبحة ربيع عام ٣٩٩ قبل الميلاد .

أثينا هذه التي قدمت الديمقراطية للعالم، تعيش فترة عصيبة، لقد هزمتها سبارطة في حرب دامت بينهما سبعاً وعشرين سنة، وفرضت عليها شروطاً قاسية. منها نظام "الثلاثين مستبداً" بقيادة أحد أبنائها، كرينياس، الذي تخلص منه الاثنيون منذ وقت ليس ببعيد . في هذا الجو من القنوط الوطني . كثرت الأحقاد وتعددت حوادث تصفية الحسابات لكن العدالة ظلت تعمل والقضاة في أثينا، وعددهم ستة آلاف، مواطنون متطوعون يجري اختيارهم سنوياً بشكل عشوائي . وهم يوزعون، بعد الاختيار، في اثنتي عشرة محكمة في كل واحدة منها خمسمائة قاض وقاض .

متهم اليوم شيخ ذو لحية بيضاء وثياب رثة. إنه ابن النحات سوفرونيسك والقابلة فيلاريت وهو الملقب بسقراط. لكن ما هي التهمة التي سيحاكم اليوم على أساسها؟ لقد اتهمه أحد المواطنين، ويدعى مليتوس، بالكفر بالآلهة وبادخال شياطين جديدة إلى المدينة وإفساد الشبية . وهي تهمة تستحق عقوبة الموت .

سقراط كان لا يميل الا للحوار ومناقشة الآخرين حول مختلف المواضيع داعياً إياهم إلى التفكير معه والتأمل . كان يجوب المدينة يتحدث إلى المار ويستوقف الشباب يفقههم في أمور الوجود وجوانب الحياة . وأثينا في ذلك العصر من الديمقراطية،

كانت تعج بالفلاسفة ورجال السياسة والأخلاق يسعى الناس إليهم ليأخذوا عنهم أصول الفكر وكان هؤلاء يتقاضون عن تعليمهم أتعاباً باهظة في معظم الأحيان.

أما سقراط فكان يرفض بيع فكره كان يعتبر أن الفلسفة ممارسة عضوية ويومية، وانها وبالتالي، نمط حياة . وغنى عن القول أن سقراط لم يكن مواطناً أثينيا كالآخرين . فهو لم يأبه لماديات الدنيا على الرغم من زواجة وإنجابه ثلاثه أولاد بل كان دائم الزهد في ما يشغل الناس . وهذا ما جعله غامضاً، بل وموضع سخرية في الكثير من الأحيان . غير أن سقراط لم يعدم وسيلة لتوضيح حقيقة أمره كان يرد على مسامع محاوريه أن حقيقة إلهية تدفعه للتصرف وأن هذه الحقيقة يمكن أن لا تكون سوى ضميره القابع في أعماق نفسه . تلك المشاعر وهذه الأفكار هي التي لم ترق للبعض، وهي التي أوصلته لأن يمثل اليوم أمام المحكمة، باعتبار أنه " يفسد الشبيبة ولا يؤمن بالهة المدينة " .

في بدء الجلسة، ولم يكن في نظام المحاكمات آنذاك ما يسمى اليوم بالادعاء العام، وقف المدعي الأول مليتوس يتكلم عن مفاسد سقراط في المجتمع . وأعقبه مدعيان آخران ليكون وانيتوس وكلهم طلبوا الحكم بالإعدام على " العجوز الشرير" . ولانيتوس هذا مبرر آخر للادعاء على سقراط فقد كان ابنه تلميذا من تلاميذ الفيلسوف و" مضللاً به " وهذا ما يفسر انشغاله عن صنعه أبيه وهي الاتجار بالجلود . يضاف إلى ذلك أن سقراط تهكم عليه مرة أمام الناس خلال مناقشة ظهر فيها الجاهل وحديث النعمة على قدر كبير من السخف .

ومن سوء طالع العجوز ايضاً، أن كريتياس، المستبد الدموي والعميل لسبارطة، كان من بين تلاميذه، في فترة من فترات حياته . اتخاذه كريتياس وآخرين غيره ممقوتين في مجتنعهم تلامذه له هو من قبيل انفتاحة على الجميع ودون النظر إلى آرائهم الساسية والفلسفية أو إلى نمط الحياة التي يعيشون .

وإذا توخينا الاختصار، قلنا إن سقراط، بأفكاره ومناقشاته، بدأ يصبح شخصاً مزعجاً، ليس للسلطات فقط، بل للآباء الذين رأى بعضهم أبناءه يخرجون عن طاعته ويلحقون بالمعلم.

بعد انتهاء المدعين الثلاثة من كلامهم، جاء دور المتهم . ومن إجراءات المحاكمة الأثينية في ذلك العصر أن يتولى المتهم شخصياً الدفاع عن نفسه . وإذا كان غير قادر، فان محترفاً يقوم بتلقينه الدفاع وتحفيظه اياه عن ظهر قلب . يجب أن يستغرق الوقت الذي استغرقه الادعاء لا أكثر .

بدأ سقراط دفاعه برد التهم ومن ثم، بالانتقال إلى الهجوم، قال إن من يدعي العلم، من بين كل من ناقشت وحاورت، وإنما هم جهلة ولا يفقهون من العلم شيئاً والحقيقة هي أني أعلم الناس . ذلك لأن الناس يعتقدون أنهم يعرفون شيئاً وهم، في الواقع، لايعرفون أي شيء . أما أنافإني أعرف أني لا أعرف .

وانتهى سقراط بتحذير القضاة من الحكم عليه بالموت . وإن فعلوا فإنهم لن يجدوا مثله وسيغرقهم الإله والاثنيين في سبات أبدي . أما إذا لم يفعلوا فسيعود إلى نشر أفكاره كما فعل دائماً وكما اوحى له ضميره . لم يستدر سقراط عطف القضاة كما يفعل عادة المتهمون الماثلون أمام مثل هذه المحكمة . لقد قال ما قاله وجلس دون أي انفعال .

أما القضاة، فقد بدأوا ينزلون المدرج ليضع كل واحد منهم حكمه في الصندوق. هذا الاقتراع هو أولي . إنه ينحصر في تقرير تجريم أو عدم تجريم المتهم .

قضت نتيجة التصويت بتجريم سقراط بفارق بسيط في الأصوات : ٢٨١ صوتاً ضد ٢٢٠ . ويقتضى القانون الأثيني، في هذه الحال، أن يعين المتهم نفسه العقوبة التي يراها، هو مناسبة . وقف سقراط وأعلن أنه يسره أن تتعهده البريتانية !

وتعالى الصخب وصياح الاستنكار من الحضور الذين رأوا في كلامه تهكماً وسخرية من هيئة المحكمة ومن كل الموجودين . ذلك لأن البريتانية مؤسسة أثينية تتعهد عظام الرجال وتتولى تأمين معيشتهم بشكل لائق وكريم .

ما أن سمع القضاة كلام سقراط، حتى قرروا أن ينصوا بأنفسهم على نوع العقوبة ومستواها . نزلوا ثانية إلى حيث الصندوق وصوتوا على أن يكون الحكم بالإعدام هو الجزاء الذي يجب أن يناله سقراط وذلك بأغلبية كبيرة .

لقد أوقع الرجل نفسه في التهلكة بعد أن كان يمكنه أن ينقذها بتصرف آخر أكد للجميع أنه يسعى للموت بكل رغبة وحماس .

مضى شهر على صدور الحكم . أما طريقة التنفيذ فهي الأسهل من بين لائحة لا يخلو بعض بنودها من العنف : تجرع كمية من سم يحضر خصيصاً للمناسبة . خلال هذا الشهر . جاءه كريتون، أحد تلامذته المخلصين، عرض عليه أن يقبل الهرب من السجن، بعد أن يتدبر كريتون أمر رشوة الحراس، فرفض سقراط قائلاً بوجوب احترام العدالة وقوانينها، حتى ولو كانت هذه القوانين جائزة .

هذا الشهر الذي فصل بين صدور الحكم وتنفيذه، أمضاه سقراط بهدوء أدهش المتصلين به من حراس ونزلاء . أما لماذا أبقي شهراً كاملاً ينتظر مصيره، فهذا يعود إلى أن تنفيذ أحكام الإعدام لم يكن مسموحاً به في الشرائع الدينية آنذاك إلا بعد عودة الكهنة من جزيرة ديلوس . وفي اليوم التالي لهذه العودة، تجمهر تلامذته في السجن ووصلت زوجته . وما أن رأته والحراس يفكون أصفاده تمهيداً للإعدام، حتى أجهشت بالبكاء ونتفت شعرها ومزقت ثيابها:

آه يا زوجي ! هذه آخر مرة تتكلم واخر مرة ترى فيها أصدقاءك !.. تأثر سقراط وطلب إليها أن تذهب . ثم التفت نحو أصدقائه وبدأ يحدثهم ويتناقش وإياهم في مواضيع مختلفة في الفن والموت والروح .. وبينما هو كذلك، إذ بالجلاد يقاطعه :

لا تتحرك كثيراً يا سقراط، وإلا يفقد السم مفعوله وللمرة الأولى ينفعل سقراط ويقول للجلاد:

لماذا لا تضع كمية مضاعفة ؟ هذه مهنتك .

وكما قلنا عاد إلى التحدث مع تلامذته الذين لم يتمكنوا من إخفاء إعجابهم ودهشتهم . لقد استطاع هذا الإنسان أن ينتصر على غرائزه وعلى مخاوفه . وعندما اقترب الوقت المخصص لتجرع السم، دخل سقراط غرفة مجاورة ليستحم وهو يقول :

أريد أن أوفر على النساء تنظيف جثة ميت . طال الاستحمام والجلاد ينتظر على الباب . ولما خرج سقراط، اقترب منه الجلاد وفي يده كأس السم . قدمه إليه وقال له :

سقراط أعرف أنك لن تشتمني كما يفعل الآخرون . أنت عاقل وتستطيع أن تتحمل قدرك .

مرحى لك ! هيا . ماذا على أن أفعل ؟

لا شيء سوى خطوات قليلة بعد التجرع . وعندما تشعر بثقل في ساقيك، عليك أن تستلقي والباقي يتولاه السم نفسه .

وتناول سقراط الكأس وتجرعه دفعة واحدة بكل هدوء . لم يتمالك تلامذته مشاعرهم فانفجروا يجهشون بالبكاء مثيرين غضب المعلم :

ماذا تفعلون ؟ لقد أمرت زوجتي بالرحيل حتى لا أرى ما يشبه مظاهر الضعف هذه أريد أن أموت بصمت الخشوع . فتمالكوا مشاعركم .

وصمت الجميع فوراً . بعدها استلقى سقراط كما اشار جلاده . وجاء الجلاد يقيد رجليه ويقول له :

هل تشعر بشيء؟

- كلا

وراح الجلاد يشرح للحاضرين أن الموت يصل إلى القلب بعد ما تبلغ البرودة الرجلين والبطن.

وعندما شعر سقراط بهده البرودة تصل إلى بطنه، أشار إلى تلميذه المخلص كريتون بالاقتراب ليقول له بصوت ضعيف :

كريتون، في ذمتنا ديك لإيسكولاب . ادفع له ثمنه دون نقاش .

حاضر يا سيدي . هل تريد شيئاً آخر ؟

لم يجب سقراط . لقد أغمضت عيناه ...

" ديك لايسكولاب " إنها لا شك عبارة أراد بها سقراط التهكم على إله الطب. لم يوفر سخرياته على الآلهة، حتى وهو على وشك أن يموت ! وما الموت بالنسبة له ؟ أليس هو التحرر ؟ أليس الشفاء من مرض هو الحياة، كما كان يردد دائماً ؟

هذه الجمله التي قالها سقراط قبل موته، والتي تمثل التشاؤم الهادئ والساخر بأبرز معانيه، كانت عبارة رسالة من أول رجل أعدم في التاريخ بسبب أفكاره .

و هناك لوحة تاريخية خالدة وشهيرة اسمها " موت سقراط " رسمها الفنان العالمي جاك لوي ديفيد، وهو في ذروة مجده، فقد كان هذا الفنان جزءًا من دائرة ضيقة من الأصدقاء من مفكرين وساسة وعلماء، وكان من بينهم " شيرنيير" و"لافاييت " و" لافوازييه " الذين كانوا يضغطون من أجل إصلاحات سياسية راديكالية في فرنسا الملكية .

وفي ١٧٨٧ أنجز جاك لوي رائعته " موت سقراط " التي تصور اللحظات الأخيرة في حياة الفيلسوف والمفكر الإغريقي العظيم، الذي أصبح مثالاً على التضحية بالنفس في سبيل المبدأ .

وفي اللوحة يبدو سقراط متماسكاً وقد غمرته هالة من النور رمزاً للخلود، بينما سيطر على أتباعه الحزن واليأس، ومن خلال توزيع الضوء والعتمة استطاع ديفد لوي تحويل صورة من صور التضحية إلى دعوة مدوّية للنبل والتضحبة والثبات على المبدأ حتى في مواجهة الموت .

ويبدو سقراط مستمراً في الحديث إلى تلاميذه حتى وهو يمد يده إلى كأس السم ليشربه !

مؤكداً استهانته بالموت والتزامه الذي لا يهتز بأفكاره ومبادئه، وبدى أتباعه ومريدوه وهم ملتفون حوله في حزن كاشفين عن عجزهم وضعفهم أمام ذلك الإمتحان العسير .

بعض المصادر التاريخية تذكر أن بعض التلاميذ حاولوا إقناع سقراط بتهريبه إلى الخارج لكنه رفض الفكرة على اعتبار أنها خرق للقانون لايصح ولا يجوز .

و في الزاوية البعيدة من اللوحة يمكن رؤية زوجة سقراط وهي تغادر السجن، بينما جلس تلميذه الوفي أفلاطون عند مؤخرة السرير، وراح كريتو يمسك بقدم سيده وهو يواسيه .

بالنسبة لمعاصري الفنان جاك لوي ديفد فإن المشهد يستدعي الأحداث الكبيرة التي شهدتها فرنسا في ذلك الوقت أي في عام ١٧٨٧ مثل وأد إصلاحات النظام الملكي وحل مجلس الأعيان والعدد الكبير من السجناء السياسيين داخل سجون الملك وفي المنفى .

وقد أراد الفنان جاك لوي ديفيد من خلال هذه اللوحة إيقاظ الأنفس الخانعة وتحريضها على البذل والتضحية، إنها بمعنىً ما دعوة صريحة لمقاومة السلطة الغاشمة.

وعندما كسف الستار عن اللوحة " موت سقراط " كان الرئيس الأمريكي الراحل توماس جيفرسون حاضراً وقد بهره المشهد كثيرا.

وقبل أن يشرع جاك لوي ديفيد في رسم هذه اللوحة استشار لأسابيع طويلة أصدقاءه المقربين بشأن تفاصيلها ودلالاتها وقرأ العديد من المراجع التاريخية التي تحكي عن وقائع المحاكمة .

وقد استند في الأساس إلى رواية أفلاطون عن الحادثة، لكنه أيضاً اعتمد على مضمون كتاب للفيلسوف الفرنسي ديديرو، بينما استوحى منظر أفلاطون الجالس على طرف السرير من مقطع من رواية للكاتب الإنجليزي ريتشاردسون .

كان الفنان جاك لوي ديفيد مصنفاً في عداد الفنانين النيوكلاسيكيين وكان يروّج في أعماله لقيم التنوير والثورة الفرنسية .

وهكذا قضى سقراط الذي غالباً ما كان يردد: "كثيرة هي الأشياء التي لا حاجة لي بها" ! وقد أبّنه تلميذه وصديقه أفلاطون بهذه العبارة المؤثرة: " مات سقراط الذي ما رأينا أنبل منه في مماته مثلما لم نعرف أعدل وأحكم منه في حياته" .

لم يعرف لسقراط أية مؤلفات، وقد عُرِفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسطو فانيس وأرسطو.

ولكن من أقواله الشهيرة الكثير مما تم جمعه ومنها :

- ليس العاطل من لا يؤدي عملاً فقط ،العاطل من يؤدي عملاً في وسعه أن يؤدي أفضل منه .

- حاذرعمل الشر أكثر مما تحاذر العذاب

- المرأة العظيمة هي التي تُعلمنا كيف نُحب عندما نريد أن نكره، وكيف نضحك عندما نريد أن نبكي، وكيف نبتسم عندما نتألم !

- عبقرية المرأة في قلبها .

- إذا قلت للمرأة:أنتِ جميلة فافعل ذلك همساً ،لأن الشيطان إذا سمعك ردد في أذنها صدى قولك مرات .

- قلة الدين وقلة الأدب وقلة الندامة عند الخطأ، وقلة قبول العتاب أمراض لا دواء لها .

- متى أُتيح للمرأة أن تتساوى مع الرجل أصبحت سيدته .

- لا فضيلة بلا معرفة .

- ليس من من الضروري أن يكون كلامي مقبولا، من الضروري أن يكون صادقاً .

الحكمة لله وحده، وعلى الإنسان أن يجد ليعرف، وفي استطاعته أن يكون محبا للحكمة تواقا إلى المعرفة، باحثاً عن الحقيقة .

وقد أثارت محاكمة سقراط جدالا واسعا لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا. وهذا راجع إلى مكانته المتميزة على الساحة الفلسفية والفكرية.

و ليس من شك في أن الفيلسوف اليوناني سقراط يعد واحدا من الفلاسفة الذين أثاروا من الإعجاب والعداوة في آن واحد ما لا يتفق إلا للرجال الممتازين، وأن أثره كان من القوة بحيث إن اسمه يشطر الفلسفة اليونانية شطرين : ما قبله وما بعده.

وهناك إجماع بين مؤرخي ودارسي الفلسفة على أن سقراط يعتبر نموذجا ممتازا للفيلسوف الوجودي لأنه عبر بحياته الخاصة عن ذلك الارتباط العميق بين الفلسفة والحياة. فهو يمثل الصورة العليا للفيلسوف، وفي هذا السياق نفهم ما قصده "كير كيجارد" ، في رسالته حول مفهوم التهكم، حينما اعتبر (سقراط) نقطة استدلال ونقطة تحول في مجرى تاريخ الفلسفة، وأنه هو الذي أوقف هذا المجرى عندما

افتتح عصرا جديدا ارتد فيه وعي الإنسان إلى نفسه لأول مرة، أما هيجل فيعتبره ثوريا في مجال الأخلاق، إذ يمثل المنعطف الرئيسي للفكر في داخليته. هناك ميزة خاصة انفرد بها سقراط، وهي أنه لم يكتب شيئا، لكن كُتب عنه الكثير، ففي الخميسنيات من القرن الماضي تبين أن هناك أكثر من ستمائة عمل نقدي وأكاديمي حول ما اتفق على تسميته «المسألة السقراطية» ومن الصعب الجزم هل لذلك صلة بشخصية سقراط، أم أن ذلك راجع إلى كون اليونانيين كانوا يحذرون من المكتوب؟ (تجدر الإشارة هنا إلى أن سقراط أثناء محاكمته، استلم دفاعا مكتوبا، لكنه رفض استخدامه. كذلك، يُعرف عن سقراط أنه لم يؤسس مدرسة كما فعل أفلاطون وأرسطو، لأن طريقته في البحث لم تكن تتلاءم مع تقاليد إنشاء مدرسة، حيث يكون إلقاء الأفكار فيه نوعا من التبعية للمعلم، في حين كان سقراط فيلسوفا متجولا، يسأل الناس في الأماكن العامة. من المناسب الآن أن ننظر في محاكمة سقراط في ظل الوضع الديمقراطي الذي عرفته اليونان، حيث تبدو هذه المحاكمة متناقضة مع إعلان العفو العام السائد، ومع طبيعة المبدأ الديمقراطي الأثيني الذي يقضي باحترام حرية الرأي والفكر.

هذه المحاكمة التي خلدها أفلاطون في عدد من محاوراته، وخاصة محاورة «الدفاع» مما جعلها من أشهر المحاكمات في التاريخ. ومن المعروف أن أفلاطون حاول استغلال هذه المحاكمة للنيل من الديمقراطية اليونانية وبيان قصور نظامها القضائي، وقد أثرت الصورة التي رسمها أفلاطون بصفة خاصة على كثير من الكتاب والمفكرين إلى يومنا هذا في اتهام النظام القضائي في الديمقراطية الأثينية بالظلم وعدم احترام حرية الفكر.. نعرف من أفلاطون أقرب المقربين إلى سقراط أن المسؤولين عن اتهام الأخير كانوا ثلاثة : "أنيتوس" ، وهو يمثل رجال الصناعة والسياسيين، و"ميلتوس" وهو يمثل الشعراء، و"ليكون" ويمثل الخطباء، وأن تحديد أدوارهم بهذا الشكل، يشعرنا بخطورة الموقف، مما يعني أن الخصومة أو العداوة ضد سقراط ذات طابع عام وليست شخصية بأي حال، وهنا نتساءل ما

هو الإثم الذي يمكن أن يرتكبه فيلسوفنا ليثير ضده الحكومة الديمقراطية الجديدة التي أخذت بمبدأ التسامح على نحو ما ذكرنا سابقا؟

من المعروف أن صك الاتهام، الذي على أساسه حوكم سقراط، يتضمن عدة تهم أهمها أن سقراط لا يؤمن بآلهة المدينة، وأنه يدعو لآلهة جديدة، أما الاتهام الآخر فيشير إلى إفساد شباب المدينة. وفي رد سقراط على الاتهامين معا، فإنه أنكر اتهامه بعدم الإيمان بالآلهة إنكارا مطلقا أكثر من مرة.

أما الاتهام الثاني فنجده يتناوله على أنه متعلق بنظريته التي مفادها أن الفضيلة والحكمة هما سبيل الرقي البشري وأنه يعلم ذلك للشباب. ثمة أسئلة تطرح بصدد هذه المحاكمة إن كانت فعلا حول الدين وخطورة الموقف الفلسفي الذي تبناه سقراط أم أن أعضاء المحكمة الشعبية وعددهم ٥٠١ عضو والذين اختيروا بالقرعة من عامة الشعب لم يكونوا من الثقافة والفهم بالقدر الذي يمكنهم من استيعاب كلام سقراط حول الفضيلة والخير والقانون.. (وهذه المسألة في غاية الأهمية بالنسبة لطبيعة النظام الديمقراطي في أثنيا.

وهنا لا بد من الرجوع إلى أفلاطون، وأرسطو للوقوف على مؤاخذتهما على الديمقراطية كما مورست عند اليونان أم أن هذه المحاكمة كانت سياسية وتم تغليفها بالدين والفلسفة حتى تكون حافزا وتثير الجماهير التي غالبا ما يثيرها العنصر الديني، وحتى لا يفسر الاتهام بأنه مخالف لمبدأ العفو العام، وعدم إثارة خلافات سياسية قد تعصف بالديمقراطية؟

لقد قيل لسقراط، عند اقتراب يوم المحاكمة: «ألا تعد دفاعك وتعنى بإعداده؟» فرد سقراط متجاهلا : «وماذا كنت أفعل إذن طوال حياتي؟ ما أظنني كنت أفعل شئا إلا إعداد ذلك الدفاع..!» إن مشروعية الأسئلة السابقة تؤكدها وقائع ثابتة ومؤكدة، وهي أن سقراط كان مواطنا بالمعنى الإغريقي للكلمة، كما عرف عنه أنه كان رجلا صادقا مع نفسه، ولذلك كان أمينا مع نفسه حين قرر أنه لا يستطيع

ممارسة السياسة في ظل النظام الديمقراطي السائد، والذي لم يقتنع بطرق ممارسته، وهذا ما عبر عنه صراحة في المحاكمة على النحو التالي: «يجب أن تعلموا، أيها الأثينيون. لو أني كنت حاولت الاشتراك في شؤون الدولة، لكنت هلكت منذ زمن طويل، دون تحقيق أي مصلحة لكم أو لنفسي، ليس هناك أي إنسان يمكنه أن يبقى آمنا، إذا عارضكم بأمان وصدق، وحاول منع وقوع تجاوزات كثيرة يمكن أن تحدث في الدولة، ضد العدل والقانون. لذلك يجب على من يريد أن يصارع من أجل الحق، إذا رغب أن يكون آمنا ولو لفترة قصيرة من الزمن، أن يحيا حياته الخاصة بعيدا عن معترك السياسة» .

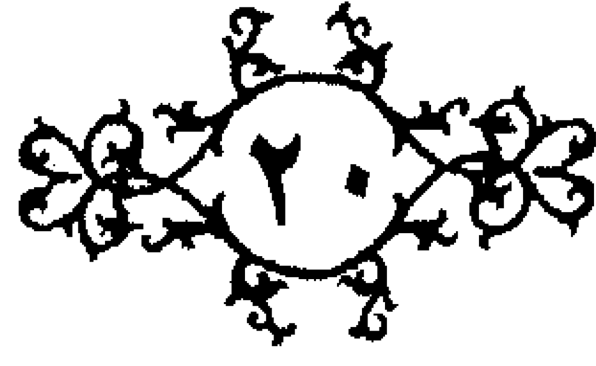
قد يتعب المرء في تعداد الأوصاف التي وصف بها سقراط، فالبعض اعتبره قديسا، وهناك من وصفه بـ "المعضلة" وكلمة سر، وفولتير اعتبره فيلسوفا دراميا. لقد بدا سقراط أثناء محاكمته، أنه مغتبط بالموت، وأنه لا يعتبره شرا، بل يرى فيه الخير كل الخير، سواء افترضناه سباتا أبديا، أم بعثا لحياة جديدة، وهذا ما دفع الكثيرين إلى تفسير تقبل سقراط لقرار الإعدام، وتمسكه بالبقاء في أثنيا- لأن مغادرتها يعني مخالفة قوانينها- على الطريقة الرواقية، أو على غرار البوذيين الذين عرف عنهم تضحيتهم بأنفسهم بعظمة لإثبات عدالة قضيتهم. أما الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو"، فيرى أن سقراط كان ضحية للحقيقة، باعتبار أن قول الحقيقة يتطلب نوعا من الشجاعة، والقدرة، لما تثيره معرفة الحقيقة من نتائج وخيمة على قائلها، قد تؤدي به إلى الموت.

والحقيقة هنا، مرتبطة بالالتزام والمخاطرة بكل شيء في سبيلها. إنها الحقيقة في أعلى درجات صورها، هنا فقط يصبح الموت كخاتمة فذة ونهاية مجيدة تكمل صورة الفيلسوف. (تجدر الإشارة إلى أن الموت عند "هوميروس"، وسائر التراجيديا اليونانية، كان تحقيقا للمصير، واكتمالا للحياة.. والموت، بهذا المعنى، هو الذي يخلع على حياة مثل هؤلاء العظماء طابع الجدية والخطورة، ويجعلهم يتقبلونه باطمئنان وشجاعة، هذا ما قاله سقراط بعد صدور حكم الإعدام

عليه: «أما إذا حكم على بالإعدام لعجزي عن الخطابة أو التملق، فأنا متأكد من أنكم ستجدونني أستقبل الموت هادئا مطمئنا».

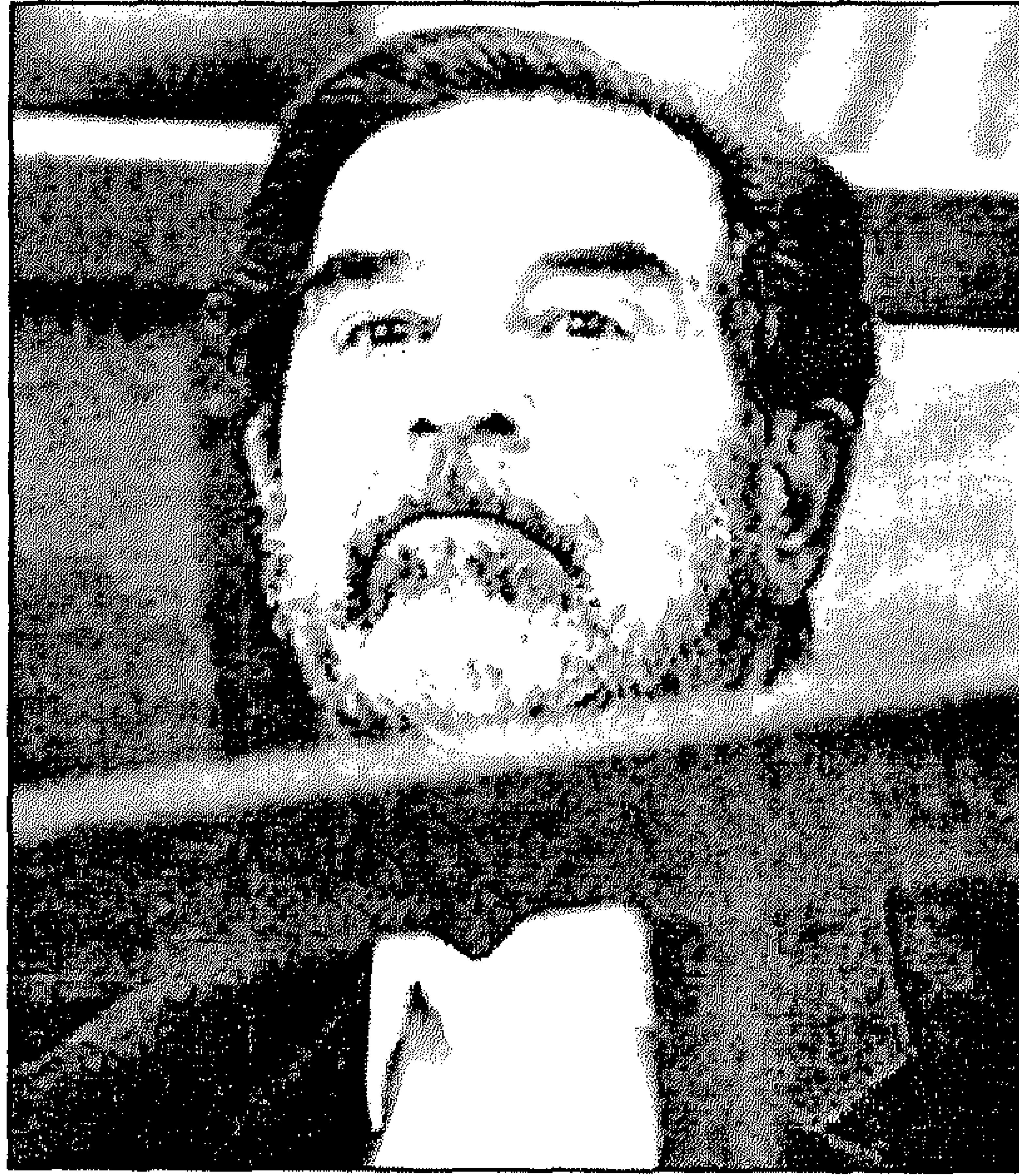
لقد كان سقراط مقتنعا بأن على الإنسان أن يعود إلى ذاته، ويبحث داخل نفسه عن غايات لأفعاله، وللعالم في وقت واحد، وهنا نتساءل: ألا يضعنا المبدأ السقراطي الشهير :«أيها الإنسان، اعرف نفسك بنفسك»- الذي قرأه في معبد دلف- في قلب أكبر وأخطر مشكلة فلسفية، ألا وهي مشكلة الوعي الذي يستطيع أن يحصله الإنسان عن ذاته وعن علاقاته بالآخر وموقعه داخل العالم؟!





صدام حسين ..

OOO



وُزع على أحد المواقع على شبكة الإنترنت شريط فيديو يظهر فيه الرئيس العراقي السابق صدام حسين لدى شنقه وهو يتقدم إلى المشنقة بهدوء على وقع هتافات. ونطق صدام بالشهادتين قبل شنقه. ولا يعرف ما إذا كان هذا الشريط تم دبلجته أم لا.

في المقابل قال على المسعدي الذي صور لقطات الفيديو الشهيرة لإعدام صدام حسين لمجلة النيوزربك الأمريكية إن آخر ما نطق به صدام حسين قبل إعدامه هو أن "العراق بلا صدام لا شيء".

في حين قال غوردون توماس الصحافي المتخصص في نشر معلومات عن عالم الاستخبارات : إن صدام حسين أبى إلا أن يأكل وجبة طعامه التي اعتاد عليها مع كأس من الماء الساخن والعسل ثم الصلاة وتلاوة آيات من القرآن الذي أرسلته له زوجته.

ووفقا لوكالة فرانس برس، ظهر في شريط الفيديو الذي يرجح أن يكون أخذ عبر هاتف محمول، الرئيس العراقي وهو يتقدم باتجاه المشنقة بهدوء برفقة مجموعة من الحراس..

من جانبه، ردد صدام حسين "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله" صلى الله عليه وسلم .فيما هتف أحد الحضور، الذين لم تظهر أي صورة واضحة لاي منهم "إلى جهنم".

وفي الوقت نفسه كان الحبل قد وضع حول عنق صدام حسين. وحسب الشريط، فلم يبال صدام بالصيحات المتعالية، وكرر الشهادة كاملة من جديد لمرتين، وتلفظ بكلمات قليلة لم تفهم بسبب الضجة في المكان. بعدها سمع صوت فتح بوابة حديدية ليسقط صدام حسين مباشرة مع تعالي صرخة أحد الحضور "اللهم صلِّ على محمد وآل محمد".

في مقابل هذه الرواية، نقل موقع مجلة "نيوزويك" الأمريكية عن مصور عملية الإعدام "علي المسعدي" أنه كان يقف على بعد "٣ أقدام من صدام حسين لحظة موته". ويقول موقع المجلة إن المسعدي، ٣٨ عاما، هو المصور الرسمي لرئيس الوزراء نوري المالكي، والذي قام بتصوير اللحظات الأخيرة من حياة صدام فجر السبت ٣٠-١٢-٢٠٠٦. ويقول المسعدي: "رأيت الخوف أمامي.. لقد كان خائفا". وهو ما يتعارض مع صور الفيديو التي أظهرت صداما وهو يتقدم بهدوء وشجاعة حسب قول البعض.

وكان المسعدي يرتدي بزة خضراء ويحمل كاميرا فيديو من نوع سوني HDTV. وعن آخر كلمات صدام قبل موته، يقول: كان يردد كلمات عن الظلم والمقاومة والإرهابيين.. وعلى حبل المشنقة قال صدام "العراق بدوني لاشيء".

وقال أيضا إنه صور عملية تدلي جسم صدام أثناء الإعدام في الهواء، بعد فتح أرض منصة الإعدام تحت قدميه، مشيرا إلى أنه كان على مسافة متر واحد من جسد صدام حسين الذي وصفه بأنه توفي فورا.

وأضاف المسعدي أن "مدة شريط الفيديو ١٥ دقيقة وسلمه لمدير مكتب المالكي وهو سري للغاية". ولم يعط المسعدي أسماء الذين حضروا الإعدام، لكنه قدر عددهم ب٢٠ شخصا، ومنهم موفق الربيعي مستشار الأمن القومي العراقي".

بدوره نشر الصحافي "غوردن توماس"، المتخصص في قضايا الاستخبارات الدولية، على الموقع الأمريكي "وورلد نيت ديلي"، تفاصيل آخر ساعة في حياة صدام حسين.

ويقول في الساعة الثانية صباحا بتوقيت غرينتش من يوم السبت، فتح باب زنزانة صدام حسين ووقف قائد المجموعة التي ستشرف على إعدامه وأمر الحارسين الأمريكيين بالانصراف، ثم أخبر صدام أنه سيعدم خلال ساعة.

ويضيف: تناول صدام وجبة من الأرز مع لحم دجاج مسلوق كان قد طلبها منتصف الليل وشرب عدة كؤوس من الماء الساخن مع العسل، وهو الشراب الذي اعتاد عليه منذ طفولته. وبعد تناوله وجبة الطعام دعي لاستخدام الحمام، حتى لا يتبول أثناء عملية الإعدام ويشكل المشهد حرجا، فرفض ذلك.

وبحسب "غوردن" ففي الساعة الثانية والنصف توضأ صدام حسين وغسل يديه ووجها وقدميه وجلس على طرف سريره المعدني يقرأ القرآن الذي كان هدية من زوجته ولم يقرأ فيه إلا بعد صدور حكم الإعدام عليه، وخلال ذلك الوقت كان فريق الإعدام يجرّب حبال الإعدام وأرضية المنصة.

ويتابع أنه في الساعة الثانية و٤٥ دقيقة وصل اثنان من المشرحة مع تابوت خشبي منبسط وضع إلى جانب منصة الإعدام . وفي الساعة الثانية و٥٠ دقيقة أدخل صدام إلى قاعة الإعدام ووقف الشهود قبالة جدار غرفة الإعدام وكانوا قضاة ورجال دين وممثلين عن الحكومة وطبيبا.

ويضيف " في الساعة الثالثة ودقيقة بدأت عملية تنفيذ الحكم والتي شاهدها العالم عبر كاميرا فيديو من زاوية الغرفة" .

ثم كتب توماس غوردن: بعد ذلك قرأ مسؤول رسمي حكم الإعدام عليه، وأحد الحاضرين أبلغني أن صداما كان ينظر إلى المنصة التي يقف عليها كما لو أنه يريد أن يتجنبها، ووسط الصمت سمع صوت رافعة الحبل وفتحت المنصة وتدلى منها صدام حسين حيث انكسر عنقه واستمر في الحبل لدقائق حتى نزل الطبيب الذي استخدم سماعته، وإذ بقلب صدام قد توقف.

وقال : وبعد ذلك تم قطع الحبل عن رقبته بسكين كبيرة تشبه سكين الجزارين، وفي الساعة الثالثة و١٤ دقيقة وضع جسده في نعش .

صحيفة الحياة اللندنية من جانبها قالت، إن شاهد عيان، روى لها قصة الدقائق الأخيرة من حياة صدام الذي قال، قبل الشهادتين،"لا قُرت عيون الجبناء،" ثم "تقدم بهدوء إلى المشنقة مرفوع الرأس بوجهه مكشوف دون أن ينظر إلى مسؤولين عراقيين خلال تنفيذ الحكم.

وقال الشاهد للحياة إن كتيبة أميركية، نقلت الرئيس السابق نحو الرابعة فجراً، من معتقله في سجن المطار، إلى مقر قوات حفظ النظام في الكاظمية، وهو مقر سابق للاستخبارات العسكرية.

وأضاف "إن ضابطاً أميركياً رفيعاً، ومجموعة من الجنود، تناوبوا على إلقاء التحية العسكرية على الرئيس السابق، قبل أن يتنحوا جانبا لتتسلم مجموعة من

رجال الشرطة العراقية، باللباس المدني، مهمة نقل قيوده الحديدية من يديه الأماميتين إلى خلف جسمه وتقييد قدميه بسلاسل أخرى. "

وطلب الحراس من صدام تغطية رأسه بكيس أسود، مصنوع من القماش السميك، فرفض، لكن أحد الحراس أقنعه بأن غرض الكيس حماية رقبته من التمزق. واقترح حارس آخر أن يلف الكيس حول رقبته لتحقيق الغرض نفسه فوافق صدام بكلمة "ماشي. "

وساد صمت لمدة دقيقة، لم يغلق صدام عينيه فيها حتى صرخ آمر الحرس: "باسم الشعب، سننفذ الحكم الآن، هل لديك شيء تقوله؟" فرد صدام: "لا قرت أعين الجبناء... عاش العراق. " ثم تلا الشهادتين قبل أن يُفتح باب المشنقة، ويفتح صدام عينيه بقوة محدقاً بسقف الغرفة وسقط ليُسمع صوت دق عنقه بعد لحظات تحرك جسده خلالها بقوة. "

وقد أدلى القاضي منقذ الفرعون الذي حضر عملية إعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين بصفته ممثلا للادعاء العام بحديث لإذاعة بي بي سي روى فيه مشاهداته لعملية تنفيذ حكم الإعدام بصدام.

وقال فرعون إنه تم تنفيذ حكم الإعدام في مقر فرع سابق للمخابرات العسكرية العراقية خلال حكم صدام حسين.

وقال فرعون إن ١٤ شخصا حضروا بمن فيهم فرعون نفسه ممثلا للادعاء وقاض يمثل المحكمة ومن الجانب الحكومي حضر "عدد من المسؤولين لم أتعرف سوى على موفق الربيعي مستشار الأمن القومي في العراق".

يقول فرعون إنه "تم تقسيمنا إلى مجموعتين، كل واحدة ٧ أشخاص وتم نقلنا بواسطة طائرتين عموديتين إلى مكان الإعدام وخضعنا لتفتيش ومنعنا من حمل كاميرات أو أسلحة".

وبعد ١٠ دقائق دخل صدام برفقة ثلاثة عناصر من شرطة وزارة العدل اثنين يمسكان صدام من ساعديه والثالث يسير خلفهم.

وقال فرعون " دخل صدام حسين وهو غير مسيطر على نفسه وبدت حركاته غريبة ومرتديا الملابس التي شاهدها الناس إضافة إلى قبعة صوفية تغطي رأسه وكان يتلفت حوله ويحرك يديه كثيرا" .

وأضاف فرعون أن صداما بقي صامتا إلى أن طلبت منه الجلوس وظل يرتعد إلى أن بدأ القاضي بقراءة نص الحكم وحينها اخذ بالانتباه والتفت حوله وردد ما كان يردده سابقا في قاعة المحكمة :"عاش الشعب، عاشت الأمة والموت للخونة" .

بعد قراءة نص الحكم دخلت المجموعة برفقة صدام إلى قاعة الإعدام المجاورة ويصف فرعون القاعة بأنها صغيرة جدا وبالكاد اتسعت للحضور اضافة إلى أربعة من عناصر شرطة وزارة العدل المكلفين بتنفيذ عملية الإعدام.

وأشار فرعون إلى أن صدام حسين كان يحمل نسخة من القرآن بيديه المكبلتين أمامه وإلى أنه أخذ القرآن منه عند تكبيل يديه خلفه وقال له صدام "احتفظ به إلى أن تقابل أحد أفراد عائلتي وتعطيه إياه" .

بعد تكبيل يديه خلفه شد وثاق قدميه فقال صدام للحراس "كيف أصعد منصة الإعدام عبر الدرج وقدماي موثقتان؟" فساعدته عناصر الشرطة على صعود المنصة.

وقال فرعون إن صدام رفض وضع غطاء للرأس قبل تنفيذ الإعدام فعرض السجانون عليه وضع قطعة قماش حول عنقه لحمايتها فوافق صدام على ذلك.

وأضاف "لدى وضع الحبل حول رقبتة كان عدد من الحراس يقفون على باب قاعة الإعدام وليس داخل القاعة وتنحصر مهمتم بحراسة الموقع ليس إلا وردد الحراس: اللهم صل على سيدنا محمد .. وشاركهم صدام الدعاء .

بعد ذلك دخل ستة أو سبعة من حراس الموقع إلى القاعة وكانت هناك كاميرتا تصوير للحكومة تقوم بعملية التصوير وذلك بهدف دحض الشائعات التي يمكن أن تثار حول حقيقة إعدام صدام.

ولدى سؤال فرعون عن صور الفيديو غير الرسمية المتداولة والمأخوذة بواسطة أجهزة الهاتف النقال قال فرعون إنه شاهد شخصين يقومان بذلك لكنه لا يعرف من هما.

وقال فرعون " حتى لو شاهدتهما اليوم فلن أستطيع التعرف عليهما" .

ولدى سؤاله لماذا لم يتدخل لوقف ذلك أجاب فرعون "إن ذلك يعتبر خرقا للقانون وعملية الإعدام ليست سرية وتنفذ عادة في مكان عام وفي العراق كان يتم حشد الناس من أجل مشاهدة عمليات الإعدام وذلك من أجل ردع الآخرين إضافة إلى تصويرها" .

وقال فرعون إنه بعد تنفيذ عملية الإعدام وتأكيد الطبيب موت صدام قام الحراس بوضع جثة صدام داخل كيس.

ووصف فرعون تلك اللحظات بأنها "كانت مرعبة لنا إذ لم يسبق لأحد منا أن شاهد عملية الإعدام لذلك خيم علينا صمت ثقيل .

وقد أصدر مدير الفريق الذي أرسلته القوات الأمريكية لاستجواب الرئيس العراقي الراحل صدام حسين كتاباً عن الفترة التي قضاها معه، ذكر فيه الكثير من التفاصيل حول حياة "المعتقل صدام" .

ويروي جورج بيرو، في كتابه الذي يحمل عنوان "ذا تيروريست واتش" ، ووضعه الصحافي في واشنطن رونالد كيلسر الحائز عدة جوائز، كيف أدار فرقة استجواب صدام، بعدما قبضت عليه القوات الأمريكية في ديسمبر ٢٠٠٣.

وكان بيرو يومها في الـ٣٦ من العمر، ويشغل منصب رئيس لقسم مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي. وهو يتقن العربية، لكونه مولوداً في بيروت، قبل أن تهاجر عائلته إلى الولايات المتحدة، وهو في الـ ١٢ من العمر.

ويصف بيرو صدام حسين بأنه مهووس بالنظافة، مشيراً إلى أنه حاز ثقته بعدما مده بكميات كبيرة من فوط الاطفال الرطبة، لتنظيف يديه وبعض المأكولات مثل التفاح. ومع أن صدام كان يصلي ٥ مرات في اليوم خلال اعتقاله، فإنه كان يحب النبيذ والويسكي من نوع "جوني ووكر بلو ليبل" والسيجار الكوبي. وكانت تلفته النساء الجميلات.

ويقول كيسلر في كتابه "عندما أتت ممرضة امريكية لأخذ عينة من دمه، قال صدام لبيرو أن يقول لها بالانكليزية إنها فاتنة. لكن بيرو رفض".

ودحض بيرو الاعتقاد السائد أن صدام حسين كان غالبا ما يلجأ إلى شبيه له في ظهوره العلني. ويقول بيرو ضاحكا "قال لي (صدام إن أحدا لا يمكنه أن يقلده". وكان موظف الـ"إف بي آي" يمضي بين ٥ و٧ ساعات مع صدام يوميا على مدى ٧ أشهر، هي فترة المقابلات استمرت حتى يوليو ٢٠٠٤.

وأكد صدام لبيرو أنه "ادعى" أنه يمتلك أسلحة دمار شامل فقط لإبقاء إيران خصمته اللدودة في موقف حرج، وكان يعتبر أنه قادر على استئناف البرنامج النووي ما إن ترفع عقوبات الأمم المتحدة عن العراق.

وخارج غرفة الاستجواب الرسمية يقول بيرو إنه وصدام كانا يتناقشان في التاريخ والسياسة والفنون والرياضة. وقد بدأ الرئيس السابق بكتابة قصائد حب على دفتر أعطاه اياه موظف الـ"إف بي آي". وسأل بيرو صداما عن حملة الأنفال ضد الأكراد في أواخر ثمانينيات القرن الماضي التي قضى فيها الآلاف خلال قصف مدينة حلبجة بأسلحة كيميائية عام ١٩٨٨. وقال بيرو لكيسلر "قال صدام إن هذا قرار اتخذه ولا يريد الخوض في هذه المناقشة".

وعلى صعيد عائلته، قال صدام إنه كان حذرا من ابنه قصي، والذي قتل مع شقيقه الأكبر عدي في عملية أمريكية بالموصل في يوليو ٢٠٠٣. ورغم كرهه للرئيسين الأمريكيين اللذين شنا حربا عليه، وهما جورج بوش الأب والابن، كان صدام حسين يحب الأميركيين معربا حتى عن إعجابه بالرئيسين رونالد ريغن وبيل كلينتون.

وأقر صدام حسين بارتكابه "خطأ تكتيكيا" في تعامله مع بوش الاب والابن، مستهينا بقدرة الجيش الأمريكي خلال حرب الخليج الأولى، وبعدم تصديقه أن بوش الابن جدي في اجتياح العراق.

وفي نهاية عمليات الاستجواب يقول بيرو إن التأثر غلب على الرئيس العراقي. ويروي "جلسنا خارجا وأشعل كل منا سيجارا كوبيا واحتسينا القهوة وتبادلنا أطراف الحديث". وكان في حوزة صدام مسدس عندما قبض الأمريكيون عليه في تكريت، وكان بإمكانه أن يطلق النار على نفسه لكنه لم يفعل، مع أنه كان يعرف أنه يواجه احتمال الحكم بالإعدام. ويقول بيرو إن "الإعدام كان ليخدم هدفه أكثر وهو المحافظة على ارثه ومكانته في التاريخ".

ولم يندم صدام حسين على أي شيء حتى اللحظة الأخيرة قبل إعدامه شنقا نهاية عام ٢٠٠٦. ويقول بيرو "رغم ذلك كان لطيفا ومهذبا ويتمتع بالكاريزما وحس الفكاهة. نعم، كان جديرا بأن يُحب".

واخيرا قررت المخابرات الأمريكية رفع السرية عن جزء بسيط ويسير من كنز المعلومات والملفات الهائلة التي تراكمت من التحقيق مع الديكتاتور صدام خلال فترة ثمانية أشهر كاملة وبمعدل سبع ساعات يوميا.

وبموجب هذا القرار تمكن ضابط من المخابرات الفيدرالية الأميركية الإف بي آي، وهو رئيس قسم التحقيق مع صدام يدعى جورج بيرو، من الحصول على موافقة

بسرد جزء من مذكراته أثناء إجراء التحقيق اليومي مع صدام والتي استمرت لثمانية أشهر . ويقول الضابط المحقق بيرو انه ذهب في اليوم الأخير للقاء صدام قبل إعدامه وأخذ معه سيكارا كوبيا من النوع الفاخر عدد اثنين إلى صدام وجلس معه ليودعه، لأن الزيارة كانت زيارة وداع، وإذا به يفاجأ بصدام يبكي وينتحب كالطفل عندما قال له بأن هذا اللقاء هو الأخير بينهما، فأدرك صدام إنها النهاية فعلا . طبعا لايسهب الضابط كثيرا في ذكر تفصيلات أخرى نقلتها مواقع خبرية في حينها كيف أن صدام انهار وأخذ يتوسل لإبقائه حيا وأنه على استعداد لخدمة السياسة الأمريكية في العراق وفي المنطقة .

وهذه المذكرات لضابط التحقيق الفيدرالي بيرو، نقلها الصحفي رونالد كيلسر في كتابه الجديد " watch terrorist " الذي يباع حاليا في المكتبات الأمريكية. ونقل بيرو في حديثه للصحفي كيسلر، أن صداما اعترف أثناء التحقيق معه أنه أصدر أوامره باستخدام الأسلحة الكيماوية ضد مواطنيه العراقيين من الأكراد . وقال بيرو " إن صداما مثلما كان يحرص أن يظهر نفسه بأنه متعلق بالقرآن، إلا أنه "كان أيضا كان يحب شيئين آخرين، وهما الويسكي والسيكار " .

ونقل بيرو أن صداما قال له أيضا : " إن آراء وسياسات الرئيسين بل كلينتون وريغان متشابهة مع تطلعاته وأفكاره، إلا أنه يشعر بتفاوت كبير وتعارض بينه وبين الرئيس بوش ووالده ". كما يذكر بيرو أن صداما تعلق بممرضة كانت تشرف بين فترة واخرى على تمريضه . ويشير ضابط التحقيق بيرو أن صداما وثق به خلال هذه الترة التي أمضاها معه أكثر مما كان يثق .

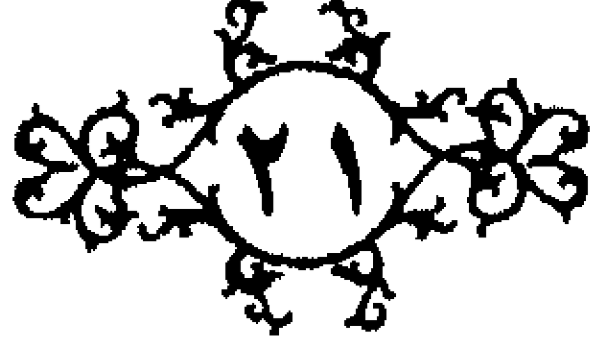
وقد تابع الملايين من العراقيين وغيرهم في الدول العربية والأجنبية عبر شاشات التلفزيون وقائع محاكمة صدام وسبعة من أعوانه في قضية الدجيل والتي كشفت أحداثاً ووقائع كانت محرمة التداول بين العراقيين .وانعقدت الجلسة الأولى للمحاكمة في التاسع عشر من تشرين الأول (اكتوبر عام ٢٠٠٥ وحتى السادس عشر من تشرين الأول من العام ٢٠٠٦ حيث الجلسة التي حددت موعد النطق بالحكم.

وعقدت الجلسة الأولى في أجواء أمنية مشددة برئاسة القاضي رزكار محمد أمين وفي هذه الجلسة شكك صدام في شرعية المحكمة قبل أن ينكر هو وأخوه برزان وبقية المتهمين التهم الموجهة إليهم بإصدار الأوامر بقتل ١٤٨ شخصا من قرية الدجيل. ورفض صدام تأكيد هويته سائلا القاضي رئيس المحكمة " من أنت .. ما كل هذا الذي يحدث هنا"؟!. وفي تلك الجلسة جرى تقسيم قفص الاتهام إلى ثلاثة أقسام في صفين وجلس صدام بجانب أخيه برزان ثم نائبه طه رمضان ثم البندر ثم مسؤولو حزب البعث السابق في الدجيل وهم عبدالله رويد ودايح وعزاوي ومزهر رويد. وعقدت الجلسة الثانية في الثامن والعشرين من الشهر نفسه وامتنع خمسة محامين من فريق الدفاع عن صدام وعدد من المتهمين من حضور الجلسة احتجاجا على اغتيال اثنين من فريق الدفاع فتأجلت الجلسة حتى الخامس من كانون الأول من العام نفسه.

عقدت الجلسة الثالثة في الخامس من كانون الأول من العام نفسه واستمعت المحكمة إلى شهادة أول شهود الإثبات من ضحايا الاعتقالات العشوائية في الدجيل.وعند بدء الجلسة تعطلت الإجراءات مدة ساعة بسبب مغادرة فريق الدفاع القاعة احتجاجا على رفض القاضي رزكار محمد أمين السماح لهم بفرصة عرض مبرراتهم للطعن في شرعية المحكمة.

وقد وصفت الجلسة الثامنة في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير من العام نفسه بأنها من أكثر جلسات الدجيل صخبا وجرى تاجيلها .. وفيها تم تغيير القاضي رزكار محمد أمين حيث تم تعيين القاضي رؤوف عبد الرحمن قبل يوم من عقدها خلفا للقاضي أمين الذي استقال وسط اتهامات بأنه متساهل كثيرا مع المتهمين.وكانت أحداث الجلسة صاخبة حيث طرد القاضي عبدالرحمن المتهم صدام من قاعة المحكمة وسبق ذلك انسحاب فريق دفاعه ثم سرعان ما طرد برزان من المحكمة بسبب ما وصف تعمده الإطالة وتضييع وقت المحكمة في عرض شكواه من نوعية العلاج الذي يتلقاه من السرطان.





محمد نجيب ..

ooo



بعد حياة حافلة توفي في ٢٨ أغسطس ١٩٨٤ ويتذكر اللواء حسن سالم اللحظات الأخيرة في حياة خاله أول رئيس لمصر محمد نجيب قائلاً:

في ذلك اليوم اصطحبت خالاتي إلى المستشفى لزيارة خالي وكان كويس وبيتكلم معانا وفجأة تعب «شوية» ورفع يده إلى السماء ثم أنزلها ببطء، ووجدناه يميل إلى الأرض برقبته قليلاً وعندما حضر الطبيب قال لنا «البقية في حياتكم»، فاتصلت رئاسة المستشفي بوزارة الدفاع واتصلت أنا بنور فرغل من رئاسة الجمهورية وقلت

له «لقد كانت وصية اللواء محمد نجيب أن يدفن في السودان»، وبعدها أخبرني أنه تحدد أن تكون الجنازة عسكرية وأن يدفن الرئيس محمد نجيب في مقابر الشهداء بالغفير «طريق صلاح سالم».

وكانت جنازة عسكرية بالفعل، وصل الجثمان على عربة مدفع وتقدم الجنازة الرئيس مبارك، وكنت أقف بجواره مع يوسف محمد نجيب، بالإضافة لأعضاء مجلس قيادة الثورة الباقين على قيد الحياة، وكان موجوداً رئيس مجلس الشعب السوداني ورؤساء أحزاب المعارضة والباقي حرسه، وفي المساء أقامت الدولة سرادق العزاء أمام مسجد عمر مكرم، وكان أغلب الموجودين من العسكريين.

ويستكمل اللواء حسن سالم قائلاً: «الغريب أنه في ذلك اليوم العجيب والرجل لم يبرد دمه في قبره إلا وجاءني خبر طرد أحفاده من فيلا ولي العهد، التي خصصها له الرئيس مبارك بعد طرده من فيلا المرج.

وكان محمد نجيب قضى أيامه الأخيرة متنقلاً بين مستشفى المعادي العسكري أو القبة العسكري للعلاج من أمراض الشيخوخة مثل ضعف الشهية وفقدان القدرة على الإبصار وهشاشة العظام وغيرها، وبالرغم من ذلك كان يحرص على الصلاة وسماع الأخبار والأحداث العالمية من جهاز الراديو القديم في غرفته.

وتذكر حفيدته «نجيبة يوسف محمد نجيب» أن جدها كان متأثراً جدا وهو يسمع خبر اغتيال الرئيس السادات في الراديو وكاد ينهار باكياً، لأنه كان يشعر دائماً بأنه والد لكل رفاقه من أعضاء مجلس قيادة الثورة، مهما كانت قسوتهم وتعاملهم معه بعنف.

وتضيف نجيبة: «إنه كان قلقاً من بعض الأحداث العربية مثل غزو إسرائيل لبنان في عام ١٩٨٢».

لم يكن محمد نجيب يشغل في فيلا المرج التي قضى فيها سنوات منفاه الطوال سوى غرفة واحدة مهملة، بها سرير متواضع يكاد يختفي من كثرة الكتب الموضوعة

عليه وبجانبه منضدة صغيرة تتناثر عليها عشرات من علب الدواء ومجموعة كبيرة من الآيات القرآنية بالإضافة إلى صور كبيرة لمجموعة من الكلاب والقطط كتب عليها " هؤلاء هم أصدقائي في وحدتي و٣٠ عاما في المنفى!"

حينما قامت ثورة ٢٣ يوليو في مصر لم يكن يدور بخلد أحد أن أبرز قادة الثورة، إن لم يكن أبرزهم، وهو أركان حرب محمد نجيب، أن عداد السنين لن يمهله كثيرا لكي ينعم بالتحول التاريخي الذي قاده في حياة مصر والمصريين، سوى ما يقارب العامين وبعدها سيكون أبرز تكريم له هو تقديمه كطعم حي لغياهب الوحدة والنسيان والنفي في غرفة فقيرة في فيلا مهجورة بضاحية المرج بالقاهرة، إلى أن وافته المنية بعد ٣٠ عاما من الاعتقال الجبري.

وبعد مرور أكثر من خمسة وخمسين عاما على ذلك الحدث الكبير، يجيء كتاب "الأوراق السرية لمحمد نجيب أول رئيس جمهورية في مصر"، للكاتب والصحافي محمد ثروت، ليوثق كثيراً من الحقائق عبر مجموعة من الأوراق والمستندات والصور الشخصية النادرة التي تنشر لأول مرة لمحمد نجيب والذي أسماه البعض "ضحية يوليو"، كما يكشف عن الدوافع الخفية والمسكوت عنها التي كانت وراء اعتقاله ونفيه وتهميشه ومعاملته بصورة لا تليق ببشر.

ومن خلال عشرة فصول كانت بدايتها الجذور العائلية تنوعت تفاصيل الكتاب، ما بين الملامح الشخصية لمحمد نجيب ودوره كقائد للثورة، وأزمة مارس ١٩٥٤ التي أطاحت به، وعلاقته بالسودان، ثم المشهد الأخير لدراما حياته، ومحمد نجيب في الوثائق البريطانية، بالإضافة إلى ملحق كامل للوثائق والصور الشخصية.

يصحح الكتاب العديد من الحقائق التي شابها لغط كبير وكان على رأسها أن واحدا من أسباب استبعاد نجيب عن السلطة شائعة كونه سودانيا، وهو ما كان يمثل مأزقا كبيرا للسلطة في مصر، إذ كيف يكون رئيس الجمهورية ليس من أب وأم مصريين خالصين، لكن الكتاب يفند هذه المزاعم، خاصة أن محمد حسنين

هيكل أكد على هذه الشائعة أكثر من مرة في أحاديثه وكتاباته زاعما أن الإنجليز كانوا يبحثون عن رجل تجري في عروقه دماء سودانية أو تركية لكي يضعوه على رأس السلطة في مصر بدلا من الضباط الشبان أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين يعادون فكرة التحالفات مع الغرب وأن اختيارهم وقع على محمد نجيب لأنه تجري في عروقه دماء سودانية. إلا أن الكتاب ومن خلال الوثائق يؤكد على أن جذور اللواء محمد نجيب ترجع إلى قرية النحارية بمركز كفر الزيات – محافظة الغربية وهي إحدى قرى الوجه البحري بمصر، حيث ولد اليوزباشي يوسف نجيب، والد محمد نجيب والذي ينتهي لقبه بـ (قطب قشلان نسبة إلى عائلة مشهورة بالزراعة في ذلك الوقت. أما الأم فهي السيدة زهرة محمد عثمان ابنة الأميرالاي محمد عثمان وهو ضابط مصري كبير بالجيش المصري بالسودان، وكانت تعيش أسرته في أم درمان، حيث كان قائدا لحامية بواب المسلمية أحد معاقل الخرطوم الجنوبية.. وقد أنجب يوسف نجيب من زهرة التي تزوجها عام ١٩٠٠ ثلاثة أبناء هم: محمد، على، محمود، وست بنات.

وقد ارتبط محمد نجيب بالسودان ارتباطا وثيقا، حيث عاش به سنوات طفولته وصباه وبدأ حياته العملية أيضا كضابط بالجيش المصري في ١٩١٨/١١/١٩ عقب تخرجه في الكلية الحربية بالقاهرة .

ومن الأشياء المهمة التي يعرضها الكتاب تسجيل نادر لمحمد نجيب مع أبناء يوسف صديق – عضو مجلس قيادة الثورة الذي يرجع إليه الفضل في نجاحها، حيث تحرك يوسف صديق بقواته قبل الموعد المحدد" ساعة الصفر " بساعة واحدة، وهو ما كان مفاجأة للجميع، مما حماها من تعرضها للفشل. أجري هذا التسجيل في سبتمبر ١٩٨٣ قبيل وفاة محمد نجيب بفترة قليلة، ويروي نجيب خلاله ذكرياته عن يوسف صديق وثورة يوليو قائلا: " أنا الذي أمرت يوسف صديق بالتحرك قبل موعد الثورة بساعة، أنا صفر على الشمال بالنسبة ليوسف، لأنه هو اللي دخل القشلاق (المعسكر وقيادة الجيش وعمل كل اللي قلته له وعمل نفسه قائدا للدفاع عنهم وكل اللي بيجي من بره بالإمدادات يشخط فيه ويوزعه".

يكشف الكتاب عن حالة العداء الشديدة بين كل من اللواء محمد نجيب والكاتب والصحافي محمد حسنين هيكل وذلك من خلال وثيقتين: الأولى تخص احدى المقالات التي نشرها هيكل في صحيفة الأهرام عام ١٩٧٣ بعنوان "شبح من الماضي" وفيها سخر هيكل من كتاب (كلمتي للتاريخ الذي أصدره نجيب في العام نفسه. ورد نجيب على مقال هيكل، لكن الأخير قام بنشره في صفحة الوفيات؛ بعدها أرسل نجيب نفس الرد إلى أخبار اليوم ولإحسان عبد القدوس تحديدا وفيه يكشف عن العديد من الوقائع وعلى رأسها أن هيكل طلب منه مرارا إجراء مقابلة إلا أن نجيب كان يرفض ذلك .

إلا أن الحدث الأهم في هذا العداء هو الكتاب الذي أصدره هيكل عام ١٩٧٢ " عبد الناصر والعالم"، وفيه اتهم هيكل محمد نجيب بالعمالة للولايات المتحدة الأمريكية من خلال واقعة تلقيه مبلغ ٣ ملايين دولار كاعتماد أمريكي خالص لبناء برج لاسلكي للاتصالات العالمية، وذلك عن طريق المخابرات المركزية CIA وقد غضب عبد الناصر غضبا شديدا من هذا الأمر.

ويكشف الكتاب أن محمد نجيب لم يقف مكتوف الأيدي أمام اتهامات هيكل وقتها لسبب بسيط هو أنه كان معتقلا وقت وصول هذا المبلغ من المخابرات الأمريكية وقد استشهد بكتاب مايلز كوبلاند رجل المخابرات المركزية الذي كان مقربا من جمال عبد الناصر وقتها، والذي أكد في كتابه على أن المبلغ تسلمه حسن التهامي أحد المقربين من جمال عبد الناصر ومستشار الرئيس السادات فيما بعد، وهو ما حدا بنجيب وقتها إلى رفع دعوى قضائية ضد هيكل في نوفمبر من عام ١٩٧٢، أمام محكمة جنايات الجيزة، إلا أن هيكل استطاع أن يصل إلى صيغة تصالح مع محمد نجيب مقابل نشر هيكل بيان تكذيب في صحف الديلي تلجراف والأهرام والنهار اللبنانية.. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل شكك هيكل في وطنية نجيب واتهمه بالاتصال بالإنجليز عام ١٩٥٦ برغم أن نجيب كان رهين الاعتقال في فيلا المرج المهجورة وقتها.

ويورد الكتاب الوثائق البريطانية التي تكشف عن أهمية اختيار محمد نجيب على رأس حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ومدى شعبيته التي ظهرت في صفوف الجيش ولولاه ما تمكن الضباط الشبان من السيطرة على كافة الوحدات، خاصة ذوي الرتب الكبيرة. وتحمل الوثائق البريطانية الخاصة باللواء نجيب أرقام ١١٥٠ في أغسطس ١٩٥١ و٤٥٨ M في ١٩٥٢/٨/٢٨ والوثيقة FO ٠٣٧١/٩٦٨٨٠ والوثيقة رقم ٣٣١/١٠/٨ وغيرها من الوثائق الخاصة باللواء نجيب. وتذكر رسالة مطولة أرسلتها السفارة البريطانية إلى الخارجية البريطانية أنه في يوم ٢٥ يوليو ١٩٥٢ جرى أول لقاء بين محمد نجيب وأركان السفارة البريطانية. وهذه الرسالة سجلها مستر كريزول الذي يقول في مقتطفات منها: "لقد ترك اللواء محمد نجيب انطباعا جيدا في نفوسنا، فبعد لحظات تغلب على ارتباكه، وأصبح ودودا تجاهنا ولم تظهر عليه علامات الإرهاق وليس هناك أثر للعجرفة في شخصيته وهو يتمتع بروح النكتة وابتسامته الودية ولو أنني طفل صغير لتمنيت أن يكون عمي، وشخصيته لا توحي بأنه مشروع دكتاتور أو يميني أو يساري متطرف".

ويتعرض الكتاب لأزمة مارس ١٩٥٤ بعد محاولة اغتيال جمال عبد الناصر وما أعقبها، ويتحدث عن إجراءات تقليص دور نجيب وشعبيته من خلال منع نشر صوره وتصريحاته وخطبه حتى تم إقصاؤه عن السلطة تماماً، وإعفاؤه من منصب رئيس الجمهورية وتحديد إقامته خارج القاهرة وحرمانه من حقوقه السياسية لمدة عشر سنوات وظل رهن الإقامة الجبرية لمدة ١٨ عاما.

في صباح ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ توجه محمد نجيب، رئيس مصر الأسبق، إلى مكتبه بقصر عابدين ولاحظ عدم أداء ضباط البوليس الحربي التحية العسكرية، وعندما نزل من سيارته داخل القصر فوجئ بالصاغ حسين عرفة من البوليس الحربي ومعه ضابطان و١٠ جنود يحملون الرشاشات يحيطون به، فصرخ في وجه حسين عرفة طالباً منه الابتعاد حتى لا يتعرض جنوده للقتال مع جنود الحرس الجمهوري، فاستجاب له ضباط وجنود البوليس الحربي.

وعندما لاحظ نجيب وجود ضابطين من البوليس الحربي يتبعانه أثناء صعوده إلى مكتبه نهرهما فقالا له إن لديهما أوامر بالدخول من الأميرالاي حسن كمال، كبير الياوران، فاتصل هاتفياً بجمال عبدالناصر ليشرح له ما حدث، فأجابه عبدالناصر بأنه سيرسل عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ليعالج الموقف بطريقته.

وعندما وصل عبدالحكيم عامر وبصحبته قائد الأسراب طيار حسن إبراهيم وزير شؤون رئاسة الجمهورية، فقالا له في صوت خافت: «مجلس قيادة الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئاسة الجمهورية» فرد عليهما محمد نجيب في شجاعة: «أنا لا أستقيل الآن، لأنني بذلك سأصبح مسؤولاً أمام التاريخ عن انقطاع صلة السودان بمصر، أما إذا كان الأمر إقالة فمرحباً لأنكم تعفونني من مسؤولية لم يعد يحتملها ضميري».

ووعده عبدالحكيم عامر وأقسم بشرفه العسكري أنه سيقضي أياماً في استراحة زينب الوكيل بالمرج ثم يعود بعدها إلى منزله، ولكن ذلك لم يحدث، فقد ظل منفياً لمدة ٢٩ عاماً، وغادر نجيب القصر الجمهوري دون تحية عسكرية من جنوده أو إطلاق البروجي لتحيته ودون أن يودعه أحد، وهو الذي لم يحدث مع الملك المخلوع فاروق الذي أطلقت ٢١ طلقة في وداعه بقصر رأس التين قبل أن يغادر البلاد على ظهر «المحروسة» منفيا إلى إيطاليا.

وعندما وصل نجيب إلى القصر المهجور وجد البوليس الحربي قد سبقه إلى هناك، وقام بحملة سلب ونهب ورفع الأثاث ونزع الستائر وحمل السجاجيد وقطع ثمار البرتقال واليوسفي ليتحول المكان إلى «خرابة».

لاقي محمد نجيب أشد صنوف العذاب والتنكيل به في معتقل المرج، حتى تحول المكان إلى ثكنة عسكرية، فكانت طوابير الصباح تقام فوق غرفة نومه كما كانت تدريبات ضرب النار تقام بجوار النافذة الوحيدة في غرفته. وفي هذا المنفي لم

يكن يزوره أحد ولم يكن مسموحاً له بالخروج، وعندما سمحت له بالزيارة كان ضابط المخابرات يبقى في أثنائها، ولم يكن حرس نجيب يعاملونه على أنه رئيس سابق أو لواء أو بطل من أبطال حرب ١٩٤٨.

وأثناء العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ سرت شائعة بأن الإنجليز يخططون لإعادته للسلطة بعد هزيمة عبدالناصر، فصدرت أوامر بالتحفظ عليه وتم اقتياده إلى مدينة طما في سوهاج بمنزل لأحد أقارب حسين عرفة، وجرى التنكيل به حتى إن أحد الحراس ضربه على صدره، كتب الرئيس نجيب عن ذلك في مذكراته: «يومها هانت على الدنيا.. فقررت أن أضرب عن الطعام».

وخلال فترة اعتقاله تعرض لعدة مآس منها قتل ابنه «علي» الذي كان يدرس في ألمانيا، وقيل له إنه قتل على يد اليهود، لأنه قاد مظاهرة للطلاب العرب ضد اليهود بعد عام ١٩٦٧، وحزنت أمه حزناً شديداً حتى وافتها المنية سنة ١٩٧١، أما الابن الأكبر فاروق فلم يكمل تعليمه في مجال السياحة والفنادق، وفي ذات يوم استفزه أحد المخبرين الذين كانوا يسيرون خلفه بقوله: «ماذا فعل أبوك للثورة.. كان مجرد خيال مآتة»، فضربه فاروق وكانت نهايته في ليمان طرة مع المعتقلين السياسيين، فأصيب بالقلب ومات بعدها بخمسة أشهر وهو يشتري الدواء من صيدلية قريبة من المنفي.

أما الابن الأصغر يوسف فتخرج في أحد المعاهد اللاسلكية، وعمل في إحدي الشركات ولكنه تشاجر مع أحد أقارب شمس بدران فأقيل من عمله حتى عمل سائقاً في المقاولون العرب وسائق تاكسي بعد الظهر.

وفي عهد الرئيس أنور السادات تحسنت أوضاع اللواء محمد نجيب عندما تم رفع الإقامة الجبرية عنه، وأصبح يتنقل بسهولة، ولكن الأمان الذي تعود عليه محمد نجيب في قصر زينب الوكيل تبدد عندما صدر حكم محكمة جنوب القاهرة في ٢٧ يناير ١٩٨٣ بطرده وعائلته من فيلا المرج وتمكين أصحابها ورثة زينب الوكيل

زوجة مصطفي النحاس باشا منها ومن حديقتها التي تبلغ ١٢ فداناً ومفروشاتها وملحقاتها.

وأمر الرئيس مبارك بتخصيص فيلا بمنطقة حدائق القبة لينتقل إليها اللواء محمد نجيب وأسرته، وقال نجيب لبعض الصحف وقتها: «أين أذهب بعد ٣٠ سنة لم أخرج فيها إلى الحياة، ليس لي معارف أو أحد يهتم بي.. أنا أعيش هنا وحدي بعد أن مات اثنان من أولادي ولم يبق غير واحد منهم.. فأين أذهب؟».

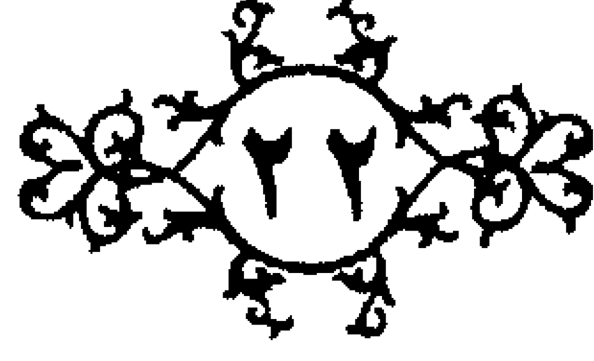
وكانت غرفته في فيلا المرج مهملة بها سرير متواضع يكاد يختفي من كثرة الكتب الموضوعة عليه، وكان يقضي معظم أوقاته في هذه الحجرة يداوم على قراءة الكتب المختلفة في شتي أنواع العلوم، خاصة الطب والفلك والتاريخ، ويقول محمد نجيب: «هذا ما تبقي لي، فخلال الثلاثين سنة الماضية لم يكن أمامي إلا أن أصلي أو أقرأ القرآن أو أتصفح الكتب المختلفة».

ويؤكد الشهود في الكتاب على أن اللواء نجيب ظل ممنوعا من الخروج في بادئ الأمر، لا يزوره احد بما في ذلك أقاربه وإخوته، وعندما سمح بالزيارة لاحقا كان في وجود ضابط مخابرات. وأثناء العدوان الثلاثي على مصر تم نقله إلى منفى آخر في سوهاج بعد أن سرت شائعة مفادها أن الإنجليز يخططون لإعادة نجيب إلى السلطة بعد هزيمة عبد الناصر. وأضرب وقتها عن الطعام احتجاجا على سوء المعاملة التي تلقاها كما ذكر في مذكراته الشخصية، ولم يتم إعادته إلى المرج إلا بعد انتهاء الحرب.

أما المشهد الأخير للواء محمد نجيب فقد شهدته أروقة مستشفى المعادي العسكري بالقاهرة، حيث لم يكن يعاني من أمراض خطيرة، لكنها كانت أمراض الشيخوخة. وعن اليوم الأخير، يقول ابن أخته اللواء حسن سالم: "كان يتحدث بشكل عادي ولكن ببطء وفجأة شعر بتعب ورفع يديه إلى السماء ثم أنزلهما ببطء ومال برأسه قليلا نحو الأرض وأسلم الروح بسلام". وعلى الرغم من رغبة

نجيب في وصيته أن يدفن في السودان- كما ذكرنا - إلا أنه دفن في مصر في جنازة عسكرية مهيبة، وحمل جثمانه على عربة مدفع، وقد تقدم الجنازة الرئيس المصري حسني مبارك شخصيا وأعضاء مجلس قيادة الثورة الباقون على قيد الحياة لتطوى صفحة رجل قاد أهم نقطة تحول في تاريخها الحديث.





عبد الناصر

OOO



قبل أن يسافر للعلاج مرة أخرى إلى "تسالطوبو" بالاتحاد السوفيتي.. بعد أن اتضحت الآلام.. طلب طبيبه الصاوي حبيب.. الذي فحصه وأجرى له رسم قلب.. وذهل الطبيب عندما شاهد رسم القلب الذي أجراه للرئيس..

ولم يصدق الدكتور الصاوي عينيه، لكن الدليل كان مرسوما أمامه.. هناك صورة جلطة وانسداد في فرع الشريان الأمامي للقلب!

وحاول الدكتور الصاوي أن يخفي الحقيقة مؤقتا.. وأن يتعلل بحاجته إلى استشارة مجموعة من الأطباء.. لأنه يجد أمامه حالة انفلونزا حادة وصامتة.. يقضي بقاء الرئيس في فراشه!

وجاء عدد من الأطباء..

الدكتور محمد صلاح الدين والدكتور منصور فايز والدكتور على المفتي.. ومعهم الدكتور الصاوي حبيب.. وأعيد رسم القلب في المساء..

الدكتور الصاوي مازال يتظاهر بأن المسألة مسألة انفلونزا وأن إعادة رسم القلب. سببها أن بطارية جهازه قد نفدت.. عندما كان يقوم بالرسم في الصباح.. فلم تكتمل الصورة!

وكان من رأي الدكتور صلاح الدين أن يعرف الرئيس الحقيقة.. لأن تعاونه الكامل وبدقة مطلوب مع جهد الأطباء. وبدأ يقول له الحقيقة تدريجيا.

ثم يطلب منه في النهاية أن يبقى في الفراش بغير حركة لمدة ثلاثة أسابيع. وبعدها يعاد بحث الأمر على ضوء التطورات الصحية!

ويقول محمد حسنين هيكل الكاتب الكبير الذي كان مقربا من الرئيس المصري عبد الناصر الذي كان موجودا في تلك اللحظة :

وذهبت ليلتها أجلس مع الأطباء في غرفة الصالون في الدور الأول في بيته أسأل بالضبط في تفاصيل الحالة.. وعرف الرئيس أنني موجود في البيت.. فدعاني إلى غرفته.

وعندما دخلت.. كان جالسا على مقعد.. على وشك أن يبدأ عشاءه.. قطعة من الخبز الجاف وكوب من اللبن الزبادي.

وسألني بسرعة لكي لايترك لي وقتا للتفكير..

كنت معهم؟

قلت: نعم

قال: هل صحيح ما يقولون.. أو هي محاولة لتخويفي.. حتى يفرضوا على الإجازة الإجبارية!..

وقلت: إن الأمر يجب أن يؤخذ جدا.

قال بهدوء: ليكن.. ولكن المهم ألا يعرف أحد.. حتى لا تفلت البلد!

كيف يمكن أن نفسر غيابي ثلاثة أسابيع!

قلت: قد نقول إنها انفلونزا.. لايهم ما نقوله.. ولكن المهم أن تستريح.

والمهم انه ليلتها.. نفس الليلة.. لم يستطع أن يستريح!.

ليلتها.. كانت هناك أزمة بين حكومة الأردن والمقاومة.. وبعث الملك حسين رئيس وزارته السيد بهجت التلهوني إلى القاهرة.. برسالة منه إلى عبدالناصر.. وجاء بهجت التلهوني يطلب مقابلة الرئيس.. وقيل له إن الرئيس تعرض لنوبة انفلونزا وهو يرقد في فراشه.

وقال بهجت التلهوني إنه إذا جاء بغير مقابلة عبدالناصر، فسوف يقدم استقالة وزارته!

وتم التوصل إلى حل وسط اقترحه الرئيس..

وهو أن يجيء إليه التلهوني في غرفة نومه.

يراه..

ولكن لايبحث معه شيئا!

بحيث يستطيع أن يقول للملك إنه اجتمع بعبدالناصر.. لكنه بحث ما يريد مع السيد أنور السادات.

ولم يعرف أحد بما جرى في تلك الليلة..

حتي السيدة الجليلة قرينته.. أخفينا الحقيقة عنها.. وإن بدأت تساورها الشكوك بعد ما وجدت المهندسين في البيت وعمالا.. يشتغلون في تركيب مصعد!

ولاحظت نظرات الشك في عينيها..

وكنت واحدا من الذين تجنبوا نظراتها المتسائلة الجياشة بقلب ملهوف!

ويكمل هيكل:

وجلسنا بعد ذلك مجموعة من أصدقائه ومعاونيه نتحدث.

واتفق رأينا على أن نستعين بخبرة عالمية..

وكان تساؤلنا: لماذا لانجئ بأكبر أطباء القلب السوفيت؟

وطارت رسالة سرية عاجلة إلى موسكو..

وجاء الدكتور شازون وزير الصحة في الاتحاد السوفيتي.. وهو نفسه أكبر خبراء القلب. ومعه مجموعة من صفوة الأطباء. وأجري الكشف.

وكانت النيجة نفس النتيجة!

والعلاج نفس العلاج.. الذي اقترحه وطبقه الأطباء المصريون وقبل أن يعود شازوف إلى موسكو ذهب إلى زيارة عبدالناصر.

كل ما يطلبه منه هو الراحة..

وقال الرئيس لشازوف: كان مقررا أن أجيء إلى تسخالطوبو لأستكمل العلاج لآلام التهاب الشرايين.

قال شازوف: سيدي.. لم تعد تستطيع أن تجيء إلى تسخالطوبو. لأن القلب لايتحمل العلاج بالماء الطبيعي. إنما بعد مرور خمس سنوات على الأقل!

وسكت عبدالناصر لحظة..

عرف وقتها أن عليه أن يتحمل القلب..

وأن يتحمل آلام التهاب الشرايين في نفس الوقت!

وفي تلك الأيام..

راودته مرة أخرى فكرة الاعتزال..

ليس من أجل نفسه..

ولكن من أجل البلد أيضا.. ومن أجل كل بلد عربي كان لايستطيع الوصول إلى القرار.

وسمعته أكثر من مرة يقول لي خلال تلك الفترة..

سوف يفسر ذلك. مهما يكن. بأنني يائس من نتيجة المعركة. وذلك سوف يؤثر تأثيرا كبيرا على القوات المسلحة.. وعلى جماهير الأمة العربية.

وكان حديثه عودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى..

كنا جالسين في غرفة الحكم الملاصقة لغرفة نومه..

وقلت له: ألا تستطيع بتنظيم جديد.. أن تخفف عن نفسك بعض ما تحتمل!

قال: لاتحلم.. إن الواقع لايسمح لي بذلك.. كل وفد يجيء يريد أن يتحدث معي. كل مناسبة عامة لابد أن أظهر فيها.. كل أمر متعلق بالمعركة وبالذات استراتيجية المعركة لابد أن أبت فيه بنفسي.. صميم المسألة كما يلي: طالما أنني موجود فلا بد أن أباشر وإذا توقفت عن المباشرة. فلا يمكن أن أكون موجوداً.

وبدأ التحسن يظهر في رسم القلب..

لكن الدكتور صلاح الدين كان يشعر أن التحسن لايسير بالسرعة الواجبة. ولم يكن معتدلا أن يتحسن شيء بالسرعة الواجبة.. كان هناك عمل كثير لتدعيم خط المواجهة.. وكان هناك عمل كثير لتعزيز موقف الثورة الجديدة في ليبيا.

كانت هناك دورة مجلس الأمة يتعين افتتاحها.. ولايمكن تأجيلها بعد الموعد الدستوري المقرر لها.

ثم تلاحقت الحوادث..

وهو وحده.. يقودها وتقوده!

مؤتمر القمة في الرباط.. وكل ما جرى فيه !!

وزيارته الأولى إلى ليبيا.. ثم زيارته إلى السودان.

وكان أطباؤه جميعا في حالة يرثى لها!

وخصوصا في بني غازي.. يوم وقف أربع ساعات كاملة على سيارة جيب.. يخوض بحرا من البشر يتلاطمون من حوله كالموج الهائج.

والغريب أن عبدالناصر نفسه كان ضمن المحافظين لحالة اطبائه!

وقال لي الدكتور منصور فايز ونحن يومها في بني غازي: إنه يسأل عنا.. كأنما هو الطبيب.. ونحن الذين نتألم!

وعاد إلى مصر بأنفلونزا حادة..

وكان قد اقتنع بضرورة أن يستريح بعض الوقت!

ويكمل هيكل بداية الأيام الأخيرة في حياة عبدالناصر قائلا:

التطورات لم تتركه يستريح!

فقد بدأت غارات العمق ولا يمكن لأحد أن يصف شعوره عندما كانت تصله الخسائر بين المدنيين خصوصا بين الأطفال.. الذين كانوا أحب شيء في الوجود إلى قلبه.

وقرر أن يسافر إلى موسكو..

وحينما عرف الدكتور الصاوي بقرار السفر.. دخل عليه والجد كله على وجهه.

وقال له: سيادة الرئيس.. هل صحيح خبر السفر إلى موسكو!

قال الرئيس عبدالناصر: نعم.

قال الدكتور الصاوي: إن هذا مستحيل.. لأن الأنفلونزا لم تتحسن.. ودرجة الحرارة في موسكو كما عرفت ست وثلاثون تحت الصفر!

قال الرئيس وهو يضحك: إننا لسنا ذاهبين للتزحلق على الثلج.. ولكن لعمل.. قاعات الاجتماعات مدفأة.

وقال الدكتور الصاوي: إنني أرى أن الإجازة الآن ضرورية قبل أي شيء آخر.

وسكت عبدالناصر فترة..

والدكتور الصاوي واقف أمامه صامتا ينتظر الرد..

وجاء الرد من عبدالناصر بقرار مفاجئ.

يا دكتور.. من الذي يعطيني هذه الإجازة؟

واحتار الدكتور الصاوي:

ووجد نفسه ينطلق قائلا: الطب يا سيادة الرئيس!

هز الرئيس رأسه..

وقال: الطب لا يستطيع الوقوف أمام الموت.. هناك ناس يموتون كل يوم وبينهم أطفال.. ليس هناك طب يستطيع أن يعطيني إجازة في مثل هذه الظروف!

واستعان الدكتور الصاوي في اليوم التالي بالدكتور منصور فايز يحاول إقناع الرئيس.. وقام الدكتور فايز بشرح كامل للموقف.. واستمع إليه الرئيس في إفادة..

ثم قال في النهاية: إن معني ما تقوله لي الآن هو أنه يجب أن أترك هذه المسئولية وأمشي.. وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن!

وحزم الدكتور منصور فايز حقائبه..

ووضع نفسه على طائرة الرئيس إلى موسكو.. ومن الغريب أنه أحس بتعب هناك وسمع عبدالناصر فذهب إليه في غرفته بالدور الثاني في قصر الضيافة.. صاعدا على السلم.. وكان صعود السلم من الممنوعات القطعية بالنسبة له!

وعاد عبدالناصر من موسكو إلى القاهرة..

ثم إلى أسوان لموعد مع الرئيس تيتو..

وحاول أن يقنع كل المحيطين به فإنني بعد أن يسافر تيتو.. سأبقي بضعة أيام في أسوان.

وسافر تيتو..

وبدأ الرئيس يستعد لأسبوع إجازة..

ولكن عم عبدالناصر توفي في اليوم الثاني في الإجازة المرتقبة!

وركب عبدالناصر قطارا من أسوان إلى الإسكندرية لتشييع الجنازة وعاد بعد ذلك إلى القاهرة.

وكان تركيز إسرائيل قد بدأ على الجبهة المصرية بعنف حقود.

ولم يكن في استطاعة أحد أكثر من الكاتب الصحفي حسنين هيكل أن يروي القصة الحقيقية لصراع جمال عبد الناصر مع المرض والآلام .. ورغم ذلك فقد احتاج هيكل إلى أربعة أسابيع بعد رحيل عبد الناصر ليروي في (بصراحة) هذه القصة التي عكست وجها نادرا من وجوه قوة وعناء جمال عبدالناصر وعمق إيمانه بمسئوليته الكبيرة .

وفي تلك الفترة كان الأطباء قد تأكدوا من خطورة الحالة الصحية للرئيس جمال عبد الناصر.. واكتشفوا متاعب قلبه .. وانسداد شرايين ساقه وأخيرا وافق تحت إلحاح أن يحصل على الإجازة لم تستمر سوى يوم واحد فقد مات عم عبد الناصر.

وكلنا اعترض على الطريقة التي يعمل بها.. مابين خمس عشرة ساعة وثماني عشرة ساعة في اليوم وكان بعض الأطباء معنا..

وقال أحدهم إنه علم من السيد سامي شرف أن الرئيس يسأل عن قائمة الخسائر في الجبهه كل ليلة .. وأن هذا السؤال يكون الأخير في عمل النهار والليل.. قبل أن ينطفي النور في غرفة نومه!

وقال عبد الناصر في بساطة ولماذا لا أسأل عن ذلك أليس طبيعيا أن أعرف؟

وقال الطبيب ولعله الدكتور فايز منصور: ألا يمكن تأجيل هذا السؤال إلى الصباح؟

قال عبد الناصر : لو أجلته إلى الصباح لما استطعت أن أنام .. وسوف أظل أحسب وأخمن طول الليل .. لاأستطيع أن أنام إلا بعد أن أعرف وأطمئن أن المدافع والدبابات لاتهمني ولكن تهمني الخسائر في الناس .. إن الناس شيء كبير وعزيز كل جندي وكل ضابط هناك له أسرة.. له زوجة وأولاد وربما أم واب مازالا على قيد

الحياة .. وبالتأكيد له أقارب وأصدقاء.. لا يمكن أن نفكر في الناس بطريقة مجردة الناس هم أغلى شيء!

ثم سافر جمال عبد الناصر إلى موسكو المغطاة بالثلوج ..

وكان عمله فيها من أعظم الضربات الاستراتيجية.

وتوقفت غارات العمق لكن التفتت في الجبهة الشرقية بدأ تعليقه.

يقول هيكل :

وتحمس الرئيس عبد الناصر لفكرة عقد اجتماع في ليبيا على أساس الطرح القومي للمعركة استجابة لنداء معمر القذافي وكانت محبته له غلابة وكان يرقب حركته السرية واندافعه القوي ويسمعه أحيانا وهو يخطب

ويقول له في محبة : معمر.. أنت تذكرني بشبابي!.

وتلقي مشروع روجرز وهو في ليبيا وفكر فيه طويلا وكان اتجاهه إلى قبول التحدي وانتظار نتيجته وسافر إلى موسكو بعد ذلك في زيارة رسمية.

وجاء الدكتور شازوف يرجوه فور الانتهاء من محادثاته أن يذهب إلى مصحة بربيني لإجراء كشف جديد عليه.

وقال له شاروف : إنني أفزع حين أتابع برنامج عملك وزيارتك!

وتم الكشف الشامل عليه في بربنيي

وجاء شازوف .. ومعه الدكتور فلادمير

يقولان له: من الضروري أن يبقي الرئيس هنا شهرا!

ثم ذهب شازوف إلى الرئيس بريجينيف يرجوه الإلحاح على الرئيس بالبقاء.

واقتنع عبد الناصر ..

وذلك بعد أن رأى تقارير الفحص . وعده بأسبوعين فقط..

وقال لشازوف : إنني مضطر للعودة من أجل المؤتمر القومي لابد أن أكون في مصر قبل ٢٠ يوليو. وعاد إلى مصر..

وعاد إلى معركة من أعنف المعارك .

وقف أمام المؤتمر القومي يتكلم ويقبل مشروع روجرفز لأسباب قدرها وحسب حساباتها.

وأحس أن هناك تساؤلات مطروحة في العالم العربي.. وقرر أن يجلس في اليوم التالي أمام المؤتمر لمناقشة مفتوحة تذاع على الراديو والتليفزيون!

ثم جلس إلى المؤتمر في اجتماع سري..

أوضح فيه كل الخطط والحقائق بصراحة كاملة.

ومضت الحوادث وهو لايتوقف..

وانفعالاته تلاحق جهده.. فقد كان يعمل بكل مشاعره..

وبدأ يحس بالإرهاق يضغط عليه..

وبالآلام تشتد..

وقرر أن يذهب إلى مرسى مطروح.. في إجازة لأسبوع كامل.. واتفقنا أن لايتصل به أحد.. مهما كانت الظروف!

ويقول هيكل في نهاية الحكاية الحزينة:

لكن الأزمة في الأردن انفجرت.. وبقي الكل مترددا في الاتصال به هناك. أول أيام الأزمة.

لكنه عند المساء كان قد سمع من الإذاعات بما يجري.

واتصل هو! وطلب موافاته أولا بأول بالتفاصيل..

وجاءه معمر القذافي في اليوم التالي إلى مرسى مطروح.

ونقلت إليه بالتليفون عدة رسائل جاءته من ياسر عرفات.

وقرر أن يبعث الفريق صادق إلى عمان. برسالة منه إلى الملك. ثم انضم إليه في الرسالة الثانية إلى الملك. معمر القذافي وجعفر النميري.

وعاد إلى القاهرة من مرسى مطروح.

وكان المؤتمر الكبير الذي التقي فيه ملوك ورؤساء الدول العربية لبحث أزمة الأردن على وشك أن ينعقد.

ومن سيارته على الطريق الزراعي بين الاسكندرية والقاهرة. كان التليفون في يده. وكان يرتب للاجتماع.

وكان أطباؤه جميعا في حالة ثورة كاملة!

وكانت كلمتهم له بالإجماع تقريبا: إن الأمور لايمكن أن تستمر على هذا النحو.

وحين نقل إليه الدكتور الصاوي رأيهم. وأنه يوافقهم في غرفته بفندق الهيلتون. الذي كان مقرا للاجتماع الكبير.

وكان رده بغضب: ماذا تقولون؟ في كل دقيقة يمكن أن يقتل عشرات من الرجال والنساء والأطفال في عمان. ألا ترون أننا في سباق مع الزمن؟!

ولايملك هيكل وهو الكاتب الذي تعود على أن تكون كلماته موضوعية تخاطب العقل قبل المشاعر إلا أن يخضع لتأثير مشاعره الغارقة في الحزن لرحيل جمال عبدالناصر.

في النهاية..

وبكلمات أقرب إلى الدموع يختم هيكل حكاية رحيل عبدالناصر باكيا أو قائلا:

"رباه" كأنه كان يعرف!

كنا بالفعل في سباق مع الموت!

بعد أن ألقى أنور السادات بيان رحيل جمال عبدالناصر في الإذاعة..كان أبوعودة وزير الإعلام والثقافة الأردني في مكتبه في عمان.

وسمع الخبر بنفسه..فأسرع يرفع سماعة التليفون ويطلب الملك حُسَيّنًا..

قال له: جلالة الملك .. البقاء لله الرئيس جمال عبدالناصر توفي.. وأذاعت القاهرة النبأ..

مرت لحظة صمت..

ولايعرف أية تعبيرات ارتسمت على وجه الملك حسين في تلك اللحظة .. كان قد عاد إلى عمان قبل ساعات قليلة.. في مؤتمر الملوك والرؤساء العرب.. وكان جمال عبدالناصر على حد قول الأردنيين أنفسهم 'أنقذ جلالة الملك في المؤتمر الكبير'.

وظل وزير الإعلام الأردني صامتا على الناحية الأخري.. وأخيرا رد الملك حسين بصوت متهدج يغلبه الانفعال: يا الله.. مات الرجل.. عندما بدأت الأمة العربية تستفيد منه.. في رحمة الله ياجمال!

وكان قد تم نقل جثمان الرئيس جمال عبدالناصر من بيته إلى قصر القبة.

وطوال الليل ظلت جماهير المصريين المذهولة المصدومة تندفع في شوارع القاهرة.. لتملأ الشوارع المحيطة بالقصر.. وكأنه سرادق عزاء بدأ قبل أن يطلع صباح يوم الوداع.

دموع.. وصراخ وأنات محتجزة بفعل الصدمة في الحناجر.

ونساء في ملابس الحداد.. رجال وشباب تملأ الدموع عيونهم.. صغار يبكون وهم يشعرون بالحزن الكبير.. حزن مصر.. على ابن مصر.

دخل إلى القصر أربعة رجال هم الدكتور صلاح جبر طبيب الرئيس واللواء الليثي قائد الحرس الجمهوري والدكتور عبده سلام وزير الصحة والدكتور كمال السيد مصطفي كبير الأطباء الشرعيين.وبعد نصف ساعة بدأت الاستعدادات لغسل الجثمان..

وكان أنور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري قد أمضوا الليل في القصر بجوار الجثمان وهم متوجهون إلى عيادة القصر حيث سيتم غسل الجثمان.

بعد دقائق بدأت عملية الغسل.. وأشرف كبير الأطباء الشرعيين على لف الجثمان بالأكفان ووضعه في الصندرة.

وفي تلك اللحظة..كانت حديقة قصر القبة الواسعة تبدو خالية إلا من ثلاث سيارات جندية. تابعة للحرس الجمهوري وسيارة إسعاف.. وشق اللواء سعد الدين الشريف ياور رئيس الجمهورية ونور فرغلي على ياور الرئيس طريقهما وسط أمواج البشر التي تحيط بالقصر إلى الداخل.

كان المشهد مهيبا يصعب وصفه.. في هيبة ورهبة دخل حسين الشافعي وأنور السادات عيادة القصر ليلقيا نظرة الوداع الأخيرة على جثمان الزعيم ورفيق السلاح والنجاح.

وعلى باب العيادة وقف أربعة ضباط من الحرس الجمهوري والدموع في عيونهم! وكانت بداية رحلة الوداع الأخيرة في الساعة السابعة والنصف.

وتقدم ثمانية من ضباط الحرس الجمهوري.. الذين رافقوا الرئيس جمال عبد الناصر طوال حياته.. ليحملوا نعش الرئيس الذي كان ملفوفا في علم الجمهورية العربية...

وكان أطباء رئاسة الجمهورية قد رأوا أن يوضع جثمان عبدالناصر بعد وفاته في عيادة قصر القبة لأنها مكيفة بالهواء البارد انتظارا ليوم تشييع الجنازة بعد ثلاثة أيام من الوفاة.

وكانت الأوامر بمنع دخول العيادة بعد ذلك نهائيا أو فتح أبوابها.. حتى تظل درجة الحرارة ثابتة طوال الأيام الثلاثة.

ومضي ضباط الحرس الجمهوري الثمانية يحملون نعش الرئيس عبدالناصر.. وصعدوا سلالم القصر.. حتى وصلوا إلى القاعة الكبيرة المواجهة لمكتب الرئيس.

ووضع النعش الملفوف بالعلم فوق مائدة خضراء. ووقف حوله أربعة من ضباط الحرس الجمهوري.

وعن قرب وقف أنور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري وحسن التهامي ومحمود الجيار مدير مكتب الرئيس للشؤون الداخلية.. واللواء سعد الدين شريف ياور طيار الرئيس والمقدم إبراهيم توفيق. وكان الجميع لايستطيعون السيطرة على دموعهم.. والتفت أنور السادات إلى بعض رجال الصحافة.. وكان يبكي بحرارة.

وقال لهم: أرجو أن تسجلوا هذه اللحظات الرهيبة!

روت الصحف المصرية كلها تفاصيل ماحدث في صباح اليوم التالي وقالت:

وتوجه أنور السادات ومرافقوه إلى الصالون الملحق بمكتب الرئيس وهناك تلقي مكالمة من مجلس قيادة الثورة، أخطروه فيها أن الطريق مغلق تماما وأن سير الجنازة متعذر.

ورد السادات في تأثر: الناس معذورون!

وبعد دقيقتين تلقي الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري مكالمة تليفونية أخري تفيد أن الجماهير حاولت تحطيم سيارة المدفع الذي سيحمل جثمان الرئيس عبدالناصر. وكانوا يصرخون بأنهم سيحملونه فوق أكتافهم!

لكن رجال الحرس نجحوا بصعوبة في إبعاد الجماهير عن عربة المدفع.

وأسرع حسن التهامي يتصل بمنزل الرئيس وطلب إبلاغ أفراد أسرة الرئيس ألا يغادروا المنزل. لأن الطريق مسدود وأن ينتظروا حتى يتصل بهم مرة أخري.

وقبل السابعة بخمس دقائق دق جرس التليفون وكان المتحدث شعراوي جمعة، الذي أ بلغ رئيس الحرس الجمهوري بعدم تحرك أحد من قصر القبة.. لأن أكثر من ٤٠ ألفا من الجماهير اقتحموا الموقع وتجمعوا في منطقة فندق هيلتون.

وبعد دقيقة.. دق جرس تليفون قائد الحرس الجمهوري مرة أخري.. وكان المتحدث من أسرة محمد أحمد سكرتير عبدالناصر الذي تحمل معه أكثر من ٢٠ سنة وقال إن محمد أحمد في حالة خطرة نتيجة الإعياء وأن الأطباء أمام إصراره على الخروج لتشييع الجنازة أعطوه حقنة مسكنة تمكنه من الوصول إلى قصر القبة.

وفعلا وصل محمد أحمد إلى القصر بعد دقائق. وكان يبدو كالشبح باهت اللون.. يسير بصعوبة متحاملا حزينا الهالات السوداء تحيط بعينيه .. اتصل أنور السادات بشعراوي جمعة وسأله عن الموقف.

في نفس الوقت اتصل قائد الدبابات التي كانت تقف في ميدان رمسيس بنور فرغلي وقال له: لايوجد مكان حتى لنملة تسير في الميدان!

وفي أحد الأركان كان حسين الشافعي وعلي صبري ومحمد أحمد وحسن التهامي ومحمود الجيار يجلسون والدموع ماتزال في عيونهم.

في الثامنة والنصف.. اتصل الفريق اول محمد فوزي بأنور السادات وأبلغه الأن الجنازة سوف تسير في طريقها المرسوم بعد أن كان هذا متعذرا، وكان البعض قد بدأ يفكر في تغيير طريق الجنازة.. بسبب احتشاد ملايين المصريين المفجوعين في وفاة زعيمهم.

كان الموقف قد بدأ يتحسن قليلا حول مقر مجلس قيادة الثورة.. وتم إخلاء المنطقة الواقعة أمام فندق هيلتون.. وبدأ إعداد طائرة هليكوبتر ثانية لتنقل أنور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري إلى مجلس قيادة الثورة.. لتعذر وصولهم بالسيارات.

ثم طلب المقدم إبراهيم توفيق من حرس رئاسة الجمهورية.. إعداد تليفزيون في مبني الكلية الفنية العسكرية الواقع أمام مسجد عبدالناصر. حتى تتمكن السيدتان هدى ومني عبدالناصر.. من متابعة سير الجنازة.. بعد أن اختير لهما هذا المكان لقربه من المسجد.

وأقلعت في الساعة التاسعة الطائرة الهليوكوبتر التي تحمل أنور السادات وعلي صبري وحسن التهامي.. أما حسين الشافعي فقد بقي ليركب الطائرة التي ستحمل جثمان الرئيس عبدالناصر.

وحانت اللحظة التي سيغادر فيها جمال عبدالناصر قصر القبة إلى الأبد!

وقف حسين الشافعي ومحمد أحمد ومحمود الجيار خلف الجثمان.. وكان وراءهم كبار ضباط الحرس الجمهوري..وتقدم حملة النعش وحملوا جثمان الرئيس من فوق المائدة..

وتحرك الموكب الحزين خارجا من قصر القبة.. وصاح ضباط حرس الشرف بصوت مرتعش ممزوج بالدموع: انتباه!

ومضي جثمان عبدالناصر أمام حرس الشرف..وأدى الحرس التحية العسكرية.. ونكس العلم فوق سجادة خضراء.

مائة متر... قطعها الموكب الحزين في حديقة القصر..وأخيرا توقفوا أمام سيارة الإسعاف.

وفي تلك اللحظة المروعة..صاح عكاشة ساقي العهدة في قصر القبة بصوت خافت:مع السلامة ياريس!

تم وضع الجثمان برفق داخل سيارة الإسعاف..وقرأ الواقفون الفاتحة على روح الرئيس..

وببطء تحركت سيارة الإسعاف. والكل يصيح في انفعال: مع السلامة ياريس.. مع السلامة ياريس.

ومضت سيارة الإسعاف وخلفها ثلاث سيارات جيب إلى مكان الطائرة الهيلوكوبتر والتي كانت قد وصلت منذ السابعة صباحا.. وهبطت في حديقة القصر بالقرب من البوابة الرئيسية.

ولأول مرة..كان علم رئيس الجمهورية فوق الباب الرئيسي منكسا.وهو العلم الذي لايتم تنكيسه.. إلا عند وفاة رئيس الجمهورية!.

وأقلعت الطائرة الهيلوكوبتر رقم ١٠٢٩ تحمل جثمان جمال عبدالناصر في رحلته الأخيرة!

وخلفها أقلعت طائرتان أخريان..وبدأ مشهد حديقة قصر القبة كأن سرادق مأتم. فقد بدأ جنود الحرس الجمهوري يتساقطون على أرض الحديقة وعيونهم معلقة على الهيلوكوبتر التي تحمل جثمان الرئيس.. وأغمى على عدد كبير منهم.

ثم شهدت السماء مشهدا أكثر حزنا فقد حلقت الطائرة التي تحمل جثمان الرئيس في دورتين فوق منزل الرئيس وقصر القبة.

ثم أخذت طريقها نحو أرض الجزيرة.. وهناك أخذت تحلق على ارتفاع منخفض يتصاعد إليها صراخ الجماهير ونحيبها الهادر. تلوح بالمناديل البيضاء للطائرة التي تحمل جثمان حبيب الملايين. وكان هتاف الملايين: ناصر.. ناصر

وهبطت الطائرة..وكان هتاف انتظارها سيارات إسعاف وست سيارات جيب.

وحمل الجثمان إلى عربة الإسعاف الأولي.. وفي العاشرة تماما بدأ الموكب يتحرك تتقدمه الدراجات البخارية مخترقا شارع النيل وميدان سعد زغلول إلى مبني مجلس قيادة الثورة.

وفي تلك اللحظة..حلقت ثلاثة أسراب جوية في تشكيل رباعي على ارتفاع منخفض.

وكانت الجماهير لاتزال تصرخ في هدير حزين:

ناصر.. ناصر.

كانت منطقة الجزيرة منذ الصباح الباكر.. ومن مدخل كوبري قصر النيل حتى مبنى قيادة الثورة.. قد امتلأت بعشرات الالاف من المصريين والآلاف من باقات الزهور تلفها الشرائط السوداء.ومن داخل مبنى قيادة الثورة..

وعبر مكبرات الصوت ارتفعت أصوات المقرئين مصطفي إسماعيل وعبد الباسط عبدالصمد وغيرهما وهم يتلون آيات القرآن الكريم..كان المشهد شديد الرهبة والجلال.. وعلى الناحية الأخرى من ضفة النيل لم يكن في الاستطاعة رؤية شبر واحد من الأرض خاليا.. وكأن مصر كلها قد احتشدت لتوديع ابنها العظيم.

وفوجيء رجال الأمن في مجلس قيادة الثورة بحوالي مائة شاب أمام المبني.. وعندما سألوا كيف استطاعوا تخطي الحواجز والموانع.. قالوا إنهم باتوا ليلتهم فوق رؤوس أشجار حديقة الحرية.. ليكونوا في انتظار جثمان عبدالناصر.

لحظات حزن لاتوصف..في الساعة الداخلية لمجلس قيادة الثورة.. كانت الورود الحزينة في كل مكان.. يطل عليها مكتب عبدالناصر الذي قضى فيه السنوات الأولى للثورة.

وهناك..كان محمد حسين هيكل واقفا يمسح دموعه التي لاتريد التوقف.وأخيرا وصلت سيارة الإسعاف التي تحمل الجثمان..وعندما فتحت أبوابها وتقدم رجال الحرس الجمهوري لحمل النعش.امتدت نحوه مئات الأيدي...وكانت لحظة بكي فيها الجميع..ضباط الحرس.. أعضاء الوفود العربية.. مدير مكتب الرئيس حارسه الخاص.. عشرات غيرهم.

وتدافع الجميع وقد فقدوا سيطرتهم على انفسهم..ألقوا بأنفسهم على المنصة التي وضع النعش عليها... نحيب. وصراخ.. بكاء.. ولوعة. وأسى.

وفي نفس اللحظة كان أنور السادات وعلي صبري وزكريا محيي الدين يجاهدون لاختراق كتل البشر المتلاطمة التي ملأت الساحة فجأة حتى يصلوا إلى مكان النعش.. وكذلك فعل الرئيس جعفر النميري ومعمر القذافي والأسقف مكاروس وكوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي وياسر عرفات.

ثم بدأت محاولات مضنية لإفساح الطريق أمام عربة المدفع لتصل إلى مكان النعش..لكن العربة لم تستطع سوى الوصول إلى مكان يبعد ثلاثة أمتار عن مكان النعش.. واندفع ضباط الحرس الجمهوري يحملون النعش ويضعونه على عربة المدفع.. التي اصطف على جانبيها حرس شرف من أربعين ضابطا برتبة لواء.

وتم اتخاذ الإجراءات اللازمة لتثبيت النعش فوق العربة احتياطا.. وسط محاولات الملايين حمل النعش فوق أكتافهم .

وفي خارج مبنى مجلس قيادة الثورة..اصطف الملوك والرؤساء الذين حضروا للمشاركة في وداع عبدالناصر الوداع الأخير.وأعطى الفريق سعد الدين متولي كبير الياوران إشارة بدء تحرك الجنازة.

وكانت قد أعطيت أوامر لجميع مواقع السلاح في أنحاء مصر.. بأن تطلق في نفس هذه اللحظة ٢١ طلقة.. ما عدا مدفعية السلام في القلعة التي أطلقت ١٠١ طلقة ومثلها مدفعية السلاح الخاص بالأسطول البحري في الاسكندرية.وتحركت عربة المدفع التي تحمل نعش الرئيس جمال عبدالناصر..وخرجت من بوابة مبنى

مجلس قيادة الثورة.. وتوقفت أمام الرؤساء والملوك الذين كانوا في انتظارها. وأمامهم كان يقف أبناء الرئيس وإخوته خلف عربة المدفع.

وبدأ الموكب المهيب..وتحركت العربة لتخوض في بحر متلاطم من عشرات الآلاف من المصريين.وعلت الأصوات الحزينة الباكية: الله أكبر.. الله أكبر.. وتزايد تدافع الآلاف في الطريق الضيق.. وكان واضحا استحالة أية إمكانية لتحرك الجنازة الرسمية. رغم كل الترتيبات.

وكان لابد من صدور قرار بأن تتوقف الجنازة عند ميدان سعد زغلول. وأن يكون العزاء عند نهاية سور مبني مجلس قيادة الثورة.

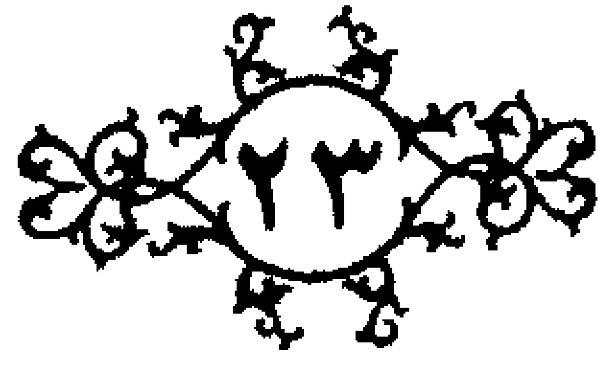
ولم تقطع الجنازة سوى عشرة امتار فقط!. وكان الإرهاق قد تغلب على أنور السادات.. وبدأ العرق يتصبب بغزارة على وجهه.. فطلب من مرافقيه العودة إلى مبني مجلس الثورة.. وسار بضع خطوات.. ثم شعر بهبوط فحمله أحد المرافقين قبل أن يحضر أحدهم مقعدا ليجلس عليه.

وأعطي السادات قرص منشط للقلب والشرايين، ثم نقل بمقعده إلى مكتب أركان حرب مبنى مجلس قيادة الثورة.. ورافقه جعفر النميري وطبيبه الخاص الذي فحصه وتبين أنه يعاني من هبوط.

وتقدم جعفر النميري ليقدم كوب ماء لأنور السادات.وأسرع إلى المكان محمد حسنين هيكل وعلي صبري للاطمئنان على أنور السادات.. وصل فريق من الأطباء لاسعافه وإسعاف على صبري أيضا بعد أن أجري رسم قلب لكل منهما.. وقرر الأطباء نقلهما إلى قصر القبة للاستراحة.. لكن تم نقلهما إلى منزليهما.

وفي الجنازة..كان حسين الشافعي الذي سار خلف النعش يردد عبارة الله أكبر قد رفض اقتراحا بأن يركب سيارة مصفحة.. وسقط الدكتور عزيز صدقي وزير الصناعة مغشيا عليه.





أنور السادات ..

OOO



صباح الثلاثاء السادس من أكتوبر تشرين الأول عام ١٩٨١ استيقظ السادات من نومه في الثامنة والنصف، وضع يده على جرس قريب من فراشه وضغط عليه لتبدأ طقوس الصباح، نظرة سريعة على صحف الصباح مع كوب من الشاي التمرينات الرياضية التي تعقبها جلسة تدليك وحمام دافئ، استقبل بعض الاتصالات التلفونية التي لم تخرج عن التهنئة بذكرى يوم العبور ثم تناول إفطاره الأخير، في ذلك

الصباح كان السادات رائق المزاج وكانت حالته الصحية جيدة للغاية هذا ما قاله طبيبه الخاص بعد أن أجرى الكشف اليومي عليه، بعد ذلك بدأ في ارتداء ملابس القائد الأعلى للقوات المسلحة.

وفي تمام العاشرة كان الموكب أمام بيت الرئيس مستعدا للتحرك إلى ساحة العرض، في الحادية عشرة ظهرا بدأ العرض العسكري وبدأ معه العد التنازلي لموت الرئيس السادات .

ولد محمد أنور السادات في ٢٥ ديسمبر ١٩١٨ بقرية ميت أبو الكوم بالمنوفية وبدأت دراسته بكتاب القرية وحفظ القرآن الكريم كله وهو مازال صبيا .

التحق بالمدرسة الحربية بواسطة من إبراهيم باشا والذي كان والده يعرف صول من الذين يعملون في خدمته فرتب هذا الصول لقاء بين الوالد والباشا ومعهم الطالب محمد أنور السادات جاء الباشا بكل عنجهية وغطرسة وتحدثه مع والده بكل كبرياء وهو يسير نحو الباب والأب يسير وراءه مثل الخدم ولهذا كان هذا الموقف على وجه التحديد من المواقف التي لم تبرح وجدانة أبدا وقال في كتابة البحث عن الذات فيما بعد إن هذا الموقف لن ينساه أبدا وقبل السادات فى المدرسة الحربية.

تخرج في فبراير ١٩٣٨ ويعين في منطقة المكس ثم ينتقل إلى منقباد وهناك يكون لقاء القمة لأول مرة بين كل من جمال عبد الناصر وأنور لسادات .

يتكون في الجيش بعد ذلك تنظيم أطلق علية تنظيم الضباط الأحرار يهدفون إلى التفكير والعمل على إصلاح الفساد المتنامي في الجيش والحكومة والقصر الملكي والأحزاب السياسية .

كان السادات من البارزين في هذا التنظيم ولهذا عرف الإنجليز كرهه الشديد لهم وعلموا بنشاطه المستمر ضدهم فأوعزوا إلى قيادة الجيش محاكمته عسكريا

وفصله من الجيش واعتقاله في المنيا، وعندما أقيلت وزارة النحاس باشا لم يستطع احمد ماهر باشا الإفراج عن السادات مثلما تم الإفراج عن باقي المعتقلين هذا يرجع إلى أنه كان معتقلا بأمر من الإنجليز لكنة بذكائه الخارق الذي يشهد بة الجميع وضع خطة للهروب ونفذ هذه الخطة بنجاح في نوفمبر ١٩٤٤، وبعد ذلك عندما رفعت الأحكام العرفية عن مصر أصبح من حقه الظهور علانية . ثم بعد ذلك جاء اسم السادات مرة أخرى عام ١٩٤٦ بين أسماء المتهمين بقتل أمين عثمان الذي كان من مؤيدي الاحتلال البريطاني فوجة الاتهام إلى السادات والذي كان ترتيبة السابع في القائمة الخاصة بالمتهمين في قضية الاغتيال، ولكن كان الله معه فحكم عليه بالبراءة في ٢٤ يوليو ١٩٤٨وبعد الإفراج عنه بدأ في كتابة مذكراته.

وعندما جاءت ثورة يوليو كان السادات من أول الصفوف وكان أول خطاب يصدر عن هذا التنظيم كان بصوته . وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان البكباشي محمد أنور السادات قد احتل دار الإذاعة المصرية بالقاهرة وتحدث منها للعالم كله .

تولي السادات منذ بداية الثورة عدة مهام منها عضوية محكمة الثورة، رئاسة البرلمان، ثم عين بعد ذلك نائبا لرئيس الجمهورية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وبعد وفاة عبد الناصر عين السادات رئيسا للجمهورية وبدأ العمل الفعلي في ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ . وبدأ السادات على الفور في مواجهة مراكز القوى التي كانت سببا في تدهور الأوضاع في مصر .

وفي عهده أصبح كل المواطنين آمنين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم بل وأيضا شجع على الاستثمار والحرية الشخصية وحرية الصحافة والديمقراطية. في ٢١ اكتوبر ١٩٧٢ عقد الرئيس السادات اجتماعا مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لمدة أربع ساعات متواصلة لكي يفسر لهم قرار الحرب الذي اتخذة بلا رجعة

وبالإمكانيات المتاحة للبلاد والظروف الدولية السائدة وقتها بعد انتهاء الحرب الباردة .

جرت ترتيبات بين كل من الرئيس السادات والرئيس الأسد للتنسيق بين الجبهتين المصرية والسورية . وكان انتصار أكتوبر الذي لم يصدقة العالم كله والذي جاء بذكاء ومكر السادات .

وفي غمرة الفرحة بالنصر العظيم، نادى أنور السادات بالسلام ودعا العالم كله إلى انتشار السلام في العالم كله والشرق الأوسط بالتحديد، وقام السادات بخطوة اذهلت العالم كله حين ذهب بنفسه إلى إسرائيل في زيارة من أجل السلام، وفي عام ١٩٧٨ تم توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل بالولايات المتحدة، حصل السادات على جائزة نوبيل للسلام فتبرع بقيمة الجائزة لإعمار مسقط رأسه بقرية ميت أبو الكوم كما أنه تبرع بقيمة ما حصل علية من كتاب البحث عن الذات لبناء مساكن جديدة .

لكن رجل السلام لم يسلم من العدوان عليه فكان اغتياله يوم الاحتفال بنصر أكتوبر أثناء العرض العسكري، فكانت رصاصة في الصدر وأخرى في القدم فى يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ .

في المنصة الرئيسية لساحة العرض العسكري الكبير للقوات المسلحة المصرية وفي الساعة الواحدة إلا دقيقة ظهر الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ وقعت حادثة اغتيال السادات لحظة مرور الطائرات الميراج والعيون كلها متجهة إلى السماء.

وقد بدأ سيناريو الحادث مساء يوم ٥ أكتوبر حينما اتصل الملازم أول خالد الاسلامبولي بقائد مجموعة طابور عرض المدفعية وأبلغه أن ثلاثة من طاقم مدفعه قد أصيبوا بإسهال مفاجئ وارتفاع في درجة الحرارة وقد سمح لهم بالخروج للعلاج، وأنه قد أعد ترتيباته للاستعانة بثلاثة آخرين من قوات احتياطي المنطقة المركزية كما ذكرت مجلة آخر ساعة في عددها التذكاري الصادر يوم ١٤ أكتوبر ١٩٨١.

وفي الرابعة والنصف فجر يوم ٦ أكتوبر كان قد بدأ الإعداد لطابور العرض، حيث وصل الثلاثة إلى مكان عرض المدفعية، وكانوا يحملون تصاريح مزورة من خالد الاسلامبولي، وقدمهم إلى قائده على أنهم من احتياطي المنطقة المركزية وقد حضروا للمشاركة رمزيا في طابور العرض، وفي السادسة صباحا بدأ ركوب العربات والاستعداد للوقوف في طابور العرض، وفي السادسة والنصف قام خالد الاسلامبولي بتوزيع الذخيرة سرا على زملائه بعد أن أخرجها من مكان كان يخفيها به في العربة وأعطاهم القنابل اليدوية واحتفظ لنفسه بقنبلتين.

وفي الحادية عشرة وصل ركب الرئيس إلى مكان الاحتفال وانطلقت المدفعية تحية من القوات المسلحة لقائدها الأعلى، ثم اتجه إلى المنصة وصافح كبار القادة ثم أخذ مكانه متصدرا المنصة الرئيسية وقرأ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد آيات من القرآن الكريم، وألقى وزير الدفاع كلمته، ثم اتجه السادات ونائبه حسني مبارك وكبار القادة إلى ساحة النصب التذكاري للشهداء ووضع إكليلا من الزهور عليه وقرأ الجميع الفاتحة على أرواحهم الطاهرة، وعزفت الموسيقى سلام الشهيد، ثم عاد إلى موقعه في صدر المنصة.

وفي الحادية عشرة و٢٤ دقيقة بدأ طابور العرض المدرع أو الوحدات الراكبة وظهرت في سماء العرض أيضا طائرة هليكوبتر تحمل فريق مصر للقفز الحر بالبراشوتات وتوالى هبوط هؤلاء الأبطال وتقدموا إلى المنصة لتحية القادة.

وفي الثانية عشرة وخمسين دقيقة بدأ عرض المدفعية حيث تقدمت الصواريخ ميلان وسونج والقاذفات الصاروخية التي صنعت في مصر وبعدها بخمس دقائق بدأ عرض المدفعية المجرورة طراز هاونز عيار ١٣٠ ملليمترا وبدأ المذيع الداخلي يشرح مزاياها، وظهرت في سماء العرض طائرات ل ٢٩ والميراج وهي تتنافس في تقديم عرض للأكروبات الجوية في حركات ودقة بالغة.

وفي الثانية عشرة و٥٩ دقيقة توقفت عربة من بين مجموعة من أربع عربات تجر المدفع الهاونز، وكان السائق مترددا في إيقافها أمام المنصة ولكن خالد

الاسلامبولي جذب الفرامل بعد أن هدد بتفجير العربة، ثم فتح الباب وقفز منه ثم نزل زملاؤه الآخرون، وبعد عدة ثوان تقدم خالد حاملا مدفعه الرشاش، وكان يسبقه زميله الثاني وهو يحمل بندقيته الآلية، وعلي اليمين واليسار اندفع بعدهما الآخران وألقى خالد بقنبلة يدوية دفاعية تصل قوتها التدميرية إلى دائرة قطرها خمسة أمتار وقوتها التأثيرية إلى ٣٠ مترا، ولكنها لم تنفجر، فألقى زميله بقنبلة أخرى وأعصابه متوترة لتصل إلى وجه الفريق عبدرب النبي حافظ رئيس الأركان وتسقط أمامه على الأرض ولا تنفجر أيضا، ثم يعاود خالد إلقاء قنبلة دخان فتنفجر وسط المنصة وتنشر حالة من الذعر ليسود الهرج والمرج ليستغل القتلة هذه اللحظات ويتقدموا نحو المنصة ليطلقوا الرصاص من مدفع رشاش قصير يحمله خالد وثلاث بنادق آلية يحملها الآخرون، وكان الرئيس الراحل أنور السادات قد قام واقفا من مكانه حينما سمع انفجار القنبلة وطلقات الرصاص الذي كان هو هدفه الأول.

في الساعة الواحدة ودقيقتين كان كل شيء قد انتهى حيث حاول القتلة الهروب واللحاق بالعربة مرة أخرى ليختفوا وسط الزحام إلا أن قوات الأمن تمكنت من القبض عليهم وبعد دقيقة وصلت طائرة هليكوبتر خلف المنصة لتحمل السادات وهو مصاب وتنقله إلى مستشفى المعادي، ثم تصدر الأوامر إلى باقي قوات العرض التي كانت قد توقفت عن السير بالاستعداد فورا لإعادة تمركزها في أماكنها ثم تخرج السيارات من ساحة طابور العرض تحمل المشاركين في العرض من الشخصيات العامة والوفود الأجنبية، ولم تمر سوى دقائق حتى سادت المنطقة حالة من الهدوء وتصدر الأوامر بعدم السماح بالاقتراب من المنصة والتحفظ فورا على السيارة التي نزل منها القتلة، والقبض على سائقها، كما تم نقل القتلة الأربعة إلى المستشفى العسكري.

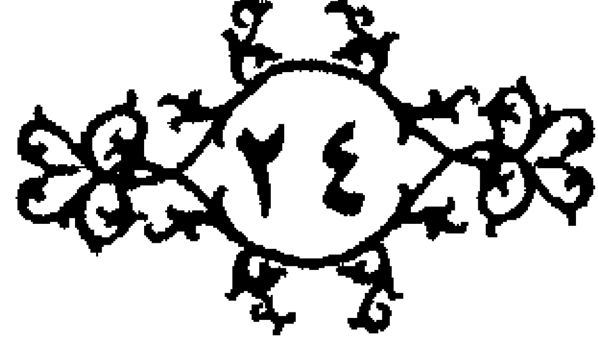
التقرير الطبي

وكان السادات قد فارق الحياة قبل وصوله المستشفي وأكد التقرير الطبي الذي اعلنه اللواء طبيب عبدالمجيد لطفي حسين نقيب أطباء القاهرة ورئيس أقسام الجراحة والجهاز الهضمي بمستشفي القوات المسلحة بالمعادي أن سبب وفاة الرئيس هو صدمة نزيفية نتيجة للنزيف الشديد الذي تعرض له وليس صدمة عصبية كما تصور البعض، وقال إنه قام على الفور بإبلاغ خبر الوفاة للسيد حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية والسيدة جيهان السادات قرينة الرئيس، والنبوي إسماعيل وزير الداخلية، والذين كانوا ينتظرون التقرير الطبي عن الحالة بعد أن دخل قسم الرعاية المركزة لجراحة القلب والصدر وكان هناك بصيص من الأمل في استمراره على قيد الحياة لأن جهاز رسم المخ الكهربائي سجل تموجات تشير إلى أن خلايا المخ مازالت حية رغم أنه عند وصوله المستشفى كانت كل المعايير الطبية تؤكد أنه فارق الحياة، فجميع الانعكاسات في الجسم مفقودة بالإضافة إلى توقف التنفس وضربات القلب واتساع حدقتي العين، وعندما تم توصيل جثمان الرئيس على أجهزة مراقبة القلب وكذلك توصيل جهاز رسم المخ الكهربائي لتسجيل نشاط المخ ودرجة حيويته ظهرت مفاجأة ضخمة ألهبت حماس الاطباء حيث سجل مؤشر جهاز رسم المخ على الورق الحساس رسومات عبارة عن تموجات وهذه التموجات تشير إلى أن خلايا مخ الرئيس مازالت حية، وهناك أمل في إنقاذه، وأسرعوا في تقديم الإسعافات العاجلة أولها تدليك خارجي للقلب بالضغط على الضلوع باليد، وفي نفس الوقت إعطاء منشطات للقلب بالحقن داخل القلب مباشرة بواسطة حقن ادرينارلين والكالسيوم، كما تم اعطاؤه كميات كبيرة من الدم كما قام فريق الأطباء بعمل تنفس صناعي عن طريق جهاز خاص أتوماتيكي وبعد أن تم توصيل الجسم بأجهزة مراقبة القلب مع تسجيل مستمر للضغط للتدليك الخارجي الذي كان يجري بالضغط على الضلوع وظل النبض غير محسوس وتم إجراء فتحة في القلب عن طريق الصدر أسفل الثدي الأيمن لعمل تدليك داخلي للقلب بواسطة اليد.

وعندما تم فتح صدر الرئيس اكتشف الأطباء أنه مملوء بالدم المتجلط داخل التجويف الصدري كما وجدوا أن القلب مترهل وجذر الرئة اليسري متهتك بما فيه الأوعية الدموية مع تهتك كامل بالرئة فالطلقات أصابت جذر الرئة اليسري مما نتج عنه تمزق بالأوردة الرئوية والشريان الرئوي الأيسر والشعبة الرئوية اليسري مما صاحبه نزيف شديد بعد الإصابة وتم عمل مجموعة من الأشعات منها أشعة على الفخذ اليسرى أظهرت وجود شظايا متعددة داخل الجهة اليسري من التجويف الصدري، وكذلك رصاصة على الترقوة اليمني وهي العظمة الموجودة أسفل الرقبة وأشعة على الجمجمة وكانت سليمة، وكذلك الساعد الأيمن .

وفي تمام الساعة الثانية وأربعين دقيقة ظهرا أعطي مؤشر جهاز رسم المخ رسومات منتظمة تشير إلى أن خلايا مخ الرئيس قد توقفت بعد وصوله إلى المستشفي بنحو ساعة وعشرين دقيقة لتعلن وفاة الرئيس .





رونالد ريجان ..

OOO



في أواخر عهده بالرئاسة دخل الرئيس الراحل رونالد ريجان غرفة الصحافة بالبيت الأبيض، وافتتح مؤتمره الصحفي بقوله: هناك ثلاثة أشياء مهمة أريد أن أقولها لكم، أولها أنني أعاني من مشاكل خاصة بذاكرتي بسبب كثرة نسياني، أما الثاني والثالث اللذان أردت أن أقولهما لكم فقد نسيتهما!

ضجت القاعة بالضحك على اعتبار أن الرئيس ريجان كان ميالا للدعابة والقفشات، وبعد انتهاء فترتي رئاسة ريجان بخمس سنوات، وبالتحديد في عام ١٩٩٤ ظهر ريجان على شاشات التليفزيون ليعلن إصابته بمرض الزهايمر الذي أصاب من قبل بعض كبار فناني هوليود من المشاهير مثل الجميلة ريتا هيوارث والممثل العظيم تشارلتون هيوستن.

واستمر التدهور في حالة الرئيس ريجان الذي كان يملك مفاتيح الحقيبة النووية التي يمكن أن تفني الكرة الأرضية خمس أو ست مرات، إلى أن أصبح التدهور العقلي متزايدا لدرجة تتعارض مع التواصل والعمل الاجتماعي أو الوظيفي، حيث تلاشت الذاكرة، وأصبح في حالة من عدم الإدراك أو الإحساس بالزمان والمكان والأشخاص المحيطين به، وعدم القدرة على التركيز أو التفكير، كما صاحب ذلك تغيرات في شخصيته، وتذبذب شديد في حالته المزاجية من وقت لآخر، وكانت زوجته نانسي هي الوحيدة التي كانت ترعاه وتحنو عليه في بيتها بلوس أنجلوس على الرغم من أنه كان لايعرفها في كثير من الأحيان،ولايعرف أبناءه أيضا، إلى أن انتهي به الأمر إلى أن أصبح عاجزا تماما، حتى توفي بعد عشر سنوات من هذه المعاناة.

وبعد عام من تركه رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، كتب ريجان في نوفمبر من عام ١٩٩٤ في خطاب مفتوح للشعب الأمريكي قائلا : "قيل لي مؤخرا أنني سأكون واحدا من ملايين الأمريكيين الذين سيعذبون بمرض الزهايمر... اليوم أبدأ رحلة ستغدو بي إلى نهاية المطاف".

ووصلت به رحلته إلى نهاية المطاف كما ظن، ولكن بعد أعوام عشرة من مقاسات أهوال هذا المرض الأليم الذى يدمر خلايا المخ ولا يكاد يبقى من الذاكرة شيئا، حتى إن صاحبه لينسى تاريخه، وأسرته، والشارع الذى يسكن به، بل إنه – كما حدث لريجان – لينسى اسمه الذى تسمى به .

لقد قالت ابنته: قبل موته إن والدها أصبح طريح الفراش، ونادرا ما يكون متيقظا ولم يعد بمقدوره المشي أو الكلام، ثم قالت: عادة ما يسألني الناس عن حالة والدي لأنهم يريدون معرفة هل لا يزال يعرفني أو يعرف أيا منا.

وقالت: "وقد جعلني فضول الناس بسؤالهم عنه أدرك أنني وأمي كنا كتومين بشأن حالة والدي الذي مر على مرضه عشر سنوات حتى الآن مما جعل الناس يتصورون أنه لايزال قادر ا على الكلام والحركة." وقالت كذلك: "إنه عندما يتيقظ وهو ما لا يحدث كثيرا فإنه يمكنه التحديق في الأشجار عبر النافذة".

توفى الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان عن عمر يناهز الثالثة والتسعين بعد صراع مع مرض الزهايمر وعقب أنباء سابقة عن تدهور في حالته الصحية.

وتوفى ريجان في منزله في لوس انجيليس بولاية كاليفورنيا بين أفراد أسرته.

لقد رحل الرجل الذى كان أبوه يعمل بائعا للأحذية، فى بلدة الينوى المتواضعة المستوى، وكان قد عرف عن أبيه إدمانه الشديد للخمر، مما أدى إلى إهماله أسرته وإنفاقه كل تكسبه على خمره ولذته، ذلك الرجل قد خرج ناقما على شتى أنواع العلاقات الوطيدة، ما جعله بعد توليه رئاسة أمريكا لا يأبه بنداء استغاثات الأطفال فى ليبيا حين قصفتها طائراته فى عام ١٩٨٦، أو آهات الثكالى من أمهات شعب تيمور الشرقية عندما دعمت بلاده الحكومة الإندونيسية فى قمعها ..

ولا تعد هذه الصفة خاصة برونالد ريجان وحده، بل هى فى معظم شخصيات رؤساء أمريكا، فحين سألت إحدى الصحفيات الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن: هل تستشير والدك فى بعض الأمور؟ أجاب بلا تردد : لا .. عندى مستشارين كبار.. ثم إنى أستشير والدى الذى فى السماء (حسب عقيدته الدينية التي يؤمن بها، نقلا عن الـ "سي إن إن").

توفي رونالد ريجان الرئيس الأمريكي الأسبق رقم ٤٠ في تاريخ الولايات المتحدة عن عمر يناهز٩٣ عاما بعد صراع طويل مع مرض الزهايمر استمر عشرة أعوام.

وأعلنت نانسي ريجان زوجة الرئيس الأمريكي الأسبق أنه توفي في منزله الفخم بحي بيل إير بلوس أنجلوس وسط أولاده باتي ديفيس ورونالد الصغير إثر إصابته بالتهاب رئوي حاد نتيجة مضاعفات مرض الزهايمر، وشكرت نانسي جميع الذين دعوا له بالشفاء طيلة السنوات الماضية على وفاته .

ويعد رونالد ريجان الذي تولي الرئاسة الأمريكية في الفترة من عام١٩٨١ إلى ١٩٨٩ وهي الأعوام التي شهدت واحدة من فترات الذروة في الحرب الباردة وبداية النهاية للاتحاد السوفيتي السابق من مؤسسي الثورة الفكرية المحافظة التي أعادت تشكيل السياسة الأمريكية وأوجدت أيديولوجية المحافظين الجدد بعد ذلك.

ولد ريجان في فبراير١٩١١ بولاية ايلينوي شمال الولايات المتحدة من أب كاثوليكي أيرلندي الأصل مدمن للكحول بائع أحذية، وأم بروتستانتية متشددة دينيا.

درس الرئيس الأمريكي الأسبق الاقتصاد وعلم الاجتماع وكان محبا للسباحة وكرة القدم، وعمل مراقبا للشواطئ من عام١٩٣٢ إلى ١٩٤٧، ثم معلقا رياضيا في إحدي الإذاعات المحلية بولاية أيوا، وحصل بعد ذلك على دور سينمائي باستوديوهات وارنر في مدينة هوليوود الشهيرة ليبدأ مشواره في عالم السينما حيث شارك خلال ٢٨ عاما في تمثيل٥٣ فيلما، وأصبح عام١٩٤٧ رئيس نقابة الممثلين الأمريكيين وأعيد انتخابه ست مرات.

وبدأ ريجان حياته السياسية عام١٩٦٦ حيث انحاز إلى مبادئ الحزب الجمهوري ونشط لتطهير هوليوود من مناصري الشيوعية، ثم انتخب بعد ذلك حاكما لكاليفورنيا واحتفظ بالمنصب لمدة ثماني سنوات.

وتكللت محاولته الثالثة لخوض الانتخابات الرئاسية بالنجاح بعد فوزه في الانتخابات التمهيدية عام١٩٨٠ ليصبح المرشح الجمهوري ويهزم الرئيس

الديمقراطي جيمي كارتر، وأصبح رئيس الولايات المتحدة الأكبر سنا حيث كان عمره٦٩ عاما، ثم أعيد انتخابه بسهولة عام١٩٨٤ بفوزه على منافسه الديمقراطي والتر مونديل.

تميزت فترة رئاسته بانتعاش الاقتصاد الأمريكي وتراجع نسبة التضخم من ١٠,٨ ٪ إلى ٣,٤ ٪، والبطالة من١٠,٨ ٪ إلى ٥,٦ ٪، ووضع برنامجا اقتصاديا ينص على خفض الضرائب والنفقات الحكومية بالإضافة إلى تعزيز القدرات الدفاعية للبلاد التي كللها بمشروعه الدفاعي المضاد للصواريخ المعروف بحرب النجوم.

وعلي صعيد سياسته الخارجية تميز عهد ريجان بمحاولة تحقيق السلام من خلال تعزيز القوات الدفاعية للولايات المتحدة، وسعى خلال عهده لتحسين علاقاته بالاتحاد السوفيتي الذي كان يصفه بأنه إمبراطورية الشر، ووقع اتفاقا في عام١٩٨٧ مع موسكو لإزالة الصواريخ المتوسطة المدى من ترسانة البلدين، وشهدت سياسته الخارجية فضيحة إيران جيت المتعلقة بمبيعات سرية للأسلحة إلى إيران، ونجح ريجان في ضمان عدم تأثر إمدادات البترول من دول الخليج إلى الولايات المتحدة خلال الحرب العراقية الإيرانية.

وقد اعتبر الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش وفاة الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان يوما حزينا لأمريكا ووصفه بأنه جندي من أجل الحرية.

وريجان الرجل الذى احترف التمثيل وظهر فى خمسين فيلما سينمائيا ، لم ينس هوايته فى أثناء فترة رئاسته الطويلة، بل كان يمارسها كثيرا ولعل أشهر أدواره دوره فى فضيحة إيران جيت، حيث كان يمثل أمام العالم أجمع دور المعارض والعدو الكبير للسياسة الإيرانية، بينما كان فى حقيقة الأمر على علاقات سياسية وعسكرية وطيدة بالدولة الإيرانية وقد اضطر للاعتراف بأنه وافق على إرسال إمدادات عسكرية لإيران في تناقض صارخ مع السياسة الأمريكية المعلنة. وظهر لاحقا أن بعض أرباح مبيعات الأسلحة تلك ذهبت إلى متمردي الكونترا الذين يقاتلون حكومة ساندينيستا اليسارية في نيكاراجوا.

وقد أقيل الكولونيل أوليفر نورث واستقال الأدميرال جون بويندكستر بسبب تورطهما في الفضيحة، فيما حاول مستشار ريجان للأمن القومي، روبرت ماكفارلين، الانتحار!!، أما الرئيس ريجان - كممثل قدير - لم تبد عليه أى علامات الألم !!

ويعتبر رونالد ريجان فى الحقيقة هو أول مؤسس لفكرة العالم ذى القوة الواحدة، حيث كان أول من ابتدأ مع جورباتشوف فكرة نهاية الاتحاد السوفييتى، وبقاء القوة الأمريكية هى القوة الكبرى فى العالم، ويعتبر هو أول من وصف الاتحاد السوفييتى بقوله " محور الشر " فى خطابه الشهير قبيل بداية محادثات إنهاء الحرب البارده!!

لقد فارق رونالد ريجان الحياة، رغم أنه كان مغيبا عنها لسنين طوال، نسى خلالها أيام الألم والندم، كما نسى خلالها أيام النعيم والمتعة!!

بدأ ريجان نشاطه السياسي في بداية الخمسينيات، وكان ممثلا سينمائيا ثانويا فاشلا، شارك في الحملة المكارثية ضد الشيوعية وتحول إلى مخبر داخل مدينة السينما وتسبب باعتقال وسجن واعتزال كبار الفنانين والمخرجين والكتاب الليبراليين في هوليوود.

عندما توفي كان أكبر رئيس أمريكي يعمر حيث بلغ عمره ٩٣ سنة و١١٩ يوما بالإضافة إلى أنه كان الأكبر حين انتخابه فقد كان عمره حينها ٦٩ سنة و٣٤٩ يوما. و كان مصابا بالزهايمر عند وفاته.

وضع استراتيجية منذ اليوم الأول لتوليه السلطة عام ١٩٨٠ حين أعلن أن على أميركا أن تستعيد معظم المواقع التي خسرتها في العالم جراء سياسة جيمي كارتر إبان الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي وبالفعل برزت أنياب أميركا كلها في عهد ريغن حتى نهاية ولايته الثانية عام ١٩٨٨ فنجح باستعادة بنما وقناتها ونيكارغوا وتشيلي وفي

إفريقيا استعادت أميركا اثيوبيا من منغيستو هيلا ميريام الماركسي وانغولا من ساموراميشيل المدعوم من كاسترو والسوفيات وحاول استعادة إيران من خلال الايعاز والدعم لصدام حسين بشن الحرب الشهيرة على طهران واستمرت ثماني سنوات وحاول ريغن التخلص من القذافي فقصف بيته عام ١٩٨٦ محاولا قتله لاستعادة ليبيا ونفطها كذلك أوعز إلى إسرائيل عام ١٩٨٢ باجتياح لبنان للقضاء على القوة العسكرية الفلسطينية، وضع في سلم أولوياته وبرامجه محاربة الاتحاد السوفييتي ومعاداة الشيوعية وتفكيك حلف وارسو وذلك بالتعاون مع دول أوروبية والكنيس .فحقق ريغان معظم ما وعد به الأميركيين والحلفاء بشأن سياسته الخارجية .

خلال عهد ريغان بدأت المواجهات الدموية بين الولايات المتحدة والدول العربية، في لبنان ضد السوريين وبعدها قصف ليبيا.

تورط في قضية ايران-كونترا أو قضية إيران غيت وهي صفقة اسلحة بين إيران وإسرائيل عبر أمريكا، وتمويل قسم من أرباح الصفقة إلى (قوات الكونترا المعارضة المسلحة لنظام حكم ساندينستا في نيكاراغوا . وتم استخدام الأسلحة في الحرب العراقية الإيرانية، وقد تم تمويل الصفقة لشراء مخدرات وتسليمها لمنظمة كونترا المعارضة للحكومة النيكاراغوية ومن ارباح الصفقة تم شراء صواريخ إسرائيلية وتسليمها إلى إيران. فقد زودت إيران بالسلاح بما قيمته عدة مئات من ملايين الدولارات وشاركت في التركيب المعقد للأسلحة المستلمة من أمريكا مقابل إطلاق سراح الرهائن الأمريكان بلبنان، واستخدمت المكاسب المالية للعملية لتمويل الكونترا بنيكاراغوا. ولقد هزت هذه الفضيحة إدارة ريغان هزة عنيفة بعد أن كشفتها الصحافة اللبنانية في نهاية ١٩٨٦.

وقد بدأت علاقة ريغان بقادة الثورة الإيرانية في خريف عام ١٩٨٠ حين كان الرئيس الأمريكي كارتر يسبق ريغان في الاستطلاع الذي حدث قبل الانتخابات الأمريكية، حيث كان من الممكن أن يفوز كارتر بالرئاسة لو تم إطلاق سراح الرهائن

الأمريكان في إيران، عندها تواطأ ريغان مع الإيرانيين من خلال مفاوضاته معهم لإطلاق سراح الرهائن. وتأجيل الإطلاق إلى ما بعد الانتخابات الأمريكية.

وفي عهده قامت إسرائيل بغزو جنوب لبنان في ١٩٨٢، وحدوث مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا في جنوب لبنان، وذبح آلاف الأبرياء في تلك المجزرة.

اتخذ موقفا ضد مشروع تقدمت به فرنسا لمطالبة إسرائيل بالانسحاب الكامل من لبنان، وطالب بإزالة الوجود الفلسطيني المسلح من بيروت وغيرها، غير أن مجلس الأمن صوت بقرار رقم ٥٠٨، و٥٠٩، مطالبا إسرائيل بالانسحاب من لبنان ووقف العلميات العسكرية، وتقدمت أسبانيا بمشروع قرار لإدانة إسرائيل لعدم تطبيقها القرارين، غير أن الولايات المتحدة استخدمت حق الفيتو ضد المشروع.

فرض حصار على ليبيا واعتيارها من قوى الشر وامر بالمناوشات الجوية البحرية مع ليبيا في خليج سرت، ثم عملية قصف طرابلس وبنغازي عام ١٩٨٦.وقد قتل العديد من الأطفال الأبرياء ...

وفي سعيه لكسب الأصوات اليهودية حرص ريغان على زيادة الروابط مع المؤسسات اليهودية الصهيونية في الولايات المتحدة قبل موعد الانتخابات الرئاسية، وقام ريغان بتعيين اليهودي مارشال بيرغر مسؤولا عن التنسيق بين لجنة الحملة الانتخابية والمجموعات اليهودية في الولايات المتحدة وعين اليهودي ألبرت شبيغل رئيسا لحملته الانتخابية، وأخذ شبيغل يعرض لليهود سجل ريغان المؤيد لإسرائيل، ومنها حضور ريغان تجمعات مؤيدة لإسرائيل خلال حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧م، عندما كان حاكما لكاليفورنيا .

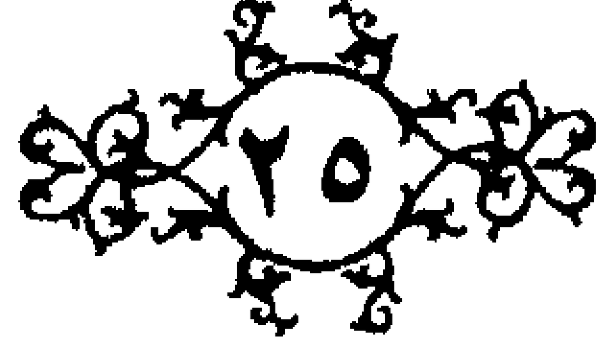
وخلال حملته الانتخابية زار ريغن المنظمة اليهودية بناي برث في واشنطن في ٣سبتمبر ١٩٨٠م، وألقى خطابا قال فيه إن إسرائيل ليست أمة فقط بل هي رمز ففي دفاعنا عن حق (إسرائيل في الوجود إنما ندافع عن ذات القيم التي بنيت على أساسها أمتنا .

وبعد سقوط الشاه وقبل انتخابات الرئاسة الأمريكية أدلى ريغان بتصريح إلى الواشنطن بوست في ١٩٧٩/٨/١٥م، جاء فيه : (إن أي منظمة إقليمية مؤيدة للغرب لن تكون لها أية قيمة عسكرية حقيقية دون أن تشترك إسرائيل فيها بشكل أو بآخر .

وكان أهم موضوع في الحملة الانتخابية للمرشح ريغان هو مزاعمه بعجز إدارة كارتر في تقدير أهمية (إسرائيل كرصيد استراتيجي للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ففي مقالة له في الواشنطن بوست ذكر بأن وضع الولايات المتحدة سيكون أضعف في المنطقة بدون الأرصدة السياسية والعسكرية التي توفرها إسرائيل كقوة مستقرة وكرادع للهيمنة الراديكالية .

وفي عام ١٩٨٣م، قام الرئيس ريغان بمشاركة الأقلية اليهودية في عيدهم الهونوكاه، وألقى خطابا يعتبر من أقوى البيانات تأييدا لإسرائيل، قال فيه (إن الروابط بين الشعب الأمريكي والإسرائيلي تنمو الآن بقوة ويجب أن لا تتقوض أبدا، وإذا ما أجبرت إسرائيل على مغادرة الأمم المتحدة فان أمريكا ستغادرها مع إسرائيل أيضا .





مارجريت تاتشر..

ooo



رحلت مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة الملقبة بالمرأة الحديدية بعد رحلة طويلة مع المرض أحالت ساعاتها الأخيرة إلى معاناة ما بعدها معاناة .

و تقول ابنة تاتشر : إن ما آل إليه حال أمي قبل وفاتها لا يُصَدَّق، ولا أزال أذكر اللحظة التي أصاب فيها العطب ذاكرة والدتي.. اللحظة التي لم تعد فيها الظاهرة غير العادية في حياتي. وكان لذلك وقع الصاعقة عليَّ.

كان ذلك في صيف عام ٢٠٠٠، أي بعد عشر سنوات من استقالتها من رئاسة الحكومة البريطانية وخروجها من ١٠ داوننغ ستريت. فقد عزمتها على طعام العشاء في فندق «ماندارين أورينتال» في نايتسبريدج المطل على الهايدبارك.

وقد اقترحت والدتي أن نجلس في مقهى بدلا من المطعم لتقليل المصاريف عليّ. وعندما جلسنا في مقاعدنا أخذنا ننظر إلى الهايدبارك من تحتنا ونستمتع بالمشهد الجميل للناس والطبيعة.

لقد كان من النادر أن ألتقي بها بسبب مشاغلها الكثيرة، وكنت أنتظر أشهرا لأجد الفرصة لمقابلتها، ولم يكن من السهل دائما أن أتحاور مع والدتي التي انخرطت، لعقود طويلة، في حوارات مع كبار القادة والسياسيين العالميين.

وحين طلبنا طعام الغداء، تذكرت الليلة التي أصبحت والدتي فيها زعيمة لحزب المحافظين عام ١٩٧٥. فقد كنت أؤدي امتحانات الجامعة في كلية الحقوق. وبعد أن انتهيت من الامتحان مشيت عبر حديقة هايدبارك في طريقي إلى المنزل، وكنت أتساءل في نفسي عما يخبئه المستقبل.

وقد قالت حينئذ: «آه، كم أتمنى لو يعود الزمن إلى تلك الأيام ثانية»، ولمحت البريق في عينيها حين ذكرتها بالانتصار المدوّي الذي أحرزته، وأردفت: «أعتقد أن بالوسع أن تنتشل السياسي من الموقع السياسي، لكنك لا يمكن أن تنزع السياسة منه».

وقد أبلغني صديق مشترك أخيرا أنه حضر حفل عشاء مع والديّ على شرف الجنرال مايكل روز قائد قوات حفظ السلام الدولية في البوسنة في منتصف التسعينيات، فذكرت ذلك لوالدتي، وقلت لها إن الحفل لابد من أنه كان ممتعا، فردت بالإيجاب. ومع أنها كانت قد غادرت داوننغ ستريت قبل عشر سنوات، فإنها كانت دائمة المشاركة في المناسبات الدولية.

لقد توقعت منها أن تتحدث كثيرا عن البوسنة، لكنها سرعان ما اضطربت، وبعد كلمات قليلة عن البوسنة انتقلت للحديث عن حرب فوكلاند، ثم خلطت بينهما وبين الحرب في يوغوسلافيا.

لقد كدت أسقط عن مقعدي ولم أصدق أنها تبذل جهدا كبيرا للحديث وتذكر الأحداث. لم أكد أصدق ما رأيت، فقد كانت في الخامسة والسبعين من عمرها، لكني كنت أعتقد على الدوام أنها لن تشيخ وأنها ستقاوم عوامل الزمن بصورة تامة.

لقد كانت المقارنة صاعقة بين ما كانت عليه وما أصبحت فيه. لقد امتلكت دائما ذاكرة أشبه بالموقع الإلكتروني. فمثلا حين درست اللغة اللاتينية في المدرسة، اختزنت قدرا هائلا من المفردات، وأضافت المعادلات العلمية جراء دراسة الكيمياء في جامعة أكسفورد بعدا جديدا إلى دماغها المنظم أصلا. وحين درست القانون وتأهلت كمحامية، أصبحت ذاكرتها بكامل لياقتها وقوتها.

وفي الوقت الذي دخلت فيه معترك الحياة السياسية كانت تشتهر ليس فقط بقراءة وتحليل الملخصات حول مختلف الأمور، بل بحفظها عن ظهر قلب، فقد كان بوسعها أثناء نقاش اقتصادي أن تذكر نسبة التضخم التي كانت سائدة في عهد رئيس الوزراء وليام غلادستون من دون أن تستعين بأي ملاحظات مكتوبة.

ومنذ تلك اللحظة التي تلعثمت فيها والدتي أثناء طعام الغداء، بدأت امورها على غير ما يرام. ففي حين لم تكن بحاجة إلى أن تذكر لها في الماضي أي شيء أكثر من مرة، لأنها كانت قد خزنته في بنك الذاكرة، بدأت والدتي تطرح الأسئلة ذاتها المرة تلو المرة دون أن تعي ماذا تفعل.

فمثلا تسأل عن موعد قدوم سيارتها وعن موعد الذهاب إلى الكوافيرة عدة مرات. لقد فتح ذلك فصلا مريعا في حياتنا. وتعلمت أن أكون صبورة معها، وهي صفة لم أكن أمتلكها، وأصبح عليَّ الإقرار بأنها مريضة وأن الأمر ليس شخصيا.

هذا هو اسوأ شيء فيما يتعلق بالخرف. فالمصابون به يبدون وكأنهم يتصرفون بشكل عادي، ولكن وراء ذلك، هناك شيء غير عادي تماما. إنهم يعيشون في عالم آخر لا يمكنك الدخول إليه.

لقد تأثرت حياة والدتي اليومية بهذا المرض، وأصبح الوقت يحظى باهتمام خاص. فإذا قلت لها مثلا: اركني إلى الراحة يا والدتي، لأن السيارة سوف تتأخر لعشر دقائق، فانها تقف وتضع حقيبتها على كتفها وتقول: إذن، دعونا نتحرك، وكأنني قلت لها ثلاثين ثانية. ومثل هذا الخلل في الذاكرة يبدأ بانهيار في الذاكرة قصيرة المدى، وحين وصفت الأمر لإحدى الصديقات، قالت: هذا أمر مريع بالنسبة لك يا كارول. فقلت لها: ليس هذا هو مصدر قلقي، بل اعتقادي بأن الأمر ربما يكون مثيرا للإحباط بالنسبة لها.

وفي كل زيارة لها، يتعين على الدخول أولا إلى المطبخ لقراءة لوحة الملاحظات للتعرف على جدول نشاطها اليومي، قبل أن أذهب إلى غرفة المعيشة لمقابلتها.

وحين كنت أسألها كيف كانت وجبة الفطور في مجلس العموم؟ كانت تنظر إلى وكأنها بالكاد تعرفت علي، وتقول: أحقا.. يا عزيزتي؟

وقد اوصي طبيبها بعدم السماح لها بإلقاء المزيد من الخطب العامة، لأسباب صحية، وهي التوصية التي التزمت بها على مضض.

وبعد أن تدهورت صحتها أكثر فأكثر، اصبح الكثير من أصدقائها وزملائها يتعاملون بحذر شديد معها. فهذه المرأة التي هيمنت على المناقشات في بريطانيا لردح طويل من الزمن لم تعد تقوى على الحديث أو المواظبة على حضور المناسبات الحزبية. وفي الأيام الأكثر سوءا، فإنها لا تستطيع تذكر بداية الجملة حين تصل إلى نهايتها.

وفي ذات أمسية من شهر مارس ٢٠٠٤، حين عرفت أن اثنين من زملائها السياسيين سيزوروننا لتناول طعام العشاء، اشتريت صحيفة «ايفننغ ستاندارد» في

طريقي إلى منزل والدتي، فوجدت أن المانشيت الرئيسي فيها كان عن التفجيرات الإرهابية التي أودت بحياة ١٩١ شخصا في مدريد. وقد حاولت أن أشرح الأمر لها قبل وصول الضيوف الذين سألوها لدى وصولهم:

ما هي أول خطوة كنت ستتخذينها يا مارغريت لو كنت في رئاسة الحكومة البريطانية؟

وكان عليّ أن أذكر نفسي دائما بأننا كنا محظوظين، فهناك الكثير من العجائز الذين يعيشون وحيدين ومن دون رعاية كافية، لكن والدتي لديها سائق وحراسة من الشرطة على مدار الساعة، ناهيك بنقص الموارد المالية لدى البعض، الأمر الذي لم نكن نعانيه، وبالتالي أمكننا توفير ممرضة لرعايتها.

وبالطبع، كانت ثمة لمحات من والدتي في ايامها الغابرة بين الحين والآخر، لا سيما حينما تُذكرأمامها أحداث من الماضي. ويبدو كأن مرض الخرف قد أدى إلى شحذ قواها على تذكر الأحداث البعيدة، ولا تزال لديها ذكريات جميلة من أيام ١٠ داوننغ ستريت.

وحين دعوت أحد الأصدقاء الذي يعيش على مقربة من منزل والدتي، إلى احتساء كوب من الشاي، انخرط في نقاش حول ميخائيل غورباتشوف، وفجأة استعادت صورة المرأة الحديدية.

وقد مضى علينا وقت طويل قبل أن ندرك أن والدتي لا تستطيع تذكر مانشيت قرأته للتو في إحدى الصحف، أو ما الذي تناولته على طعام الفطور ذلك الصباح.

ولكن حين كان أحد الأصدقاء يسألها عن أيامها الذهبية في داوننغ ستريت، كانت تسترسل في الحديث عن أدق التفاصيل وكأنها لا تعاني أية مشكلة في الذاكرة.

ولم تذكر لي والدتي اسم غرانتام، المدينة التي ولدت فيها، منذ عدة سنوات، ولكنها بعد أن أصيبت بهذا المرض تذكرت اسم المدينة.

إنها حالة خرف كلاسيكية مقترنة بسلسلة من الجلطات، والمؤلم أنني أجد نفسي عاجزة عن عمل أي شيء لمساعدتها في هذا الوضع، فهذا المرض اللعين يفعل فعله، ولا شيء يمكن أن يوقفه.

وأشكر الله أن اجد حولها أناساً يقومون بمساعدتها، وخاصة سينتيا كروفورد وآخرين، علاوة على قطتها بوسيكنز التي تمنحها الكثير من السعادة.

وأظن أن مرض والدتي كانت له تأثيرات قاسية - بشكل خاص - على والدي، إذ كان يقف إلى جانبها دائما، فهو الزوج والمستشار والمساعد منذ زواجهما عام ١٩٥١، وبعد إنجابي ومارك عام ١٩٥٣، وحتى انتخابها رئيسة للحكومة عام١٩٧٩.

والنصح، بالطبع، كان ينطوي أحيانا على وجهات نظر لا تروقها. ففي عام ١٩٨٩، حاول والدي إقناعها بالاستقالة واعتزال العمل السياسي في الذكرى العاشرة لانتخابها، لكنها رفضت ذلك، لأنها كانت تعتقد أن بإمكانها أن تفعل الكثير.

وبعد أيام قليلة على انتخابها لفترة ثالثة عام ١٩٨٧، كنت أنا ووالدي في منزلنا في داوننغ ستريت، فقال لي: لن تصدقي إذا قلت لك إن والدتك ستفقد شعبيتها خلال عام واحد.

وكان والدي محقًّا، على الرغم من أن الأحداث التي قادت إلى سقوطها استغرقت فترة أطول من عام واحد، كما توقع.

ففي مطلع شهر نوفمبر ١٩٩٠، استقال جيفري هاو من منصبه كنائب لرئيسة الوزراء احتجاجاً على سياستها الأوروبية وحض زملاءه على الاستقالة. وعلى ضوء ذلك، واجهت والدتي تحدياً من الوزير مايكل هسلتاني، وفرض إجراء انتخابات على زعامة الحزب.

وعلى الرغم من مخاوفي وتشاؤم والدي، فازت والدتي بالجولة الأولى واعتقد أصدقائي أن بوسعها الفوز في الجولة الثانية، لكن كان شعور والدي مختلفا، وحاول ثنيها عن المضي قدماً في السباق عن طريق بعض الحلفاء.

وحين قابلت أعضاء حكومتها، الواحد تلو الآخر، في اليوم التالي، أبلغوها جميعاً أنهم سيدعمونها إذا قررت الاستمرار، إلا أن عليها الاستقالة، لتفادي التعرض للمهانة ولتدع شخصاً آخر يهزم هسلتاني.

وفي تلك الليلة كنت أتناول طعام العشاء مع والدي وعضو حزب المحافظين اليستر مكالفين في منطقة مايغير، بينما كانت والدتي في البيت. لقد مرت بأوقات عصيبة آنذاك. في تلك الليلة، أبلغنا مكالفين أن الوزراء انفضوا عنها الواحد تلو الآخر، فاضطرت للاستقالة. ولم أستطع تصديق الخبر.

وطلب لنا مكالفين الشمبانيا، لكي لا يشعر الناس من حولنا أننا مصابون بالإحباط. وحين عدنا طلبنا من السائق أن يوصلنا إلى الباب الخلفي كي لا يرانا الصحافيون خارج دواننغ ستريت.

واتصل بي والدي في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي (٢٢ نوفمبر وكان صوته متهدجاً «لقد قررت والدتك تجاهل كل استشاراتنا.. فقاطعته قائلة: ولكنها قررت الاستقالة، فسادت لحظات من الصمت، ثم قال لي: وداعاً. فلم يعد الموقف يحتمل مزيداً من الكلام.

واتصلت بسكرتيرة والدتي جوي روبليارد في داوننغ ستريت لتبلغني أن والدتي لا ترد على المكالمات الهاتفية. إنها بخير، لكنها تبكي وتوشك على الانهيار كلما سمعت كلاماً جميلاً من أحد. وكان صوت روبليارد يبدو غريباً أيضاً.

وقررت عدم الاتصال بها ثانية، لأنني قد لا أتمكن من تمالك نفسي من البكاء.

وجاء الإعلان عن الاستقالة في الساعة التاسعة و٢٥ دقيقة وكان مقتضباً وعاصفاً.

لقد أصبت بخيبة أمل من الطريقة التي عوملت بها والدتي في الأيام الأخيرة وكنت قلقة من التأثير المحتمل لذلك عليها، لا سيما أنها تهب حياتها للسياسة منذ ريعان شبابها ولا تعرف شيئاً غير السياسة.

ودائماً ما يكون التغيير صعباً، لا سيما حين يكون منزلك على مدى عقد أو يزيد، واحداً من أشهر العناوين في العالم. فقد وجدت والدتي في اول يوم أحد بعد مغادرتها. داوننغ ستريت، في غرفة الجلوس المنزل الذي اشترته حديثاً في دالويتش جنوب لندن، وهي تقرأ الصحف بمساعدة نظارة طبية.

وربما لا يكون ذلك غير اعتيادي، ولكنها وعلى مدى الأحد عشر عاماً الماضية، من النادر أن تمسك بإحدى صحف الأحد. وقالت إن عليها متابعة الأخبار.

وقد رأيتها أكثر من مرة تهم بالامساك بسماعة الهاتف حين تسمع عن وجود أزمة، ثم سرعان ما تدرك أنها لم تعد في موقع القرار.

ولكنها مع ذلك مكنت من الاحتفاظ بالسائق وبحراسة الشرطة بعد مغادرة داوننغ ستريت، وأبلغني السائق أنه أخذ يتفادى المرور من أمام داوننغ ستريت لأنها كانت في كل مرة تنظر إلى باستغراب وكأنها تسأل لماذا لم أدخل إلى المبنى، ثم تتذكر أنها لم تعد رئيسة للحكومة البريطانية.

وفي الواقع، لم يتعامل أي من والدي مع مشكلاته الصحية بصورة جيدة. ففي أوائل عام ٢٠٠٣ قرر والدي القيام برحلة طويلة إلى جنوب إفريقيا التي كان يحبها كثيرا، ولأنه كان في الرابعة والثمانين،قرر الطبيب إجراء كشف طبي له، فاكتشف وجود مشكلة تستدعي جراحة في القلب.

وبالفعل أجريت له العملية ومكث في المستشفى عشرة أيام، ومع ذلك، أصر على المضي قدما في الرحلة، بعد فترة نقاهة قرر أن يقضيها في منزل ريفي في نيو خوريست، حيث زرته هناك.

وبعد شهرين من العملية، سافر والدي إلى جنوب إفريقيا، حيث كان شقيقي مارك يعيش، وحيث عمل والدي لعدة سنوات في الماضي، وأخذه مارك إلى شلالات فكتوريا في زيمبابوي، إضافة إلى أماكن أخرى لم يتسن لوالدي زيارتها في الماضي.

وحين رأيته للمرة الأولى بعد عودته من جنوب إفريقيا، كان في غرفة الجلوس في منزله اللندني، فوجدت أنه قد تعافى تماما وأصبح بصحة جيدة.

ولكنه فاجأني بالقول إنه بحاجة إلى استبدال الركبتين، قلت له إنك أجريت عملية كبرى للتو ولا يمكن أن تخضع لعملية كبرى، فقال ممازحا إنه عام استبدال قطع الغيار! ولم يكن أحدنا يعلم أن والدي كان يعيش أسابيعه الأخيرة. فقد نُقل إلى المستشفى بعد وقت قصير ليكتشفوا إصابته بسرطان البنكرياس.

وتوفي في الثالث والعشرين من يونيو ٢٠٠٣، وكانت صدمة كبرى لنا جميعا، لكن عزاؤنا أنه لم يتعذب كثيرا نتيجة المرض.

وفي اليوم التالي، ظهرت صورة والدتي وهي تبكي في جميع الصحف البريطانية. وكانت والدتي قالت عنه ذات يوم: «لم يكن باستطاعتي أن أستمر في رئاسة الحكومة لأحد عشر عاما لولا وجود دينس بجانبي، لقد كان يقدم النصح لي دائما ويبدي لي الانتقادات مباشرة وليس إلى العالم الخارجي. لقد كان زوجا وصديقا، ولم يجعلني أبدا أشعر أنني وحيدة في مواجهة الأزمات».

وأشارت هيئة الإذاعة البريطانية في تقرير لها عن والدي بأن شعاره كان: «كن متواجدا دائما.. ولا تكون».

وكان موت والدي قاسيا على والدتي لأسباب كثيرة، ليس أقلها أن الخرف يجعلها كثيرا ما تنسى أنه قد مات، وكان على أن أذكرها بهذا الخبر السيئ المرة تلو المرة.

ولا تستطيع والدتي الآن، تذكر تفاصيل حياتها في داوننغ ستريت، لكنها قالت لي ذات يوم إنها تعتقد أنها حفرت لها مكانا في التاريخ.

وسمعتها تقول لزوار أميركيين إن الناس في أيامها كانو ينخرطون في العمل السياسي كي يفعلوا شيئا، أما اليوم فهم يدخلون البرلمان ليصبحوا شيئا.

ولدت مارجريت ثاتشر في ١٢ أكتوبر ١٩٢٥ . وشغلت منصب رئيسة وزراء بريطانيا من سنة ١٩٧٩ إلى ١٩٩٠. وبذلك كانت أول امرأة بريطانية تتسلم هذا المنصب، وأول بريطاني في القرن العشرين خدم هذه المدة الطويلة رئيسا للوزراء. تم اختيار ثاتشر رئيسة لحزب المحافظين عام ١٩٧٥م، وأصبحت رئيسة للوزراء بعد أن هَزم حزبها حزب العمال في الانتخابات العامة التي جرت عام ١٩٧٩م.

وُلدت مارجريت هيلدا روبرتس في جرانثام في لينكولنشاير بإنجلترا. وكان والدها صاحب محل للبقالة، بينما كانت والدتها خياطة للسيدات، وقد تربت تربية صارمة. أما في المدرسة فكانت مارجريت طالبة متفوقة ورياضية ممتازة. ففي عام ١٩٤٣م حصلت على منحة لدراسة الكيمياء بجامعة أكسفورد، وتخرجت فيها عام ١٩٤٧م، وعملت بوظيفة كيميائي أبحاث خلال الفترة من ١٩٤٧م إلى ١٩٥١م. كما بدأت تدرس القانون في أوقات فراغها.

وفي عام ١٩٥١م تزوجت دينيس ثاتشر الذي كان ضابطًا سابقًا في سلاح المدفعية الملكية، وأصبح فيما بعد من رجال الأعمال الناجحين.

دخلت مارجريت ثاتشر مجلس العموم عام ١٩٥٩م. وفي عام ١٩٧٠م عاد المحافظون إلى الحكومة بقيادة إدوارد هيث الذي عينها وزيرة للتعليم. وبدأت ثاتشر المنافسة على قيادة الحزب عام ١٩٧٤م،

أصبحت مارجريت ثاتشر رئيسة للوزراء عام ١٩٧٩م بعد فوزها على حزب العمال في الانتخابات العامة. شدّدت أول حكومة لثاتشر (١٩٧٩ - ١٩٨٣م من سياستها النقدية، وسمحت بارتفاع معدل البطالة، وألغت الرقابة على الأسعار. وفي عام ١٩٨٢م احتلت القوات الأرجنتينية جزر فوكلاند التي تخضع للإدارة البريطانية والواقعة في جنوب المحيط الأطلسي، وذلك بعد خلاف طويل بين بريطانيا والأرجنتين حول السيادة على هذه الجزر. وتبعًا لذلك أرسلت ثاتشر قواتها لاستعادة تلك الجزر.

وقد استسلمت القيادة الأرجنتينية هناك في يونيو ١٩٨٢م بعد إصابة الجانبين بخسائر كبيرة. وفي عام ١٩٨٥م تخلى عمال المناجم في البلاد عن إضراب استمر عامًا كاملاً بعد أن رفضت ثاتشر تعديل برامج مجلس الفحم الحجري القومي الخاصة بإغلاق المناجم.

وكانت حكومة ثاتشر حتى عام ١٩٨٧م قد باعت للقطاع الخاص خطوط الطيران والاتصالات وصناعة النفط والغاز وبناء السفن فيما عرف بالخصخصة أو التخصيص، وأدت القوانين إلى الحد من قوة نقابات العمال بينما كانت أرباح الشركات في ازدياد مستمر. وفي ذلك العام أيضًا ضمنت ثاتشر الفوز في الانتخابات العامة، وأصبحت بذلك أول قائد سياسي بريطاني يكسب ثلاثة انتخابات وطنية متتالية.

وفي عام ١٩٨٥م وقّعت حكومة ثاتشر معاهدة مع الصين تعهدت بموجبها الحكومة الصينية بالمحافظة على الاقتصاد الرأسمالي للمستعمرة البريطانية هونج كونج لمدة خمسين عامًا بعد عودتها للسيادة الصينية عام ١٩٩٧م.

وفي عام ١٩٩٠م ازدادت المعارضة لزعامة ثاتشر، التي استقالت بعد أن تأكدت من عدم مقدرتها على كسب انتخابات زعامة المحافظين، وتم انتخاب جون ميجر خلفًا لها.

ظلت ثاتشر بمجلس العموم حتى عام ١٩٩٢م، وفي العام نفسه منحت لقب البارونة، وأصبحت عضواً بمجلس اللوردات.

وتعتبر مرجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، إحدى الظواهر الهامة في عالم السياسة خلال النصف الأخير من القرن العشرين، فهي أول سيدة تتولى هذا المنصب الرفيع في تاريخ بريطانيا العريقة، وهي أكثر الشخصيات شعبية بين رؤساء الوزاراء البريطانيين، وهي أيضاً أول رئيس للوزراء يتم انتخابه ثلاث مرات

متتالية، وكان الفوز في كل مرة ساحقاً، وهي أخيراً صاحبة الرقم القياسي في البقاء في كرسي الحكم، حيث استمرت حوالي أحد عشر عاماً متصلة، ولذلك فقد أطلق على حقبة الثمانينيات عقد التاتشرية نسبة إلى السيدة "مرجريت تاتشر" التي تعد ظاهرة عالمية مميزة، فقد حازت على إعجاب واحترام رؤساء وملوك الدول العظمى في العالم.

ووضعت بريطانيا في موضعها المعتاد في الصدارة من الدول المتقدمة والغنية بعد سنوات من الاضمحلال والضعف.

ولاننسى أن "مرجريت تاتشر" صاحبة أول انتصار عسكري بريطاني بعد الحرب العالمية الثانية إذ تمكنت القوات البريطانية من هزيمة القوات الأرجنتينية في حرب فوكلاند عام ١٩٨٢، وتمكنت من استعادة تلك الجزر التي احتلتها الأرجنتين فجأة، وأعادت بذلك الهيبة والاحترام للعسكرية البريطانية.

"ابنة البقال" هو أحد الألقاب الشائعة والذي أطلقته الصحافة على السيدة مرجريت تاتشر التي ولدت في سنة ١٩٢٥، اسمها بالكامل مرجريت هيلاروبرتس تاتشر، وهي الابنة الثانية لوالدها صاحب حانوت البقالة الذي يقع أسفل شقتها التي قضت فيها مرجريت ثمانية عشر عاماً. كان والدها مهتماً بالسياسة، كما كان يوفر لها كل احتياجاتها من الكتب التي شغفت بها منذ طفولتها المبكرة، ويبدو أن حياة الأسرة كانت جافة بعض الشيء مما جعل مرجريت شديدة الاقتصاد، حريصة على تدبير أمور حياتها بصورة دقيقة، تفوقت في دراستها الابتدائية بمدرسة جراتنام وهي مدرسة عادية حكومية وليست مدرسة خاصة، ولذلك فهي أول رئيسة للوزراء تتخرج من المدارس الحكومية، ولا عجب في ذلك فهي لا تنتمي لأسرة ثرية مثلهم، وكانت مرجريت تتميز أيضاً بتفوقها في مجالات الرياضة والموسيقى خاصة آلة البيانو، أما أمها فقد عملت خياطة قبل زواجها من والدها، تمكنت من الالتحاق بجامعة أكسفورد العريقة حيث درست الكيمياء وأشعة إكس، وقد بدأ

اهتمامها بالسياسة يتبلور خلال دراستها الجامعية من خلال دورها البارز في نادي المحافظين، في سنة ١٩٥١ تزوجت من دينيس تاتشر ضابط المدفعية السابق ومدير عدد من شركات البترول بعد ذلك وأنجبت توأماهما مارك وكارول.

عقب محاولتين فاشلتين نجحت مرجريت تاتشر في الانتخابات البرلمانية لتصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني.

وبدأت مواهبها السياسية في التفتح، فقد عرفت بدقة بياناتها وبراعتها الخطابية وأسلوبها المؤثر وصوتها الرزين وشخصيتها الآسرة وحجتها القوية، كل هذه المواهب جعلتها عضواً متميزاً في مجلس العموم البريطاني "البرلمان"

وواحدة من الأعضاء البارزين في حزب المحافظين العريق، وقد دخلت البرلمان في سنة ١٩٥٥ ولم تتوقف دراستها عند الكيمياء وأشعة إكس، بل درست القانون ومارست المحاماة خلال هذه الفترة الهامة من حياتها السياسية، ونظراً لبراعتها الخطابية فقد عينت متحدثة باسم حزب المحافظين.

وقد نجحت مرجريت تاتشر نجاحاً ساحقاً على المستوى الشخصي، فهي عضو نشط بالبرلمان لا تتوقف عن الدراسة والتحصيل والاطلاع الضروري لها للإلمام بكافة المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهي بالإضافة إلى ذلك

زوجة ناجحة تحرص على توفير أقصى درجات الراحة والأمان لزوجها وأولادها رغم كل مشاغلها ومسئوليتها.

كان أول منصب هام تتولاه مرجريت تاتشر هو المنصب الذي أسنده إليها "ماكميلان" رئيس الوزراء البريطاني في وزارة التأمين الاجتماعي، وقد برزت مواهبها بشكل واضح عندما ألقت أول خطاب بخصوص العمل في الوزارة، حيث تميز بالدقة والحيوية واتساع الرؤية، وفي حكومة "إدوارد هيث" تولت منصب وزيرة التعليم، وقد تركت بصمات هامة على السياسة التعليمية، حيث اهتمت بالتربية

وبالمراحل الأولى من التعليم على حساب المراحل العليا، كما عملت على زيادة إعداد المعلمين المؤهلين وتسهيل التدريب الفعال لهم.

وكانت خسارة "إدوارد هيث" للانتخابات ثلاث مرات من أربعة خاضها فيها حزب المحافظين تحت قيادته، كانت هذه الخسارة هي التي دفعت بالسيدة الجريئة الطموحه مرجريت تاتشر لأن ترشح نفسها ضده في انتخابات زعامة الحزب،وقد حققت انتصاراً ساحقاً وتأهلت لخوض المعركة الانتخابية في سنة ١٩٧٩، حيث حققت انتصاراً تاريخيا وأصبحت أول رئيسة للوزراء في تاريخ بريطانيا.

كان الاقتصاد البريطاني في حالة يرثى لها من حيث معدلات النمو المنخفضة وزيادة التضخم وارتفاع أعداد العاطلين.

وبدأت مرجريت تاتشر مراحل العلاج الطويل الذي أتى ثماره بعد أعوام الإصلاح لتصبح بريطانيا في طليعة الدول الصناعية الكبرى، وليرتفع معدل الدخل بها إلى حد كبير بعد انخفاض معدلات التضخم والبطالة.

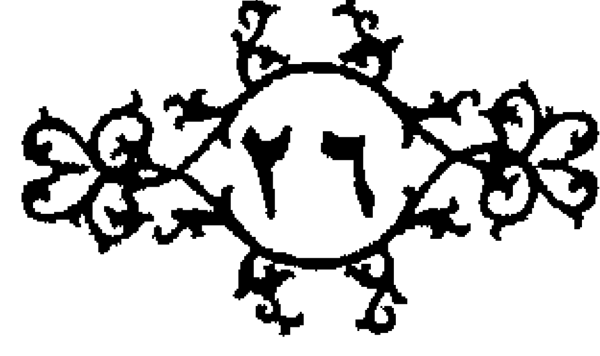
وكان الانتصار الكبير الذي حققته القوات البريطانية على الأرجنتين في سنة ١٩٨٢ عاملاً هاماً في إعادة انتخاب مرجريت تاتشر رئيسة للوزراء في سنة ١٩٨٣، وفي سنة ١٩٨٧ أعيد انتخابها رئيسة للوزراء وكان العامل الأساسي لنجاحها سياستها الاقتصادية الناجحة.

تميزت مرجريت تاتشر بالعناد والصلابة والتمسك برأيها حتى النهاية، مما أدى إلى استقالة عدد كبير من وزرائها ومعاونيها، وكان من الطبيعي أن ينقلب عليها حزبها متهماً إياها بالديكتاتورية والتصلب. وخوفاً من حدوث انقسامات خطيرة تهدد كيان الحزب آثرت الانسحاب.

في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٩٠ أعلنت مرجريت تاتشر استقالتها من منصب رئيس الوزراء، ولم تكن هذه الاستقالة مفاجأة لأحد بعد تصاعد الصراع داخل الحزب والحكومة في بريطانيا.

وعلى الصعيد الخارجي تميزت سياستها بالقوة والوضوح، وكان هناك تنسيق كبير بينها وبين الولايات المتحدة بزعامة الرئيس "ريجان" ومن بعده الرئيس جورج بوش الأب.

▪▪▪



ياسر عرفات..

OOO



أمضى الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات السنوات الأخيرة من حياته يحاصره الجيش الإسرائيلي ثم نقل إلى فرنسا للمعالجة حيث توفي في ١١ نوفمبر ٢٠٠٤ عن ٧٥ عاما.

توفي الرئيس ياسر عرفات في اليوم الثالث عشر من دخوله إلى مستشفى باريس العسكري واليوم الثامن من دخوله إلى قسم العناية الحثيثة عن نزيف دموي شديد في الدماغ، هذا النزيف الدماغي جاء لينهي حالة كان يتم النقاش والاستشارات

حول سبب حدوثها، هذه الحالة السريرية تجمع المتلازمات التالية: - متلازمة الجهاز الهضمي: البداية لهذه الحالة المرضية بدأت قبل ٣٠ يوماً على شكل التهاب معوي قلوي. - متلازمة متعلقة بجهاز الدم تجمع نقص الصفائح وتخثر منتشر داخل الأوعية حاد، وبلغمه خلايا النخاع منعزل عن أي نشاط بلغمي في الأوعية الدموية خارج النخاع العظمي. - يرقان ناتج عن رقود صفراوي. - متلازمة الجهاز الهضمي في حالة ذهول متموج ثم حالة غيبوبة عميقة بالرغم من استشارة عدد كبير من الخبراء المختصين كل في مجاله وكافة الفحوص التي تم إنجازها لم تفسر هذه المتلازمات في إطار علم تفسير الأمراض Nosology. توقيع الطبيب رئيس أقسام مستشفى بيرسي العسكري Dr. B. PATS الفحوصات التي أجريت عدا الفحوصات الروتينية المتكررة بصدد الدم والسكر والبول والبراز والكبد والأملاح والدهون والكيمائينية الحيوية وغازات الدم والهرمونات:

١ - فحوصات التجلط وعوامل التجلط.

٢ - عينات النخاع الشوكي عدة مرات في رام الله وتونس وفرنسا.

٣ - عينات بذل النخاع الشوكي .

٤ -L-P-. زراعة متكررة الدم، البراز، البول، الأنف والحنجرة والقصبات، النخاع، السائل الشوكي ودراسة الجراثيم والأحياء الدقيقة.

٥- الفيروسات بما فيها HIV (الإيدز وكانت سلبية.

٦ -علامات الأورام.

٧ - السموم.

٨- تظهير الجهاز الهضمي علوي وسفلي عدة مرات وأخذ عينات.

٩- الأشعات عدة مرات: - تصوير بالموجات الصوتية للبطن. - تصوير طبقي محوري للدماغ والصدر والبطن والحوض. - الرنين المغناطيسي للدماغ والصدر والبطن.

١٠- تخطيط الدماغ EEG.

أما بالنسبة للميكروبات والأحياء الدقيقة والطفيليات والفيروسات، فقد كان دخول المرض إلى الجسم عن طريق الجهاز الهضمي حيث بدأ بعد تناول وجبة العشاء بعدة ساعات يوم ١٢أكتوبر ٢٠٠٤ حسب التقرير الفرنسي أو ١١أكتوبر٢٠٠٤ حسب تقرير الفريق الفلسطيني في رام الله، أصاب المرض الجهاز الهضمي باضطراب وتهيج شديد ثم حدث مسلسل من الاضطرابات الأخرى بدءاً بالنخاع العظمي، أدى إلى نقص الصفائح وإلى ظهور خلايا آكلة للدم فقط بالنخاع، وأدى هذا إلى اضطراب تخثر الدم ثم بدأت تظهر علامات مرضيه للكبد بارتفاع الصفراء وأخيراً اضطراب الجهاز العصبي من الخمول إلى الغيبوبة الكاملة، ثم الوفاة نتيجة نزيف شديد بالدماغ.

كانت الحالة السريرية تتدهور باستمرار ولكن مع موجات من حصول تحسن ثم زيادة التدهور، لم ينجح جميع العلاجات المبنية على نظريات سبب حدوث المرض في وقف التدهور المستمر ذلك أن جميع الفحوصات التي أجريت لمعرفة السبب من مخبرية أو شعاعية أو تنظير . . . الخ كانت سلبية، ولم تبين أي سبب إيجابي سواء كان جرثومي أو التهابي أو طفيلي أو فيروس بما فيه فيروس الإيدز أو ورمي أو مناعي ذاتي أو سمومي من المواد التي تم فحصها.

ولم يتمكن كادر الأطباء المختصين كل في مجاله من التوصل، إلى سبب أو مرض معروف يؤدي إلى الحالة السريرية، التي أدت بالنهاية إلى الوفاة. وقد يتمكن الطب أو الظروف الأخرى المحيطة من الكشف عن سبب حدوث مثل هذه الحالة السريرية في المستقبل

تضاربت الأقوال كثيرا في وفاة ياسر عرفات، وهناك من يعتقد -وخاصة العرب- بأن وفاته كانت نتيجة لعملية اغتيال بالتسميم أو بإدخال مادة مجهولة إلى جسمه، فيقول طبيبه الخاص الدكتور الكرد بخصوص إمكانية تسميمه "في الحقيقة أن الأطباء الفرنسيين بحثوا عن سموم في جثة عرفات بعد مماته في باريس، وتجدر

الإشارة أن البحث عن سموم في جسم الرئيس المتوفى حدث بعد أسبوعين من تناول الرئيس عرفات تلك الوجبة المشبوهة، ويعتقد أن فترة اسبوعين هي فترة كافية لتغلغل السم في جسم الرئيس عرفات وإحداث الضرر ومن ثمة الخروج من جسم الرئيس بطريقة أو بأخرى، أضف إلى أن المختبرات الفرنسية كانت تبحث عن سموم معروفة إذ يصعب البحث عن شيء لاتعرفه" كما يقول ناصر القدوة : "كل خبير استشرناه بين أنه حتى السم الأكثر بساطة، والذي يستطيع عالم متوسط إنتاجه، سيصعب تحديده من عالم فذ!" ويضيف:"لا أستطيع أن أحدد يقينا أن إسرائيل قتلته، لكنني لا أستطيع ايضا أن أنفي هذه الإمكانية فالأطباء أنفسهم لم يلغوا هذه الفرضية. ويقال إن الحراسة حول عرفات لم تكن بالمستوى المطلوب وإنه كان يقابل مئات الزوار أثناء فترة حصاره في المقاطعة وكان يحصل على حلوى وحتى أدوية منهم، كما كان معرضا للوخز بدبابيس علقوها بملابسه، وتلقى هدايا كثيرة بغير رقابة. وعلى الصعيد الآخر يعتبر البعض الآخر أن موت ياسر عرفات كان نتيجة لإصابته بمرض الإيدز.

في يوم الثلاثاء ١٢ أكتوبر ٢٠٠٤ ظهرت أولى علامات التدهور الشديد لصحة ياسر عرفات، فقد أصيب عرفات كما قرر أطباؤه بمرض في الجهاز الهضمي، وقبل ذلك بكثير، عانى عرفات من أمراض مختلفة، منها نزيف في الجمجمة ناجم عن حادثة طائرة، ومرض جلدي (فتيليغو، ورجعة عامة عولجت بأدوية في العقد الأخير من حياته، وإلتهاب في المعدة أصيب به منذ أكتوبر ٢٠٠٣.

وفي السنة الأخيرة من حياته تم تشخيص جرح في المعدة وحصى في كيس المرارة، وعانى ضعفا عاما وتقلب في المزاج، فعانى من تدهور نفسي وضعف جسماني.

تدهورت الحالة الصحية للرئيس الفلسطيني عرفات تدهوراً سريعاً في نهاية أكتوبر ٢٠٠٤، قامت على إثره طائرة مروحية على نقله إلى الأردن ومن ثمة أقلته

طائرة اخرى إلى مستشفى بيرسي في فرنسا في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤. وظهر الرئيس العليل على شاشة التلفاز مصحويا بطاقم طبي وقد بدت عليه معالم الوهن مما ألم به.

وفي تطور مفاجئ، أخذت وكالات الأنباء الغربية تتداول نبأ موت عرفات في فرنسا وسط نفي لتلك الأنباء من قبل مسؤولين فلسطينيين، وقد أعلن التلفزيون الإسرائيلي في ٤ نوفمبر ٢٠٠٤ عن نبأ موت الرئيس عرفات سريرياًّ وأن أجهزة عرفات الحيوية تعمل عن طريق الأجهزة الإلكترونية لا عن طريق الدماغ.

وبعد مرور عدة أيام من النفي والتأكيد على الخبر من مختلف وسائل الإعلام، تم الإعلان الرسمي عن وفاته من قبل السلطة الفلسطينية في ١١ نوفمبر ٢٠٠٤. وقد دفن في مبنى المقاطعة في مدينة رام الله بعد أن تم تشيع جثمانه في مدينة القاهرة، وذلك بعد الرفض الشديد من قبل الحكومة الإسرائيلية لدفن عرفات في مدينة القدس كما كانت رغبة عرفات قبل وفاته.

وفي ما يلي نص بيان مجلس الوزراء بهذا الخصوص والتقرير الطبي:-

قامت لجنة تقصي الحقائق المفوضة بمتابعة الملف الطبي للرئيس ياسر عرفات، بدراسة ظروف وفاة الرئيس القائد، بإنجاز المهمة التي كلفت بها حيث درست باستفاضة التقرير الطبي الفرنسي، والتقرير الطبي الفلسطيني، وقامت باستشارات ومناقشات واسعة مع عدد من الأطباء والجهات المعنية الأخرى، وتقدمت اللجنة بتقريرها حول مهماتها إلى مجلس الوزراء بتاريخ ١٢/١٠/٢٠٠٥.

واستعرض التقرير الحالة الطبية للرئيس القائد ياسر عرفات بداية من ١٢/١٠/٢٠٠٤ ولغاية حدوث الوفاة في ١١/١١/٢٠٠٤، بما في ذلك الفحوص الطبية والعلاج، الذي تم في مدينة رام الله وما أجرى له في مستشفى بيرسي العسكري بشكل تفصيلي.

وأفاد التقرير أن الوفاة نتجت عن نزيف دموي شديد في الدماغ وهو ما جاء لينهي حالة سريرية جمعت عدة متلازمات لم يكن بالإمكان تفسيرها في إطار علم تفسير الأمراض nosology بالرغم من استشارة عدد كبير من الخبراء المختصين وكافة الفحوص التي تم إنجازها .

وهكذا لم يتمكن كادر الأطباء المختصين، كل في مجاله من التوصل إلى سبب أو مرض معروف يؤدي إلى الحالة السريرية، التي أدت في النهاية إلى وفاة الرئيس ياسر عرفات.

وخلصت اللجنة إلى أن الطب أو الظروف الأخرى المحيطة، بما حدث قد تتمكن من الكشف عن سبب حدوث هذا الحالة السريرية في المستقبل.

وبناء على ما سبق فقد خلص مجلس الوزراء، إلى ضرورة إبقاء هذا الملف ذى الأهمية القصوى مفتوحاً حتى يتم التوصل إلى الحقيقة كاملة بما في ذلك التفسيرات اللازمة للجوانب الطبية المشار إليها في تقرير اللجنة وسيبقى هذا من حق الشعب الفلسطيني ومن حق وواجب السلطة الوطنية الفلسطينية.

و قد رافق الشيخ تيسير بيوض التميمي، قاضي القضاة في فلسطين، الرئيس الراحل ياسر عرفات، في ساعاته الأخيرة في مشفى "بيرسي" العسكري في إحدى ضواحي باريس، وشهد وفاة عرفات وأشرف على تغسيله والصلاة عليه وفق التقاليد الدينية، وكان في انتظار جثمان عرفات في رام الله، حيث دفنه بيديه في المقاطعة.

عن ساعات عرفات الأخيرة يقول الشيخ التميمي التقيته قبل أن يسافر إلى باريس، في يوم ٨ رمضان، حيث زرته في المقاطعة، وكان يعاني من الانفلونزا. جلست إليه وتحدثنا وطلبت إليه أن يفطر بناء على طلب الأطباء، ولكنه رفض وقال لي بعد أن بلغت عمر الخامسة والسبعين، ولم أفطر، تريدون أن أفطر الآن... ورفض

الإفطار واستمر صائما، فبينت له الأحاديث والآيات التي تبيح للمريض الإفطار، ولكنه أصر على الاستمرار بالصوم.

كان الرئيس مرهقا، وأنا زرته عندما حضر إليه الطاقم الطبي المصري الذي تولى فحصه، وبناء على طلبهم، طلبت بدوري من الرئيس، الذي كان تعبا، أن يفطر."

وعندما تقرر سفري إلى باريس والذي فسر حينها أنه للإعلان رسميا عن وفاته،كانت تربطني بالرئيس علاقة وثيقة وطيبة، ووجدت أنه من المناسب أن أكون إلى جانبه. فطلبت الإذن من مجلس الوزراء للسفر، لأكون بجانب الرئيس في الساعات الأخيرة، حيث تم الإعلان أنه يحتضر وأنه يعاني من نزيف في الدماغ، ورأيت أيضا أنه من واجبي، كشخصية إسلامية، أن أكون إلى جانبه في ساعاته الأخيرة."

ويقول التميمي: "راقبت الأجهزة ورصدت لوحة نبض القلب وكانت ٣١٥ نقطة في الدقيقة" .

ويقول : عندما وصلت كان هناك جيش من الصحافيين مرابطين كالعادة على باب المستشفى، وعندما سألوني عمّا ردده الإعلام الإسرائيلي بشأن مجيئي قلت لهم إن الرئيس على قيد الحياة وبينت الحكم الشرعي بالنسبة لرفع الأجهزة.

ومكثت بجوار الرئيس صباح يوم الأربعاء ١٠نوفمبر من العاشرة والنصف بتوقيت باريس وطوال اليوم.

كنت أمكث بجانبه فترات وأخرج ثم أعود. وكان الرئيس حينها على قيد الحياة، لون جسده لم يتغير، وفي أثناء تلاوتي للقرآن، تحرك كتفه عدة مرات. راقبت الأجهزة ورصدت لوحة نبض القلب وكانت ٣١٥ نقطة في الدقيقة. وفي ساعات المساء من يوم الأربعاء تحسنت صحة الرئيس.

لم يشعر بي ولم يصحُ من غيبويته، ولكن كانت كل مظاهر الحياة في جسده، من حرارة وحركة ونبض القلب وغير ذلك. النزيف توقف ونبضات القلب بدأت تنتظم، وكذلك ضغط الدم أخذ ينتظم، حتى أن الأطباء فوجئوا من ذلك.

وعن تفسيره لهذا التحسن ثم الهبوط مرة أخرى يقول التميمي :هذه صحوة الموت كما هو معروف. إن الله يقبض الإنسان عندما يكون خاليا من الأمراض.

بعد ذلك تدهورت صحة الرئيس بشكل مفاجئ وانتقل إلى رحمته تعالى وأسلم الروح إلى بارئها.. توفي الرئيس في الساعة الثالثة والنصف بتوقيت باريس، أي في الرابعة والنصف بتوقيت فلسطين.

وعن تأخر إعلان الوفاة رسميا، يقول التميمي بعد وفاة الرئيس أبلغنا رام الله، وصدر الإعلان عن القيادة.

و بعد الوفاة لم أخرج من المستشفى، بقيت فيه، حتى تم تغسيل الرئيس وتكفينه وتجهيزه، وأشرفت على ذلك بنفسي. نعم، بعد تغسيل الرئيس وتكفينه صليت عليه، ووضعته في الثلاجة، وبعد الانتهاء من ذلك خرجت بالسيارة . وكان هناك حرس الرئيس ومرافقوه مثل الدكتور يوسف العبد الله وعدد من رجال الدين التونسيين من أئمة مسجد باريس، وهم الذين غسلوا الرئيس وكفنوه تحت إشرافي. وكانت الأخت سهى موجودة في الغرفة وأيضا الدكتور رمزي خوري وعدد من حرس الرئيس.

ويقول التميمي: لقد دفنت الرئيس يوم الجمعة وسط أهله وشعبه وأريد أن أوضح هنا بشأن اللغط حول أنه تم دفن عرفات في التابوت، وهذا خطأ؛ لقد دفنته بنفسي، بعد إخراجه من التابوت الذي ما زال موجودا في المقاطعة لمن يريد أن يتأكد. و وضعت تراب القدس في القبر تحت الجثمان ونثرت حفنات من التراب على الجثمان.

وحول رأيه في فرضية تسميم الرئيس ،يقول التميمي: بالنسبة لسبب المرض وتسميم الرئيس أراها قضية طبية، ولا أستطيع أن أفتي بها. وأنا سألت الجنرال

الفرنسي المسؤول والأطباء فقالوا لي انهم لم يتمكنوا من معرفة سبب المرض.لا أستطيع أن اكذب ولا أستطيع أن أثبت، ولا أستطيع أن أتهم أحدا بناء على تخمينات، ولكن هذا ما قاله الأطباء. يمكن أن يكونوا صادقين ويمكن أن يكونوا غير ذلك، لا أستطيع أن أجزم بشيء.

وعاد الشيخ التميمي إلى بداية علاقته بالرئيس عرفات قائلا في حواره للعرب: ربطتني بالرئيس الراحل علاقة حميمة هنا في عمّان، بعد إبعاد سلطات الاحتلال لوالدي من الخليل، مع رفيقيه المرحوم فهد القواسمي، ومحمد حسن ملحم، بعد عملية الدبوية في الخليل بتاريخ الأول من مايو ١٩٨٠.

بعد إبعاد والدي بعامين، التقيت الرئيس الراحل هنا في عمّان، وذلك برفقة والدي.. كنت حريصا على ذلك اللقاء.. كنت أسمع كثيرا عن الرئيس عرفات، وكانت هناك رهبة تملكتني قبل أن أراه.. زعيم، ورئيس، وفدائي، وقائد عسكري.. فور التقائي إياه زالت تلك الرهبة..شعرت أنني أعرفه منذ ولادتي. قابلني بالترحيب، وبابتسامة عريضة، وعانقني، وبدأ يسألني عن كل شيء في القدس، في الخليل.. عن أدق التفاصيل..وسألني عن المسجد الأقصى، وعن الحرم الإبراهيمي.

مضيفا: كانت بداية عملي في القضاء الشرعي.. كنت قد عينت قبل شهور قاضيا شرعيا في محكمة نابلس الشرعية. وبالفعل سألني عن كل شيء. وتكررت الزيارات، التي كانت سرية، لأن اللقاء مع ياسر عرفات في ذلك الوقت كان مسؤولية كبيرة لدى سلطات الاحتلال، ويمكن أن يرسل صاحبه للسجن.

حين انفجرت أحداث مسجد فلسطين في غزة، بعد عودة الرئيس عرفات إلى فلسطين عام ١٩٩٤، كنت موجودا في منزلي في الخليل أشاهد التلفاز، وقد شعرت بوجود أصابع خفية تريد إحداث فتنة بين أبناء الشعب الفلسطيني. وكانت قد شكلت لجنة طوارئ في الخليل بعد أحداث الحرم الإبراهيمي الشريف، وكنت أنا من قادتها، وبصفتي هذه دعوت لاجتماع طارئ للجنة في تلك الليلة، حيث اتفقنا على إصدار بيان موجه أساسا إلى الإخوة في غزة نناشدهم فيه ضبط النفس.

وحذّرت من الأصابع الخفية التي تريد إشعال نار الفتنة بين أبناء الشعب الفلسطيني، وأذكر أنني كتبت تلك المناشدة بيدي، وبعثت نسخة منها إلى المنتدى، حيث مقر الرئيس عرفات في غزة، ونسخة أخرى إلى الدكتور محمود الزهار، الذي طلبت منه أن يذاع النداء عبر مكبرات الصوت في المساجد، وتوجهت في اليوم التالي مباشرة إلى غزة لأتّصل بالطرفين، وحين وصلت غزة، أبلغني الرئيس عرفات أنه كان للمناشدة تأثير سحري، وأنها أنهت حالة الاحتقان التي كانت موجودة في غزة. ومن هنا بدأت علاقة طويلة مع الرئيس الراحل رحمه الله.

وعن مرض عرفات ونقله إلى باريس قال التميمي: كانت تربطني- كما قلت- بالرئيس عرفات علاقات حميمة.. وأذكر أنه في العاشر من رمضان سنة ٢٠٠٤ زرته في مقره في المقاطعة برام الله.. قبل الدخول عليه طلب مني الطاقم الطبي أن أطلب من الرئيس أن يفطر، وأن يوقف صيامه.. وأبلغوني أن حالته خطرة، ولديه تكسّر في الصفائح الدموية، ويجب أن يتوقف عن الصيام، وأن يفطر.

حين دخلت على الرئيس طلبت منه أن يفطر، وبيّنت له الأحاديث النبوية التي تبيح الإفطار للمريض، لكنه رفض، وأصر على أن يبقى صائما.. وطلب مني أن أبقى معه لأتناول معه طعام الإفطار.. وهذا ما حدث.

بعد الإفطار أدينا الصلاة، ثم جلس معنا بعض الشخصيات، أذكر منهم جميل الطريفي، روحي فتّوح، وبدأ يتحدث كعادته عن بعض ذكرياته.. وأهم ما سرده علينا في ذلك الحديث قوله إنه عرضت عليه صورة امرأة عراقية تعذّب تعذيبا مقززا من قبل قوات الاحتلال الأميركي للعراق، وأخذ يبكي بحرارة وحرقة، وهو يقول أين المعتصم؟ أين العرب؟ أين المسلمون؟ امرأة عربية يفعل فيها هكذا؟! وواصل البكاء.

استأذنت الرئيس، وكانت لي زيارة لدولة الإمارات العربية المتحدة. وفي طريقي إلى الإمارات عرّجت على القاهرة، حيث علمت وأنا في العاصمة المصرية أن صحة الرئيس قد ساءت، فعدت فورا إلى رام الله.

كان الفريق الطبي المصري قد حضر، وطرح ضرورة نقل الرئيس إلى خارج المقاطعة لعلاجه. وتحدث أطباء الفريق المصري عن أن سبب تكسر الصفائح الدموية ربما يعود إلى إصابة الرئيس بالأنفلونزا. وقالوا إن لديه التهابات.

وشرح الشيخ التميمي: كنت مرة أثناء مرضه موجودا في تونس، وكنت ذات يوم مدعوا على مائدة الإفطار في منزل السيد فاروق القدومي، وقد تلقى اتصالا هاتفيا من الرئيس عرفات بُعيد تناولنا الإفطار، وقد أبلغه أبو عمار أنه مصاب بأنفلونزا.. وبدوري سألت أبو اللطف: هل يعقل أن يكون مرضه هو الأنفلونزا، وأن يستدعي الأمر استحضار فرق طبية لمعالجته من تونس ومصر؟..أجابني أبو اللطف قائلا: منذ عرفنا أبا عمار وهو كلّما أصيب بالأنفلونزا تنزل الحمّى على أمعائه.

وبيّن محاورنا: كأن الأطباء احتاروا فعلا في تشخيص حالته.. وقد أجمعوا على ضرورة أن يخرج من المقاطعة إلى مستشفى ليتمكنوا من تشخيص الحالة بشكل أفضل.. قالوا إنه يجب أن يخضع لفحوصات وتحليلات في مستشفى، وهو ما لا يمكن إجراؤه داخل المقاطعة.. المهم، ذهب إلى باريس.

وعن مسألة اللحاق بأبي عمار في مشفاه الباريسي وما ثار حولها من غبار إعلامي أوضح الشيخ التميمي: كنت في سفر. وقد عدت حين ساءت حالة الرئيس الصحية.. المهم أنه بعد نقله إلى باريس، التقيت مع الدكتور حسن أبو لبدة، أمين عام مجلس الوزراء في حينه، وذلك في السادس والعشرين من رمضان في مقر مجلس الوزراء في رام الله، حيث كنت ذاهبا إليه لسؤاله في أمر يتعلق بالعمل، وكان حينها الرئيس عباس، وأحمد قريع، وعدد من المسؤولين قد توجهوا إلى باريس لعيادة الرئيس، وقد أخبرني أبو لبدة أن حالة الرئيس سيئة وصعبة.. فقلت له يفترض أن يذهب إليه أحد رجال الدين المسلمين ليكون إلى جواره في هذه اللحظات الحرجة.. رد عليّ أبو لبدة إن هذا الأمر لم يخطر لنا على بال.

وبعد انتهاء لقائي مع أبو لبدة، توجهت إلى الإذاعة، حيث كنت مدعوا للتحدث في برنامج إذاعي.. وبعد انتهاء البرنامج، ومغادرتي للإذاعة، علمت أن الدكتور

أبو لبدة يبحث عني. وقد أبلغني أنه اتصل بالأخوين أبو مازن وأبو علاء، ونقل لهما رأيي، فرحّبا بأن أذهب إلى باريس. وسألني عن جواز سفري، فأجبته بأنه في جيبي.. فقال سنؤمّن لك السفر هذه الليلة. وطلب مني أن لا أتحدث لأحد عن اعتزامي التوجه إلى باريس.

لم أحدّث أحدا، وبعد مغرب ذلك اليوم توجهت إلى جسر الملك حسين، وغادرت إلى عمّان.. وكان موعد سفري في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل إلى كوبنهاجن، ومنها إلى باريس.

قبل أن أصل عمّان تلقيت اتصالا هاتفيا من أحد اصدقائي، سألني أين أنت؟ أجبته أنا في المسجد الأقصى أحيي ليلة القدر..! قلت ذلك حفاظا على سرية المهمة كما طلب مني. لكنه رد عليّ قائلا أنت ذاهب إلى باريس..!

سألته من أين لك بهذه المعلومة؟ أجاب إن موقع صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية ذكر أن الشيخ التميمي ذاهب إلى باريس ليفتي برفع الأجهزة الطبية عن الرئيس ياسر عرفات!

قلت لنفسي هذه مصيبة.. هذه ليست الحقيقة.. الإعلام الصهيوني يزوّر الحقائق كعادته. وحين وصلت عمّان، أخبرت أن قناة الحرة الأميركية ذكرت أن الشيخ التميمي متوجه إلى باريس حاملا كفن الرئيس عرفات!!

في الطائرة صادفت طاهر المصري رئيس وزراء الأردن الأسبق، والدكتور حنا ناصر رئيس جامعة بيرزيت، وكانا متوجهين إلى الولايات المتحدة عن طريق كوبنهاجن.. وقد أخبراني أن كل الإعلام يتحدّث عن زيارتي لباريس.. وسألاني ما الأمر؟

المهم وصلت في الساعة الثانية من فجر اليوم التالي إلى باريس، حيث كان في انتظاري بمطار باريس الدكتور ناصر القدوة، والسفيرة الفلسطينية ليلى شهيد، وقد ذهبت معهما إلى المستشفى. حين وصلنا المستشفى رفضت النزول من السيارة، قائلا هذا ليس المستشفى، فقالا لي بل هو!

أعدت عليهما إنني شاهدت المستشفى مرارا على شاشات التلفزة، وهذا ليس المستشفى فأكدا أن هذا هو المستشفى، ولكننا نريد الدخول من باب خلفي لنتجنب الإعلام.. فقلت لهما أما أنا فأريد أن أتحدث للإعلام، لأن الإعلام الإسرائيلي قال إنني قادم لأفتي برفع الأجهزة عن الرئيس، مشوها بذلك الهدف من زيارتي، ولا بد من أن أوضّح المسألة.

طلب مني الدكتور القدوة أن أهمل الأمر، قائلا إنه سيعالج الموضوع في أحد لقاءاته مع الإعلام، فقلت له بل أنا الذي يجب أن أبين الحقيقة، لأن ما يروّجه الإعلام الإسرائيلي أكاذيب وأباطيل، وهذا اتهام لي بأني أريد أن أرتكب جريمة الإفتاء برفع الأجهزة الطبية عن الرئيس.

وبالفعل، تحدثت لأجهزة الإعلام على مدخل المستشفى، وقبل أن أرى الرئيس عرفات، حيث قلت بصراحة إن رفع الأجهزة الطبية عن أي مريض محرم شرعا، طالما أن مظاهر الحياة موجودة لديه، وهي الحرارة والحركة. وأكدت أن هذا محرم في كل الأديان.

بعد ذلك دخلت إلى المستشفى، فأبلغت أن الجنرال مدير مستشفى بيرسي العسكري يريد رؤيتي، حيث أبلغني اعتذاره عن عدم السماح لي بلقاء الرئيس عرفات..سألته لماذا؟! أجاب لأني رجل دين!!

وقال نحن دولة علمانية، وقد علمنا أنك ستقوم بأداء طقوس دينية، وهذا يتنافى مع مبادئنا العلمانية. فقلت له يوجد في باريس الكثير من المساجد والكنائس، ومن يقوم بأداء الطقوس الدينية، وهذا أمر مستغرب صدوره عنك. وهذا من حقوق الرئيس عرفات كإنسان. لكنه ظل رافضا.

عند هذا الحدّ قلت له إنني سأعود إلى مندوبي الوسائل الإعلامية وأبلغهم أن فرنسا منعتني من رؤية الرئيس ياسر عرفات بسبب مبادئها العلمانية..! وغادرت

مكتب الجنرال، ولحق بي الجنرال والدكتور ناصر القدوة، الذي ترجم لي قول الجنرال إنه يريد التحدث مع المصادر العليا في قصر الإليزيه في أمر زيارتي للرئيس.

بعد نصف ساعة جاءني الجنرال وقال لي إنه مسموح لي بالذهاب لرؤية الرئيس على أن لا أطيل الزيارة أكثر من دقائق معدودة، فأجبته بل سأظل إلى جواره حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

ونحن في طريقنا إلى الرئيس، في غرفة العناية الحثيثة، سألني الدكتور رمزي خوري، مدير مكتب الرئيس في حينه: كيف قوة أعصابك؟ أجبته قوية والحمد لله.. نحن ندفن كل يوم شهداء ونلملم أشلاء الذين تقتلهم قوات الاحتلال.. فقال لي إن حالة الرئيس عرفات مفزعة وأن الأخ أحمد قريع حين دخل إلى الرئيس وقع على الأرض مغشيا عليه!

ووصف الشيخ التميمي الحالة المزرية التي وجد عليها عرفات قائلا: حين دخلنا إلى الرئيس كان الأمر مفزعا..وجدت رأس الرئيس منتفخا ومتورما بحيث أصبح حجمه تقريبا ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي، وكان الدم ينزف من مختلف أنحاء رأسه ووجهه.. كانت الدماء تنزف من مسامات جلده وأذنيه وعينيه،..من محيطيهما..كانت الدماء تنزف ومن كل مكان..الحقيقة أنني لم أتمالك نفسي، وكدت أن أقع مغشيا علي، لولا أنني تمالكت نفسي، وأغمضت عيني وتلمست الطريق حتى وصلت إلى مقعد موضوع بجوار الرئيس.

كان هناك تغير كبير في شكل وجه الرئيس..كان وجهه محتقنا..والنزف الدموي يبدو أنه كان ناتجا عن تفجر شرايينه، أما ملامحه فقد كانت كما هي. المهم..جلست إلى جواره، وبدأت أتلو آيات من الذكر الحكيم.

ونقل الشيخ التميمي اللحظات الأخيرة للرئيس الراحل قائلا: بقيت إلى جواره، وبعد فترة من الزمن، تمكنت من النظر إلى كتفه، وكانت مرتفعة، ولحظت أن كتفه

تتحرك..ارتعش ثلاث مرات.. وهذا شجعني على أن ألمس جسده.. لمسته من كتفه الذي ارتعش. كان دافئا.. بعد أن لمسته خرجت للإعلام وقلت إن الرئيس حي يرزق..مظاهر الحياة من حركة ودفء موجودة فيه. ولكني قلت أيضا إن وضعه صعب. وعدت إليه مرة أخرى، وغادرت قبل الإفطار إلى الفندق لأتناول طعام إفطاري. وعدت للرئيس ثانية بعد الإفطار..فوجدت تحسنا لدى الرئيس.

وأضاف التميمي: قبل أن أخرج كان نبضه بطيئا جدا.. وحين عدت إليه وجدت أن نبضه بدأ ينتظم، كما أن النزيف بدأ يخف. وظهر نوع من الارتياح على وجهه.. كان لديه نزيف مع احتقان، فأصبح يبدو على وجهه شيء من الارتياح والصفرة بدلا من الزرقة..أنا قلت إنه تحسّن. وبقيت إلى جواره، وشاركني الأطباء الرأي في أنه بدأ يتحسن..وقد بقيت إلى جواره حتى الثالثة والنصف صباحا إلى أن فارق الحياة، شارحا: لم نشعر بأيّ شيء.. بالعكس هو كان في غيبوبة، ولذلك لم نشعر بمظاهر الاحتضار المعتادة. الأجهزة هي التي أبلغت بتوقف النبض والتنفس.

وأوضح أن الأطباء حاولوا المحافظة على حياته عبر شحن بعض الأجهزة بالأدوية المنشطة، ولكن لم ينجحوا.

وكشف التميمي: كان هناك عدد من المصاحف.. حينما دخلت المستشفى، قالوا لي إنه طلب سجادة صلاة، ومصحفا..كان يواظب على الصلاة قبل أن يدخل في غيبوبة. رأيت عددا من المصاحف في غرفته.

وعما راج حول فرضية تسميم الرئيس عرفات بيّن الشيخ التميمي: تحدثت مع الأطباء.. قالوا لقد أجرينا فحوصات عديدة ولم نعرف سبب المرض أو سبب الوفاة. وقالوا عن احتمال تسميمه إنهم أجروا عشرات الفحوص التي تتعلق بالسم.. وأن الفحوصات لم توصلهم إلى نتيجة".

وأضاف الشيخ التميمي: أنا سألت في ما بعد، ووصفت حالة الرئيس كما شاهدتها للعديد من الأطباء، وقلت لهم إن الدم كان ينزف من مسامات جلده فقالوا إن

السم يذهب بخاصية التجلّط، ويصبح الدم كالماء. وما يؤكد ذلك أنه بعد وفاته بأربع ساعات، وحينما قمنا بتغسيله، استمر نزول الدم فاضطررنا أن نضع أشرطة طبية لاصقة (بلاستر على مناطق خروج الدم في وجهه حتى نتمكن من تغسيله، مضيفا: جاء عدد من الإخوة من مسجد باريس، وتولوا تغسيله، وأشرفت أنا على تغسيله وتكفينه. وكانوا مختصين بأمر تغسيل الموتى. وقد قمت بالصلاة عليه ووضعه في الثلاجة.

وتابع الشيخ التميمي شارحا ما حف بعملية الدفن من ظروف استثنائية: عدت إلى عمّان، ومنها إلى رام الله في ذات الليلة، ومن هناك توجهت للقدس، حيث أتيت بتراب من جوار المسجد الأقصى، ووضعته في قبر الرئيس.. وانتظرنا وصول الجثمان من القاهرة يوم الجمعة.. وعندما وصل الجثمان إلى المقاطعة بعد العصر، كانت جموع غفيرة في انتظاره..

أكثر من مائة ألف فلسطيني جاؤوا من كل مكان بالرغم من الحواجز التي وضعتها قوات الاحتلال.. ولم نستطع إخراج النعش من الطائرة إلا بصعوبة.. وكان هناك ترتيب يقضي بأن يوضع النعش في قاعة المقاطعة لإلقاء نظرة الوداع عليه من قبل المسؤولين، والسلك الدبلوماسي..لكننا لم نتمكن من إيصال النعش إلى القاعة بسبب الازدحام الشديد. وبصعوبة بالغة تمكنا من الوصول إلى القبر.. وذلك بعد أكثر من ساعتين من إنزاله من الطائرة.. مسافة أمتار استغرق قطعها أكثر من ساعتين.

وتابع محاورنا: أنا نزلت إلى داخل القبر كي أضعه فيه وألحده وفقا للشعائر الإسلامية. وحينما أنزلنا النعش، بدأ الناس يتساقطون عليه. وكانت هناك شائعة تقول إن كتائب شهداء الأقصى ستقوم باختطاف الجثمان بهدف دفنه في القدس. شعرت في تلك اللحظات أنني سأفقد السيطرة على الوضع، فأصدرت أمرا بإغلاق القبر، ودفنه وهو داخل التابوت. وهذا ما حدث، وهو ما أثار استياءً لدى البعض..

تساءلوا كيف يتم دفن الرئيس وهو داخل النعش؟! وقالوا هذا يتنافى مع تعاليم الإسلام. قلت لهم أنا المسؤول، وأنا أتحمّل المسؤولية. وعدت للمقاطعة ليلا، وطلبت من الطيب عبد الرحيم أمين عام الرئاسة أن يأمر بتجهيز عدد من أفراد الحرس الرئاسي في الثانية بعد منتصف الليل.

سألني لماذا؟ أجبته لنقوم بدفن الرئيس..! سألني ما الذي فعلته إذا؟! فشرحت له أن الوضع حال دون دفنه وإخراجه من النعش، فرأيت أن أقوم بذلك على مرحلتين.. والآن أريد عددا من الحراس ليساعدوني في دفنه مجددا. وهذا ما حدث بعد الثانية والنصف من فجر السبت.. وكانت كاميرات الفضائيات لا تزال تصور من على أسطح العمارات المحيطة بالمقاطعة.

ولذلك، وحتى لا تصور وتبث الفضائيات وقائع ما سيجري، طلبت شادرا (خيمة غطينا به القبر، وكانت معنا إضاءة يمكن أن تظهر وجود حركة خلف الشادر، لذلك طلبت عددا من سيارات الدفاع المدني، وطلبت من سائقيها أن تحيط سياراتهم بالقبر، كي لا يرى أحد ما يجري. وقمنا بنبش القبر مجددا، وأخرجنا التابوت، ثم أخرجنا الجثمان من التابوت، وكشفت عن وجه الرئيس، وكان قد مضى ٢٤ ساعة على وفاته، فوجدت أن رأسه قد عاد إلى حجمه الطبيعي، وكان مبستما مضيئا شديدة البياض يميل إلى الصفرة..

عاد وجهه ليس إلى لونه الطبيعي، وإنما أكثر بياضا..وقمت بلحده وفقا للطقوس الإسلامية، ووضعته على جنبه الأيمن، ونثرت عليه حفنات من تراب المسجد الأقصى. وقبل ذلك قمنا بالصلاة عليه مرة أخرى خارج القبر. ودفنته بعد الصلاة عليه وفقا لما شرحت. وبعد إكمال الدفن، طلبت من الحراسات وضع التابوت في المقاطعة..وأن يحافظوا عليه.. في صباح اليوم التالي اتصل بي المحافظ مصطفى عيسى قائلا هناك شائعات تقول إنك دفنت الرئيس وهو داخل التابوت..! هناك تذمر..! أجبته ردي على هذه الشائعات أن التابوت موجود في المقاطعة..اذهب وشاهده بنفسك.

وأوضح الشيخ التميمي:. في المرة الأولى عندما دفن داخل التابوت، قمنا بعد أن وضعنا البلاطات على قبره بصب إسمنت غير مسلح لا تتخلله قضبان الحديد فوقها، ووضعنا ترابا فوق الإسمنت. وعندما نبشنا القبر قمنا بتكسير الإسمنت. وفي المرة الثانية، وضعنا البلاط، وفوقه أيضا إسمنت غير مسلح.

وشرح الشيخ سبب ذلك بالقول: حينما صممنا القبر، بعد وصولي إلى رام الله، صممناه بحيث يسهل نقله من مكانه.. وضعت له مقابض حديدية..لقد أوصاني وهو في مرضه، حين زرته في العاشر من رمضان، وطلب مني البقاء وتناول طعام الإفطار معه، بأن يتم دفنه في المسجد الأقصى. قال لي أنا رجل كبير في السن.. عمري ٧٤ سنة..هل تريد مني أن أفطر وأنا في هذا العمر؟ رددت عليه أنت يا أبو عمار صحتك ليست ملكك..هي ملك الشعب الفلسطيني. فأخذ يتأمل، وقال لي على فكرة.. إذا مت فوصيتي هي أن تقوم بدفني في القدس.. في المسجد الأقصى..وبالفعل صمم القبر بحيث يسهل نقله بكامله في المستقبل بعد تحرير القدس إن شاء الله تعالى.

وختم الشيخ التميمي كاشفا: في الدفنة الثانية لم يكن موجود أحد سواي وعدد من الحراس.. وأبو مازن ذكرت له التفاصيل في ما بعد فأبدى استحسانا لما حدث.

وقد خرجت أرملة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات عن صمتها في الذكرى الثالثة لرحيله قائلة إن سر موته "دفن معه" نافية ما تردد سابقا بأنه ترك لها ملايين الدولارات ومؤكدة أنه لم تكن له"وصية مكتوبة" بل وصية "معنوية تدعو للتمسك بالثوابت".

وتحدثت سهى عرفات عن فترة مرض "ابو عمار" وحقيقة ما جرى في المستشفى الفرنسي العسكري حيث كان يعالج. وقالت "لم يستطع أحد كشف سر استشهاد أبو عمار، وجاءت التقارير الطبية من دون تحديد السبب الطبي لحالته، لقد دفن سر موته معه"، بحسب تقرير أعدته الصحافية بارعة علم الدين ونشرته صحيفة "الحياة" اللندنية.

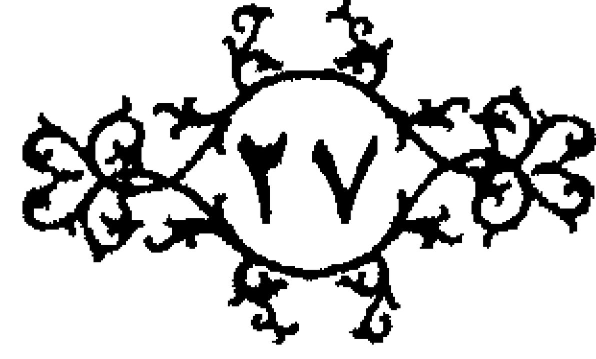
وروت كيف أنها في فترة دخول "أبو عمار" في الغيبوبة، اتبعت نصيحة الأطباء الذين قالوا لها إن بعض المرضى يستجيب لدى سماعه موسيقى أو قصصا محببة إلى قلبه، فوضعت لعرفات تسجيلات قرآنية في غرفة العناية الفائقة ليلاً ونهاراً، خصوصا سورة مريم التي كان يحبها كثيراً، "ثم كنت أحدثه عن طفولته ووالدته وعودته إلى القدس، فهذه كانت آخر أحاديث أبو عمار لي قبل مماته ودخوله في الغيبوبة".

وأكدت أن عرفات "لم يترك وصية مكتوبة، بل ترك وصية معنوية لابنته (زهوة وللشعب الفلسطيني وهي التمسك بالثوابت". وتابعت: "لطالما أوصاني أبو عمار بدفنه في القدس، مدينة والدته، وأتمنى على السلطة الفلسطينية أن تضع على ضريحه الموجود اليوم في رام الله أن هذا الضريح مؤقت، وسأعمل حتى آخر يوم من حياتي على نقل جثمانه ودفنه في القدس".

ونفت سهى أن يكون عرفات ترك لها ملايين الدولارات ومنازل وأراضي وأنها تعيش حياة بذخ، وقالت إن هذه المزاعم تأتي في سياق "حملة إعلامية غربية وعربية بدأت تطاول أبو عمار عشية الحصار، وتعدته بعد ذلك لتطاول عائلته، وهي لا تزال مستمرة ... بعد استشهاده للنيل منه كرمز وكتاريخ". كما نفت الأخبار التي تحدثت عن صفقة قدمت بموجبها السلطة الفلسطينية لها ملايين الدولارات،

وقالت "كل ما قدمته لي السلطة هو معاش شهري بدل معاش التقاعد لزوجي، وهذا المبلغ معروف ومعلن وهو عشرة آلاف دولار شهرياً، وذلك لتعليم زهوة ولتأمين حياة كريمة لي ولها".





الملك فاروق ..

○○○



في مساء يوم الخميس التاسع عشر من شهر مارس عام ١٩٦٢ دق جرس التليفون في منزل «آنا ماريا». كان الملك فاروق على الناحيةِ الأخرى يدعوها لقضاء السهرة معه في مطعم « آبل دوفرانس» الذي يعد من أفخر مطاعم روما وافقت «آنا ماريا» على الفور.

وقبل أن تمر ساعة كان فاروق قد ذهب لاصطحابها من بيتها إلى المطعم، الذي كان الملك أحد الوجوه المعروفة بين رواده، وما أن وصل الاثنان حتى جلسا إلى

المائدة التي كانت محجوزة باسم الملك والذي كان يبدو بشهية مفتوحة تماماً في تلك الليلة واختار العشاء بنفسه من المحار واللحوم والفواكه. تناول فاروق بشراهة كميات كبيرة من الطعام، رغم تحذيرات أطبائه الذين كانوا يقولون له إن إفراطه في كل شيء سوف يصيبه يوماً ما بأزمة قلبية قد تنهي حياته!

كان فاروق يتحدث في حماسة إلى «آنا ماريا» عندما توقف فجأة عن الكلام واصفر لون وجهه. ثم سرعان ما راح في غيبوبة وسقط بنصف جسده الأعلى إلى مائدة الطعام!

وأسرع مسؤولو المطعم والعاملون فيه يحاولون إنقاذ الملك. لكنه ظل في الغيبوبة نفسها، أسرعوا بنقله في سيارة إسعاف إلى أحد المستشفيات. ولم يبدأ الأطباء عملهم إلا واكتشفوا أن الملك فاروق قد رحل عن الدنيا إلى الأبد! وفى الليلة نفسها رقد جثمان الملك فاروق في المستشفى وعثر في جيوبه وملابسه على كمية من الدولارات الأميركية والليرات الإيطالية. وعلى نظارته وعلبة دواء من الذهب وساعة يده ومسدسه الشخصي!

وفى الليلة نفسها.. عادت صديقته «آنا ماريا» التي رافقته من المطعم إلى المستشفى. عادت بعد أن تأكدت من وفاته إلى بيتها في سيارة تاكسي!

نقلت وكالات الأنباء خبر وفاة الملك فاروق آخر ملوك مصر. وفى اليوم التالي بدأ أفراد أسرته يتجمعون من بلاد متفرقة في مطار روما للمشاركة في تشييع جنازته، زوجته الأولى «الملكة فريدة» حضرت من بيروت حيث كانت تقيم في ذلك الوقت، بناته الأميرات فريال وفوزية وفادية وزوجها الروسي «بيير أورلوف» حضرت في لوزان في سويسرا، حتى الملكة ناريمان استعدت للطيران من القاهرة إلى روما لتشارك في الجنازة ولترى ابنها الصبي الأمير أحمد فؤاد. الذي كان قد حضر مع أخواته الأميرات الثلاث.

تقدم الأمير الصغير أحمد فؤاد المشيعين الذين لم يزيدوا عن العشرات. لم تظهر الملكة نازلي أم الملك الراحل. فقد كانت تعيش وقتها في الولايات المتحدة الأميركية. تم دفن جثمان الملك الذي صنع نعشه من خشب الجوز في مدافن فيرانو في روما. وقيل إن فاروق قد أوصى بأن يدفن جثمانه في المملكة العربية السعودية. لكن الجثمان استقر بعد سنوات في المقابر الملكية لأسرة محمد على في مسجد «الرفاعي» الكبير في القلعة بالقاهرة إلى جوار آبائه وأجداده الذين حكموا مصر سنوات وسنوات.

يوم رحيل أي إنسان عن الدنيا هو النقطة الأخيرة بعد الجملة الأخيرة في الفصل الأخير من كتاب قصة حياته.

وما بين الفصل الأول والكلمة الأولى في كتاب حياة الملك فاروق آخر ملوك مصر من سلالة أسرة محمد على سطر تاريخ هذا الملك الذي اختلف حوله المصريون فصولاً تمتلئ بالإثارة والأحداث العنيفة التي انتهت بثورة يوليو ١٩٥٢ وطرده من مصر، وحياته في المنفى في إيطاليا حتى ليلة العشاء الأخير مع صديقته الإيطالية الحسناء، هذا العشاء الدسم من المحار واللحوم والفواكه الذي انتهى بتوقف قلبه المثقل عن النبض ووفاته المفاجئة وهو في قمة الصحة على منضدة العشاء في المطعم الإيطالي!

ولقد كان والده الملك الراحل فؤاد هو الذي أعطاه وأعطى شقيقاته الأسماء التي تبدأ بحرف الفاء فاسماه «فاروق» وأعطى لشقيقاته أسماء «فوزية» و«فايقة» و«فتحية» و«فايزة» أما السبب فقد روى عن الملك فؤاد أنه التقى ذات يوم «أيضا في إيطاليا» بأحد المنجمين المعروفين، وتنبأ له هذا المنجم بأن حرف «الفاء» هو حرف سعده وتعويذته السحرية مع الحظ السعيد، فأعطى الملك فؤاد لابنه وبناته هذه الأسماء التي تبدأ بحرف «الفاء»، والذي تحول فيما بعد إلى «حرف ملكي» يطبع على كل ما يخص ابنه الملك فاروق الذي ورث عنه عرش مصر على الأعلام والأوراق وحتى أدوات المائدة!

وجلس فاروق على عرشه وما زال شابا صغيراً، وفى بداية حكمه كان كثير من المصريين يتحمسون له ويؤيدونه بحماسة، فقد كان الملك الشاب يظهر بوجه آخر غير وجه والده المتغطرس العنيد وكان يظهر في كثير من الأحيان مع العامة وبسطاء الناس في صلاة الجمعة في بعض مساجد القاهرة!

لكن هذا الحب وتلك الحماسة لم يكن لهما دوام طويل، فقد انخرط الملك فاروق سريعاً في دوامات السياسة ومؤامرات القصور، ثم بدأ المصريون يتناقلون عنه قصص الحاشية الفاسدة التي عاش في أحضانها وحكايات سهراته ومغامراته ونزواته.

وأغلب الظن أن الملك فاروق ظل حتى اللحظة الأخيرة لوجوده على عرش مصر، يعيش في عالم آخر غير واقع بلده المتردي ومراجل الغضب والثورة التي كانت تفور في حواري وبيوت القاهرة والتي كانت قد احترقت واندلعت ألسنة اللهب في قلبها، في حين كان الملك فاروق يقيم مأدبة عسكرية في حديقة قصر عابدين، احتفالاً بمولد ولي عهده الأمير أحمد فؤاد!

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ بعد منتصف الليلة الثانية والعشرين من ذلك الشهر، وبعد ثلاثة أيام أحاطت الدبابات وضباط الثورة بقصر رأس التين في الإسكندرية حيث كان الملك فاروق أخيراً قد استوعب أن هناك ثورة وأن عليه أن يترك أخيراً عرش أسرة محمد علي، بل أن يترك مصر كلها إلى المنفى الذي اختار أن يكون في إيطاليا، تماما كما فعل جده الخديوي إسماعيل الذي اختار لنفسه المنفى ذاته!

غادر الملك فاروق مصر إلى الأبد على ظهر اليخت الملكي « المحروسة»، مع زوجته الثانية الملكة « ناريمان» وطفلهما الأمير الوليد أحمد فؤاد وبناتهما الصغيرات الأميرات «فريال» و«فوزية» و«فادية»، وقيل أيامها الكثير حول ثروة مزعومة كان الملك فاروق قد قام بتهريبها إلى خارج مصر قبل رحيله عنها وهناك من زعم أن فاروق قام بتهريب ٢٥٠ مليون دولار وآخرون أكدوا أن ثروة فاروق في الخارج لم تزد عن ثلاثة ملايين دولار!

على أن فاروقا الملك المطرود حاول أن يبدو في سنوات منفاه الأولى في إيطاليا، كما لو أنه مازال يعيش حياة الملوك المرفهة فظل يرتدي الملابس الفاخرة ويتردد على أشهر النوادي والملاهي الإيطالية.

لكن المؤكد أن سنوات المنفى حملت له الكثير من المتاعب، فقد ساءت في البداية العلاقة بينه وبين الملكة ناريمان، وانتهت المشاكل بينهما بالطلاق، وعادت «ناريمان» إلى مصر، في حين طلب الملك فاروق من صديقه «رينيه» أمير موناكو وزوجته الممثلة الحسناء جريس كيلي الإشراف على رعاية وتربية الأمير الصغير أحمد فؤاد الذي اختارت له جريس كيلي أن يدرس في سويسرا.

وهكذا انغمس فاروق أكثر في حياة الليل في علب وملاهي روما، وبدأت الصحف تتناقل أخبار مغامراته العاطفية مع حسناوات روما، وكانت أشهر هذه القصص بطلتها « إيرما كابتشي» الحسناء الإيطالية ذات الثلاثة والثلاثين عاماً.

كان فاروق قد شاهد إيرما لأول مرة في أحد ملاهي روما الليلية وشعر بالانجذاب نحو هذه الفتاة الإيطالية التي كانت تحلم بأن تكون مطربة شهيرة. وتوثقت العلاقة بين الملك المخلوع والإيطالية الطموح.

وكان فاروق يقول لـ «ايرما» إنه مؤمن بأنها موهوبة بالفعل وأن صوتها ساحر، حتى أنه تمكن من أن يدير لها حفلا موسيقياً دعا إليه بعض النقاد الفنيين في مدينة نابولي، لكن هؤلاء لم يقتنعوا بموهبة عشيقة الملك الجميلة. ورغم شائعات زعمت بعد ذلك أن فاروقا سوف يتزوج «إيرما» إلا أن العلاقة بينهما انقطعت فجأة، وذهبت «ايرما» إلى حال سبيلها، في حين عثر الملك على صديقة إيطالية أخرى ساحرة الجمال أيضاً هي «آنا ماريا جاتي»، والتي ظلت معه حتى آخر نفس له في الحياة!

والحقيقة لم يتصور الملك فاروق أن آخر أمر ملكي سيقوم بالتوقيع عليه هو التنازل عن العرش لابنه الأمير أحمد فؤاد الثاني وفاروق لم يتجاوز الثانية والثلاثين

من عمره..وقعه فاروق والدموع تنهمر من عينيه،كان علي ماهر هو نفس رئيس الوزراء الذي استقبله عندما عاد من إنجلترا بعد وفاة والده الملك فؤاد واليوم يودعه نفس الرجل الذي استقبله من قبل.

إذإنه في التاسعة من صباح ٢٦يوليو١٩٥٢أحاطت قوات من الجيش قصررأس التين بالإسكندرية الذي كان فيه الملك في ذلك اليوم وكانت معدات الحرس الملكي مستعدة للرد إضافة إلي مدفعية القوات البحرية التي كانت في انتظار إشارة من الملك للرد ولكنه رفض قاطعا أن تحدث حرب أهلية.وكان فاروق في الساعة السابعة ونصف يطل من شرفته علي القوات الموجودة حول القصر البالغ عددها٢٠٠جندي وضابط وكان ينظر إليهم بشىء من الحسرة فالأمر في هذه يختلف عن المرة السابقة٤فبراير١٩٤٢فلقد كانت الدبابات في المرة الأولى إنجليزية تدفع بالنحاس لرئاسة الحكومة...أما هذه المرة فالقوات مصرية خالصة ولا يعرف أحد مطالبها.

وفي الساعة التاسعة صباحا نزل الملك فاروق من الدور العلوي للقصر إلى الدور السفلي. وكانت لفته غريبة من الملك فقد كان يرتدي زي القائد الأعلي للقوات البحرية حتى إن الجميع اندهش لذلك...وما هي إلا دقائق قليلة إلا وحضر علي ماهر باشا إلي القصر وبرفقته سليمان حافظ(مستشار الرأي لمجلس الوزراءومعهما وثيقة التنازل وضرورة مغادرة الملك للبلاد قبل السادسة من مساء اليوم،ودخلا إلى الملك في القاعة الرئيسية للقصر وبقيا معه لمدة عشر دقائق بعدها بدأ الملك يصرخ في علي ماهر وسليمان حافظ قائلا:فين السودان؟وهنا تشاور علي ماهر وسليمان حافظ معا وقاما بتعديل بعض الكلمات بالوثيقة وأعطياها للملك مرة ثانية، وقام سليمان حافظ بنسخ الوثيقة بالخط الديواني ليقوم الملك بالتوقيع عليها وكانت النسخة الأولي(سبب صراخ فاروققد كتب فيهانحن فاروق الأول ملك مصرفقط دون أن تذكر كلمة السودان ،وكان هذا هو اعتراض فاروق الوحيد في وثيقة التنازل عن العريش..

واختار فاروق أن يسافر إلي إيطاليا وطلب أن يصحبه إلي هناك ثلاثة ضباط من حرسه الملكي...الغريب الحسيني(حارسه الخاص)اليوزباشي بهاء الدين باهي(من الحرس الملكي)واليوزباشي محمد عمر حسن(من الشرطة،ووقتها طلب فاروق من حارسه الخاص:يا حسيني...ما تسبنيش كما طلب فاروق وقتها منه ألا يصوره أحد وهو يغادر مصر رغم أنه كان يعلم صعوبة ذلك في وجود كثير من المصورين ومندوبي وكالات الأنباء والصحفيين وقبل خروج فاروق من القصر أكد علي حارسه ثانية بالأ يتركه قائلا:يا حسيني ما تسبنيش أنا حاسس أنهم يقتلوني فقد شعر الملك بأن هناك محاولة لاغتياله والسبب هو كم المدفعية الساحلية الموجودة حول القصر..ومن الساعة الرابعة تماما اصطف طابور حرس الشرف من أفراد الحرس الملكي...وخرج الملك في الخامسة تماما وقد حرص أن يكون مرتديا زِيَّ البحرية المصرية وهي القوات الوحيدة التي أعلنت ولاءها الكامل له بعد إذاعة بيان الثورة،وخرج فاروق من القصر وهبط درجات السلم بصعوبة.

وبعد أن استعرض الملك حرس الشرف اتجه مباشرة لركوب اللنش للذهاب إلي يخت المحروسة وأطلقت المدفعية طلقاتها تحية للملك ورد بأداء التحية العسكرية..وتحرك اللنش البحري في طريقة إلي المحروسة،وقبل وصوله كانت هناك قوارب شراعية تحمل المواطنين تقترب من اللنش ويشير أفرادها بأيديهم لتحية الملك والذي كان يرفع يديه لرد تحيتهم...

وكان فاروق هو الذي اختار السفر بحرا من خلال المحروسة(التي أقلت إسماعيل عقب عزله قبل ذلك إلى إيطاليا.

وكان فاروق قد طلب من علي ماهر أن يحافظ علي كرامته في وثيقة التنازل.. فطمأنه علي ماهر وذكر له أنها ستكون على مثال الوثيقة التي تنازل بها ملك بلجيكا عن عرشه وأنه ستتخذ جميع مراسم التوديع التي تجري عادة عند مغادرة

الملك البلاد وأن ترافق مدمرتان مصريتان المحروسة أثناء السفر...فكان قائد المحروسة الضابط بحري جلال علوبةالذي قال إن الملك فاروق قبل أرض مصر قبل مغادرته وهو ما جعل كل الموجودين من رجال الثورة يتأثرون وعلى رأسهم محمد نجيب...

رحل فاروق ومعه أسرته(الأميرات وولي العهد وناريمارن زوجتهسألت الأميرة فادية حارسه الخاص ببراءة الأطفال:احناح نرجع مصر إمتي...أنا نفسي أشوف ماما...أحسن وحشتني قوي وهو ما أثر علي هذا الرجل وغير مجري الحديث مع هذه الطفلةوكان فاروق قبل سفره خائفا مما حدث حتي إنه طالب بحضور السفير الأمريكي وعلي ماهر ضمانا لسلامته الذي وعده علي ماهر بتلبية ذلك..عندما غادر فاروق مصر كان يمتلك ٥ملايين جنيه في الخارج -وهي التي عاش بها-ولم يكن معه أوراق رسمية عندما وصل إلي نابولي،والتي أراد بعدها أن يذهب إلى جنوةوذلك عبر عبارة أخرى تم تأجيرها له لأن الأوامر كانت تقتضي توصيله إلى نابولي فقط...

وكان مع فاروق في رحلته بالإضافة إلي حراسه مجروعة من إيطاليين... الحلاق...مدرب الكلاب وكان في استقبال فاروق السفير المصري في إيطاليا عبد العزيز بدر وقابل الملك وأخبره بأن مندوبا من الخارجية الإيطالية ينتظر السماح له بالصعود لتحية الملك والترحيب به...فلم يأذن له...فقد أستاء من هذا الاستقبال الفاتر وخاصة أنه كان يصحبه ولده الملك أحمد فؤاد الثاني ملك مصر والسودان...وعليه طلب فاروق من السفير استئجار معدية(فيري بوت) لتنقله إلى جزيرة كابري...

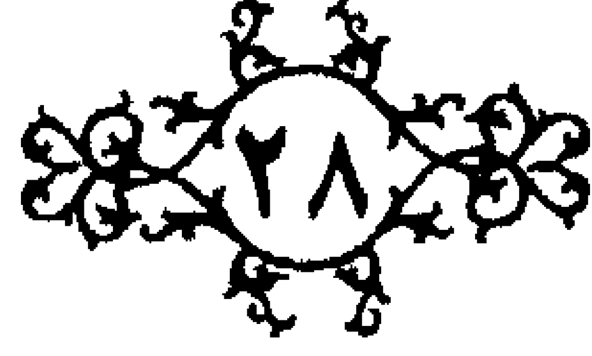
أما عما أخذه فاروق فكان(٢٢حقيبة تحوي بداخلها طعاما لأن فاروق طلب عند مغادرته لرأس التين أن يأخذوا بدلتين خفيفتين فقط..وهكذا رحل فاروق عن مصر ليبدأ حياة جديدة في إيطاليا كان لها طابعها الخاص...

ولكن برغم حياة فاروق في مصر وإيطاليا من الرفاهية إلا إنه أصيب في سنة١٩٦٤م بانسداد بسيط في الشريان التاجي برغم إنه لم يكن مسنا إذ كان يبلغ عامة الرابع والأربعين.

وفي ١٧ مارس١٩٦٥وفي الواحدة والنصف صباحا...توقف نبض الملك فاروق نهائيا وهو في الخامسة والأربعين من عمره...والذي كان قد عبر فى إحدى رغباته في أن يدفن بجوار والده وبجوار أسلافه وقد نجحت مساعي أحد أقربائه وهو إسماعيل شرين لدي سلطات مصر بأن يتم إحضار جثمان فاروق للقاهرة وهو ما وافق عليه الرئيس عبد الناصر....

وفي يوم٢٧من مارس١٩٦٥نقلت طائرة جثمانه إلى القاهرة والتي وصلتها في منتصف الليل ومن مطار القاهرة تم نقل الجثمان إلى قبر إبراهيم بن محمد علي.





أدولف هتلر..

ooo



في يوم ١٤ أبريل عام ١٩٤٥ورد في أمر هتلر اليومي الإشارة إلى الخونة من الضباط، وإلى أن القوات الروسية ستجعل نساء ألمانيا مومسات في ثكنات الجنود! وتحدث عن الرئيس الأمريكي تيدور روزفلت ووصفه بأنه أكبر مجرم حرب عرفته البشرية! وأخذ يفخر بنفسه معدداً مآثره.

نزحت عشيقة الفوهرر المحظية - اليهودية إيفا براون — من مدينة ميونيخ إلى برلين، لتبقى بجانبه، ولتموت بين ذراعيه في تلك الساعات العصيبة من توالي

القصف واقتراب قوات الحلفاء من مخبئه، كانت متوسطة الجمال والعقل ! ولم تكن صورتها تلائم شخصية عشيقة رجلٍ شهيرٍ اختطف بريق الأضواء حتى اليوم، والذي يظهر أنها جاءت إلى برلين لا حباً في هتلر أو عشقاً له، بل جاءت لتغرق كالجرذ داخل السفينة التي جنحت فوق الصخور ! ولم يشاطرها هذه النهاية المأساوية سوى وزير إعلام الدعاية النازية الدكتور جوبلز وزوجته ماجدة وأطفالهما الستة !

احتفلت إيفا براون عشيقة هتلر بعيد ميلاده في ٢١ إبريل مع المقربين للزعيم الألماني في ذلك المخبأ، وهو اليوم الذي فقد فيه الألمان الأمل في كسب معركة برلين، ووقف الدكتور جوبلز يخطب في ذلك الجمع كما كان يخطب من قبل خلال السنوات الـ ١٢ التي خلت، مكيلاً الاتهامات لمن تسبب في هزيمتهم والقضاء على نظامهم الذي أرادوه أن يستمر لألف عام، فانمحى خلال اثنى عشر عاماً، وقال جوبلز : إن الهزيمة من عمل الشيطان ! وبسبب قوى جهنمية وتآمر البيروقراطيين والبلاشفة !

في عصر يوم ٢٠ تقبل الزعيم الألماني التهاني بعيد ميلاده من المحيطين به، وظهر في الاحتفال جميع القادة الكبار، وهم كبار بحكم مناصبهم لا بشخصياتهم. وكان على رأسهم هملر رئيس الشرطة السرية (خانه وحاول مد جسور التواصل مع البريطانيين في اليوم التالي لعيد ميلاد زعيمه ! وهيرمان جورنج القائد العام لسلاح الجو الألماني (خانه أيضاً وسلم نفسه لقوات الحلفاء حوكم في محاكم نورمبرغ عقب نهاية الحرب وحكم عليه بالإعدام، لكنه احتسى السم قبل تنفيذ الحكم فمات داخل زنزانته، كما أرسل له زعيم إيطاليا الدوتشي موسوليني تهانيه القلبية الحارة قبل أن يشنق مع عشيقته كارلا - وفي روايةٍ زوجته - وتعليق جثتيهما منكستين في ميدانٍ عامٍّ !

أعلن أحد الحاضرين وهو الجنرال (كارل مولر أن جميع الطرق من وإلى برلين لن تستمر مفتوحةً بعد الآن، وأن على من يرغب في المغادرة، المغادرة الآن بواسطة السيارات، فليس لدى سلاح الطيران طائرات قريبة لنقله !

كان هتلر ينتظر حتى الساعات الأخيرة هجوماً مضاداً على الروس لإحدى قواده واسمه (شتينر) ولما طال انتظاره وتيقن أن قائده لن يهجم، أصيب بنوبةٍ من الهياج وانخرط في البكاء، قبل أن يأمر بأخذ أوراقه ومستنداته إلى الخارج وحرقها، وأقسم وزير إعلامه أنه سيبقى هو وزوجته وأطفاله حتى النهاية مع زعيمهم الخالد، واحتل وزير الإعلام جناح طبيب هتلر الخاص، الذي طرده الأخير بحجة محاولة اغتياله ! وحتى الساعات الأخيرة لانتحاره كان هتلر لا يزال يصدر أوامره لجيوشه الممزقة الأوصال قليلة العتاد أو المحاصرة، بالهجوم أو المناورة ومحاولة الانعتاق !

كما عقدت في شوارع برلين محاكماتٍ هزليةٍ وإعداماتٍ بالجملة للجنود والضباط والمدنيين بتهمة الخيانة أو عصيانٍ الأوامر أو الهروبٍ من وجه قصف الحلفاء ! وكانت تلك المجالس العسكرية الهزلية تشكل من قبل ضابطٍ واحدٍ هو الحكم وهو المدعي العام، وفي بعض الأحيان هو المنفذ لأوامر الإعدام !

كان آخر من هبط في إحدى مدارج الطيران القصيرة شبه المدمرة رفيق نضال هتلر القديم واسمه روبرت جريم مع امرأةٍ اسمها هانا ريتش - وهي طيارة اختبارٍ محترفةٍ - تناولا طعام الغداء على مائدة الزعيم داخل مخبئه وطلبا منه أن يرحل برفقتهما لقيادة المقاومة ضد قوات الحلفاء واستعادة أمجاد النازية ! لكنه رفض بحجة انهيار كل شيءٍ ولم يعد يعني له الهرب شيئاً، وأثناء حديثهم تناهى إلى أسماعه نية نائبه وقائد سلاح الطيران هرمان جورنج التفاوض خلسةً مع الحلفاء، عندها جن جنونه وانتابته نوبة هياجٍ شديدٍ علا فيها صراخه بجميع أنواع الشتائم واللعنات، ثم أصدر أوامره على الفور بعزله وإلقاء القبض عليه والمحافظة على حياته تذكيراً له بكرم الفوهرر وعطفه الذي شمله بالرغم من خيانته له !

أخذت القطع الخرسانية في المخبأ تتساقط بفعل تأثيرات القنابل، أصيب المدنيون بالذعر ونسوا في غمرة جنونهم وخوفهم النساء والأطفال، لا سيما وأن

مخبأ الزعيم غمرته المياه وامتدت تأثيرات الفيضانات لتشمل أنفاق المترو التي لجأ إليها آلاف المدنيين، وسبب هذه الكارثة الجديدة أن الزعيم الأحمق طلب من مهندسيه تدمير الحواجز القائمة بين الأنفاق وقناة لندوهر المجاورة، وكان من تأثيرات هذه الحماقة قتل الآلاف من المدنيين والجرحى داخل أنفاق المترو، عندما سقطت برلين في أيدي الحلفاء، أعيد ضخ المياه فانحسرت عن الجثث في منظرٍ رهيبٍ مرعبٍ!

لم يهتم هتلر بأرواح الجنود والمدنيين فهو مجرد هاوٍ للجندية لا متحرفاً لقتالٍ ولا متحيزاً لفئة، كان همه الأول الحفاظ على سلامته الشخصية ليقود الأمة الألمانية إلى بر الأمان! حتى لو فني الشعب الألماني عن بكرة أبيه، أو احترقت الكرة الأرضية!

أصدر هتلر أوامره بإلقاء القبض على رئيس الشرطة السرية السفاح هملر، بتهمة التفاوض مع القوات البريطانية، وأوكل هذه المهمة إلى المارشال الجريح (جريم) رفيق نضال هتلر .

في ٢٨ إبريل تزوج هتلر من إيفا براون داخل المخبأ، ثم كتب وصيته الخاصة والسياسية، وحمل اليهود مسؤولية هذه الحرب! وعين الأميرال (دونتر خليفةً له كرئيس للدولة، وطلب منه أن يحمل اسم رئيس دولة الرايخ، أرسل هتلر آخر رسائله قبل منتصفً الليل بقليلٍ من يوم ٢٩ إبريل، ووجه فيها عدة أسئلةٍ إلى شخصٍ اسمه (دوجل .

أين توجد طلائع جيش الجنرال (وتيك ؟ ٢- متى يعاودون الهجوم ثانيةً ؟ ٣- أين الجيش التاسع ؟ ٤- في أي فيلقٍ يقوم الجيش باختراقه ؟ ٥- أين فيلق البانزر ٤١ الذي يقوده (هولست ؟

وتطوع (كيتل قائد مقرب منه بالرد شخصيًا على هذه الأسئلة وتحمل المسؤولية الكاملة، وتوجه إلى الفوهرر وقدم له تقريراً عما سأله عنه، وألقى بالأجوبة على الأسئلة في لهجةٍ جافةٍ وغير شخصيةٍ!

في عصر يوم ٣٠ إبريل – الساعة الثالثة ظهراً - حيا هتلر رفاقه وجنوده ليدخل مع زوجته جناحه الخاص، في تمام الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقةً قتل كلبه المفضل بولندي، ثم فتح درج مكتبه، تناول منه قنينةً خاصة زوده بها طبيبه المفضول، حسا منها سماً قاتلاً، ثم أخرج مسدسه من جرابه قبل أن يتمكن السم من جسده، وضع فوهة المسدس داخل فمه ليطلق منه طلقةً واحدةً أردته على الفور. وقيل إنه أطلق النار على رأسه فالله أعلم .

أما زوجته إيفا فقد حست السم من بعده، لكنها لم تقو على قتل نفسها بالمسدس، شل الخوف يدها فقام العقار بمهمته على أكمل وجه، تهاوى جسدها بالقرب من جسد زوجها وعشيقها طيلة تلك الأعوام، خارج غرفة الزعيم الألماني انتحر الحارسان الشخصيان، أردى الأول صاحبه فأصابه بجراحٍ بالغة، ثم أكمل الآخر المحتضر إطلاق النار على صاحبه، قبل أن يجهز على نفسه، دخل الحرس الأسود إلى غرفة الزعيم محتملين جثته وجثة زوجته إيفا إلى خارج المخبأ، صبوا عليهما البترول الذي طلبوا منه كميةً إضافيةً اضطروا بسبب شح الإمدادات إلى سحبها بالفم من خزانات المركبات المخبئة في إحدى أنفاق مخبأ الزعيم .

أحرقت جثتا الزعيم وصاحبته وسط حديقة المستشارية، ولما لم تقم النيران بشيهما جيداً لدرجة التفحم، قاموا بدفن الجثتين في إحدى الحفر التي أحدثتها قنابل الحلفاء .

أما ماجدة جوبلز زوجة وزير الإعلام النازي، فقد أخلدت صغارها إلى النوم، وحاول بعض المقربين نزع الصغار منها قبل أن تقتلهم لكنها رفضت، قصت عليهم قصة قصيرةً قبل النوم، ووعدتهم بمستقبلٍ مشرقٍ في ظل ألمانيا المظفرة، فناموا جميعاً تحت أصوات الانفجارات المكتومة، وهي أصواتٍ تجلب النوم والنعاس والاطمئنان (واسألوا مجرب ولما غرقوا في النوم، فتحت أفواههم الصغيرة على التوالي وجرعتهم الواحد تلو الآخر السم الفتاك، ثم حست السم مع زوجها

قائلةً : لم يعد للحياة طعم بعد رحيل هتلر ! وأسدلت بانتحارها مع زوجها فصول هذه المأساة العجيبة التي عصفت بالكل وأكلت الأخضر واليابس، هذه الحرب الجنونية التي أشعل فتيلها شاب صربي ثائر في العاصمة البوسنية سرايفو عندما اغتال ولي عهد النمسا عام ١٩١٤م، الاغتيال الذي أشعل فتيل الحرب العالمية الأولى، والتي لحقتها بتأثيراتها السلبية الحرب العالمية الثانية .

قسمت برلين إلى قسمين شرقي شيوعي، وغربي رأسمالي، وطوى الله العقود قبل أن ينهار جدار الفصل بين الشطرين أمام قبضات عشاق الحرية عام ١٩٩٠ ثم تفككت المنظومة الشيوعية عن بكرة أبيها وانفرط عقدها !

وقد كشفت المخابرات الروسية وثائق بالغة الأهمية حرص السوفييت، طوال العقود الماضية، على إحاطتها بستار بالغ من السرية تتعلق بمصير الزعيم النازي أدولف هتلر، وجاء في هذه الوثائق أن جثة هتلر دُفنت في حقل صغير في مدينة راثيناو الألمانية، وزرعت في مكان الدفن بعض أشجار الكمثرى، من أجل التمويه، لكي لا يكتشف أحد مكان الجثة، فيتحول المكان إلى مزار للنازيين وأنصارهم في المستقبل، وفي عام ١٩٧٠ انتزعت الجثة من القبر، وأحرقت، وألقي رمادها في نهر ملوث.

وتكشف الوثائق أسرارا كثيرة عن الساعات الأخيرة في حياة هتلر وكبار مساعديه، والجهود التي بذلتها الإدارات السوفييتية المتعاقبة لإخفاء حقيقة ما جرى في هذه الساعات التي ظلت لغزا يحير المؤرخين، وتشير أنه عندما أطبقت القوات الروسية على برلين في ٣٠ إبريل ١٩٤٥ قرر هتلر الانتحار لكيلا يقع أسيرا في أيدي أعدائه، فوضع مسدسه الشخصي في فمه، وكز عليه بأسنانه، وضغط على الزناد.

أما عشيقته إيفا براون فقد انتحرت بتناول سم السيانيد، وفي المخبأ السري نفسه الذي عثر فيه على جثة هتلر، عثرت القوات السوفييتية على جثة الجنرال جوبلز، وزير الدعاية في العهد النازي، وزوجته ماجدة، وأطفاله الستة،

وقد مات الجميع بتناول السيانيد. وتذكر الوثائق أن مارتن بورمان، سكرتير هتلر، جمع الجثث بعد ذلك، وسكب عليها البنزين، وأدى لها التحية العسكرية، وأشعل فيها النار، ورغم أن الجثث تحولت إلى فحم، إلا أن العظام ظلت سليمة بحيث يمكن التعرف إلى أصحابها بشيء من الجهد.

وبعد انتحار هتلر ومساعديه بيوم واحد عثر عملاء سميرش (شعبة مكافحة الجاسوسية السوفييتية على الجثث واعتبروها غنيمة من أثمن غنائم الحرب، فنقلوها سرا إلى مدينة تقع على مقربة من برلين، حيث قام مجموعة من الأطباء بفحصها، وتثبيت هوية أصحابها.

وفي صيف ١٩٤٥ أمر جوزيف ستالين، الذي كان يحرص على تغذية أسطورة أن هتلر هرب من برلين ليلة سقوطها، بدفن الجثث، في راثيناو في ألمانيا الشرقية، وزرع عددا من ثمار الكمثرى في المكان من أجل التمويه، لكيلا يفطن أحد أن المكان يحتوي على قبور.

وتبين فيما بعد أن هذا الإجراء الذي لجأ ستالين إليه هو إجراء مؤقت، فقد جرى نبش القبور في ١٣ يناير ١٩٤٦ وأخرجت الرمم، ووضعت في صناديق ذخيرة، ودفنت في مكان آخر خارج راثيناو. أما جمجمة هتلر، فقد جرى إرسالها إلى ستالين كهدية، وبقيت مخبأة في محفوظات الحكومة السوفييتية.

وبقيت الجثث في مكانها الجديد حتى عام ١٩٧٠ عندما قررت حكومة ألمانيا الشرقية تنفيذ مشروع في المنطقة، وخشي الزعيم السوفييتي ليونيد بريجنيف أن يجري اكتشاف القبور، فأمر بنبشها،

وتولى جندي روسي يدعى فلاديمير جومينجك العملية وهو يضع قناعا مضادا للغازات، وجرى نقل الصندوق إلى شوينبيك، حيث أحرقت وتحولت إلى رماد، ووضعت في كيس ونقلت إلى بياديرليتز وجرى نثرها في نهر ايهلي الملوث، دون احتفال، ودون حضور شهود.

ومن بين ما يُذكر عن ساعات هتلر الأخيرة هو أنه بعدما تأكد للدكتور جوبلز- وزير الإعلام في حكومة هتلر أن اللحظات الحاسمة، قد اقتربت وأن برلين محاصرة من كل الاتجاهات، اتصل بزوجته طالبا منها القدوم إلى مقر عمله، وأن تصطحب معها الأطفال.. وبعد فترة وجيزة، دخلت (ماجدا، وبناتها إلى حصن داخل الأرض، لا صلة له بالعالم الخارجي إلا عن طريق مئات الأجهزة اللاسلكية والحاسبات فائقة الدقة، التي احتفظ العلماء الألمان بأسرارها، ولم تكتشف إلا بعد سقوط الرايخ !!

وقد فوجئ جوبلز بوجود والدته مع زوجته وأطفاله.. بعد أن قبلها، قال لها:

«أنت في حل يا أمي من البقاء معنا!!»

لكن الأم تستبد بها العاطفة المشبوبة، فترد عليه:

«لا.. لا.. لن أفارقك يا بول؟!

وإذا كنت لا تحتمل أن ترى ألمانيا تحت أقدام الغزاة، وقررت الانتحار، فأنا أيضا لن أحتمل ذلك.. ثم.. ثم.. ماذا سأفتقد يا ولدي؟!

عاما آخر.. أو عامين على أكثر تقدير..؟!

لا يا ولدي، لن أغادر برلين..

ولكن بحق السماء، لا تبق البنات معك!!».

فيجيبها:

«نحن على وشك أن نخسر الحرب يا أمي، والحلفاء لن يرحموا أحدا من ذريتنا.. سيرسلونهم إلى معسكرات الاعتقال، وسيعذبونهم عذابا شديدا.. بل سيقتلونهم ذلاً وعاراً ومهانة، في كل دقيقة..!!».

فتجيب الأم ولدها:

«إذاً.. دعني أغادر هذا المكان شريطة أن أصطحب البنات معي!! وإلا.. فدعني أشارككم المصير النهائي..!!».

ساعات الوداع!!

لم يجادل جوبلز والدته طويلا، ولكنه أمر بدس المخدر لها في الطعام، وحملوها وهي تحت تأثير المخدر إلى قرية قصية في غرب برلين، ثم وضعوها في مكان آمن قد أعد لها..

في هذه الأجواء القاتمة والمعبأة برائحة الموت والانتحار، عاش جوبلز لعدة ساعات مع أسرته ورجاله الذين قاموا بحرق جميع الملفات والوثائق ذات الأهمية، ثم قام بتسجيل حديثه اليومي، الذي اعتاد أن يذيعه على الشعب الألماني، فكما كان معروفا عن جوبلز أنه عبقري في تطويع الأنباء التي تصب في صالح أهداف ألمانيا.

وما أن انتهى من بث حديثه، حتى قال للرجال الذين يعملون معه: «لعلكم تدركون أن برلين لم تعد مدينة آمنة، وإنني بتوجيه من الفوهرر، أحرركم من كل ارتباط عسكري، أما أنا وعائلتي، فسنتجه إلى حيث يعيش الزعيم هتلر، مع أخلص أتباعه في قبو المستشارية..».

لكن الرجال، تداهمهم نوبة من الحماس والعاطفة، ورد عليه البعض منهم:

«إننا لن نفارق هذا المبنى إلا جثثا هامدة..!!».

وانطلقت سيارتا جوبلز به وبعائلته نحو المستشارية التي شهدت على مدى عشرة أعوام مجد الحزب النازي الذي هيمن على الرايخ الألماني.. وما أن يصل، حتى يتجه على الفور نحو مكتب زعيمه، حيث وجده ثائرا، غاضبا، على أولئك الذين

يلحون عليه بالخروج من برلين. وما أن رأى هتلر، وزير إعلامه جوبلز، حتى بادره بالقول:

«انهم يريدونني أن أخرج من برلين يا جوبلز.. يا لها من نصيحة..!!».

لكن جوبلز يفاجئه هو الآخر بالقول:

«إني أضم صوتي إلى أصواتهم يا فوهرر..!! فحياتك ثمينة وبقاؤك هنا ليس فيه مصلحة لألمانيا..!!».

لكن هتلر يخبره أن مغادرته لهذا القبو تعني نهاية ألمانيا!!؟ وبالتالي فإن مصيره سينتهي بين هذه الجدران!!

امام هذا المنطق، لم يملك جوبلز سوى أن يقول لزعيمه:

«إذاً.. أيها القائد العظيم، سيشرفني.. كما يشرف كل مواطن الماني، أن أقرن مصيري ومصير زوجتي وأطفالي بمصيرك في هذا القبو..!!».

فيحتضنه هتلر ثم يقول له:

«أرجوك أن تقبل آخر أمر أصدره إليك، وهو أن تدع الصغيرات يرحلن الآن، إلى مكان آمن، قبل فوات الأوان..!!».

فينتفض جوبلز قائلا:

«يؤسفني يا فوهرر أن تكون هذه أول وآخر مرة، أعصي لك فيها أمرا..!».

كان القبو الخرساني الواقع تحت حديقة المستشارية، يحتوي على ١٢ غرفة، في الطابق الأول منه، والطوابق السفلى كان يشغلها الفوهرر وأركان حربه.

وعندما صار الموقف العسكري بالغ الحرج، وسقوط برلين بات وشيكا تحت ضغط هجوم الجيش الروسي، قال جودول لزعيمه:

«انت تعرف انني مقاتل مطيع.. اتمنى أن تعطيني قيادة الفرق في الجبهة الشرقية وأن تصدر لي أوامر صريحة بالقتال حتى الموت.. وإني اعدك، بأن أمنع العدو من التسلل إلى برلين بحيث تتمكن من الخروج من ألمانيا كلها بمنتهى الطمأنينة..».

يبدو أن اقتراح جودول قد لقي قبولا من الجميع، ما عدا هتلر، الذي ظهرت عليه ملامح الانزعاج فصاح فيهم:

«ما هذا أيها السادة؟! هل أفقدتكم الهزيمة عقولكم؟! أين شجاعة المقاتل الجرماني.. لتعلموا جميعا أنني لن أغادر هذا المكان مهما حدث، إلا جثة هامدة، ولا أريد أحدا أن يحدثني في هذا الأمر منكم بعد الآن..!!».

وحاولت أشهر طيارة المانية وهي (حنا ريتشي، إقناع هتلر بمغادرة برلين، على طائرتها قائلة:

«أقسم لك يا فوهرر، أنه في استطاعتي أن أخترق الدفاعات الجوية كلها بطائرتي، حتى أوصلك إلى سواحل شمال إفريقيا، حيث تنتظرك هناك إحدى الغواصات، التي ستنقلك إلى الأرجنتين..».

لكن هتلر يصر على رفض الفكرة، ويرفض البحث فيها، بعد أن بات على يقين، أنه لا بد من مواجهة الهزيمة.

صفق هتلر بيديه، كأنما يريدهم جميعا أن ينتبهوا إليه، كي يلقي عليهم كلمته الأخيرة.

ولما تركزت الأنظار شاخصة نحوه، قال لهم:

«من يريد أن يغادر القبو، فليفعل ذلك قبل فوات الأوان!! وليس معنى ذلك أنكم تفرون من مواجهة الهزيمة، وانما تفعلون ذلك من أجل فائدة الشعب الألماني، وهو يعيش معاناة محنة الهزيمة.. أما أنا فقد قررت الانتحار.. وأرجو ألا يحاول أحدكم

أن يثنيني عن عزمي.. فلا يداخلكم أدنى شك أن العدو يمني نفسه بالقبض علينا، وتلويثنا جسدا وروحا بكل ألوان المذلة والمهانة.. وليس لدي ما أقوله سوى أنني أريد أتلاف جثتي، وأتلاف جثة إيفا براون، بحيث يغدو من المستحيل التعرف على الجثتين.. وإني أكلفك يا جوبلز بأمر آخر، وأرجو ألا تعصاه، وهو أن تشرف بنفسك على حرق الجثتين، حرقا نهائيا.. وإني أدعوكم إلى عقد قراني الليلة على خطيبتي، الآنسة إيفا براون.. وسنتبادل كلمات الوداع بعد عقد القران.. وشكرا لكم على كل ما قدمتموه من إخلاص لحزبكم، ولأمتكم العظيمة..».

وبعد أن عقد هتلر قرانه على إيفا براون، بدأ الحفل بتبادل الأنخاب، وانفرد جويلز بمكتبه، ليكتب ورقة تم العثور عليها، حينما اقتحم الروس النفق الهتلري.. ومما جاء في تلك الورقة:

«.. لقد أمرني الفوهرر أن أغادر وأسرتي برلين، وإني لأول مرة في حياتي، أرفض طاعة أمر أصدره لي صديقي، وزعيمي القائد هتلر.. ولقد أيدني في هذا الرفض كل من زوجتي وبناتي.. ولو فعلت غير ذلك لكنت جبانا رعديدا خائنا، لا يعرف الوفاء للرجل العظيم.. ولذا سأبقى إلى جانب الفوهرر، ثم نتبعه أنا وعائلتي إلى العالم الآخر!!».

وعندما حانت الساعة المتفق عليها، وهي الثانية عشرة ظهراً، دخل هتلر إلى غرفته، حيث كانت ايفا براون قد سبقته إليها، وما هي إلا لحظات، حتى سمع كل من كان في القبو، صوت الرصاصة القاتلة.. ولما دخلوا للغرفة، كان هتلر ممددا على الأرض، فالرصاصة المدمرة التي أطلقها في حلقه، أفقدته الحياة فورا.

أما إيفا براون، فقد استخدمت للخروج من بوابة الحياة، قرصا صغيرا، من أقراص (سيانور البوتاسيوم.

وبينما كانت القنابل تتساقط على برلين، تم تنفيذ وصية الفوهرر'هتلر بحرق جثته، وجثة إيفا براون، في حديقة المستشارية ولكي يتأكد جوبلز من انتحار زوجته

ماجدا، وصغيراته، طلب إلى الطبيب أن يقوم بحقن الصغيرات الواحدة بعد الأخرى بحقن لا تعرضهن إلى آلام الموت.. وانتحرت زوجته بنفس أسلوب إيفا براون.

لما تأكد جوبلز من كل ذلك، أطلق الرصاص في حلقه، فتناثرت جمجمة رأسه.. وكانت الرصاصة الأخيرة، التي أعلن بعدها عن استسلام برلين، فأوقف القتال، وانتهت النازية من سجل تاريخ ألمانيا لتبدأ مرحلة جديدة من حياة الشعب الألماني، بعيدا عن الحروب.. والقيادات الديكتاتورية.. ليعم فيها الرخاء والطمأنينة والحرية.

ما ورد آنفا، مجرد مقالة من تاريخ ألمانيا، فرضت نفسها لكي تأخذ طريقها للنشر في مثل هذه الأيام.. اما لماذا جاء الموضوع على هذا السياق، فربما أن اللاشعور لديّ هو الذي جعلها في مقدمة أفكاري.. ولكنني لست مسؤولا عن كيفية اسقاطها من القراء؟!!

وقد استطاعت جمعية ألمانية بعد مرور ستين عاماً على سقوط النازية إقناع إيرنا فليجل وعمرها الآن (٩٢ سنة التي كانت مسؤولة عن الرعاية الطبية للزعيم النازي أدولف هتلر وأعوانه كشف بعض أسرار الساعات الأخيرة في حياة الزعيم النازي، والذي وصفته بأنه كان مصابا بجنون الشك حتى في أقرب المقربين منه.

وقالت فليجل في أول حديث لها مع الصحافة بعد أن لزمت الصمت طيلة ستين عاما: إن هتلر كان يشك في كل من حوله وفي احتمال قيام الجواسيس باستبدال سم السيانيد الذي كان يحتفظ به بمادة أخرى لا تأثير لها.

وأوضحت إيرنا فليجل في تصريحاتها لصحيفة برلينر زايتونغ الألمانية أنها كانت مسؤولة عن الرعاية الطبية لهتلر وأعوانه في المخبأ السري الذي لجأ إليه النازيون بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ودخول القوات السوفييتية الأراضي الألمانية.

وأضافت أنها حاولت إنقاذ حياة الأبناء الستة لجوزيف غوبلز المستشار الإعلامي لهتلر بعد أن ناولتهم أمهم السم.. وذكرت أنه بعد انتحار هتلر قام أعوانه بالانتحار تباعا ومن فشل منهم في الانتحار حاول الفرار وقالت انها بذلت كل جهودها لمحاولة إنقاذ أو تخفيف آلام الجرحى منهم.

وتحدثت الممرضة الألمانية عن الجو العام في المخبأ الذي لجأ إليه هتلر وأعوانه تحت الأرض فقالت إن كل المؤشرات كانت تشير إلى سقوط الرايخ الثالث فقد توقف بث الإذاعة وبدأنا نسمع صوت الدبابات السوفييتية يقترب من مكانها. وذكرت أن أفراد القوات السوفييتية تعاملوا معها بشكل لائق عند دخولهم المخبأ .

كما قد تسبب مؤخرا عرض فيلم "الأفول" الذي يصور الجانب الإنساني من حياة هتلر في إثارة جدل واسع في ألمانيا وسبب صداعا جديدا للدولة التي مازالت تحاول قبول ما حدث في الحرب العالمية الثانية، وما زالت تعتبر التطرق إلى تاريخ أشهر دكتاتور في التاريخ من الأمور المحرمة.

والفيلم الذي تكلف ملايين الدولارات هو من اخراج أوليفر هيرشبيغل، ومن انتاج برند آيشنغر، الذي كتب السيناريو أيضا، وقد اقتبس مادته من كتاب بالعنوان نفسه ليواخيم فيست ومن مذكرات تراودل يونغه، سكرتيرة هتلر.

وتغطي أحداث الفيلم الحقبة بين العشرين من أبريل والثاني من مايو ١٩٤٥، وهو يتوقف عند تفاصيل الأيام الأخيرة للرايخ الثالث بانتحار هتلر في حصنه في ٣٠ أبريل ١٩٤٥، ويؤدي دور هتلر فيه الممثل السويسري القدير برونو غانز، إلى جانب كوكبة من الممثلات الأوربيات القديرات: كورينا حرفوش في دور ماجدا زوجة غوبلز، وزير الدعاية في عهد هتلر، ويوليانه كولر في دور عشيقة هتلر إيفا براون، وألكسندرا ماريا لارا في دور تراودل يونغه. ويتركز الجدل الدائر حول الفيلم حاليا حول مخاطر إظهار الشر متمثلا في وجه بشري.

وفي هذا السياق تساءل هلموت كاراسيك ناشر صحيفة "تاغيشبيغل" في تعليق على صفحة كاملة وسط تغطية إعلامية واسعة للفيلم في الصحف الألمانية "هل يسمح لنا بتصوير شخص على انه انساني بعد أن تسبب في مقتل ٤٠ مليون شخص؟".

وقال أوليفر هيرشبيغل مخرج الفيلم إن الوقت حان للمخاطرة بتقديم مثل هذا الفيلم، وأضاف "إن الخطر لا يكمن في تصويره على أنه بشر بل في وصف هذا الرجل على أنه وحش وخلق أسطورة تجعل منه شخصية كرتونية كوميدية".

وتابع "أن الادعاء بأن هتلر لم يكن بشرا يعتبر اهانة للضحايا لأن ذلك يعني أنه كان شيطانا حل على الشعب الألماني أو شخصا مهووسا لم يكن قادرا على تحمل مسؤوليات أعماله. لقد كان يعلم جيدا ما كان يفعله في كل لحظة من لحظات حياته".

وتدور أحداث الفيلم في برلين المدمرة والآيلة للسقوط التام. حيث كانت المعركة في العاصمة حسمت بخسارة الألمان. وكان السكان المغلوبون على أمرهم يصارعون من أجل البقاء. وكان أدولف هتلر قابعا في ملجأه تحت الأرض، يعيش أوهاما خرافية وحوله مرؤوسيه يشعرون في أعماق النفس بدنو الأجل.

وكان الزعيم النازي يتصور نفسه ما زال زعيما. يضع الخطط التي لن يستطيع جنوده المثخنون ولا جنرالاته اليائسون تنفيذها. يلفظ أوامره بنبرات لا تخلو من الارتباك، ويرسل فرقا عسكرية، كانت قد أبيدت في الواقع، إلى مواقع مستحيلة المنال.

كان في عالم وهمي يتصور أن المجد ما زال حليفه، بينما الواقع عكس ذلك تماما. وكان ينتظر نصرا لم يأت.

حتى إذا ما وعى الحقيقة أقدم على الانتحار يوم الثلاثين من إبريل/نيسان عام ١٩٤٥.ويقدم الممثل برونو غانز في الفيلم تصويرا رائعا لهتلر في مشاهد

لم يكن يتخيلها أحد ومنها مغازلة سكرتيراته وتقبيله عشيقته إيفا براون بحرارة وغضبه الشديد حول التقارير التي تتحدث عن هجمات الجيش الأحمر، وتلطيخه زيه العسكري الرمادي بصلصة أثناء تناوله طعام العشاء.

ويرى المشاهدون هتلر في الفيلم وهو يرتعش باستمرار لإصابته على ما يبدو بمرض باركنسون، وكذلك وهو يقوم بإصدار أوامر بنشر جيوشه المهزومة لمواجهة الروس وتوقيعه على أمر يؤدي إلى قتل مئات الآلاف برفضه الاستسلام.

واحتوى الفيلم كذلك على بعض الكوميديا رغم أنها كانت سوداء. ففي أحد المشاهد يتم إحضار أحد القضاة إلى الحصن الذي كان يتواجد فيه هتلر وإيفا براون لتزويجهما وكيف أن القاضي كان محرجا أن يسأل الاثنين عما إذا كانا يحملان في عروقهما دما آريا نقيا، وهو السؤال الذي كان يطلب منه توجيهه في ذلك الوقت.

وطوال الفيلم يشيد هتلر بإخلاص وتفاني أتباعه ويفاخر بالقبضة الحديدية التي حكم بها البلاد طوال ١٢ عاما.وقال غانز إنه كان يهدف إلى معرفة سر جاذبية هتلر لدى الشعب في ذلك الوقت. ويأمل منتجو الفيلم أن يحصل الممثل على جائزة أوسكار عن أفضل فيلم غير ناطق بالإنجليزية.

وصرح غانز في مقابلة تلفزيونية "أنا لا أكره هذا الشخص (هتلر والا لما استطعت أن أمثل شخصيته". وكانت افلام سابقة قام ببطولتها الممثل اليك غينيس وانتوني هوبكنز صورت هتلر على أنه شخص معتوه وفشلت في إلقاء الضوء على سر جاذبيته التي جعلت ملايين الألمان يتحلقون حوله.



هتلر عقب انتحاره

يغرق المشاهدون في رعب الساعات الأخيرة حين يرون الضباط الألمان ينفذون أوامر هتلر الأخيرة بسكب البنزين على جثته وجثة عروسه وإضرام النار فيهما ويشاهدون زوجة رئيس الدعاية الألمانية جوزف غوبيلز تخدر أطفالها الستة وتضع كبسولات الزرنيخ في أفواههم الصغيرة .

وقال مخرج الفيلم هيرشبيغل إنه يدرك مخاطر نشر التفهم أو حتى التعاطف مع هتلر. وأضاف "إن إثارة أسئلة جديدة لا يعني إطلاقا بأنني حين أظهر هتلر كإنسان فإنني استخف به أو أجعل منه شخصا محبوبا". وقال "هذا هراء. إذا استخلصت بأن هتلر شخص محبوب فانك لم تكن تستمع (إلى ما كان يقال في الفيلم".

إلا أن بعض النقاد اتهموا منتجي الفيلم بالافتقار إلى الشجاعة في الإجابة على أحد أهم الأسئلة في التاريخ وهو: كيف كانت جرائم الرايخ الثالث ممكنة؟".. وحول هذا كتبت صحيفة "فرانكفورتر" تقول "إن حقيقة أن الفيلم يتظاهر بأنه دخل منطقة محظورة لا يعكس جهود الألمان بمواجهة الاشتراكية القومية وجها لوجه".

وتساءلت "إذا كان الفيلم يصور شخصا سفاحا على أنه بشر يستطيع إثارة التعاطف معه في أيامه الأخيرة وأن الدكتاتور يمكن أن يعيش حياة عادية، إذا ماذا كانت صورة ألمانيا في عهد هتلر في أذهاننا حتى يتم عرض مثل هذه الأشياء باعتبارها اكتشافات جديدة بالنسبة لنا؟".وأشار كراسيك إلى أن مشاهدة شخصية هتلر الضعيفة لن تجعل منه شخصية قوية بل قللت من أهميته، بالضبط كما حدث مع صدام حسين حين عرضت صوره وهو يخرج من الحفرة التي كان يختبئ فيها".

وقال أن "برونو غانز يظهر أنه حتى أكثر الأمور لاإنسانية تنبع عن إنسان. وهذا لا يقلل من (فظاعتها".وقد تم بيع الفيلم الذي تكلف ١٦،٥ مليون دولار في أوروبا واليابان، ويأمل المنتجون أن يتم توزيعه في أميركا الشمالية وبريطانيا بعد عرضه في مهرجان الأفلام بتورونتو، وسيكون ذلك باستخدام نسخة ناطقة بالألمانية مع ترجمة مرافقة باللغة الإنجليزية.

الوقت أصبح ملائما لإنتاج مثل هذا الفيلم. خصوصا بعد تغير الأجيال في ألمانيا.

ويرى أنه من المهم أن يروي الألمان تاريخهم، بنظرة من الداخل، مع ترك العواطف جانبا. وكان يعتبر ما هو عكس ذلك، أى رواية التاريخ الالماني من الخارج، كابوسا مرهقا.

منتج الفيلم برند آيشنغر

وفي وقت سابق قال كاتب السيناريو والمنتج برند آيشنغر إنه يريد أن يروي التاريخ لا أن يعلق عليه، مؤكدا أنه أمضى السنوات العشرين الأخيرة شغوفا بتاريخ النازية، متعمقا في تفاصيله. وبرغم أن الأحداث تغطي الأيام الاثنى عشر الأخيرة، فالسيناريو يستعيد أيضا الأعوام الاثنى عشر التي جثم فيها النازيون على السلطة في ألمانيا.

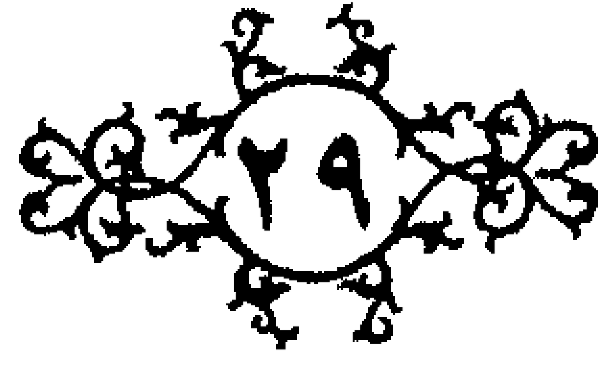
ويوافق المخرج أوليفر هيرشبيغل رأى المنتج الكاتب. ويقول إنه أراد أن يخرج فيلما دراميا، بلغة السينما المعاصرة، يستند إلى وقائع تاريخية، تظهر فيها لقطات الحرب التي تظهر بشاعتها، وجنون الدكتاتورية، ومعاناة المواطنين الذين فرض عليهم الأمر الواقع فرضا.

ومنذ بداية التفكير في انتاج الفيلم، استقر رأى المخرج والكاتب على إسناد دور هتلر إلى برونو غانز.

أما الممثل النجم فقال: "لم يكن أداء شخصية هتلر في السينما من أحلامي، لكنه دور مهم. وحدث أنني تحصنت في منزلي، حتى لا أستغرق في الشخصية لدى التصوير وأتماهى معها. لكن ذلك لم يكن ممكنا في الواقع".

ومع ذلك حدث أنه في مقاطع من دوره شعر بالشفقة على شخصية هتلر الرثة. وقال: "ولولا ذلك ما استطعت أداء الدور بإتقان". وقد عبر برونو غانز في تمثيله عن هتلر الذي فقد الإحساس بالواقع، والمسكون بالجنون والحقد.





جريس كيلي ..

ooo



. جريس كيلي، مارلين مونرو.. ريتاهيوارث.. نجمات ساطعات بين نجوم الفن السابع.. جمالهن سحر الملايين ولكن يشاء القدر أن تكون حياتهن رواية جميلة تنتهي بمأساة. وهكذا كان قدر النجمة الأميرة جريس كيلي. حياتها أشبه برواية حب وردية ولكن وفاتها نسيج من الروايات السوداء. وبعد ٢٠ سنة من حادث السيارة الذي أودى بحياتها.. تخرج ابنتها الأميرة ستيفاني عن صمتها لتضع نهاية للشائعات التي أحاطت بالكارثة وخاصة الاتهام بأنها المسئولة عن وفاة أمها.

وللوصول إلى النهاية لابد من العودة إلى خيوط البداية.. وعلى الأقل منذ أن تركت هوليوود وجاءت إلى أوربا. عند زواجها من الأمير رينيه أمير موناكو قال العالم إنها أجمل هدية تقدمها أمريكا إلى أوربا.. جريس كيلي حفيدة مهاجر أيرلندي. جاءت إلى الدنيا ولديها كل المقومات أن تصبح أميرة. وعند لقائه الأول بها أحس الأمير (٣٢ سنة وقتها أن هذه النجمة التي توجت بجائزة الأوسكار وعمرها ٢٦ سنة هي المرأة التي يحتاجها بجانبه. وقامت جريس معه بأجمل دور في حياتها.. دور الأم المثالية والزوجة السعيدة. ولكن يوم ١٣ سبتمبر ١٩٨٢ انتهت الحدوتة بمأساة.. بموت البطلة وبعد ٢٠ سنة من هذا الحادث ظل مكانها شاغرا في حياة الأمير.

كان حفل زواج الأمير والنجمة يوم ١٩ أبريل ١٩٥٦ حديث العالم.. شارك ٥٠٠ من المدعوين في حفل الزفاف بينهم أفا جاردنر.. الملك فاروق ملك مصر السابق.. أغاخان وزوجته. كان أول زفاف ملكي ينقله التليفزيون بالبث المباشر وتابعه ٣٠ مليون مشاهد.

ومضت الحياة سعيدة بالزوجين ورزقا بثلاثة أطفال.. كارولين والبرت وستيفاني. لم تتخل جريس كيلي الأميرة لحظة واحدة عن أمومتها. لأداء واجب رسمي.

استمرت جريس كيلي تقدم صورة المرأة المشرقة حتى توالت الأحزان على جريس الأم.. علاقة ابنتها كارولين مع فيليب جونو وأصرت جريس مع الأمير أن يتزوجا وطبعا كان هذا القرار في رأي الابنة الشابة تفكيرا رجعيا يعود إلى عصر مضي. ورضخت كارولين وتزوجت وفشل الزواج كما توقعت جريس كيلي.. وطلقت الابنة وعمرها ٢٢ سنة وترملت وعمرها ٣٢ سنة وتألمت الأم في صمت. وزاد من متاعبها سلوكيات ستيفاني الأميرة الشقية والمتمردة وكانت جريس تعتبرها كنز حياتها. المتاعب سببت لها الكثير من الإحباط في الثمانينيات ولم تعد تتصور أنها ستقوي أن تظل دوما جريس كيلي الساحرة. ومع بداية ١٩٨٢ بدأت تعاني من صداع عنيف كان يؤثر على نظرها.

وسط هذه الظروف استقلت سيارتها يوم ١٣ سبتمبر ١٩٨٢ وجلست خلف عجلة القيادة وصحبت ستيفاني معها. لم تكن جريس تحب القيادة بسبب ضعف بصرها ومع ذلك في صباح هذا اليوم استغنت عن السائق وقادت السيارة بنفسها لتعود من منتجع الأسرة في الجبل إلى موناكو. يمتد الطريق لعدة كيلومترات ولكنه كثير المنحنيات. وعند آخر منحنى كانت النهاية المأساوية لأسطورة جريس كيلي. ولم تهدأ الألسنة وراجت الشائعات.. وهي اتهامات تظهر كل سنة عند الاحتفال بذكري وفاة الأميرة جريس كيلي.. من ضمن ما تردد أن هناك من قاموا بتخريب السيارة بإيعاز من عصابات المافيا.. وأن الأميرة كانت ضحية لثأر قديم.. وتبين أن السيارة كانت سليمة لا أثر لتخريب مسبق.

وبعد ٢٠ سنة قررت الأميرة ستيفاني (٣٧ سنة أن تخرس الشائعات التي تعذبها منذ وفاة والدتها بعد ٣٦ ساعة من حادث السيارة المشئوم. قررت لأول وآخر مرة أن تضع نهاية للأقاويل البشعة ويكفي أن حياتها كلها تأثرت بهذا الحادث.

لم تخرج ستيفاني سليمة من الحادث. أصابتها كسور عديدة وجراح بدنية ومعنوية.. وأكثرها إيلاما اكتشافها عند مغادرتها المستشفي بأنها متهمة بأنها هي التي كانت تقود السيارة وليست امها. وتؤكد بأنها لا تلوم نفسها عن أي شيء سوى أنها عاشت بعد هذه المأساة.

وتقول ستيفاني بثقة وحسم لم أقم أبدا بقيادة السيارة لأني لم أكن قد حصلت بعد على رخصة القيادة وكنت قد انتهيت فقط من تعلم القيادة وكان والدي حازما بخصوص هذا الموضوع. وأول رجل شرطة في موناكو كان سيسعده أن يوقفني في الحال وأنا أقود بدون تصريح الشاهد الوحيد سائق شاحنة على الطريق هو الذي أكد أن أمي هي التي كانت وراء عجلة القيادة. وفي سرعة البرق هوت السيارة في منحدر الجحيم. لم نستخدم يومها حزام الأمان وإلا كنت توفيت في اللحظة إن قوة دفع السيارة قذفت أمي على المقعد الخلفي وأنا داخل السيارة. تحطم الجانب

الأيمن تماما واضطر رجال الإنقاذ إلى إخراجنا من الجانب الأيسر حيث عجلة القيادة فاعتقد الكثيرون أني التي كنت أقود السيارة. لم أعد أتحمل مثل هذه الشائعات.

وبعد ٢٠ سنة يسألونني عن كافة التفاصيل.. أنا لست جهاز كمبيوتر ولا إنسانا آليا.. لا أتذكر كل التفاصيل.. ما أذكره أنها كانت لحظة رعب.. مثل أي حادث سيارة يقع على الطريق. الجميع هرعوا للإنقاذ.. رجال مطافيء ورجال شرطة.. وإذا سئل أحد منهم عن ترتيب الأحداث لن يستطيع الإجابة. كنت جريحة ومصابة في رأسي وعنقي وأسناني ولساني.. ولهذا لم أستطع المشاركة في تشييع جنازة أمي.. كنت طريحة الفراش في المستشفى لا أستطيع الحركة وتابعتها عبر التليفزيون في حجرتي .

وتضيف الأميرة ستيفاني : أقاويل وإشاعات.. أدت إلى خلق حكايات غامضة عن الحادث.. أعتقد أني لا أستحق مثل هذه الآلام.. وأرجوكم كفاكم.. اتركوا لي حقي في تربية أطفالي بهدوء وأن أتقدم في حياتي بالسلام. إن الإصرار على سرد هذه الحكايات يعذبني..

وتسترسل الابنة في حديثها :بعد هذا الحادث عشت حياتي بسرعة كبيرة جدا بدنيا ومعنويا لأني بعد أن كدت أفقد كل شيء أردت أن أفعل كل شيء. فقد ادركت أني في لحظة كدت أن افقد حياتي نفسها ولذلك اقدر كل لحظة اعيشها إن من لم يعش الألم أو الموت عن قرب لا يمكنه تقدير الحقيقة. كان أملي كبيرا عندما أخبروني في المستشفي أني سأستطيع السير من جديد ولكن سعادتي اختنقت بداخلي عندما أخبروني بوفاة أمي.

ويقول أحد الشهود وهو قريب جدا من الأسرة.. جدير بالذكر أن جريس كيلي في هذه الفترة كانت تعالج بالكورتيزون لمشاكل في الدورة الدموية. والصور التي التقطت في هذه السنة تبين انتفاخا خفيفا في وجهها يسببه هذا الدواء.

جاء التشخيص الطبي الأخير نزيف حاد في المخ. ولن تجدي أي جراحة لأنها في حاجة إلى معجزة.

التفت الأسرة حول سرير ستيفاني. وفي الحجرة المجاورة بالمستشفى ترقد الأميرة جريس فاقدة الوعي تماما. وفي الساعة العاشرة لفظت النجمة الأميرة أنفاسها الأخيرة. وصدر البيان الرسمي يحدد الوفاة بيوم الثلاثاء ١٤ سبتمبر هذه هي الحقيقة.. بقي أن تتصوروا عذاب ورعب ستيفاني الشابة وهي وحدها وسط هذه الكارثة ألا يكفيها أنها رأت أمها تموت بين يديها. أرجوكم لا تحملوها أكثر من ذلك.. لا تحملوها ذنبا لم ترتكبه. وأضم صوتي لصوتها.. اتركوها تواصل حياتها في سلام.

وتعود قصة زواج جريس كيلي فاتنة السينما العالمية وأمير موناكو إلى مهرجان سنيما أقيم بمدينة كان، فقد انتهزت مجلة " باى‌ماتش " هذه الفرصة، ودعت النجمة السنمائية جريس كيلى – وكانت بين نجوم المهرجان – إلى زيارة لقصر الأمير رينيه أمير موناكو، حتى تلتقط لها فيه بعض الصور .

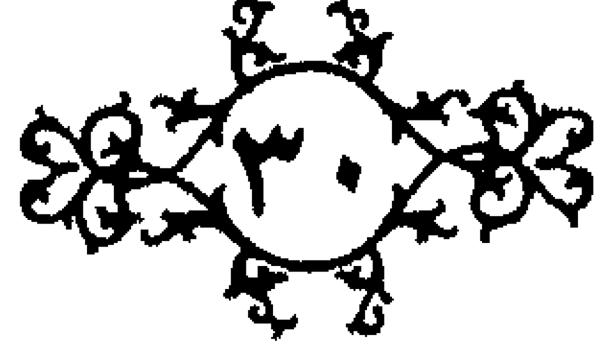
واعتذرت جريس عن الذهاب فى الموعد الذى حددته لها المجلة، بعد استئذان الأمير، لأنها ستكون المضيفة فى حفلة شاى يقيمها الملحق الأمريكى فى كان ولكن مندوب المجلة أقنعها بأن زيارة القصر ستكون بعد الظهر، ولن تمتد إلى الساعة الثامنة مساء، موعد حفلة الملحق الأمريكي وركبت جريس سيارة مدير دعاية الشركة التى تعمل بها، وكان هذا ينهب طريق الريفيرا المتعرج نهيا، بينما انطلقت خلفه سيارة مصورى المجلة .

وفجاة توقف مدير الدعاية، فقد ظهر أمامه جرار ضخم يسد الطريق، ولم تستطع السيارة المتابعة أن تقف على بعد مناسب، فاصطدمت بسيارة كيلى وهشمت مؤخرتها، واضطرت القافلة أن تسير ببطء، حتى تصل لقصر الأمير بأمان وفى الطريق – عند مدينة نيس – التقى موكب جريس بموكب جينا لولو بريجيدا ،واراد

مندوب الدعاية أن يلتقط مجموعة من الصور لجريس وجينا، ولكن مندوب المجلة منعه من ذلك، لأن النهار كاد ينتصف والأمير فى قصره ينتظر وعلى مقربة من القصر شعرت جريس بجوع شديد، فعرجت القافلة على أحد الفنادق، وأمرت جريس ببعض الشطائر ولكنها ما كادت تقضم لقمة حتى أقبل مندوب المجلة يدعوها للذهاب إلى القصر، فقد رأى العلم يرفرف عليه، ومعنى هذا أن الأمير موجود .. فى الانتظار وفى القصر تبين أن الأمير لم يحضر بعد، وأنه يتناول الغداء فى مكان آخر، وقد أمر بأن يسمح للنجمة ومرافقيها بالطواف بين أرجاء القصر .

والتقط مندوبو المجلة عدة صور للنجمة المتألقة فى عدة أوضاع بالقصر، وعندما بلغت قاعة العرش وجدتها خالية، فطاب لها أن تجلس على المقعد الذهبى، وتضع التاج على رأسها ! وكانما كانت تتنبأ بما سيكون .. وبعد ساعة، وبينما جريس تتأهب للانصراف، إذا الامير يقف أمامها وجها لوجه، يحييها ويرحب بها، ثم يصحبها فى جولة بحديقة الحيوان فى قصره وفغرت جريس فمها دهشة عندما رات الأمير رينيه الثالث يمسك قضبان قفص الأسد بيديه فى شجاعة نادرة، غير حافل بشراسة ملك الغابة، وشعرت بنوع من الإعجاب برجولته وعندما انصرفت جريس، ظل الامير يتابعها ببصره حتى اختفت.. وتسلل النبأ خارج أسوار القصر، وأيقن سكان موناكو أن شيئا لابد يحدث بين الأمير وفاتنة السنيما الأمريكية، وعلقوا عليها أملا كبيرا فى أن تمنحهم وليا للعهد وبعدها طار الأمير رينيه إلى كاليفورنيا، وطلب القرب من والد النجمة التى حملت قلبه معها إلى هوليوود، واعلنت خطبتهما، ولن تمض أيام حتى تضع جريس على راسها تاج إمارة موناكو، وتصبح الأميرة جريس كيلى .. ولو أن السيارة التى حملت جريس إلى قصر الأمير، تهشمت من اثر الصدمة، أو لو أن الأمير تأخر عن الحضور إلى القصر .. لو حدث شىء من هذا لما كان اللقاء الذى دبرته مجلة " بارى ماتش " ولما تم الفصل الأول فى قصة غرام ملكى !





سعاد حسني ..

ooo



يعتبر حادث موت سندريلا الشاشة العربية "سعاد حسني" في العاصمة البريطانية "لندن" من أبرز أحداث عام ٢٠٠١ التي شغلت الرأي العام ليس في مصر وحدها إنما في جميع البلاد العربية.

وبعيدا عن كون الحادث راح ضحيته فنانة قديرة ومحبوبة فقد آثار "موت" سندريلا جدلا واسعا لما أحاط الحادث من غموض كبير... فالبعض رأى أن سعاد حسني ماتت منتحرة بإلقاء نفسها من شرفة شقة صديقتها نادية يسري بالطابق

السادس من بناية "ستيوارت تاور".. ولكن كثيرين رفضوا هذه الرواية وأكدوا أن سندريلا ماتت مقتولة وأن صديقتها نادية ربما تعرف الكثير عن الحادث ومرتكبيه أيضا.ورغم التحقيقات التي أجرتها السلطات البريطانية فقد ظل انقسام الآراء حول "موت" سعاد حسني مستمرا مابين انتحار وقتل.. الامر الذي دفع بمحكمة "ويست منيستر" إلى تأجيل قرارها النهائي حول الحادث إلى ما بعد تضارب اقوال الشهود وخاصة نادية يسري صديقة سعاد حسني والتصريح بأن هناك احتمالا لوجود شبهة جنائية في الحادث.

والآن.. إلى تفاصيل الساعات الأخيرة في حياة سعاد حسني والحادث الغامض الذي لم ينكشف لغزه بعد.

الساعة التاسعة بتوقيت جرينتش من مساء يوم الخميس الموافق ٢١ يونيو ٢٠٠١.. هي ميدافيل غربي العاصمة البريطانية لندن.. بالتحديد أكثر بناية ستيوارت تاور ذات ال ١٦ طابقا والتي اشتهرت خلال السنوات الاخيرة بأنها برج الانتحار لما شهدته هذه البناية من حوادث انتحار عديدة وصلت إلى ٩ حالات!

ليل لندن الكئيب يخيم على المكان .. أنوار قليلة مضاءة في البناية الشهيرة من بينها ذلك الضوء المنبعث من الشقة رقم (6A بالطابق السادس ببرج ستيوارت.. الهدوء يلف الأرجاء وكأنه ينذر بوقوع شيء جلل.

وبالفعل في هذه الأثناء شاهد صبي مغربي الجنسية في العاشرة من العمر يسكن في العمارة المقابلة لبناية ستيوارت تاور شاهد الصبي شخصا ما يسقط من شرفة الشقة رقم (6A بالطابق السادس.

يجري الصبي الصغير مذعورا يلوذ بأحضان أمه ويحكي لها عما شاهده منذ لحظة فتسرع الأم إلى التليفون وتتصل بالشرطة الإنجليزية مؤكدة رواية ابنها الصغير أن شخصا مًّا سقط من بناية "ستيوارت تاور"

لحظات ويصل رجال الشرطة إلى مكان الحادث وبالفعل يعثرون على جثة سيدة في نهاية عقدها السادس ملقاه على أرض الشارع.. وقبل أن يبدأ رجال الشرطة عملهم في جمع التحريات حول الحادث تصل سيدة أخرى تدعي 'نادية يسري' إلى المكان..

كانت 'نادية' وهي سيدة مصرية تقيم في لندن منذ عامين وتعمل في مجال العقارات لا تعلم لماذا يحيط رجال البوليس بالعقار الذي تمتلك فيه الشقة رقم (6A).. وراحت 'نادية' تسأل عما يجري فأخبرها أحد رجال الشرطة أن سيدة سقطت من الطابق السادس ولقيت مصرعها في الحال.

ألقت 'نادية يسري' بما تحمله من أكياس في يدها وصعدت بسرعة الصاروخ إلى شقتها تبحث عن الصديقة التي تستضيفها منذ شهور.. دخلت 'نادية' شقتها وراحت تصرخ بأعلي صوتها:

سعاد.. سعاد.. أنتِ فين؟

ولكن لم يأتها الرد . اسرعت 'نادية' إلى شرفة شقتها فوجدت.. أسلاك البلكونة قد تمزقت تماما من الجانب الأيمن فأدركت أن السيدة التي سقطت من الطابق السادس هي صديقتها 'سعاد'.. أو سندريلا الشاشة العربية 'سعاد حسني'.

وتم نقل جثة الفنانة المصرية العظيمة إلى مشرحة مستشفى 'ويست مينستر' للكشف عليها وبيان ما بها من إصابات.. وأجرى رجال الشرطة البريطانية تحقيقات سريعة حول ملابسات الحادث وتم التحفظ على الجثة وإبلاغ السفارة المصرية بالحادث.

وظهر يوم الجمعة الموافق ٢٢ يونيو طار الخبر إلى الناس في مصر.. قطع التليفزيون المصري برامجه وأعلن للملايين من عشاق سندريلا الشاشة العربية أن فنانتهم المحبوبة قد ماتت في لندن بعد سقوطها من الطابق السادس ببناية 'ستيوارت تاور' وأن البوليس البريطاني يجري تحقيقاته في ملابسات الحادث.

وقبل أن يفيق عشاق سعاد حسني من صدمتهم راح الكثيرون يرسمون السيناريو تلو الآخر لحادث موت محبوبتهم السندريلا.. هناك من رأى أن سعاد حسني انتحرت بعد يأسها من الشفاء وأيضا إصابتها باكتئاب بعد ما نشرته عنها الصحف المصرية بأنها فقدت جمالها ورونقها وأصبحت تعيش حياة بائسة في الغربة تتسول من المارة في الشوارع وتأكل من صفائح القمامة في شوارع لندن.

بينما رأى آخرون أن سعاد حسني بمرحها المعتاد لا يمكن أن تكون انتحرت فربما يكون قد اختل توازنها وسقطت من شرفة الشقة فلقيت مصرعها.. وكان أصحاب هذا الرأي ممن يدعون أنهم على مقربة من سعاد حسني ويعرفون كم هي محبة للحياة ولا يمكن لها أن تفكر في وضع نهايتها بيدها.

وكان هناك رأي ثالث يرفض الرأيين السابقين ويؤكد أن سندريلا الشاشة العربية لم تنتحر ولم يختل توازنها وسقطت من الشرفة.. وأنما تعرضت لجريمة مدبرة للتخلص منها بإلقائها من شرفة الشقة.. وراح أصحاب هذا الرأي إلى ماهو أبعد من ذلك من أن صديقتها نادية يسري تعرف تفاصيل المؤامرة وشاركت فيها.

في لندن.. كان البوليس البريطاني قد صرح بالإفراج عن جثمان سعاد حسني بعد إحالة القضية إلى محكمة ويست منيستر لقول الكلمة النهائية.. وسافر عز الدين شقيق الفنانة الراحلة بصحبة ابنه أحمد إلى لندن لإعادة جثمان سندريلا إلى القاهرة لدفنها في تراب بلدها.

وكان موعد الوصول إلى مطار القاهرة حيث استقبل الفنانون زملاء الراحلة نادية يسري صديقة سعاد حسني استقبالا غير متوقع حيث اندفع عدد من الفنانين والفنانات نحو نادية يسري ووجهوا لها اتهاما بأنها وراء قتل سعاد حسني أو على أقل تقدير تعرف مَن وراء الجريمة. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد وانما قام عدد من الفنانين والفنانات ومعهم شقيق سعاد حسني بتقديم بلاغ لنيابة النزهة يتهمون فيه نادية يسري بإخفاء معلومات عن حادث موت سندريلا الشاشة العربية.

وبدأت نيابة النزهة التحقيق في البلاغ واستدعت نادية يسري لسؤالها فيما هو منسوب إليها.. ولكن نادية أكدت أن سعاد حسني انتحرت وقررت نادية أن هؤلاء الذين يذرفون الدموع على رحيل سعاد حسني هم أول من تخلوا عنها في محنة مرضها وغربتها.

وأخلت النيابة سبيل نادية يسري.. بلا ضمان بينما كان الالاف من عشاق السندريلا يودعونها في جنازة مهيبة عبر فيها الناس عن حزنهم الشديد لفقدهم نجمة مصر الأولى ومعشوقتهم سعاد حسني ولم يكن مواراة جثمان سعاد حسني التراب يعني نهاية الحكاية.. بل على العكس ظل لغز موتها يحير الجميع.. الكل يحاول جاهدا معرفة الحقيقة الغائبة.. ويحاول الإجابة عن السؤال:

كيف ماتت الجميلة سعاد حسني؟

وبحثا عن إجابة هذا السؤال.. التقت الصحافة مع نادية يسري صديقة سندريلا الشاشة العربية أثناء وجودها بالقاهرة.. واجهتها بكل ما يدور في أذهان عشاق سعاد حسني.. ونفت نادية كل الاتهامات التي تشير إلى أنها تعرف الجناه الحقيقيين وراحت تؤكد المرة تلو الأخرى أن سعاد حسني انتحرت ولا شيء غير ذلك!

وراحت نادية يسري تروي تفاصيل الأيام الأخيرة في حياة السندريلا مؤكدة على إصابة سعاد حسني بحالة اكتئاب شديدة في أيامها الأخيرة.. وقالت إن الشرطة البريطانية ستحدد هذا الأمر وساعتها ستثبت براءتها تماما من كل الاتهامات التي وجهت إليها.

ولم يكن أمام أي إنسان سوى انتظار انتهاء التحقيقات والتحريات التي تقوم بها سلطات التحقيق البريطانية.. وبدأ الجميع يترقب القرار الذي سيصدر في لغز موت سعاد حسني في لندن.. ولكن!

تأجل إعلان القرار مرة واثنتين وظل اللغز مستمرا رغم مرور الأيام.. الكل فشل في الإجابة عن السؤال: كيف ماتت سندريلا؟.. وبدأ الشك يساور الكثيرين خاصة بعد مرور أكثر من ٦ شهور على وقوع الحادث ولم يصرح أحد بأي شيء يفيد إجابة السؤال.. حتى خرج أحد المسئولين في سكوتلاند يارد مؤكدا أن سعاد حسني انتحرت!!

وقامت الدنيا ولم تقعد.

أسرع أفراد أسرة الفنانة الراحلة يرفضون هذا التصريح.. وطار محامي الأسرة إلى لندن حيث كان مقرر أن تعلن محكمة ويست منيستر قرارها النهائي في حادث موت سعاد حسني يوم ٢١ ديسمبر.

وأكد المحامي لأخبار الحوادث في اتصال هاتفي من لندن أن تصريحات المسئولين بسكوتلاند يارد غير صحيحة وأنها مجرد اجتهادات وأن القرار الفاصل سيخرج من محكمة ويست منيستر.

وعاد الجميع للانتظار مرة أخرى حتى خرج المسئول عن التحقيقات في محكمة ويست منيستر البريطانية ليعلن عن تأجيل جديد لصدور القرار النهائي في القضية يوم ١٣ فبراير بعدما تأكد للمحكمة بناء على التقارير الطبية احتمال وجود شبهة جنائية في الحادث.. وكذلك وجود تضارب واضح في أقوال شهود الحادث وخاصة نادية يسري التي اتهمتها المحكمة بأنها شاهدة غير جيدة لما قالت في شهادتها من اختلافات وتضاربات واضحة.

وقررت المحكمة أيضا إعادة التحقيقات في الحادث من جديد واستلام كافة الأحاديث الصحفية التي أجرتها نادية يسري سواء في مصر أو لندن للصحف ومحطات التليفزيونات للاستعانة بها في التحقيقات.

و جاء قرار محكمة ويست فيستر.. النهائي والحاسم في هذه القضية التي شغلت الرأي العام في مصر والعالم بأن قيدت ضد مجهول !!

وسيرة الفنانة سعاد حسني توحي بأنها دخلت في أزمة مع صورتها في المرآة، فهي ترفض الاعتراف بمتغيرات الزمن، وهذه الأزمة النفسية يعرفها المشتغلون بعلم النفس والطب النفسي، فلم يكن سهلا على "السندريلا" تقبل واقعها الجديد، وقد تكالب عليها المرض والغربة وضيق ذات اليد.

حضرت سعاد إلى لندن بتاريخ الأربعاء ١٦ يوليو تموز ١٩٩٧ وكانت تعاني من مرض الاكتئاب منذ أكثر من ١٥ عاما لأسباب متعددة، منها عدم نجاح آخر فيلمين لها هما "الدرجة الثالثة" و"الراعي والنساء".. وقبلها فقدت صلاح جاهين الأب الروحي لها لحرمانها من حنان الأب محمد حسني البابا (وهو ابن المطرب السوري حسني البابا، وشقيقه الممثل الكوميدي أنور البابا الذي اشتهر في الإذاعة اللبنانية باسم شخصية نسائية وهو شخصية "أم كامل" . فإذا كان عبدالرحمن الخميسي قدمها للسينما - حينما رشحها للمخرج هنري بركات عام ١٩٥٨ لتقديم شخصية "نعيمة" في فيلم "حسن ونعيمة" وعهد إلى الممثل إبراهيم سعفان بتعليمها القراءة والكتابة وإلى إنعام سالوسة بتعليمها التمثيل والإلقاء السليم - فإن صلاح جاهين كان بنك الإرشاد والمستشار الأول في حياتها.

كانت سعاد تعاني أيضا من تآكل فقرتين بالعمود الفقري، بعد أن أصيبت بشرخ في الفقرتين الأوليين للعمود الفقري عندما صممت على القيام بنفسها بدور لاعبة أكروبات في السيرك تقفز وتسير على الحبال في فيلم "المتوحشة" . لقد أجرى لها البروفيسور رينيه لوي عملية في فرنسا في مستشفى "دي لا كونسيبسيون" عام ألف وتسعمئة واثنين وتسعين وكانت نتائجها جيدة، لكن بعد فترة بدأت الصفيحة المثبتة في الفقرتين في الالتواء أيضا المسامير التي كانت تربطها، وكانت نتيجتها آلاما مبرحة لدرجة أنها لم تكن تستطيع المشي أو الجلوس مدة طويلة.

بدأت الآلام تتزايد عندما مثلت "الراعي والنساء"، وتحاملت على نفسها كي لا تحرج زوجها السابق علي بدرخان مخرج ومنتج الفيلم الذي لم تتقاض عنه أجرا. أيضا كانت سعاد تعاني من أسنانها، إضافة إلى مشكلة الوجه فقد أصيبت بشلل

فيروسي في العصب السابع وأثر ذلك على حالتها النفسية..أضف إلى ذلك مسألة الوزن الزائد وحاجتها لنظام غذائي صحي على يد متخصصين.

أما المشكلة الكبرى كما تقول أختها جنجاه فقد كانت رحلة العلاج على نفقة الدولة. لقد استمر العلاج عاما وخمسة شهور، وحين تولى د. عاطف عبيد رئاسة الوزراء ألغى قرار العلاج بحجة أنها يمكن أن تعالج في مصر. وكان الأطباء قد نصحوا سعاد عام ١٩٩٧ بأن تعالج في الخارج فقررت الذهاب إلى لندن.. وعرضت عليها صفاء أبو السعود وزوجها الشيخ صالح كامل علاجها في الخارج فرفضت وقالت إن معها ما يكفيها.

كان من الضروري إجراء عمليتين لسعاد: جراحة تشوهات في العمود الفقري لنزع اللوحة المعدنية والمسامير من ظهرها ولكن بعد إنقاص وزنها، إضافة إلى العلاج من الشلل في الوجه.. لكن قرار د. عبيد جاء بالرفض. وأرسلت سعاد إلى رئيس الوزراء المصري تقريرا بحالتها الصحية لكن الخطاب لم يغير من القرار.

وكان آخر قرار من الحكومة المصرية بشأن سعاد حسني بتاريخ يوم السبت الموافق ٢٣ يونيو حزيران عام ٢٠٠١ والذي ينص على تحمل الدولة نفقات تجهيز ونقل جثمان الفنانة الراحلة من لندن إلى القاهرة.

وحينما قدمت سعاد إلى بريطانيا ذهبت لتسكن مع صديقة لها في مقاطعة كنت..ولتتمكن من المواظبة على العلاج كان يجب أن تسكن في لندن، فوجدت حجرة مؤقتة بحمام فى بيت الطالبات المسمى لي آبي في منطقة كرومويل لفترة الصيف فقط .. ثم أمضت في فندق إليزابيث في لندن حوالي ستة أشهر. وبعدها استأجرت شقة متواضعة في حي كينسنغتون بمبلغ ٨٠٠ جنيه استرليني في الشهر.. كانت شقة تكون في بناية أمام مستشفى كرومويل الذي تذهب إليه من وقت لآخر لمراجعة الأطباء. والبناية تضم عددا من الشقق يمتلكها رجل أعمال عراقي يدعى فيصل علي.

استمر الوضع على هذا المنوال لأكثر من ثلاث سنوات، تعرفت سعاد خلالها على الأطباء الذين سيعالجونها وبعض الشخصيات المصرية الأخرى. هناك من حاول احتواءها، وأيضا من أساء إليها واستغلها.. بل إن أحد المسؤولين دعاها إلى حفل عشاء ودعا الكثيرين لكي يروا ما وصلت إليه سعاد حسني في تلك الفترة برز طبيبان كصديقين في حياة سعاد وقدما لها المساعدة قدر الإمكان.

فقد أجرى الدكتور هشام العيسوي عمليات جراحية لزرع أسنانها على مدى عامين، حيث خلع كل أسنانها وعالج اللثة، وأجرى ترقيع عظام وزرع ٢٢ دعامة للأسنان. وتولى طبيب التخدير الدكتور عصام عبد الصمد مهمة تخدير سعاد في هذه العمليات ولم يتقاض أجرا، وانتهى العلاج قبل وفاتها بأسبوعين لم يكن د. عصام عبدالصمد يعرف عن سعاد سوى أنها ممثلة مشهورة، ولم ير لها أي فيلم لأنه ترك مصر منذ ٣٣ عاما.

تطورت صداقة سعاد بالدكتور عصام فأصبحت أيضا صديقة لعائلته: زوجته الإنجليزية جويس وأولاده شريف وسالي...وعقب رحيلها وضع د.عصام عبد الصمد كتابا عنها بعنوان: "سعاد حسني بعيدا عن الوطن..ذكريات وحكايات" صدر عن دار طباعة جنرال باك للطباعة.

تلقت سعاد علاجا طبيا في مصحة تشابنير التي تبعد عن لندن ١٠٠ كيلومتر وتعتبر من أحسن المصحات في العالم وكان صاحبها ثريا سعوديا. رحب الرجل باستضافتها لمدة ثلاثة شهور دون مقابل.. وقالت له سعاد إنها عندما تشفى وتعود لمصر ستقوم بعمل بعض الإعلانات عن المصحة مجانا تركت سعاد شقتها قبل أن تذهب إلى المصحة بتاريخ ٢٠ مارس ٢٠٠١ وعندما أنهت فترة العلاج بعد ثلاثة أشهر كاملة انتقلت للإقامة لدى نادية يسري التي تعيش بمفردها في لندن.. في الوقت نفسه أرسلت سعاد بعض حاجياتها الأخرى إلى مصر استعدادا للعودة.

يقول د.عصام: "بدأنا خطة لعودة سعاد عن طريق شركة طيران "شارتر" تقوم بالسفر إلى القاهرة عن طريق شرم الشيخ هناك تستقبلها سامية جاهين أقرب صديقة لسعاد وهي أخت صلاح جاهين لأنها لا تريد مقابلة أحد".

ولكن لم يمهلها القدر لتنفيذ الخطة، حيث إنها سافرت إلى مصر حوالي شهر أو شهرين مبكرا على شركة مصر للطيران.. في صندوق.

تحدث المشككون في ظروف وفاة سعاد عن تضارب أقوال صديقتها نادية يسري في الحادثة، وشهادة السيدة المغربية إيمان الإدريسي وزوجها وابنها وشهادة السيدة الفلسطينية.. والأخيرة قالت إن نادية يسري لم تأت من الشارع العام لتصعد إلى الشقة فتفاجأ بسعاد وقد وقعت على الأرض ضحية جريمة أو انتحار.. وأكدت أنها شاهدت نادية يسري في (جراش) السيارة قبل وقوع الحادث، وبعدها ظهرت نادية وكأنها آتية من الخارج حسب روايتها.

واتهم البعض شرطة اسكتلنديارد بالتقصير في التحري عن الحادثة، إذ لم تأخذ البصمات من داخل الشقة ولم تتحر عن الآلة التي تم بواسطتها قطع الشبكة المعدنية على الشرفة لمنع السقوط. كما أن الشرطة البريطانية لم تتفحص هاتف سعاد المحمول لملاحقة المكالمات التي وردت إليها أو أجرتها هي، واكتفت بالشهادة التي قدمتها نادية يسريولكن..من هي نادية يسري؟.

في عام ١٩٧٤ تعرفت سعاد حسني على نادية يسري في الاستوديو وكانت تتعرض لمشكلة مع شخص هرب فور تدخل السندريلا. والشخص المقصود هو "م.خ" الذي عرف بإجادته لأدوار الشر. وأمام وضع نادية الصعب عرضت عليها سعاد حسني أن تعمل معها كسكرتيرة، وظلت ترافقها بين فترة وأخرى كصديقة وكاتمة أسرارها، إلى حين وفاة النجمة الكبيرة في لندن في ظروف غامضة أدت إلى توجيه أصابع الاتهام إلى السيدة الأقرب لها في أواخر أيامها.

تقول نادية -والتي تدير ملهى عربيا في إدجوار رود بلندن- في حديث صحفي: "بعد طلاقي من زوجي جئت إلى بريطانيا، كنت أحبه، وعندما حطّم قلبي، قرّرت الهجرة، فقد أجهضني وأنا في الشهر السادس، وسافر بعد طلاقنا وما إن عاد حتى قرّرت الهجرة كي لا أبقى معه في البلد نفسه. وبعد سنوات عاد وبحث عنّي، وما إن التقينا حتى عاد إلى ونصب عليّ بمبلغ ربع مليون جنيه، فأصبت بجلطة، أنا لا أستخدم عقلي بل أستخدم قلبي" .

ولكن كيف كانت حال سعاد في يومها الأخير؟ تقول نادية: "لم تكن سعاد محبطة فقط في يومها الأخير، بل هي شعرت أن زوجها ماهر عواد كان يلح عليها، وهي لم تكن مستعدة للرجوع إلى مصر، كان لديها برنامج آخر من تصليح أسنانها وإنقاص وزنها، ففي الفترة الأخيرة لم تكن تهتم بشكلها الخارجي.. استسلمت للإحباط، وقالت لي يوماً "ماذا سيقول عني الجمهور، كيف سيتقبلني؟" . كان لدى سعاد سن مميز، وعندما تم تركيب أسنان جديدة لها تغير شكلها، فقالت لي "انظري..أين سعاد؟" شعرت أن سعاد تذوب أمامي وأنا لم أكن أعرف كيف أتصرف" .

غير أن كثيرين لا يعرفون سوى الجانب المضيء من النجمة التي ظلت تسحرهم بفتنتها منذ أن أطلت بصوتها الصغير عبر برنامج "بابا شارو" للأطفال في الإذاعة وهي تشدو "أنا سعاد أخت القمر، بين العباد حسني اشتهر" المرأة التي خطفت قلوب الملايين..احتفظت في قلبها بأسماء قليلة .

ويروي د. عصام في كتابه كيف أنه بعد أن أصبحا صديقين سألها عن أزواجها، فقالت له إنها تزوجت خمس مرات: المصور صلاح كريم، وعبدالحليم حافظ، وعلي بدرخان، وزكي عبدالوهاب، وماهر عواد.

قال لها د. عصام: "فلماذا أخفيت زواجك من عبدالحليم؟".. وكان ردها: "كانت هذه رغبة عبدالحليم حافظ.. كنا متزوجين عرفي.. ولم يكن عندي مانع من إعلان الزواج لكن عبدالحليم طلب السرية التامة خوفا على معجباته..وأنا كنت

متغاظة قوي من الموضوع ده..وعشان أبرد ناري قلت له أحسن لي كمان خوفا من المعجبين بتوعي..ومفيش حد أحسن من حد".

عاد ليسألها قائلا: "ولماذا أخفيت الموضوع بعد وفاة عبدالحليم؟".. فقالت: "لكي لا يعتقد أهل عبدالحليم أني طمعانة أو عايزة حاجة منهم".

وكان لغط كبير قد أثير بعد أن أذاع الكاتب الصحفي مفيد فوزي على صفحات مجلة "صباح الخير" قصة زواج سعاد من العندليب الأسمر قائلا إن سعاد هي التي أقرت له بزواجهما..كما قال إن الزواج استمر لمدة خمس سنوات، وإنه يحتفظ بمستندات وشريط كاسيت مهم لهذه الواقعة ولكنه لا يريد استغلال مثل هذه القضايا الشخصية لأصدقائه والترويج لها إعلاميا. جاء ذلك في ندوة روتاري صن رايز بالإسكندرية (راجع جريدة) "الأخبار" المصرية بتاريخ ٢٠٠٦/٥/١٢ السنة ٥٤ العدد ١٦٨٦٦. وفي موقع الإنترنت الذي أنشأته جنجاه أخت سعاد حسني بمناسبة ذكراها اعترفت عائلة سعاد أخيرا بزواجها من عبد الحليم حافظ وأدرجته ضمن زيجاتها الخمس. وذكر الموقع أن الحب قد اشتعل في عام ١٩٦٢ أثناء رحلة المغرب مع بعثة "صوت العرب" أثناء الاحتفال بالجلوس الملكي.. أما أيام العسل فقد كانت بين إيطاليا وسويسرا وإسبانيا.

دعونا فقط نتذكر أن الفنانة سعاد حسني رحلت عن عالمنا في ٢١ يونيو..اليوم الذي يوافق ذكرى ميلاد عبد الحليم حافظ الذي عاش خلال الفترة بين٢١ يونيو ١٩٢٩ و٣٠ مارس ١٩٧٧.

أما أول أزواجها فهو المصور صلاح كريم وكان يعمل مساعد مصور مع أخيه الكبير كمال كريم في فيلم "المغامرون الثلاثة" عام ١٩٦٥ بعدها عملا معا في فيلم "الزواج على الطريقة الحديثة" وتزوجته عام ١٩٦٨ لمدة عام واحد..أما على بدرخان فقد أحبته وقد كان يعمل مساعدا لوالده المخرج أحمد بدرخان في فيلم "نادية". تزوجا بعد أن انتهيا من تصوير الفيلم وانتهاء فترة الحداد فقد مات أحمد بدرخان في منتصف تصوير الفيلم ودام الزواج حوالي أحد عشر

عاما (من أوائل ١٩٧٠ إلى أواخر ١٩٨٠). بعد ذلك تزوجت من زكي فطين وهو ابن المخرج فطين عبدالوهاب وليلي مراد.. وكان يعمل مساعدا لعلي بدرخان في فيلم "أهل القمة" عام ١٩٨١ والذي لعبت سعاد بطولته أمام نور الشريف وعزت العلايلي.. تزوجته في السر بسبب اعتراض والدته الفنانة ليلي مراد لفارق السن بينه وبين سعاد، وتزوجها في الفترة من (١٩٨١/٤/٤) إلى (١٩٨١/٨/٢٨).

أما زوجها الذي ماتت وهي على ذمته فكان السيناريست ماهر عواد الذي تزوجت منه عرفيا.. وتم الزواج يوم الخميس الموافق (١٩٨٧/٦/١١) وعملا في فيلم واحد هو "الدرجة الثالثة".

إن سعاد محمد حسني البابا التي حصلت على الجنسية المصرية في ستينيات القرن الماضي- أحست في لندن بالاغتراب والوحدة والمرض..وهي التي كان لديها من والدها ووالدتها ستة عشر أخاً وأختاً بينهم أربعة عشر غير أشقاء..لعل أبرزهم المطربة نجاة الصغيرة.

لقد كانت العودة في ظل هذا الوضع هي الكابوس نفسه، ووجدت الفنانة نفسها في حالة حصار.. وفي لحظة قررت الخروج من الجسد والأزمة. لقد فقدت الأمل وروح "زوزو" المتحدية حيث تكالبت عليها عوامل الخنق وتلاشت الأضواء وكان عليها الخروج من مسرح الحياة فاختارت هذه الطريقة الفاجعة كأنها أطلت من الشرفة ورأت في لحظة حشد المعجبين في الشارع وهتافهم الهادر "سعاد.. يا سندريلا..يا زوزو"..انتشت من التصفيق فانحنت لتقترب من جمهورها أكثر من اللازم .. تحدت سعاد حسني قانون الجاذبية وفردت جناحيها لتعرف مذاق التحليق.. للمرة الأخيرة.

عندما أفرجت السلطات البريطانية عن جثمان الفنانة الراحلة سعاد حسني.. أصرت نادية يسري التي كانت تستضيف سندريلا الشاشة العربية في شقتها ببرج ستيوارت في لندن أن تصطحب جثمان صديقة العمر في رحلة العودة الحزينة

إلى أرض الوطن حتى تلقي عليها نظرات الوداع قبل أن يواري تراب مصر جثمان الفنانة العظيمة.. ولكن!

لم يخطر ببال نادية يسري ولو للحظة أنها بمجرد أن تطأ بأقدامها أرض مطار القاهرة ستجد نفسها متهمة بأبشع التهم.. وهي قتل نجمة مصر الأولى أو على أقل تقدير المشاركة في حادث سقوطها من شقتها بالطابق السادس بعمارة الموت في لندن!

ولم تتخيل نادية يسري أن تسارع مجموعة من زميلات الفنانة الراحلة بتقديم بلاغات ضدها الواحد تلو الآخر وأن المسؤولين بالمطار قاموا بإحالة هذه البلاغات إلى نيابة النزهة للتحقيق فيها!

ورغم أن الحوار مع صديقة سعاد حسني لم يكن طويلا..إلا إنه كشف الكثير والكثير عن اللحظات الأخيرة في حياة سندريلا الشاشة العربية.. فماذا قالت مدام نادية؟!.

في شقة بالزمالك.. كان اللقاء مع مدام نادية صديقة أميرة الشاشة العربية.. ولأن مدام نادية كانت عائدة لتوها من مدينة الإسكندرية لتقديم واجب العزاء في ابن خالتها الذي رحل منذ أيام فقد اشترطت علينا أن يكون الحوار معها قصيرا.. بمعني آخر أن ندخل في الموضوع علي طول.

سألتها: يقولون انك قتلت سعاد حسني؟

تبتسم مدام نادية يسري بحزن وتقول:

معقولة: مين اللي قال كده.. أنا أقتل.. ومين أعز صديقة لي في الدنيا .. أقول لهؤلاء.. الآن تبكون سعاد حسني وتبحثون عن شماعة تعلقون عليها إهمالكم لها وابتعادكم عنها لسنوات طويلة.. انظروا إلى أنفسكم.. حاسبوا أنفسكم أولا قبل أن تلقوا على الأبرياء بالاتهامات الكاذبة

سؤال: إيه حكايتك مع سعاد حسني؟

أجابت: سعاد صديقتي من ٣٠ سنة .. تعرفنا على بعض في حفلة ومن يومها لم نفترق حتى ولو عن طريق التليفون كانت تسأل عني وأسأل عنها.. حتى بعد ما سافرت إلى لندن وانتقلت للإقامة هناك لم تنقطع اتصالاتنا بعضنا البعض.

سؤال : لكن اهل سعاد حسني قالوا إنك لست صديقتها وإنهم لم يسمعوا بك من قبل؟

تبتسم مدام نادية وتقول:

يقولوا اللي يقولوه.. سعاد كانت صاحبتي الأنتيم والدليل أنها جاءت إلى لندن للعلاج وفضلت الإقامة معي في شقتي المتواضعة.

وكيف طلبت منك سعاد حسني ذلك؟

أبدا.. في يوم اتصلت بي وقالت لي يا نادية أنا خلاص مش قادرة على ثمن ايجار الشقة .. ممكن آجي أعيش معاكي؟ قلت لها أهلا بك يا حبيبتي أنا ضيفة عندك وأنت صاحبة البيت.

تصمت مدام نادية للحظات وتقول:

أصل شقة سعاد كانت غالية جدا كانت بتدفع فيها أكثر من ٨٠٠ جنيه استرليني في الشهر.. وده طبعا مبلغ كبير بالنسبة لمستوي المعيشة في لندن.

سؤال: شقة سعاد كانت فين؟

تجيب قائلة: كانت في كردمل رود بالقرب من ايرث كورث في لندن.. المهم انها جاءت لتقيم معي.. كانت هادئة الطباع كعادتها.. ولاني كنت مريضة مثلها فقد كنا نسند بعضنا.

الاكتئاب !

سؤال : وكيف أصيبت سعاد حسني بالاكتئاب ؟

تجيب قائلة: سعاد حسني أصابها الاكتئاب بسبب الصحافة والكلام الفارغ الذي كتب عنها بأنها تتسول في شوارع لندن وتأكل من صفائح القمامة.. يومها بعدما قرأت هذا الكلام بكت وقالت لي معقولة يقولوا عني كده أنا خلاص يا نادية انتهيت

سؤال: وهل هذا كان يعني أنها تفكر في الانتحار؟

تقول مدام نادية: سعاد فعلا كانت حزينة جدا وأعتقد أنها كانت بتفكر فعلا في الانتحار لأن في الفترة الأخيرة كان دائما على لسانها جملة انا زهقت ومليت من الدنيا!

سؤال : وماذا جرى يوم الحادث؟

تجيب مدام نادية قائلة:

أبدا.. يومها صحينا من النوم وقعدنا نتفرج على برنامج الغنوة الذي تذيعه القناة الفضائية المصرية وكانت الحلقة مخصصة لأغاني سعاد حسني.. جلسنا نتفرج على الحلقة وكانت دموع سعاد تنهمر منها بغزارة وبكيت معها لأنني أحسست أنها حزينة فعلا لابتعادها عن جمهورها.

سؤال: المعروف أنها كانت ستعود إلى مصر قريبا.. ألم يكن ذلك كافيا لخروج سعاد حسني من حالة الاكتئاب؟

تجيب مدام نادية: بالعكس كان أصعب شيء على نفس سعاد أنها ستعود قريبا إلى مصر وهي في هذه الحالة.. كانت لا تريد أن يراها الناس في هذه الحالة وكانت تقول لي ما اقدرش أخلي حد يشوفني كده!.

سؤال : وهل تغير وجهها بالفعل وتبدلت ملامحه الجميلة لهذا الحد؟.

تجيب صديقة سندريللا قائلة:

والله أبدا سعاد كانت زي القمر.. وكل الكلام اللي قيل عنها غير صحيح فهي أبدا لم تكن مثل رفيعة هانم كما صورها فوزنها كان ٧٠ كيلو جراما وليس ١١٠ كيلو جرامات.. وشعرها طويل ولم يكن محلوقا كما تصوروا .. أقسى شيء كان أثر إصابتها بالعصب السابع وهو مرض يؤثر على الوجه قليلا ولكن ليس هذا معناه أن سعاد قد أصابها الشلل كما أشاعوا عنها مؤخرا.

سؤال : نعود إلى يوم الحادث وما جرى فيه؟.

تقول مدام نادية : في هذا اليوم كان المفروض أن أذهب إلى جامعة ديست فيستو حيث أدرس الكمبيوتر ولكني شعرت بأنني لا أريد الخروج وقلت لسعاد ذلك فقالت لي لا يانادية روحي الجامعة وبعد كده هاتي لنا العشا معاكي.. قلت لها طيب ماتيجي نتعشي بره.. قالت سعاد خلينا في البيت أحسن.. وخرجت الساعة ٦ مساء وعدت الساعة ١٠ , ٩ تقريبا.

تصمت مدام نادية للحظات ثم تستطرد قائلة:

عندما عدت توقفت بسيارتي في الجراج ثم نظرت إلى شباك الشقة فوجدت ظلا في البلكونة... أدركت انها سعاد.. دخلت من الباب الرئيسي للعمارة وصعدت إلى الشقة وأنا أنادي عليها ولكنها لم ترد علي.. توجهت إلى الحمام عسي أن تكون سعاد قد قررت أن تأخذدشا ولكنني لم أجدها .. تصورت أنها تكون غادرت الشقة وخرجت مع أي صديقة لها.. ولكني وجدت تليفونها المحمول موجودا فوق منضدة فقلت في نفسي ربما نسيت التليفون.

تلتقط مدام نادية أنفاسها وتعود تقول:

كل هذا ولم يخطر ببالي أي شيء ولكنني فوجئت بأشياء غريبة حولي.. مثلا وجدت شبشب سعاد في منتصف الشقة.. أيضا منضدة المفروض أنها كانت دائما مغلقة.. وجدتها مفتوحة بالقرب من النافذة. أسرعت إلى النافذة فوجدت الأسلاك الموجودة لمنع دخول الطيور مقطوعة تماما من أحد جوانبها.. أسرعت إلى النافذة ونظرت منها لأسفل فوجدت جثة ملقاه على أرض الجراج!

تبكي مدام نادية وتقول:

كانت جثة سعاد.. أسرعت والدنيا تدور بي نزلت إليها اقتربت منها بخوف

كان خوفي أن تكون هي سعاد وعندما وصلت إلى الجثة وجدتها سعاد حسني صديقة عمري.

تـــســـأؤلات

سؤال: أكدت من قبل أن سعاد حسني انتحرت.. من أين أتيت بهذه التأكيدات؟

أجابة : أشياء كثيرة جدا..

الأسلاك التي تمنع دخول الطيور والتي تم قطعها.. ثانيا سور البلكونة ليس قصيرا كما قيل فارتفاعه يصل إلى أكثر من المتر.. ثالثا السلسلة الخاصة بها وقد وجدتها على إحدى الآرائك.. رابعا المنضدة المفتوحة على غير العادة ووجودها إلى جوار البلكونة.. خامسا ستيوارت تاور مبني يوجد به حراسة مشددة وكاميرات مراقبة ولا يمكن لغريب أن يدخل العمارة ويرتكب هذه الجريمة.

سؤال: وماذا فعلت بعد ذلك المشهد المرعب؟

تجيب قائلة: صرخت في حارس العقار وطلبت منه إحضار الشرطة وسيارة الإسعاف على الفور.. وتم نقل جثمان سعاد حسني إلى المستشفي في حوالي الساعة الواحدة صباحا.

مشاكل!

سؤال: ومتي بدأت المشاكل معك ؟

تقول مدام نادية : المشاكل بدأت بمجرد وصولي إلى أرض مطار القاهرة.. ولكني قبل ذلك أريد أن أقول إنني اتصلت بالفنانة نجاة شقيقة سعاد حسني وأخبرتها بما حدث والتي أكدت لي أن شقيقها عز الدين سيحضر لاستلام الجثمان فقلت لها إنني سوف أستضيف عز الدين وابنه أحمد في شقتي وسوف أعود معهما والجثمان حتى ألقى نظرة الوداع الأخيرة على صديقة عمري

سؤال: وكيف بدأت المشاكل في المطار؟

تجيب قائلة: المشكلة كلها في ورقة صغيرة دسها عز الدين وابنه أحمد للمسئولين في المطار تفيد بأنني قتلت سعاد حسني!.. شيء غريب جدا.. لم أصدق ما يحدث ووجدت نفسي فجأة متهمة بقتل أعز صدقاتى دون أي سند.. صحيح خير تعمل شر تلقي!

سؤال: ولماذا اتهمك شقيق سعاد حسني؟

تقول مدام نادية : الله أعلم

سؤال 'ستيوارت تاور' عمارة الانتحار بماذا تبررين ما يحدث في هذا المبني؟

تقول مدام نادية يسري: صحيح العمارة دي غريبة جدا.. أنا شفت بنفسي فيها حادثين انتحار.. الأولى كانت لرجل روسي شاهدته يسقط من الروف.. والثانية لفتاة إسبانية سقطت من الطابق الثامن.

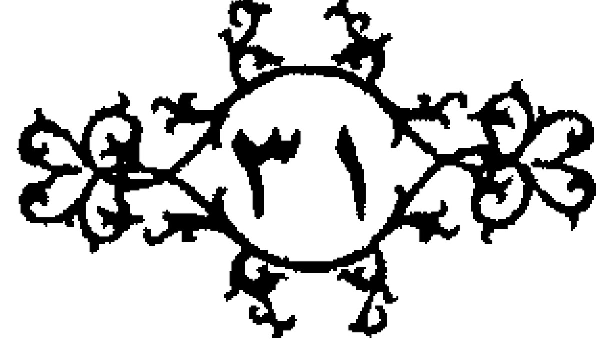
سؤال : ما المدة التي أقامت فيها الفنانة سعاد حسني في شقتك؟

تجيب : ٦ شهور تقريبا ويعلم الله كم كانت تملأ عليّ حياتي.

سؤال: يقال إن المهدئات الطبية التي كانت تتناولها سعاد حسني للعلاج وراء اختلال توازنها وسقوطها من الطابق السادس؟

اجابت: لا .. أنا اتناول مهدئات أكثر مما تتناوله سعاد حسني.. صدقوني سندريلا انتحرت!.

■■■



بينتو موسوليني ..

OOO



في يوم ١٨ أبريل ١٩٤٥ ، بينما الحلفاء على وشك دخول بولنده والروس يزحفون نحو برلين، غادر ديكتاتور إيطاليا العتيد بينتو موسوليني مقر إقامته في سالو رغم اعتراضات حراسه الألمان، فظهر في ٢٥ من الشهر نفسه في ميلانو ليطلب من أسقف المدينة أن يكون وسيطا بينه وبين قوات الأنصار للاتفاق على شروط التسليم التي تتضمن إنقاذ رقبته، إلا أن قيادة الأنصار التي كان يسيطر عليها

الحزب الشيوعي الإيطالي أصدرت أمرا بإعدامه، وتابع هو رحلته بالسيارة متخفيا ومعه عشيقته كلارا ليخوض ما أسماه بمعركة الشرف الكبرى والأخيرة، وعندما وصل إلى مدينة كومو القريبة من الحدود السويسرية تبين لأنه كان واهما وان أنصاره المخلصين لا يزيدون على عدة عشرات من الأشخاص، أخذوا ينفضون من حوله بسرعة عندما شاهدوا الزعيم يهذي وبه مس من الجنون،

وعندما رفض السويسريون دخوله إلى بلادهم، فكر في أن يختبئ في أي مكان، وفي المساء من نفس اليوم وصلت مجموعة عابرة من الجنود الألمان كانت تريد اختراق خطوط الأنصار في طريقها إلى النمسا، فتصور موسوليني أنه قد جاءه الفرج وتخفى في زي جندي ألماني والتحق بها، وترك الحفنة الأخيرة من رجاله ليحاول كل منهم النجاة بنفسه، ولكن بالقرب من مدينة دونجو الحدودية على راس البحيرة استوقفت كتيبة من الأنصار الطابور الألماني لتفتيشه قبل السماح له بالمرور واكتشف أحد أعضاء الحزب الشيوعي أمر موسوليني الذي كان يرجف من الخوف، وألقت القوات القبض عليه، وفي يوم ٢٨ أبريل ١٩٤٥ تم إعدام موسوليني الذي كان يبلغ ٦٢ عاما من قبل وحدة من رجال المقاومة اليسارية قبل وصول الأمريكيين بساعات قلائل.

في ٢٨ أبريل عام ١٩٤٥ أعدم بنيتو موسوليني وعشيقته كلارا بتكاسي رميا بالرصاص لتطوي صفحة من تاريخ إيطاليا الحديث، بل من تاريخ العالم. فمع أنه عندما تذكر الحرب العالمية الثانية يرد اسم أدولف هتلر والحركة النازية في ألمانيا، فإنه قبل أن تكون النازية في ألمانيا كانت حركة موسوليني الفاشية في إيطاليا التي تطلق على نفسها فؤوس القتال، وحين وصل موسوليني إلى السلطة في اواخر العشرينيات كان هتلر شخصا مغمورا ومعجبا بموسوليني حتى إنه طلب صورة له تحمل توقيعه الشخصي.

ونقلت جثته ومعه جثة عشيقته كلارا إلى روما لتعلقا من رجليهما في شرفة قصر فينسيا الحكومي في قلب روما كما طلب موسوليني نفسه في إحدى خطبه متحديا

و لكن كيف حاكم الإيطاليين موسوليني دكتاتور إيطاليا الفاشي؟

القاضي يسأل موسولوني عن هويته وهل هو بالفعل موسوليني..أجاب موسوليني بأن هذه هويته وهذا هو شخصيا..فقال له القاضي ..حكمنا عليك بالإعدام..فما فائدة المحكمة وأنت مدان مقدما بكل هذه الجرائم.. وأخذوه إلى الشارع وأعدموه فورا..لم يعترض أي إنسان على هذه المحكمة وعلى قرارها وطريقة النطق بالحكم لأنها محكمة عادلة ..ولم يكتب عن موسوليني أي مرتزق من المطبلين له..لانهم رأوا أمام أعينهم ماذا فعل هذا السفاح.

وإليكم القصة الكاملة عن الأيام الأخيرة للدكتاتور .. قضى الدكتاتور موسوليني الأيام الأخيره من حكمه في ميلانو التي كانت مركز قوته. في ٢١ أبريل ١٩٤٥ كانت مدينة بولونيا قد سقطت أثناء الحرب في يد مقاومة جبهة التحرير الشعبية وقُتل الحاكم العسكري بها. حل موسوليني حكومته وحاول أن يتصالح مع جبهة التحرير التي انطلقت في الداخل لكنهم رفضوه. حاول التوسط إليهم عن طريق رجال الدين ووعدهم بأنه لن يغدر بهم لكن الآوان قد فات.

في ٢٥ أبريل فر موسوليني من ميلانو تحت حماية قوات ألمانية إلى كومو مدينة عشيقته الأخيره " كلارا " ومنها كتب آخر رساله له إلى زوجته " راخيلا " يطلب منها الهروب إلى سويسرا. في ٢٦ أبريل زاد خوفه ففر إلى ميناجيو مدينة عشيقته الأخرى " أنجيلا ".

وفي ٢٧ أبريل ضاقت به الأرض ففر إلى الشمال في حماية قوات الألمان غير أن قوات من جبهة التحرير الشعبيه اعترضت القافلة وبعد مفاوضات سمحت فقط للألمان دون الإيطاليين بالمرور شمالا . في سبيل تهريبه ألبس الألمان موسوليني ملابس عسكريه ألمانية وأخفوه في شاحنة بين الجنود. لكنه لم يكن صعبا على رجال جبهة التحرير الشعبية من كشف الدكتاتور والتعرف عليه من بين الجنود والقبض عليه هو و" كلارا ".

الساعة الواحدة والنصف ظهرا يوم ٢٧ أبريل نقلوه إلى بيت ناءٍ ليقضي ليلته الأخيرة.

في اليوم التالي أتت الأوامر من مجلس جبهة التحرير الشعبية بإعدام موسيليني وجاء العقيد "فاليريو" الذي انضم سرا للجبهة إلى مكان اعتقال موسوليني وأخبره بأنه جاء لينقذه وطلب منه مرافقته إلى المركبة التي كانت في الإنتظار. ذهب به إلى فيلا بيلموت المجاورة حيث كان في إنتظارهم فرقه من الجنود. كانت جبهة التحرير قد قبضت على أغلب معاونيه وحددت ١٥ شخصا منهم بإعدامهم وفي يوم ٢٩ أبريل تم تجميعهم بما فيهم موسوليني وعشيقته "كلارا" وتم نقلهم ليُشنقوا مقلوبين من أرجلهم في محطة البنزين في مدينة ميلانو.

"من العادات القديمة في الأعراف الإيطالية أن النصّاب أو المحتال يعاقب بالإعدام مقلوبا مصلوبا من إحدى قدميه".

و في ميدان "دونجو" بميلانو يوجد حاليا بنك مكان محطه الوقود، ومبنى شركة " يو بي آي أم" بجانب المحطه لايزال المكان موجودا وعلى جدرانه تزال آثار الرصاص يوم إعدام موسوليني وأعوانه. لمّا علم هتلر بالنهاية البشعه لحليفة قرر بأن يقتل بعض من أعوانه الكبار ثم ينتحر هو نفسه ويحرق جثته خوفا من التمثيل بها، وعندما بحثوا عنه بعد سقوط برلين وجدوا من جسده المحترق فقط بقايا من أسنانه.

و إذا كان الناس يتذكرون بدهشة، ذلك الكمين الذي نصبه صدام حسين لزوجي ابنتيه يوم أعادهما إلى بغداد بعد فرارهما منها.. ثم حدثت تلك المجزرة، التي راح ضحية لها عدد من أقربائه وأبناء عمومته، وفي مقدمتهم حسين كامل، الذي كان ساعده الأيمن، وكان زوجا لابنته ووالد أحفاده منها، فإنه يبدو لمن يقرأ التاريخ، أن الديكتاتور، هو الديكتاتور في كل زمان ومكان، فديكتاتور إيطاليا موسوليني، قام هو الآخر في أيامه الأخيرة بإعدام زوج ابنته ووالد أحفاده .

في أيام الدوتشي الأخيرة وقع موسوليني تحت وطأة ضغوط في غاية الصعوبة والتعقيد!

ولعل تسليط بصيص من الضوء على تلك الظروف التي دفعت موسوليني إلى إعدام الكونت شيانو، وهو من ألمع فتيان ايطاليا، يظهر للقارئ الأسباب التي أدت إلى ذلك.

عندما زفت أشهر فتاة في إيطاليا (إيدا موسوليني إلى الكونت شيانو، فما من نافذة في روما إلا وعلقت عليها أوراق للزينة بهذه المناسبة، لأن والد الفتى (العريس كان يمتلك أضخم مصانع الورق في البلاد.

ثم دار الزمن دورته، وإذا بأشهر فتاة في إيطاليا (إيدا تطوف على بيوت الأصدقاء والصديقات، تلتمس منهم ملجأ لليلة واحدة .. ليلة واحدة فقط لتنقذ زوجها المحبوب، من رصاص فرقة الإعدام، لكن البيوت، كل البيوت.. أغلقت في وجهها أبوابها فتضطر الفتاة إلى أن تمضي تلك الليلة الزمهريرية في شتاء يناير، على مقعد في أحد شوارع روما.

فـ«إيدا» موسوليني زوجة وزير خارجية إيطاليا الشاب اللامع الذي أمر موسوليني بإعدامه مع أنه صهره، ووالد أحفاده! ففي عام (١٩٤٤سقطت الفاشية في إيطاليا.

تعالت الأصوات ضد موسوليني زميل هتلر، وعقد المجلس الفاشي الأعلى اجتماعه ليتخذ قرارا بتجريد الدوتشي من سلطاته، ويصوت وزير الخارجية شيانو إلى جانب المجموعة التي تريد الإطاحة بموسوليني، الذي ما أن رآه، وإذا به يردد كلمة شهيرة:

(حتى أنت.. يا شيانو) .. فرد عليه قائلا:

يا دوتشي.. ليس هذا وقت التشدق بالكلمات التاريخية.. ثم إنك لست يوليوس قيصر، وأنا لست بروتس! أي نعم، إنني أعطيت صوتي للإطاحة بحكمك، لأنك جررت البلاد إلى حافة الكارثة بانحيازك الأعمى لهتلر، ويستحسن من أجل تاريخك القديم كله أن تنسحب الآن من الميدان السياسي، ليتمكن المخلصون من إنقاذ إيطاليا، بعد أن ورطتها.

وبالفعل اتخذ القرار بالإجماع، للإطاحة بحكم الدوتشي وكان صدى سقوطه مدويا في برلين.

ثار هتلر، وجمع أركان حربه على الفور، وأصدر اوامره بالزحف فورا على روما، مع كافة التفصيلات الضرورية، لاعتقال جميع أعضاء الحكومة الجديدة، واعتبر ذلك أمرا واجب التنفيذ، حيث ختم اجتماعه بالقول: «لا بد من إلقاء القبض على تلك المجموعة من الخنازير، وعلى وجه الخصوص المجرم شيانو». وقبل أن تسيطر المجموعة التي أطاحت بالدوتشي على زمام الأمور في البلاد، وقبل أن تسارع إلى الاتفاق مع الحلفاء، الذين كانوا قد أنزلوا قواتهم بجزيرة صقلية، كان هتلر قد سبق الجميع، واحتل روما وشمال إيطاليا كله.. وتساقط أعضاء الحكومة الجديدة في أيدي الجستابو رجلا بعد آخر، وفي مقدمتهم شيانو صهر موسوليني، زوج إيدا الابنة المدللة عند أبيها.

واتخذ القرار ضمنيا بإعدامهم جميعا بعد محاكمة شكلية، لكن موسوليني لم يكن راغبا في ذلك، ولهذا فقد قال لهتلر:

«الا ترى يا فوهرر أن المحاكمة في هذه الظروف قد تضعف من قوة الحزب الفاشي؟!». فيجيبه هتلر ساخرا:

«الحزب الفاشي؟! لا تداعب خيالك هذه الآمال الكاذبة يا دوتشي، لأنك فشلت بالفاشية، ولأن بلدك غير مستعد لتسنم ذرى المجد.. انت يا عزيزي موسوليني

ضعفت، ولم تعد تصلح للقيادة.. لا تغضب مني يا عزيزي، فإن هذا لا يقلل من قدر إنجازاتك القديمة! وأرى أن تشرع على الفور في محاكمة هؤلاء الخنازير!».

فيتساءل الدوتشي:

«هل سنحاكمهم جميعا؟!».

فيجيبه هتلر:

«وأولهم شيانو لأنه خانك وهو القريب منك، فيجب أن يعدم مائة مرة».

لكن موسوليني يدرك حجم المأساة التي ستعانيها ابنته الوحيدة، فيلتمس من هتلر أن يعفي شيانو من الإعدام، فيتوسل إليه قائلا:

«فوهرر .. من أجل أيامنا القديمة المجيدة، أرجوك كل الرجاء أن تعفي شيانو، إنه زوج ابنتي الوحيدة التي لا أرجو سواها من الدنيا.. إنه والد أحفادي الثلاثة». فيجيبه هتلر:

«ألم أقل لك إنك أضعف من أن تكون حاكما قوي الشكيمة! لا يا دوتشي، شيانو يجب أن يعدم قبل الجميع!».

وصدر قرار يقضي بمحاكمة كل من اشترك في أحداث ٢٣ يوليو ١٩٤٣، وهرعت إيدا إلى أبيها في محاولة مستميتة لإنقاذ زوجها، فيطمئنها موسوليني بالقول: «لقد اخترت بنفسي هيئة المحكمة، وكلهم يعرفون رغبتي في إنقاذ شيانو»، فتنظر إليه غير مصدقة لما يقول:

«لا يا أبي إنك لا تريد إنقاذ زوجي، وإنما تريد أن تشتري برأسه سلامتك عند هتلر!».

لكن موسوليني يساير ابنته فيفتح ذراعيه لاحتضانها، وما أن تلقي برأسها على صدره، فيبادرها قائلا:

«ما هذا الهراء يا ابنتي؟! كيف يخطر ببالك أنني أساهم في حرمان أحفادي من أبيهم؟! كوني على ثقة يا إيدا إن المحاكمة شكلية»، فتنزع نفسها من بين يديه، وتنظر إلى وجهه بحدة وعصبية، وتقول:

«أبي .. لا تخدعني! الكل يردد أن الأحكام ستصدر بإعدامهم جميعا، وهتلرك هذا لن يستريح حتى تتدحرج رأس شيانو تحت قدميه القذرتين..» فيجيبها:

«حتى لو افترضنا يا إيدا أن الأحكام قد صدرت بإعدامهم، فمن حقي إبدال حكم الإعدام بالسجن.. وستتغير الأحوال حتما، وسيخرج العزيز شيانو من السجن بعد أن يمضي فترة قصيرة». لكن إيدا بعد أن سمعت ذلك تهجم على أبيها وتضرب بكلتا يديها على صدره، والشرر يتطاير من عينيها، وتردد:

«وحش .. وحش .. هذا هو أنت يا دوتشي .. ماذا .. ماذا فعل شيانو عندما طلب هو وزملاؤه منك التخلي عن منصبك لمن يقدر على إنقاذ البلاد من سيطرة هتلر عليها وعليك؟! ماذا فعل؟! هيه .. تكلم .. تكلم.. ماذا فعل؟!».

ويحاول موسوليني جاهدا أن يجعل ابنته تسيطر على انفعالاتها، ويخبرها أن لدى هتلر أدلة قاطعة تدين شيانو، لأنه كان يتصل بالحلفاء للاستسلام، فتصيح إيدا:

«هذا هراء. وليس لدى هتلر أي دليل على ذلك..».

فيقول لها:

«اسمعي يا ابنتي خذي بنصيحتي، وغادري إيطاليا إلى أي مصح في سويسرا، إلى أن تتضح حقيقة الموقف، ثم تعودين».

فتجيبه: «كلا يا دوتشي .. يا والدي العزيز .. يا زعيم الفاشية في العالم».. واسترسلت إيدا في الإمعان بالسخرية من والدها: «بل سأبقى هنا، حتى يصدر

حكم الإعدام، فأرى بنفسي توقيعك على العفو عن شيانو.. وإذا لم تفعل ذلك فسوف أقتل أحفادك الثلاثة، وأقتل نفسي بعدهم»! ويمر الزعيم الفاشي بأزمة نفسية مروعة، كتب أنصاره:

«ليس هناك أروع من بطولة الدوتشي وهو يضحي بأعظم حب في حياته، حبه لابنته، من أجل مبادئه الوطنية».

وكتب خصومه:

«ما أجبنه! من أجل إنقاذ رقبته الحقيرة من مشنقة هتلر ضحى كبير الفاشيست بابنته وأحفاده، وصهره!».

- في مدينة فيرونا وهي التي اختارها شيكسبير مسرحا لأحداث روميو وجوليت جرت المحاكمة التاريخية في يوم ١٥ يناير ١٩٤٤، ومثل المتهمون الـ ١٦ في القفص الحديدي، وكان شيانو ابن الأربعين المفعم قوة وصحة وحيوية، يجلس إلى جانب باديليو الذي أسقمه سرطان المعدة، ودي بونو البالغ التسعين من عمره، حيث وجهت اليهم تهمة الخيانة العظمى، وعقوبتها الإعدام، فوقف شيانو متسائلا.

«الخيانة العظمى لمن يا سيدي الرئيس؟! للدوتشي؟! أم لإيطاليا؟! وإذا كانت الخيانة العظمى تهمتي لأنني صوت في ليلة ٢٣ يوليو إلى جانب المجموعة المعارضة، وقد اعتبرتم ذلك خيانة للدوتشي، فإني أقر بالتهمة، ولكنني لست خائنا لإيطاليا، فأنا ما صوت ضد الدوتشي إلا من أجل إنقاذ إيطاليا، فمن المستحيل أن أخون هذا البلد العظيم، وأرجو يا سيادة الرئيس أن تراجعوا سجل حياتي لتكتشفوا أنني قد ساهمت بدفع عجلة الاتفاق بين هتلر والدوتشي، والتنسيق بين الدولتين، عندما كنت وزيرا للخارجية .. ولكن لما جاء الوقت الذي أدركنا فيه أن التنسيق مع ألمانيا قد ألغى إرادة الايطاليين، فكان لا بد لي كأي مواطن إيطالي، أن أطالب بتنحي موسوليني، واسترداد البلاد إرادتها!».

فيجيبه رئيس المحكمة:

«ألم تقل في المجلس الفاشستي الأعلى: لقد آن لإيطاليا أن تخرج من أتون هذه الحرب التي لا علاقة لنا فيها؟!».

فيجيبه شيانو:

«لقد اخطأ كاتب الجلسة في تدوين أقوالي، فأنا لم أكن أعني هذا، وإنما ....»، لكن رئيس المحكمة يقاطعه مسترسلا في توجيه التهم: «ألم تقل للكونت جراندي المتهم الـ١٤ والهارب الآن في البرتغال: إنك ترشح الجنرال باديليو رئيسا للوزراء بدلا من الدوتشي؟! وإن على باديليو في هذه الحالة أن يأخذ الموافقة من الملك للمسارعة بالاتفاق مع الحلفاء؟!».

فيقول شيانو:

«لم يصدر عني هذا الكلام!».

فيجيبه رئيس المحكمة:

«لكن الكونت جراندي نشر هذا الكلام في الصحف البرتغالية!».

فيقول شيانو:

«لست مسؤولا عما يكتبه جراندي! وما لنا يا سيدي الرئيس بما يزعمه جراندي، والجنرال باديليو أمامكم، سلوه .. عما إذا كنت قد قلت بالذي زعمه جراندي!».

ويقوم باديليو وهو في القفص ليقول:

«أقسم بربي إن ذلك لم يحدث..».

وتستمر المداولة بين القضاة لأيام وأيام، تأرجح فيها مصير قادة إيطاليا في ذلك العام الحرج من تاريخها، فنصف القضاة كانوا مؤيدين للسجن المؤبد، والنصف الآخر لديهم تحفظات على الحكم بالإعدام، وان لم يستبعدوه!

وأوشكت المحكمة أن تعلن الحكم بالسجن المؤبد بعد أن اتفقت الأغلبية من أعضاء المحكمة على ذلك .. وفجأة يقتحم غرفة المداولة حيث يجتمع القضاة مندوب هتلر، ورئيس الجستابو هيملر يحمل رزمة من الأوراق وزعت على اعضاء المحكمة، وبعد أن تدارسوها خرجوا إلى القاعة ليعلنوا الحكم باعدام الجميع .. وللدوتشي تخفيف الحكم إذا شاء ذلك!

- كتب الدوتشي في أسفل وثيقة الحكم السطور التالية:

«ينفذ فيهم حكم الإعدام حتى الموت، في أقرب وقت يحدده وزير الداخلية».

واسرعت إيدا هلعة فزعة إلى الفيلا التي يقيم فيها أبوها، ولكن الحراس حالوا بينها وبين الدخول .. فاستلت خنجرا من حقيبة يدها، وصرخت فيهم:

«أترون هذا الخنجر؟! إذا لم تدعوني اقابل الدوتشي، سأغرزه في صدري أمامكم، ثم صاحت فيهم: ماذا جرى لكم أيها الإيطاليون؟! هل فقدتم الإحساس بالشرف والكرامة؟!».

ورغم ما لدى الحراس من أوامر صارمة بعدم السماح بدخول أي أحد على الدوتشي، فقد أدركوا خطورة الموقف، فسمحوا لها بالدخول على أبيها الذي ما أن رآها مقبلة عليه، حتى وقف فاتحا ذراعيه لاحتضانها وهو يقول:

«أيتها الحبيبة إيدا .. أتحسبين أن قلبي لم ينفطر حزنا وأنا اصدق على حكم الإعدام؟!».

فصاحت به وحشرجات عبراتها تخنقها:

«لماذا فعلت هذا يا أبي؟!». فيجيبها بصوت منكسر: «لم يكن هناك من مفر إلا أن يموت شيانو!».

فتتساءل إيدا بحيرة والدموع تنهمر من مآقيها:

«لماذا يا دوتشي؟!..». فيقول:

«لأنه البديل الوحيد من أجل أن يعيش أولادك، وأحفادي، لأنهم الآن في أيدي الجستابو!».

فتجيبه بحدة:

«أنت تكذب يا موسوليني! لقد تركت أولادي في بيت الماركيز بوتشي، ولا أحد يعرف مكانهم، وبوتشي لن يخونني».. فيقول لها:

«اهدأي يا ابنتي .. لقد ابلغوني ساعة وضعوا أمامي وثيقة الحكم بالإعدام لكي أصدق عليها .. ابلغوني بأنهم أخذوا اولادك الثلاثة رهائن حتى يتم تنفيذ الإعدام على أبيهم .. وهددوا بقتلهم جميعا إذا بدلت الحكم بالسجن، أو صدرت عفوا عن شيانو!».

فتنهار إيدا حتى يكاد يغمى عليها، وهي تردد:

«وحوش .. خنازير .. سفلة .. قتلة .. مجرمون ..!».

فيهدئ موسوليني من روعها:

«صدقيني يا ابنتي، لقد وعدوني أن يحضروهم إلى هنا سالمين إذا صدقت على حكم الإعدام! وقد فعلت يا إيدا .. نعم فعلت .. إذ لم يكن أمامي غير هذا لأنقذك وانقذ أحفادي الثلاثة من الاغتيال!».

في تلك الليلة الزمهريرية في ١٥ يناير ١٩٤٤، تم إعدام شيانو، كما تم أحراق كل ما كان قد كتبه في الزنزانة من رسائل إلى زوجته، وإلى أولاده، والى صهره الذي صدق بيده على حكم اعدامه، لكن القس الذي شهد إعدام شيانو حمل رسالة سرية إلى إيدا، حيث كتب لها يقول:

«حبيبتي الجميلة .. أبدأ في هذه الساعة الأخيرة التي يداعبك فيها أمل، لخلاصي من هذه المحنة، وحلم سعادتنا عندما ألتقيك والأولاد من جديد .. لا اطلب منك يا شريكة العمر الحلوة غير أن تصلي انت والأعزاء الصغار من أجلي.. ليبارككم الله .. لقنيهم يا إيدا مبادئ الشرف والامانة التي لقنني اياها أبي .. ولا تحطي من قدر تلك المبادئ لأنها قادتني في النهاية إلى الموت، فإن الموت في سبيلها افضل ألف مرة من الحياة بدونها! احذري يا إيدا أن تقع الأوراق التي سلمتك اياها في ايدي الأمان.. اعتمدي على الماركيز بوتشي لاخراج تلك الاوراق من إيطاليا .. وداعا ايتها الحبيبة..».

لم يعش موسوليني بعد إعدام صهره كثيرا، حيث شنقه الإيطاليون مع صديقته كلارا باتاشي. أما الاوراق التي أشار إليها شيانو في رسالته إلى إيدا، فقد كانت لها آثار بالغة في تسليط الضوء على مساوئ الحكم الفاشي.

وحياة موسوليني كانت دائما مليئة بالتناقضات، فلقد ولد لأم تعمل مدرسة، وهي كاثوليكية متزمتة، وأب حداد، ملحد وفوضوي، أطلق عليه اسم بنيتو تيمنا بالثوري المكسيكي بنيتو خواريز. وموسوليني قبل أن يصبح فاشيا كان اشتراكيا، وتحول مجرى حياته بعد لقائه مع انجيليكا بالانوف، وهي روسية من أصل إيطالي كانت تنشر الفكر الماركسي بين المهاجرين الإيطاليين في النمسا، فأصبحت معلمته وشجعته على الكتابة وبدأ ينشر مقالاته في الجرائد الاشتراكية.



"Il mondo, me scomparso, avrà bisogno ancor dell'Idea che è stata e sarà la più audace, la pi originale e la più mediterranea ed europea dell Idee. La storia mi darà ragione".

وكان هذا الفاشي المتزمت قد نشر رواية رومانسية مبتذلة بعنوان عشيقة الكاردينال بعد عفو عن الهاربين من خدمة الجيش عام ١٩٠٤. عاد لإيطاليا وعمل مدرسا وساهم مساهمة رئيسية في تحرير مجلة أسبوعية تدعى صراع الطبقات، وعندما اعلنت إيطاليا عام ١٩١١ الحرب على تركيا وتحركت لغزو ليبيا، قاد موسوليني ككل الاشتراكيين، مظاهرات ضد الحرب وحوكم وسجن لعدة أشهر، وبعد إطلاق سراحه رحب به الاشتراكيون وعينوه رئيسا لتحرير جريدتهم الوطنية إلى الأمام.

ثم فجأة ودون مقدمات أو مشاورات مع قيادة الحزب الاشتراكي نشر موسوليني مقالا في الجريدة يطالب فيه إيطاليا بالدخول إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فطرد من عمله والحزب واتهم بالخيانة، وقد فسر هذا التحول بأنه قبض مبلغا سريا من الحكومة الفرنسية.

أسس جريدة إيطاليا الشعب التي وصفها بأنها اشتراكية يومية، ليصبح موسوليني صاحب جريدة بدون حزب. وكانت إيطاليا قد خرجت من الحرب بأزمة اقتصادية حادة عبر عنها التضخم والبطالة والإضرابات. ومنذ مارس ١٩١٩ بدأت جريدته تنشر سلسلة مقالات عن تشكيل مجموعة لمحاربة القوى التي تسعى لتفكيك الأمة وإفراغ النصر.

وفي ٢٣ من نفس الشهر، عقد اجتماع حضره ١٤٥ شخصا في مدينة ميلانو وأعلن تشكيل العصبة المقاتلة **وحددت العصبة لنفسها ثلاث مهام:**

١ - دعم وتأييد مطالب المحاربين المادية والمعنوية

٢ - محاربة أي بلد يسعى لتدمير إيطاليا

٣ - محاربة المرشحين المشكوك بإيطاليتهم في انتخابات كانت ستجري ذلك الوقت في إيطاليا.

زحف موسوليني بتظاهراته الكبرى التي شارك فيها نحو أربعين ألفا من أصحاب القمصان السود الذين جاءوا من مختلف المدن الإيطالية ليحقق مسيرته الكبرى إلى روما المتهرئة عام ١٩٢٢.

هؤلاء الذين لم يكن لهم أي وجود غداة الحرب العالمية الأولى، فإذا بهم خلال سنوات قليلة يصل تعدادهم إلى عشرات الألوف من المضللين، الذين يحملون هوية الحزب الذي شكله موسوليني وينعمون بالامتيازات، وسط أوضاع متردية سياسيا واقتصاديا، هيأت لموسوليني الذي تحول من الاشتراكية إلى الفاشية من جعل حزبه بديلا لدولة لم تعد ذات وجود ومكنه من القيام بحملة ديماغوجية حرك من خلالها الغرائز المتطرفة لعدد كبير من العاطلين عن العمل من الجنود المسرحين، ومن ذوي السوابق الإجرامية، ومن فلول عصابات الإجرام المنظم المافيا والكومورا وفايدا فجعل لهم أيديولوجية متعصبة إلى حد التطرف ليملأ

الفراغ السياسي والأيديولوجي والروحي المتأزم بسبب الهزيمة المريرة في الحرب العالمية الأولى.

وهكذا أصبحت القمصان السود والهراوة علامتين تميزان حركة موسوليني حتى أعيدت تسميتها لتصبح الفاشية، لكنها بقيت حركة هامشية، ففي انتخابات ١٩١٩ لم يفز أي فاشي بمقعد في البرلمان وحصل موسوليني نفسه على ٤٠٠٠ صوت فقط في مدينة ميلانو مقابل ١٨٠ ألفا للاشتراكيين، وعندما كتبت مجلة إلى الأمام الاشتراكية تنعي خسارة موسوليني في الانتخابات، هوجم مقر الحزب الاشتراكي بالقنابل، وحين داهم البوليس مكاتب مجلة موسوليني وجد قنابل ومتفجرات فسجن اربع سنوات ثم أطلق سراحه.

كانت ظروف إيطاليا المريضة تساعد على بروز الحركة الفاشية على مسرح السياسة، فالحكومة عاجزة عن الحركة والجماهير هاجمت البنوك والبنايات العامة، وحدث تمرد في بعض وحدات الجيش. وفي عام ١٩٢٠ وحده شهدت إيطاليا ١٨٨٠ إضرابا، وتحولت عدة مدن وقرى صغيرة إلى الشيوعية، وشكلت لجان سوفياتية على الطريقة الروسية. ومنذ عام ١٩٢١ بدأ الصناعيون وكبار ملاكي الأراضي بدعم الحركة الفاشية.

في انتخابات مايو من عام ١٩٢٠ انتخب ٣٥ فاشيا للبرلمان من بينهم موسوليني الذي أعطته ميلانو هذه المرة ١٣٥ ألف صوت. بماذا جذب موسوليني الإيطاليين ونال إعجابهم؟

كان برنامجه الانتخابي قد تحدث عن النظام والقانون وشرف الأمة وموقعها بين الأمم، واستعان بخلفيته الثورية ليقول إنه سيأخذ من الغني ليعطي الفقير مع حماية الملكية الخاصة، واستطاع بزعامته وشخصيته المؤثرة أن يصبح رمزا للدولة، لكل السلطة وإن يحكم إيطاليا مدة ٢١ عاما بينما بقي حليفه في السلطة، هتلر لمدة ١٢ عاما.

بدأ التخطيط لاستلام السلطة بعد أن سيطر ٥٠ ألفا على مدينة فيرارا وسط البلاد وطلبوا أن يصدر رئيس بلديتها برنامجا للأعمال العامة لمساعدة العاطلين عن العمل، وعندما أعطت روما موافقتها تكرر الحدث في مدن بولونيا ورافينا وبارما الشمالية.

وفي ٢٤ أكتوبر وباحتفال بمدينة نابولي الجنوبية يصرخ موسوليني أما أن تعطي لنا الحكومة أو سنأخذ حقنا بالمسير إلى روما وتجييه الحشود.. إلى روما.. إلى روما. وفي السابع والعشرين من نفس الشهر توجه ١٤٠٠٠ فاشي إلى روما بالقطارات والحافلات، ونتيجة الذعر الذي شعرت به الحكومة عرض على موسوليني منصب وزير في الحكومة، وناشد رئيس الوزراء الملك إعلان حالة الطوارئ، لكن الأخير رفض ودعا موسوليني لتشكيل الحكومة الجديدة، وهكذا أصبح أصغر رئيس وزراء إيطالي يتسلم السلطة وعمره ٣٩ سنة فقط.

إيطاليا استجابت له بطريقة سحرية في البداية وعاد العمال لمصانعهم والطلاب إلى مدارسهم وبدأ الدوتشي رحلة للسيطرة على السلطة بحيث أصبح في النهاية الحاكم الوحيد الذي لايخضع إلا للملك، شكليا تحت ستار إيطاليا تريد السلام والهدوء والعمل، سأعطي هذه الأشياء بالحب إذا كان ممكنا وبالقوة إذا قضت الضرورة.

ككل ديكتاتور رأى موسوليني نفسه منقذا للأمة من الفوضى، عاش وحيدا خائفا من المتآمرين عليه حتى داخل حركته الفاشية، ووالده الذي فهمه أكثر من غيره نصح راكيلا قبل أن تصبح زوجته بأن تلقى نفسها تحت القطار ولا توافق على الزواج من ابنه.

أما ميوله للعنف ضد خصومه فتعود لطفولته، حيث طرد من المدرسة الدينية التي أدخلته امه فيها بسبب طعنه لأحد زملائه. في سن ١٨ عشق زوجة أحد رجال الجيش وفي لحظة غيرة طعنها. وحين أصبح في السلطة تحولت الحركة الفاشية

إلى إداة لطعن أعدائه، فحين اعترض النائب الاشتراكي جياكوميتي وشكك بنزاهة انتخابات عام ١٩٢٥ التي حصل الفاشيون بها على نسبة ٦٥ ٪ من الأصوات وثار عليه البرلمان، هدأ موسوليني وخاطبهم ذلك النائب قائلا الآن يمكن أن تكتبوا دعوة دفني وفعلا اختفى بعد عشرة أيام ليعثر على جثته بالقرب من روما، وبسبب الضجة التي أثارتها الصحافة حوكم صوريا خمسة ناشطين فاشيين بتهمة القتل التي نفذوها واعترفوا بأن النية كانت تأديبه لا قتله، فسجنوا لفترة قصيرة جدا فثأر لهم موسوليني بسجن إيطاليا كلها. أحب النساء وطارد كل امرأة كانت تستهويه، لكن كلارا بتكاسي التي كانت اصغر من ابنته بسنتين عشقته وبشكل مجرد وبقيت إلى جانبه ورفضت أن تتركه في الساعات الأخيرة.

منيت الفاشية الإيطالية بالهزيمة يوم ٢٥ يوليو من عام ١٩٤٣، إلا أنها حاولت جاهدة، وبمساعدة الألمان أن تبني جمهورية هزيلة لها في المناطق الإيطالية التي كانت تحتلها ألمانيا النازية، فأسست جمهورية سالو الصغيرة، وفي نفس الوقت كان الجنوب الإيطالي وجزيرة صقلية يخضعان للسيطرة الانجلوأمريكية.

وتأسست حكومة جديدة بأمر من الملك الذي كان الجيش يخضع لسيادته، في حين كانت المليشيات الفاشية تخضع لسلطة موسوليني، ولكن الحكومة الجديدة برئاسة الجنرال اليميني بدوليو لم تصمد أمام ضغط الجماهير ومطالبها الملحة في تصفية الفاشية نهائيا من حياة البلاد أكثر من ٤٥ يوما فقط، بعدها استلمت السلطة أحزاب المعارضة.

تأسس عام ١٩٤٤ من قبل اليمين الفاشي جانييني حزب جديد هو الرجل ايا كان استقطب كل العناصر اليمينية والانتهازية، وسرعان ما تطور وتعاظم نفوذه في حركة سياسية جديدة اتخذت اسما جديدا هو الحركة الاجتماعية وعقدت مؤتمرها الأول عام ١٩٤٦.

و هكذا كانت نهاية موسيليني الذي ملأ الدنيا ضجيجا وصخبا بحركاته وأفكاره وأدائه السياسي المسرحي وأطلق على نفسه لقب الزعيم العظيم أو الدوتشي. فقد

سقط مذلولا. قبل إعدامه ارتضى أن يكون مثل فأر هارب من مصيدة الاعتقال. وكانت نهايته بشعة ومن جنس عمله. إذ تخلص منه الايطاليون وعلقوا جثته من كعب قدميه في ساحة عامة ليراها الشعب. نهاية الدوتشي موسوليني. بدأت فصولها ليلة الخامس والعشرين من عام ١٩٤٣ . ففي هذا اليوم، قرر المجلس الفاشي الكبير تجريد الدوتشي من سلطاته بناء على اقتراح أبرز أعضاء المجلس وهو دينو غراندي. وكان من بين الذين أيدوا وصوتوا لإسقاطه، زوج ابنته ووزير خارجيته جاليزو شيانو. جاء قرار التخلص من حكم موسوليني بعد أسبوعين من غزو الحلفاء لصقلية في عملية عسكرية كبرى سميت «عملية هيوسكي». وانتهت بإلحاق الهزيمة بالألمان بعد قتال ضار استمر قرابة أربعين يوما، وانتهت باستسلام إيطاليا في ٣ سبتمبر ١٩٤٣.

فور قرار عزله، أصدر ملك إيطاليا فيتوريو عمانويل أمرا باعتقال موسوليني. وتم وضعه تحت الإقامة الإجبارية في منتجع جبلي منعزل. واختير لرئاسة الحكومة المارشال الدموي بيترو بادوليو المقرب من القصر والذي كان معارضا لموسوليني وكان يحمل لقب دوق أديس أبابا. ولا يمكن أن نغفل عن أن هذا المارشال كان مجرم حرب وسفاحا من أبشع القادة العسكريين الإيطاليين الذين حكموا ليبيا. حكمها على مدى أربع سنوات بالحديد والنار من عام ١٩٢٩ إلى ١٩٣٣، إذ أقام ١٣ معسكرا للاعتقالات في منطقة برقة الليبية، تحولت إلى مقبرة جماعية لأكثر من أربعين ألف شهيد من أبناء ليبيا. وبأوامره، أعدم زبانيته البطل الليبي الشهيد عمر المختار عام ١٩٣١.

لم يمض موسوليني في معتقله طويلا، فبعد حوالي شهر من إقامته الجبرية، نجحت قوة مظلات ألمانية في إطلاق سراحه بأمر من صديقه هتلر وأعيد إلى السلطة. وظن أنه استرد حياته وقوته السياسية من جديد. ولكن هزيمة القوات الألمانية وانهيارها في شمال إيطاليا. جعلته على يقين بأنه لن يفلت من أيدي الحلفاء، فهرب هو وعشيقته كلارا بيتاشي وبعض من رجاله في طريقهم إلى سويسرا.

ولم يستطع أن يكمل رحلة الهرب، فقد سقط في أيدي القوات الايطالية في ٢٦ ابريل عام ١٩٤٥ عند بحيرة كومو في الشمال قبل أن يعبر إلى الأراضي السويسرية. وفي اليوم التالي أصدر ماسميت بجبهة التحرير الشعبية أمرا بإعدام موسوليني. وفي ٢٨ أبريل، تم تنفيذ حكم الإعدام في موسوليني وعشيقته كلارافي مدينة ميلانو.

وعرضت جثتاهما مع جثث خمسة من رفاقه في ساحة عامة في المدينة، وكانت أرجلهم معلقة. وتسابق الإيطاليون في البصق على الجثث وركلها بالأقدام.

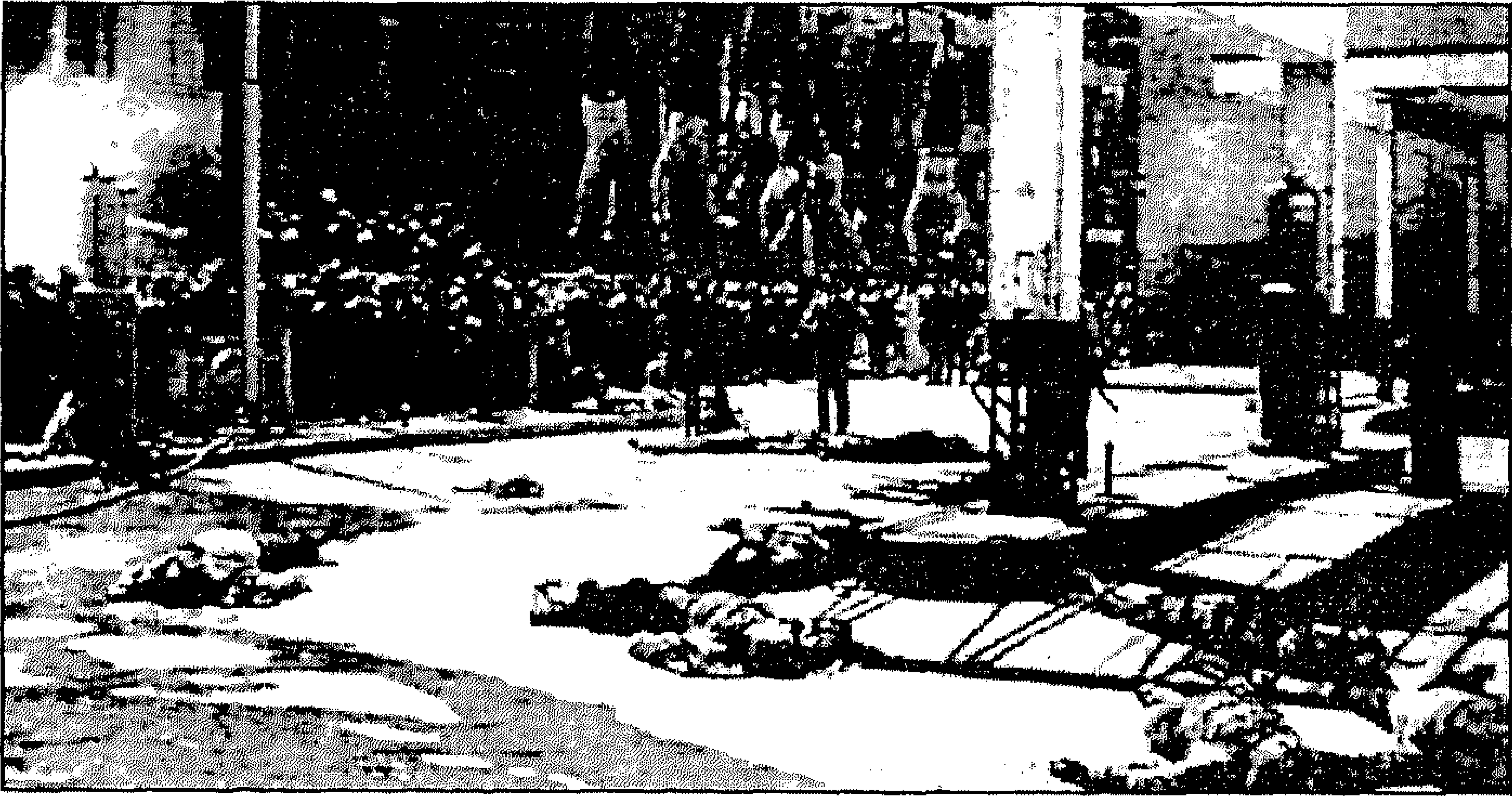
تلك كانت نهاية دكتاتور.. حكم شعبا عريقا له تاريخه الحضاري المتميز. شعب خرجت من أرضه نهضة ثقافية وفنية كبرى بهرت أوروبا والعالم. كان مؤلما للشعب الإيطالي المعتز ببصماته المتميزة خلال عصر النهضة أن يحكمه دكتاتور، عامل بني وطنها على أنهم شعب قاصر. سولت له نفسه، أنه عبقري زمانه، وأنه القائد العظيم »الدوتشي«. فأمسك كل خيوط الحكم في يديه. تمسك بأن يكون رئيس دولة ورئيس حكومة وفي الوقت نفسه وزيرا للخارجية والداخلية معا. أمسك بكل المناصب السيادية في الدولة وكأن لا أحد يقدر على القيام بمهام المناصب التي تولاها . ويمكن القول إن زبانيته في الحكم رفعوه إلى مرتبة العظماء.

وصفوه بأنه حكيم وإصلاحي، وسياسي فنان يجمع بين عظمة يوليوس قيصر ومهارة المبدع الرسام ليوناردو دافنشي!.. وأنه لذلك من حقه أن يحكم ويخطط لكل صغيرة وكبيرة.

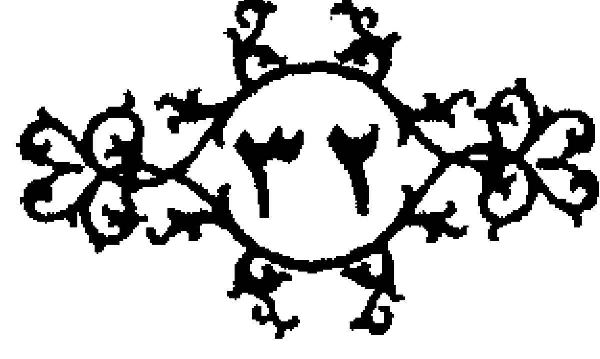
وصل موسوليني إلى هذه الدرجة من الدكتاتورية، بعد أن خاض رحلة استيلاء على الحكم بالقوة بالنصب والاحتيال. بدأها في أعقاب دخوله البرلمان عام ١٩٢١. وقاد الحركة الفاشية التي انضم إليها محاربون قدامى، شكلوا ميليشيات مسلحة من ذوي القمصان السود. استغل حالة الضعف التي عانت منها إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى للوصول إلى السلطة.

زحف بميليشياته بعد عام من عضويته للبرلمان إلى روما في مظاهرة عسكرية انقلابية، أجبرت الملك عمانويل الثالث إلى أن يكلفه بتشكيل الحكومة. وصور نفسه على أنه العلامة الحكيم الذي ينتشل إيطاليا من الوهن الذي أصابها في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ولم ينتظر موسوليني طويلا للتخلص من كل أشكال الديمقراطية . ألغى الأحزاب، أحكم قبضته على الاقتصاد والتعليم والجيش والأمن والإعلام.

أمسك بكل شيء. وفي النهاية أفلت منه كل شيء، وأيقن الشعب خِدعه ودجله وكان لابد من الخلاص منه بأيدي بني وطنه الذين استردوا كرامتهم وحريتهم بإعدامه.



إعدام رموز الفاشية بإيطاليا - صورة أرشيفية



الأميرة ديانا

OOO



كانت الأميرة ديانا وصديقها عماد الفايد قد تناولا العشاء في فندق ريتز الواقع في ساحة فندوم الراقية في باريس، وحين توجههما إلى شقة الفايد الباريسية، إلا أن سيارتهما ارتطمت بأحد أعمدة النفق بعد دقائق معدودة من ذلك لتلقى هى وصديقها مصرعيهما في حادث كان بمثابة صدمة لبعض دول العالم .

"يوم وفاة ديانا" كتاب يقدم لنا رواية مفصلة دقيقة عن آخر يوم في حياة أميرة ويلز الراحلة ديانا سبنسر، كتبه الصحفي المخضرم كريستوفر اندرسون صاحب أفضل الكتب مبيعا "جاك وجاكي" و"جاكي بعد جاك"، لقد أمضى الكاتب اندرسون الحائز على ثناء النقاد لسبعة عشر من مؤلفاته التي ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة في مختلف أنحاء العالم.. أمضى وقتاً طويلاً محاولاً فك طلاسم مقتل أميرة ويلز حيث الحيرة والغموض يطغيان على الحادث الذي مازال الملايين يتلهفون لمعرفة تفاصيله وأسراره!!

قام أندرسون بمراجعة مصادر هامة للغاية وشخصيات وافق بعضهم على التحدث لأول مرة لأجل إعادة صياغة قصتها وكتابتها بتفاصيلها المذهلة الجديدة على نحو قد يلبي شغف المهتمين للتعرف على حقيقة ماجرى للأميرة ديانا في ذلك اليوم المشؤوم بالنسبة لهم، وكانت بقوتها وسحرها فوق التجاهل والاستغناء مثلما تأكد للعائلة الملكية البريطانية بعد محاولات الانفصال!! هذه هي أميرة ويلز بعيون المتابعين بعد وفاتها بخمس سنوات، كل ذلك كان مدعاة ليحمل الكاتب كريستوفر أمانة البحث عن الحقيقة ليستكشف ما قد يكون جديدا في تفاصيل ما جرى.

حيث يقول في كتابه: "فاجعة مصرع اميرة ويلز في ٣١ اغسطس ١٩٩٧م هي واحدة من تلك العلامات التاريخية مثل اغتيال كنيدي، لقد كان مصرعها حدثا لا ينسى، ومثله لا يزال الملايين يتذكرون وقائع تلك الصدمة والأنباء السيئة التي جاءت إليهم من باريس.. بينما زالت تداعب خيالاتهم وقائع زواجها الأسطوري من الأمير تشارلز قبل ستة عشر عاما من زواجها وهي فترة زمنية كانت كافية لتتحول ديانا من "دي" الخجولة إلى أكثر امرأة التقط لها صور على وجه الأرض.. بعضها يبتعد كثيرا عن "دي" الخجولة، وأكثر امرأة كتب عنها وتحدث الناس عنها حية وميتة لتصبح أميرة ويلز واحدة من أشهر نساء العالم!!

قصة اميرة ويلز بل حياتها كانت مزيجا من الألم والسعادة، وخليطا من النصر والخسارة ومن الحب وعدم القبول.. وهكذا فإن "يوم وفاة ديانا" يقلب لنا صفحات

التاريخ ليحكي لنا تفاصيل هذه الشخصية النسائية الأكثر إثارة ولفتا للأنظار في العالم، مع كريستوفر اندرسون الذي عمل محرراً متعاوناً سابقاً لمجلة "تايم" وكبيرا للمحررين في مجلة "بيبول"، وكتب المئات من المقالات في العديد من المطبوعات بما في ذلك مجلة "لايف" و"نيويورك تايمز"، نستعرض تفاصيل ما جرى لأميرة ويلز على النحو التالي:

عندما وقفت الممرضتان هومبرت وليكورشيه إلى جوار جسد ديانا المسجى قبل الساعة العاشرة صباحا بقليل في يوم الأحد، لم تصدقا نفسيهما بأن ماتراه أعينهما حقيقة، ولم يكن هناك وقت للإمعان في مشاعرهما، فقد أخبر السفير البريطاني لدى فرنسا "جاي" أن الأمير تشارلز سوف يصل في الخامسة مساء ليرافق جثمان زوجته السابقة في رحلة العودة إلى لندن.

وعندها قامت الممرضتان إلى العمل، كان أول تفكير ل"هومبرت" هو أنه يجب عليها أن تبريد الحجرة لتحفظ الجثة من أن تفسد، وقالت وهي تتذكر: "أنا كنت اعلم أن ذلك اليوم سوف يكون حارا، لذا طالبت بتوفير جهاز تكييف داخل الحجرة، وكان هذا رد فعل طبيعي مهني مني، ففي الحال فكرت في الحفاظ على الجثة، وقد فكرت أنه مع مجيء كل ذلك العدد من الناس فيمكن أن يوجد ذلك مزيداً من الحركة وبالتالي مزيداً من الحرارة، فكان أول تفكير لي هو تبريد الغرفة".

وحتى فكرة تركيب جهاز تكييف مثلت لنا مشكلة خاصة، وذلك لمنع جحافل الصحفيين والمتطفلين من أن يعلموا أي الغرف كانت لديانا، لذا قمنا بتغطية كل نوافذ الدور الثاني لمجمع المستشفى الضخم بالستائر، وكانت هناك أسباب كافية لنقوم بذلك، فقد قام العديد من صحفيي جرائد الفضائح المغامرين بتأجير غرف عبر الشارع المقابل للمستشفى.

وقد أخبرت هومبرت الفنيين أنه بدلا من تركيب جهاز التكييف على النافذة والمخاطرة بفتح هوة ونكشف مكان جثة الأميرة، فنحن لانستطيع أن نترك فتحة

في الحائط لأنه من الممكن أن يقوم شخص ما بلصق كاميرته من خلالها"، لذا قمنا بتعليق التكييف بأحد أحواض الغرفة، واستخدمت المياه الجارية كعنصر التبريد، وقد نجحت تلك الفكرة، ففي الوقت الذي كانت دهاليز المستشفى مرتفعة حرارتها، كانت الغرفة القابع فيها جسد ديانا باردة، وأضافت الممرضة بلا مزاح "كانت أفضل غرفات المبنى على الإطلاق".

وقد وصلت باقة ورد واحدة فقط إلى حجرتها طوال فترة الصباح، وكانت عبارة عن باقتي زهور حمراء من الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكارد دي استانج وزوجته آن أيمون والتي كانت صديقة أخرى لديانا، وفي هذا المساء كان من المقرر أن يأتي مزيد من الزهور، في ذلك الوقت كانت هناك ترتيبات وجهت لإدارة المستشفى .من الأمير تشارلز بأن تتزين بزهور الزنابق "لأنها كانت المفضلة لديها" وفي مفارقة صارخة لذلك الفيض من الأزهار التي غطت وسط لندن خارج المستشفى، كانت تلك الزهور هي الوحيدة في غرفة ديانا المتواضعة في هذا اليوم.

وكان من المفترض أن يتم إجراء تشريح للجثة، ولكن ذلك كان مقرراً له انجلترا وليس فرنسا، وحتى ذلك الوقت لم يتم تحنيط الجثة، وفي ذلك الوقت تم عمل كل الجهود لجعل جثة الأميرة ديانا قابلة للعرض على الأعداد الغفيرة من الشخصيات المهمة الذين بلا شك أتوا ليعبّروا عن تعازيهم خلال اليوم، وقالت هومبرت: "الجثة مهمة للغاية، سواء كانت للأميرة ديانا أو لأي شخص آخر، فيجب عليك أن تفكر في العائلة وآلامهم، فلم يكن أحد ليتوقع أن يأتي ليلقي النظرة الأخيرة على الجثمان بدون أن تكون قد تم تسريح شعرها وتكون في حالة جيدة".

وقد أتى كل أعضاء طاقم المستشفى من الممرضين والخادمين من الذين يعدون الجثث للتشريح وعمل المناقشات عليها من أجل غسيل جثمان ديانا بدقة ووضعوا الشامبو على شعرها، كما كان وجه ديانا وخصلات شعرها الأشقر مصدر اهتمام خاص بالطبع، فقد جاءت خبيرة تجميل ومصفف شعر من دار جنازات

فرنسية متخصصة، وأتوا حاملين صورة كبيرة ملونة لديانا والتي كانت قد صدرت مؤخراً في عدد مجلة "ماتش" الفرنسية.

وتتذكر هومبرت وتقول: "لقد حاولوا أن يصلحوا شكلها على نفس هيئة صورة المجلة، بتجعيدة شعرها في مقدمة رأسها وأن يزينوا وجهها لتظهر بالضبط بنفس المظهر الذي كانت تظهر به في الصورة، ولم يتوقفوا عن الإرسال في طلبي طوال اليوم ليسألوني إذا ما كانت تلك الصورة هي التي يجب أن تظهر بها، أو تلك الطريقة، وكان الوضع مؤثراً جدا وصعب على التحمل، كان الأمر قاسياً، قاسياً جداً".

وعندما وضع الرجل والمرأة من بيت الجنازات أحمر الشفاه عليها وزينوها وأعادوا تصفيف شعرها لكي تطابق الصورة في مجلة "ماتش" الباريسية، وواجهت هومبرت بحقيقة مروعة: لم يكن لديهم فستان مناسب لها!! فقد تمزق البنطال الأبيض والبلوزة ذات الأكمام القصيرة السوداء التي كانت ترتديها في هذه الليلة بواسطة رجال الطوارئ الطبية في مسرح حادث التصادم، وكانت كل تلك الأشياء من ضمن متعلقاتها الشخصية: الجاكيت الأسود، حذاء كعب عالي من طراز "فيرساك" مقاس٩، حافظة نقودها، ساعتها الذهبية من طراز "جايجر لي كولتريه" المطعمة بأحجار كريمة بيضاء، سوار معصم بستة فصوص من اللآلئ بمشبك على هيئة تنين، حزام حريمي أسود من ماركة "رالف لوران" مقاس ٣٠، فردة حلق ذهبي، كل تلك المتعلقات تم حفظها في حقيبة بلاستيكية تم تخزينها في البدروم.

وكانت تتذكر هومبرت قائلة: "لقد طلبت من القنصل البريطاني كيث موس أن تتصل بمحلات "ريتز" وتجهيز فستان لها، وأصيبوا بالصدمة بعدما اكتشفوا أن جميع ممتلكات الأميرة في باريس تم حزمها، طبقاً لأوامر محمد الفايد، وشحنها إلى لندن، وتتذكر هومبرت: "كل شيء تم تحديداً في ذلك الصباح".

وفي الوقت الذي فتش فيه مسؤلو السفارة البريطانية كل أنحاء باريس من أجل العثور على فستان مناسب، واجهت الممرضات مشكلة عاجلة أخرى، أن معظم

العائلة الملكية، وبخاصة الملكة، والأمير فيليب، والأمير تشارلز وابني ديانا، كانوا يقضون عطلتهم الصيفية في قلعة بالمورال في اسكتلندا في وقت الحادث، وقد ظلت الملكة هناك مع الأمير وليام والأمير هاري، في حين طار الأمير تشارلز إلى باريس، واتصل بالسفارة البريطانية في باريس.

وصاح القنصل البريطاني العام في فرنسا "موس" في كلمات للممرضة هومبرت: "الملكة! الملكة!" في الوقت الذي هرع فيه مسرعاً إلى الغرفة التي مسجى فيها جثمان ديانا تحت الملاءة، وقال إن الملكة تقول إذا كان هناك أي مجوهرات ملكية في متعلقات ديانا، فإن جلالتها تريد إرجاعها إلى العائلة المالكة فوراً، وقال موس "مدام، إن الملكة تشعر بالقلق إزاء المجوهرات، يجب أن نعثر على المجوهرات بسرعة، فإن الملكة تريد أن تعرف أين المجوهرات"

وأجابت هومبرت: "ولكنه لم يوجد أي مجوهرات" "لايوجد تاج شعر بالطبع، لا خواتم، لا عقود".

وقبل أن يستقل الطائرة إلى باريس وجه أيضا الأمير تشارلز سؤالا حول مجوهرات ديانا، ولعلمه انها كانت ترغب في أن تظهر في أبهى حلة لها أمام هؤلاء الذين اتوا ليعبروا عن تعازيهم في المستشفى، فقد قام تشارلز بالاتصال بالمستشفى وطلب شخصياً أن يتم إلباسها قرطي اذنيها الذهبيين وقال تشارلز "إن ديانا ترغب دائما في ارتداء قرطيها على الملأ" فلا يزال يتكلم عن زوجته السابقة بصيغة المضارع، وقال "سوف يكون هناك الكثير من الناس الذين سوف ينظرون إليها، أنا متأكد أنها تريد الأقراط" ولكن بعد تفتيش حجرة المتعلقات بالمستشفى لم يجدوا اقراطها المفقودة.

وقد مر سبعة أسابيع قبل أن يعثر البوليس على الأقراط المفقودة، والتي طارت من أذني ديانا بسبب قوة الاصطدام وذهبت بعيدا في أسفل مقدمة السيارة، وعثر عليها في مقدمة المرسيدس بواسطة محققي الاصطدام، وتقول هومبرت إنها كانت

مبهورة باهتمام الأمير بالحفاظ على كرامة ديانا حتى بعد موتها، وأضافت: "لقد أدهشني للغاية ذلك الاهتمام بالتفكير في أدق التفاصيل، وفي ذلك الوقت ظلت محاولة العثور على ثوب مناسب لديانا مستمرة لحوالي ساعتين، وفي النهاية وجدت سيلفيا زوجة السفير البريطاني الحل، فقد كانت تقريبا في نفس مقاس ديانا، فقد عرضت فستان من فساتينها. وبعد ذلك في المساء، وصل رجلان إلى المستشفى بحقيبة ملابس، أحدهما كان الحارس الشخصي السابق لديانا، وكان الآخر أحد الأشخاص الذين أثيرت حوله الأقاويل بأنه كان أكثر الناس قرباً من ديانا، وهو سائقها الأمين وكاتم أسرارها وحاميها "بول بوريل" الذي كان يتوقع أن يكون في باريس بصحبة الأميرة ولكن ليس في مثل هذه الظروف على الإطلاق، وفي الليلة السابقة قامت ديانا بالاتصال ب"بوريل" وكانت روحها عالية جداً، وقالت إنها كانت تتشوق للغاية لرؤية ابنيها لأول مرة منذ خمسة أسابيع، كما سألت إذا ما كان يمكن أن يأتي بعض المقربين لها ليصاحبوها في رحلة العودة.

وقد أوقفت هومبرت البريطانيين الاثنين، وكلاهما لا يتكلم الفرنسية، أوقفتهم على الباب، وقالت وهي تتذكر "لقد كانوا يريدون أن يتحدثوا الي، وقالوا إن معهما الفستان داخل الحقيبة"، وقبل أن يستطيعا دخول الغرفة، اصرت هومبرت على أن يقوما بفتح الحقيبة، وقالت "كان فيها الثوب الأسود بياقة على شكل رقم ٧ في الفستان من الأمام، وكان من الصوف الرقيق الذي كان أسمك قليلا من قماش الكريب الرقيق، والفستان الذي كان أسفل الركبة بقليل بأكمام طويلة وبحزام في الوسط، كما كانت تحتوي الحقيبة على حذاء أسود خفيف من نوع "سيلفيا جاي".

وبينماكان بوريل ينتظر في الردهة، قامت هومبرت وليكورشيه بأخذ الحقيبة إلى داخل الغرفة، ووضعوها على كرسي وفتحوها وأخرجوا الفستان، وقد تعجبت هومبرت هي والآخرون من أن وجه ديانا كان بنضارته ولم يعكر صفوه شيء، واستجمعت هومبرت شجاعتها في الوقت الذي قامت فيه ليكورشيه بسحب الملاءة من فوقها، وفي الحال، بدت جراحها البارزة واضحة للغاية، فقد كانت جروحها

عبارة عن خيوط متقاطعة ومتشابكة وكانت هناك غرز بداية من عظمة الترقوة، وكانت تلك الصورة الفظيعة لجروحها ناتجة عن المحاولات اليائسة من جراحيها لإنعاش قلبها بكافة السبل، وكانت هناك كدمات في يديها ورجليها، كما كان جانبها الايمن كذلك مليء بالكدمات وكانت تلك دلالة على أن ضلوعها قد تكسرت، وبالمثل كانت مقدمة ذراعها اليمنى، والتي كانت مهشمة تماما بصورة سيئة وكان لون ذراعها بين الأسود والأزرق، وعندما قاموا بتحريك جسدها لكي يضعوا الفستان عليها، وجدت الممرضتان العديد من الجراح في الظهر بما في ذلك قطع بطول بوصتين وجرح غائر بطول ثلاث بوصات في الفخذ اليمنى، وقد كتبت هومبرت كافة تفاصيل جراح ديانا في تقريرها، ولكن لم يكن أحد يعلم أن هذا التقرير للأميرة ديانا، فلم تكتب اسم ديانا على التقرير ولكنها كتبت في المقابل اسم "القديسة باتريشيا"، والتي كانت قديسة في نابلس، وكانت سليلة عائلة من كونستانت نوبل، ثم سافرت بعد ذلك إلى إيطاليا لتهرب من زواج ملكي، وقامت بتوزيع ثروتها على الفقراء والمحتاجين وماتت وهي في سن صغيرة، وكانت ديانا قد أخبرت بوريل قبل ذلك أنها تريد أن تدفن في تابوت به نافذة زجاجية لكي يبدو وجهها واضحا من خلاله، وقد جاء ذلك التابوت المصنوع من المعدن الرمادي، وكان أغرب تابوت شاهدته الممرضات، وتم إدخاله الغرفة وجاء حانوتي وساعدته الممرضتان هومبرت وليكورشيه مع اثنين من أعضاء السفارة البريطانية، ثم قاموا برفع جسد ديانا، فقام أحدهم بحملها من يديها والآخر من رجليها، ووضعوها داخل التابوت، ثم قاموا بعد ذلك بصف قدميها ووضع ذراعيها على صدرها داخل التابوت.

وتم ترك غطاء التابوت مفتوحاً لكي يشاهده كبار المعزين الذين كان من المقرر أن يأتوا في المساء، وكانت دار كريستي للمزادات في نيويورك قد قامت من حوالي عشرة أسابيع فقط بعرض ٩٧ فستانا لديانا ليتم بيعها وصرف ثمنها على أبحاث الإيدز وبلغت قيمتها أكثر من ٣ ملايين دولار، وكانت تلك الفكرة أساساً من اقتراح ابنها الأمير وليام الذي كان يحظى بقبول جماهيري.

وعادة ما كانت ديانا تصف بوريل ذا الجسد الضخم والكلام الناعم بانه "صخرتي" الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أثق به وعندما رآها بوريل ذابت تلك الصخرة وأصبح مثل الشمع المذاب، وتتذكر هومبرت: "لقد انهار، لقد فقد القدرة على التماسك تماما"، وهذا الكلام يناقض بعض التقارير التي صدرت عن جريدة الصانداي تايمز البريطانية من أن سائق ديانا الوفي لم يفقد تماسكه على الإطلاق فقد بكى بوريل وكان لبكائه نحيب.

ومد بوريل بعد ذلك يده إلى حقيبة الملابس التي كانت تحتوي على الفستان، وأخرج منها مسبحة وقال: "كانت هذه هدية للأميرة من الأم تريزة" وسلم المسبحة إلى ليكورشيه، ثم سأل بعد ذلك بوريل إذا كان يمكن أن توضع المسبحة في يد الأميرة، فقامت ليكورشيه برفق بفتح أصابع الأميرة ووضعت المسبحة بداخلها، ثم أخرج بعد ذلك صورة داخل إطار للأميرين وليام وهاري التي كانت ديانا عادة ما تسافر معهما، مع صورة أخرى لأبيها ايرل سبنسر التي كانت تحبه حبا جما، وتم وضع تلك الصور أيضا في يد ديانا.

وقالت هومبرت: "وبدأ بوريل يترنح في مشيته، كما لو كان على وشك أن يغمى عليه، فقد كنا نخشى أنه سيفقد وعيه، فأجلسناه وحاولنا تثبيته، ولكن كانت حالته أكثر من مجرد عزاء، وكان يجب علينا إخباره في النهاية "بول، لقد حان الوقت لذهابنا الآن".

ولم يكن بوريل هو المعزي الوحيد الذي كان يشعر بالتمزق وحاولت هومبرت أن تعزيه في ذلك اليوم، فقد تم تكليفها بإخراج كافة المعزين من حجرة ديانا، وقد كان رد فعل وزير الصحة الفرنسي برنارد كوشنر مثل بوريل تماما، فقد انهار السيد كوشنر وقتما رأى جسد الأميرة المسجى، وقد تأثرت هومبرت عندما كانت تتذكر تلك الكلمات، وقالت: "لقد كان مشهداً محزناً للغاية، في كل مرة أتذكر هؤلاء الناس يكون ذلك صعباً جدًّا عليّ".

وفي حوالي الثانية بعد الظهر اجتمع حوالي ٣٠ شخصاً، بما في ذلك د. برونو ريو الذي كان يرأس فريق الطوارئ الطبي الذي حاول إنقاذ ديانا، ورئيس الشرطة فيليب ماسوني، ورؤساء البروتوكول والمراسم من قصر الإيلزيه ومن السفارة البريطانية، مع العديد من المديرين الأمنيين والملحقين الصحفيين، واجتمعوا ليقرروا كيف سيخرج شكل تلك الأمسية، وكان السؤال الملح هو: كيف يكون شكل خروج التابوت الذي يحمل جسد أميرة ويلز من المستشفى؟ ففي البداية كان من المفترض أن يخرج التابوت عن طريق سطح المستشفى عن طريق مهبط الطائرة الهيلكوبتر على السطح، ثم يتم نقلها إلى قاعدة فيلاكوبالي الجوية العسكرية في جنوب غرب باريس، ثم توضع بعد ذلك على متن طائرة عسكرية بريطانية لرحلة العودة إلى الوطن الأم.

ولكن الأمير تشارلز بنفسه أصر في اتصال تليفوني دائم من اسكتلندا على أن تخرج ديانا من البهو الرئيسي للمستشفى، وقد كانت هناك حشود تقدر بالآلاف في واجهة المستشفى، وقال الأمير تشارلز: "الناس أرادوا أن يروها، وكان حري بهم أن يحرصوا على ذلك"، وكان ذلك بمثابة طمأنة أفراد الشرطة الذين كانوا يخشون من أية محاولات لتهريب جسدها في السر أن يؤدي ذلك إلى حدوث هرج وشغب، وقال تشارلز: "لايوجد سبب يجعلنا نتسلل بعيداً، يجب علينا أن نخرج بصورة طبيعية".

كان الجو بالنسبةإلى "ميريزي" مدير الاتصالات بالمستشفى مثل مسرحيات شكسبيرالأسطورية، وقال: "لقد ذكرني هذا المشهد بقصة هاملت، ففي داخل القلعة كان كل شيء هادئاً تماما ومملوءاً بالسكينة ويتم التخطيط له بصورة جيدة وكأنه أشبه بإعداد مؤامرة، في حين كانت الجماهير الغفيرة تنتظر بالخارج". وقد كان الجو كله يعطي سبباً منطقياً للقلق، فقد جاءت الأخبار المبكرة بإلقاء تهمة الاصطدام على مصوري الفضائح الباريسيين، وتجمع الجمهور الغاضب خارج المستشفى يصيح : "أوغاد! قتلة مأجورون! مجرمون!" لذا قام ميريزي بالاختيار العشوائي لستة صحفيين وستة مصورين للدخول إلى المستشفى، وقال ميريزي:

"لم أرغب في أن أستقبل الأمير تشارلز بمظهر مزعج في بداية دخوله المستشفى" وقد أمضى ميريزي فترة الصباح في السعي بين جناح الطوارئ في المستشفى وبين مكتبه الصحفي في نهاية الشارع. وقال: "كان لا بد من وجود حل لكي لا يظهر المستشفى بمظهر غير مناسب، ومن ثم صورة فرنسا كلها"، فقام ميريز بخلع جاكتته وقام بمجاوزة حواجز البوليس وذهب إلى الجمهور المتحمس قائلا: "لقد اخترت بعض الصحفيين والمصورين الذين بدوا أنهم كبار الصحفيين، وقلت لهم إن الأمير تشارلز على وشك القدوم، ولا أريد أن أسمع كلمة ولا حتى تمتمة، لا شيء على الإطلاق، ولدهشتي الكاملة وافقوا تماما، فلم يرد أحد أن يفعل أي شيء من شأنه أن يغضب عائلة ديانا".

وفي الساعة الرابعة والنصف عصرا وفي تطبيق حرفي للبروتوكول، تم فرش سجادة حمراء من بداية المدخل الرئيسي لمستشفى بيتي سالبيتريه يحوطها ضباط من الحرس الجمهوري الخاص بالرئيس الفرنسي يرتدون زيهم الملون، ولكن بقية المستشفى لم تكن في حالتها العادية. فبعد سلسلة من التفجيرات التي قام بها إرهابيون في ذلك الوقت قامت الإدارة بإغلاق جميع سلال المهملات حول المستشفى، ولتزداد الأمور تعقيدا، لم يكن فريق الصيانة قد وصل بعد لكي ينظفوا الفوضى التي تجمعت في نهاية الأسبوع،وكنتيجة لذلك كانت الأروقة الرئيسية والدرج مملوءة بقطع من أكواب القهوة البلاستيكية وأغطية الحلوى وأعقاب السجائر، فتم تكليف فريق الممرضات بالتقاط المكانس وترتيب المكان على وجه السرعة قبل وصول سمو الأمير تشارلز.

وكان سرب الجو البريطاني BAe 146 يحمل الأمير تشارلز وأخوات الأميرة ديانا، الليدي سارة ماكوركودال، والليدي جين فيللوز، ووصلوا في تمام الساعة الخامسة مساء. وبعد ذلك بنصف ساعة وقفت سيارتهم الجاجوار الفضية أمام مدخل المستشفى من ناحية جناح جاستون كورديه. وقد نجح تحذير ميريزي للجمهور "كل ما كنت تستطيع سماعه هو حفيف إطارات سيارتهم الفاخرة على

أسفلت الطريق، فقد خيم السكون تماما على المكان". وقد ظهر الثلاثة من السيارة، وكان الأمير تشارلز يرتدي بدلة زرقاء غامقة بصديري، وارتدت الليدي جين معطفا برونزيا عليه شال مرسوم عليه زهور، وكانت الليدي ساره ترتدي فستانا أسود كاملا، وكانت تتدلى نظارتها على صدرها بسلسلة حول عنقها. وقد انحنى لهم الرئيس شيراك وأخذ يد الأمير تشارلز وقدم له كلمات التعازي، وكان الأمير يبتسم في شجاعة، وشكر الرئيس الفرنسي وحرمه في فرنسية واضحة، ثم وضع يده اليمنى داخل جيبه ثم دلف إلى الداخل.

ثم صاحبهم شيراك إلى الطابق الثاني، ولكنه توقف عن مصاحبتهم عندما اقتربوا من الحجرة التي يقبع فيها جثمان ديانا، وفي المقابل قام رئيس البروتوكول البريطاني ماسوني ومعه الممرضة هومبرت بمرافقتهم إلى الطرقة وعندما اقتربوا من الغرفة التي يحرسها رجلا البوليس قالت هومبرت وهي تستعيد الأحداث: "التفت إلى رئيس البروتوكول البريطاني وقال لي بالفرنسية: مدام، إن دوري ينتهي عند هذا الحد، وقد جاء دورك لتقودي جلالته إلى الداخل، وقد ذهلت، فقد تم إخباري بأن تشارلز وأختيّ ديانا سوف يدخلون الحجرة بمفردهم، فماذا أقول له؟ فقد تساءلت في نفسي ما الذي سوف يحدث؟ ثم تقدمت بثبات إلى الأمام وقلت في فرنسية: "من فضلك اتبعني" ثم تقدموا نحو الباب ودخل تشارلز أولا، وتبعته الليدي جين والليدي سارة ثم توقف الأمير تشارلز وكأنه قد تجمد أمام التابوت، أما الليدي جين فقد انفجرت في البكاء".

وعلى الرغم من أنها قضت ساعات من مشاهدة الضيوف الكبار ينهمرون في الحزن والبكاء عليها، دهشت هومبرت من رد فعل تشارلز، فمع أول نظرة يلقيها على جسد ديانا الذي بلا روح ولا حراك داخل التابوت، جاءت نسمة هواء من جهاز التكييف فرفعت خصلة من شعرها، وعندها مال تشارلز برأسه إلى الوراء وكأنما ضربته قوى خفية. وقالت: "لقد ارتد أمير ويلز إلى الوراء فجأة، وأرجع رأسه في حركة لا شعورية، كما لو أنه كان قد أصيب بصدمة، كما لو أنه لم يستطع تحمل ذلك، لم يكن يصدق ذلك، ويمكن أن تشعر بعظيم ألمه في ذلك الوقت".

وتم وضع كرسيين على جانبي التابوت، فسحب تشارلز أحدهما ووضعه إلى جوار الآخر وأومأ إلى أختي ديانا بالجلوس على جانبيه، وقد أحنوا رؤوسهم بالأسى، ولاحظت هومبرت أن الليدي جين كانت محطمة تماما، ثم بدأت في النحيب بصوت عالٍ،وقدوضع تشارلز ذراعيه حولها وهمس لها بشيء في أذنها.

وتقول هومبرت: "لقد كنت وحدي معهم وقد انتظرت ولم أدر ما أفعله بعد ذلك، وكانت عينا تشارلز الزرقاوان الشاحبتان مغرورقتين بالدموع، والتفت إليها قائلا: "مدام، هل يمكن أن ترسلي لنا قساً إنجليكانياً؟" وفي خلال دقائق وصل كل من ريفيريند درابر وكلوشارد بوسيت، وقالت هومبرت: "ثم أدينا طقوسنا الدينية" وقام ريفيريند درابر بقراءة ذلك باللغة الإنجليزية. وقال ميريزي: "لقد تعرفت على أميرة وليز من خلال وسائل الإعلام وقد وجدتها عطوفة للغاية". وكان ميريزي يراقب الأمير تشارلز من بعيد، وأضاف: "لقد كانت تحب كما نقول باللغة الفرنسية أن تضرب برجلها عرض الحائط، وتتحدى التقاليد السائدة، وكانت أكثر حنانا من الأمير، ولكنه أدهشني، وأعتقد أنه أدهشنا جميعا، فقد كان محطما تماما بسبب ما رآه، وكان ذلك مؤثرا للغاية، ففي لحظة ما اقترب من أن يغمى عليه،ولكنه استعاد رباطة جأشه في آخر لحظة، فلقد كان تشارلز محبطا تماما عندما وقع ناظراه على جسد ديانا، ولم يكن طاقم المستشفى أقل تأثرا من الطريقة التي عامل بها الأمير تشارلز أختيّ ديانا فقد كان عطوفا للغاية، وطيبا جدا تجاههما، وكان رجلا مهذبا ولم يخفِ آلامه في الوقت ذاته،وقد كان ذلك شيئا لم يتوقعه أحد منا،ثم بعد ذلك طلب تشارلز أن ينفرد مع زوجته الراحلة ديانا، وعندما ظهر بعد ذلك بخمس دقائق لكي يلتقي ثانية بالرئيس شيراك وبقية الجمع الرسمي في الردهة، كان واضحا للجميع أنه قد أجهش في البكاء، فلقد كان هناك ألم عظيم وكآبة عظيمة على وجه الأمير تشارلز، وقد تحول وجهه إلى كتلة من الاكتئاب".

ثم استجمع الأمير قواه بعد ذلك بصورة كافية لكي يشكر هومبرت وليكورشيه وميريزي وبقية أعضاء طاقم المستشفى على كل المجهودات التي قاموا بها، ثم تم

تقديمه إلى اثنين من الجراحين اللذين حاولا طبقا للمصطلحات الطبية الفرنسية تقديم العلاج لديانا، وقد حاول تشارلز أن يقول الكلمات المناسبة بالفرنسية ولكنه أخفق، وقال: "تهانينا!"، فقد تفوه بها من دون تفكير وهو يشد على يد د.ريو، ثم بعد ذلك استرجع قدرته على اللغة، فشكر د.ريو أشهر جراحي القلب الفرنسيين ود.آلان بافيه، والذي كان بالصدفة في أثناء فترة نوبته، وشكرهما على مجهوداتهما الجبارة، وكانا قد قاما في الساعات الأخيرة التي اضطرا فيها بالاعتراف بالهزيمة ويئسا من حالة الأميرة بحلق ذقونهما وتغيير ملابس الجراحة الخضراء الملوثة بالدماء، وارتديا معاطف المستشفى البيضاء.

وفي الوقت الذي تم فيه إعداد التابوت للخروج، بدأ الأمير تشارلز في توجيه سلسلة من الأسئلة: ماذا كانت الظروف المحيطة بوصول ديانا إلى المستشفى؟ كيف تمت معاملتها؟ ماذا كان دور كل فرد في محاولة إنقاذ حياة الأميرة؟ وكان شغوفاً جدا لمعرفة كل شيء كما قالت هومبرت، "وظل لمدة نصف ساعة وتكلم كثيرا، فيبدو أنه كان يريد أن يتكلم فقط من أجل الكلام".

وفي الوقت ذاته ذهبت ليكورشيه إلى الجلسة التي تم إعدادها في الغرفة الملحقة بغرفة ديانا، وشربت كوبا من الشاي مع الليدي جين والليدي سارة،ومرة ثانية كانت أختا ديانا محطمتين تماما، وسألتها الليدي جين: "أخبريني.. هل تألمت ديانا؟" فردت عليها ليكورشيه: "لا، لقد حدث كل شيء في سرعة كبيرة". كانت الساعة وقتها ٦ مساء، وكان ذلك هو الموعد المحدد طبقا للجدول الزمني الذي أعده طاقم المستشفى أثناء فترة الظهيرة في جلسة التخطيط للمراسم، وبدأت رحلة جثمان ديانا في رحلة العودة إلى بلادها، وتم حمل التابوت على سلالم المبنى حمله أربعة من حاملي النعوش تم تأجيرهم من دار المناسبات، وكان يمكن أن يظهر وجهها بوضوح جدا من خلال النافذة الزجاجية الصغيرة لو لم يكن التابوت مغطى بالأقمشة المحلاة بالأسد الذهبي والألوان الأرجوان والأحمر والأبيض التي جاءت برفقة أمير ويلز على متن الطائرة وكان تشارلز وراء نعش ديانا مباشرة،

ثم الليدي سارة والليدي جين، ثم الرئيس الفرنسي وحرمه، وكانت محفورة على وجوه جميع الحاضرين في الجنازة معالم الحزن والصدمة، ووقف العشرات من الحرس الجمهوري بثبات وانتباه.، وقد كانت شمس الأصيل تومض في الأفق وتنعكس على دروعهم الذهبية وعلى قبعاتهم ذات الريش الأحمر. وعندما قام عازف القرب الوحيد بالعزف خرج من نوافذ المستشفى أكثر من ٢٠٠ من العاملين والمرضى الذين بعضهم كان مربوطا في يديه أجهزة نقل الدم، برزوا جميعا من جناح جاستون كورديه لكي يظهروا احترامهم، وقد وقفت أختا ديانا مع الأمير تشارلز أسفل مظلة المدخل الرئيسي، وكانت أيديهم متعلقة مع بعضهم إلى جوارهم، ووقفوا بلا حراك في الوقت الذي قام فيه حاملو النعش بحمله ونقله إلى عربة الموتى الفضية.

وقام تشارلز ثانية بشكر الرئيس شيراك ثم قام بعد ذلك بلا شعور وكأنه فاقد الإدراك إلى الصعود إلى سيارة السفير البريطاني "جاجوار" الخضراء، في حين قامت أختا ديانا بركوب السيارة الفضية. ثم بعد لحظات من استقلال الليدي جين والليدي ساره في السيارة حتى قام بعض أعضاء السفارة البريطانية بالانحناء ناحيتهما بحقيبة بلاستيكية في يده اليسرى، وكانت تحتوي على ثياب ديانا التي كانت ترتديها عندما جاءت إلى حجرة الطوارئ بالمستشفى، وقام بفتح شنطة السيارة برفق ووضع فيها الحقيبة، وعندما أغلقوا شنطة السيارة قام السائق بالنظر في المرآة الخلفية ليشاهد الرجل يبكي بكاء حارا أمام الناس. وفي الوقت الذي بدأ فيه موكب الجثمان في الذهاب بعيدا عن أرض بيتري سالبيتري، قام الجمهور الذي كان صامتا في وقار بالتصفيق العفوي بصوت خفيض شبه الصامت، وصاح أحدهم عندما بدأ الصفيق يخفت: "نحن نحبك يا ديانا!" ثم صاح آخر في صوت أعلى: "نحن نحبك! ولن ننساك أبدا يا ديانا!". وبعد ذلك بثلاثين دقيقة قام الموكب بالتوجه إلى مطار فيلا كوبليه، وقام حرس شرف من القوات الجوية الملكية بإزالة العلم الذي كان يلف التابوت في رفق، وحمله إلى

متن طائرة الشحن، في الوقت الذي قام فيه تشارلز والأختان سبنسر وعدد من كبار المعزين البريطانيين بالوقوف باحترام على جانبي المدرج.



في الصورة الخلفية الأميرة ديانا ودودي وسائقهما قبيل مغادرة الفندق

لقد أصبحت جاهزة أخيرا للرحيل إلى إنجلترا، ولم يكن العالم كله يعلم شيئا عن مسبحة الأم تريزا التي في يدها وصورة ابنيها، أو أن الأميرة في آخر رحلة عودة إلى بلادها كانت ترتدي ثوبا مستعارا.

و تشير ساعات الأميرة الأخيرة إلى أن سائق سيارة الليموزين التي كان على متنها كلّ من الأميرة الراحلة ديانا وصديقها دودي الفايد عندما لقيا حتفيهما قبل عشر سنوات، كان قد قضى فترة من الوقت في حانة فندق ريتز، قبل قليل من الحادث المأساوي، وفقا لما استمعت إليه هيئة محلفين تنظر في ملابسات مقتلهما.

غير أنّ الهيئة اطلعت أيضا على شريط فيديو من أجهزة التصوير الأمني، في الفندق لا تظهر أي علامة على كون السائق هنري بول كان ثملا عندما اصطدمت

سيارة المرسيدس بجانب أحد أنفاق باريس فيما كانت تحاول الابتعاد عن سيارات وعربات البابارتزي مثلما خلص إليه محققو الشرطتين الفرنسية والبريطانية.

وتتضمن اللقطات الجديدة، التي عرضت بناء على طلب المحقق الشرعي في القضية، مشاهد احتشاد المصورين خارج فندق ريتز الذي كان دودي وديانا يقيمان فيه قبيل أن يلقيا مصرعهما في باريس. وقد شاهد المحلفون لقطات لوصول ديانا ودودي إلى الفندق ودخولهم وخروجهم منه خلال فترة المساء، والتي سجلتها إحدى وثلاثون كاميرا تابعة لأمن الفندق.

حيث ألغت ديانا وصديقها البريطاني المصري الأصل خططهما لتناول العشاء في باريس بسبب العدد الكبير من المصورين الذين يتتبعون أثرهم وعادا إلى الفندق.وبعد فترة وجيزة من منتصف الليل غادرا الفندق خلسة من الخلف بأمل الهروب من عدسات المصورين إلا إنهما لقيا حتفهما بعد ذلك بدقائق.

وشاهد أعضاء هيئة المحلفين لحظة بلحظة صور الشريط التي تظهر محاولات الفايد وديانا تجنّب المصورين أمام الفندق.وأظهرت الصور محاولات عناصر الأمن والحراس الشخصيين "تطهير" الطريق فيما كان دودي يلفّ ذراعه حول خصر الأميرة الراحلة لنحو ١٠ دقائق قرب أحد مخارج الفندق في انتظار الإذن بالتحرك.

وفي لحظة ما، بدت ديانا وكأنّها تقدّم "تحية ساخرة" عندما تلقت التعليمات من الحارس الشخصي تريفور ريس جونز-الناجي الوحيد من الحادث- وبول.

وإثر ذلك بدا الأربعة، ديانا ودودي وجونز وبول، وكأنهم يسابقون الزمن صوب السيارة التي كانت بانتظارهم ومع ذلك، سرعان ما طوّقهم مصورو الباباراتزي.

وبمجرد تحرك السيارة، انطلق المصورون في ما يشبه المطاردة مستخدمين السيارات والدراجات النارية.ومن بين مشاهد الفيديو صور لديانا ودودي لحظة

وصولهما لفندق ريتز في الثلاثين من أغسطس، مغادرة دودي للفندق في سيارة وتوجهه إلى محلات "ريبوسي" للمجوهرات، وعودته بعد فترة وجيزة ومعه كتيب، وأحد مسئولي فندق ريتز ومعه ما وصف بأنه حقيبة بداخلها مجموعة من الخواتم من محلات "ريبوسي".

وكان رجال التحقيق الذي أجري بعناية فائقة قد أنفقوا ملايين الجنيهات الاسترلينية عليه وتطلبوا وقتا طويلا وأجلوا نشر نتائجه مرارا. وعبرت السيارة التي تعرضت للحادث المانش وتم تفكيكها وإعادة تركيبها قطعة قطعة من قبل المحققين البريطانيين.

وأتاحت عملية إعادة تركيب الحادث بالكمبيوتر تصوير فيلم افتراضي للدقائق الأخيرة في حياة ديانا التي كان لمقتلها وقع الفاجعة على ملايين البريطانيين ومحبيها عبر العالم.

وزار المحققون باريس لمسح نفق الما موقع الحادث ومقابلة المحققين الفرنسيين.

وتم الاستماع لمئات الشهود من الأمير شارل إلى صينية متخصصة في العلاج بالإبر. وتم تسجيل حوالى ١٥٠٠ إفادة.

وكان التحقيق الفرنسي الذي يقع في ستة آلاف صفحة خلص أيضا إلى سيناريو حادث السير العادي. وأشار إلى أن السائق هنري بول كان ملاحقا منذ فندق ريتز من قبل المصورين البابا ريزي وكان يسير بسرعة فائقة تحت تأثير السكر.

وأغلق التحقيق الفرنسي في العام ٢٠٠٠. وخلص القضاة إلى أن الحادث سببه حالة السكر التي كان عليها السائق والسرعة الكبيرة التي كان يقود بها السيارة.

وطعنت أسرة السائق في الحكم وقالت أن هنري بول ليس مدمنا وأن الدم الذي تم فحصه ليس دمه. ونقل ملف القضية إلى محكمة في فرساي .

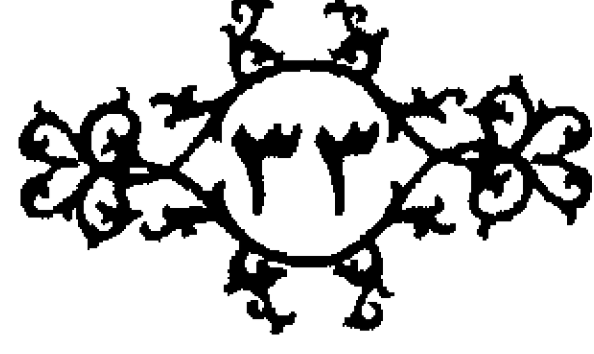
وقد كشف بول بوريل المساعد المخلص للأميرة ديانا عما وصفه بـ "السر الأخير" لديانا الذى احتفظ به طى الكتمان لأعوام وهو أن " ديانا لم تكن مخطوبة لعماد الفايد (دودى الذى لقى مصرعه معها فى حادث باريس منذ عدة سنوات" وهو السر الذى ظل يلح على مراقبى ومتابعى أخبار الأميرة العاشقة.

وقال إن الخاتم الذى كانت ترتديه ديانا يوم وفاتها فى شهر أغسطس عام ١٩٩٧ الذى كان ثمنه ٣ آلاف دولار والمقدم كهدية لها من دودى وكان عبارة عن خاتم ذهبى مرصع بأحجار الماس لم يكن خاتم خطبة وإنما كان مجرد عربون صداقة وأنها كانت ترتديه بيدها اليمنى.

وزعم بوريل فى كتابه الجديد الذى صدر بعنوان "ديانا..هكذا عشنا معها" أن الأميرة أبلغته بشأن الخاتم من خلال محادثة هاتفية قبل يومين من حادث تحطم السيارة المسرعة التى كانت تستقلها مع دودى الفايد فى ليلتها الأخيرة فى باريس الذى راحت ضحيته وأنها أوضحت له أنه ليس خاتم خطبة وأنه لايشكل بالنسبة لها سوى إضافة لمجموعة المجوهرات التى كانت تتزين بها.

وحسب كتاب بول بوريل المساعد المخلص للأميرة ديانا فقد وصفت ديانا دودى الفايد خلال المحادثة بأنه "رومانسى" وقال المساعد المخلص للأميرة فى كتابه ينبغى على العالم أن يتوقف عن الاعتقاد الخاص بأن ديانا ودودى كانا من المقرر أن يتزوجا لأنه ببساطة اعتقاد غير صحيح. وأشار بول بوريل إلى أنه بالرغم من أن محمد الفايد والد دودى كان يروج نظرية أنهما عاشقان مغرمان ببعضهما إلا أنه يجب عليه أن يتقبل الحقيقة الخاصة بأن العلاقة بين الأميرة ودودى لم تكن سوى مغامرة صيف وهو ما تأكد من خلال آخر ست محادثات هاتفية أجرتها مع أصدقائها فى الأسابيع التى سبقت مصرعها والتى أوضحت خلالها أنها ليست جادة فى علاقتها مع دودى وليست فى مزاج يسمح لها بالزواج مرة أخرى وسوف تعود لرؤية ولديها ويليام وهارى.





أشرف مروان ..

ooo



كان مروان في شقته وحيدا ، وفي الساعة الواحدة وأربعين دقيقة ظهرا سقط من شرفة شقته في منطقة بيكاديللي الراقية بوسط لندن، وقد توفي على الفور، وقبل نقله للمستشفى" لتنتهى حياة الملياردير البالغ من العمر ثلاثة وستين عاما في مشهد مأساوي..جثة ملقاة أمام منزله .

الرحيل الغامض أشرف مروان وطريقه موته وتوقيتها .. دفع الجميع للتساؤل عما إذا كان قد انتحر أم نُحر، خاصة مع اختلاف الروايات حول طبيعة هذه الوفاة.

فقد اكد عدد من أقربائه للشرطة البريطانية أن مروان كان يخشى على حياته.. وأنه عاش فى قلق منذ أن زعمت إسرائيل عام ٢٠٠٣ أنه عميل كبير للموساد.. وكانت تنتابه حالة من الاكتئاب.. مما حمل اسكوتلانديارد على تفحص احتمال قذفه من الشرفة عمدا ..

بينما أكد أحد المقربين من أسرته أن أحد أصدقائه من أعضاء الجالية المصرية في بريطانيا كان في طريقه لزيارته وشاهده بالشرفة وهو يتحدث من تليفونه المحمول، وشاهده أثناء سقوطه بعد أن اختل توازنه... وأضاف أن الدكتور مروان كان يتمتع بإرادة قوية رغم حالته الصحية، وأنه كان يعاني في الفترة الأخيرة من اختلال توازنه أثناء الحركة حتى أنه كان يستخدم عصا يتوكأ عليها.

ولكن يبقى المثير في الأمر أن كلا من الفنانة سعاد حسني والعميد الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري أثناء حكم الرئيس عبد الناصر وبطل "ثورة التصحيح" التي قام بها السادات، قد لقيا مصرعيهما بالطريقة نفسها التي لقى بها أشرف مروان مصرعه وفي المدينة نفسها .. لندن.

كما اتفقت نفس الظروف فى كون الثلاثة قد أعلنوا قبل الوفاة بفترة قصيرة انهم عازمون على نشر مذكراتهم، وهو أمر يراه الخبراء أنه قد يهز الأرض تحت أقدام العديد من الشخصيات القريبة من مسرح احداث وحياة هؤلاء، وأن هذه المذكرات سيطويها النسيان مع رحيل أصحابها. طريقة الموت واحدة.. والظروف السابقة للموت واحدة .. فهل الجميع يتفقون على الموت بالطريقة نفسها أم أن الجهة التي تقف وراء موتهم جميعا هي جهة واحدة؟!

مثلما كان موت أشرف مروان غامضاً في عاصمة الضباب فإن حياته أيضا كانت أشد غموضا فمازال الجدل حول شخصيته محتدما ليس في مصر وحدها بل في إسرائيل أيضا فحتي هذه اللحظة لا يعلم أحد على وجه اليقين ما إذا كان مروان أو العميل (بابل وكما زعموا تسميه الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية كان جاسوسا خالصا (لإسرائيل في مقابل الحصول على ١٢٥ألف دولار عن كل معلومة أم أنه كان عميلا مزدوجا أمد المخابرات الإسرائيلية ببعض المعلومات الصحيحة إلا أنه في النهاية ضللها وخدعها وسقاها أكبر مقلب في حياتها بتكليف من الرئيس السادات.

إسرائيل .. اعترفت وثائقها وجنرالاتها على أن أشرف كان عميلا مزدوجا .. مروان .. على الرغم من تأخره فى الرد على ما كشفته إسرائيل .. إلا أنه نفى أكثر من مرة هذه المزاعم وأكد أنه لم يعمل مطلقاً لحساب أي جهاز استخباري في أي جانب.

مصر .. لم تعلق على هذا الأمر طوال حياته .. وحينما مات مروان .. نفى الرئيس مبارك أنه كان جاسوسا وأكد على وطنية مروان .

وما زالت الساعات الأخيرة في حياة الدكتور أشرف مروان مستشار الرئيس السادات السابق وزوج ابنة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وملابسات وفاته موضع تساؤلات الاوساط الدبلوماسية العربية والأجنبية في العاصمة البريطانية رغم مرور كل هذه المدة عليها.

الشرطة البريطانية أغلقت التحقيق في الوفاة بعدما أجرت لقاءات مع جميع الشهود بمن في ذلك خادمته التي كانت تقيم في الشقة ساعة حدوث الوفاة، وكذلك أعضاء مجلس إدارة شركة المنظفات التي يملكها وكان بصدد ترؤس اجتماعهم يوم وفاته، ووصلت إلى نتيجة مفادها أن الوفاة كانت طبيعية وناجمة عن انتحاره.

المقربون من الدكتور مروان في العاصمة البريطانية يرفضون التسليم بأن الراحل إنتحر وألقي بنفسه من شرفة شقته الواقعة في الدور الخامس من عمارة في أحد أحياء لندن الراقية القريبة من مجمع القصور الملكية.

وقال أحدهم إن الدكتور مروان كان رجلا قويا ومؤمنا ولا يمكن أن يقدم على الانتحار . وأضاف التقيته قبل يوم واحد من وفاته وكانت معنوياته عالية للغاية .

صديق آخر عربي الجنسية قال الدكتور مروان التقي شقيقته عزة التي كان يحبها كثيرا ويغدق عليها من أمواله، قبل ليلة، وكان يحاول أن يرفع من معنوياتها المنهارة لأنها كانت قلقة على ابنها الذي كان بصدد الذهاب إلى المستشفي في اليوم التالي لإجراء عملية جراحية، وأعطاها مبلغا من المال لتغطية النفقات .

وأضاف هذا الصديق.. الدكتور أشرف كان بصدد الذهاب إلى المستشفي لعيادة ابن شقيقته والاطمئنان على نجاح العملية، وتم العثور على ظرف في جيب سترته يضم خمسة آلاف جنيه استرليني نقدا ومكتوب عليه: إلى عزة .

سيدة أخري تعتبر صديقة للعائلة قالت إن الشرطة عثرت على العصا التي كان يتوكأ عليها أشرف مروان في صالون شقته، وشككت أن يكون باستطاعته الذهاب في الممر الطويل إلى غرفة نومه ثم إلى الشرفة دون التوكؤ على العصا. وقالت إنه لا يستطيع السير بضع خطوات دونها، مما قد يوحي بانه ربما جرى حمله إلى الشرفة.

الدكتور مروان كان يتحرك في لندن بمفرده ودون أي حراسة، الأمر الذي يعني انه لم يكن مهددا في حياته حسب بعض الروايات التي وردت على ألسنة بعض المقربين منه في مقابلات تلفزيونية ومقالات صحافية، الأمر الذي يعزز النتيجة التي توصل إليها البوليس البريطاني.. ولكن السؤال الذي يظل مطروحا هو: إذا كانت الوفاة هي نتيجة انتحار فلماذا ينتحر رجل مؤمن قوي مثله ولماذا انتحر الآن،

وليس قبل أربع سنوات عندما صدر كتاب المؤرخ الإسرائيلي بيرغمان، وتوصل فيه زاعما أنه كان عميلا مزدوجا مصريا إسرائيليا، ثم من هي الجهة التي تقف خلف عملية القتل إذا كان مات مقتولا فعلا؟

الحكومة المصرية أرادت أن تنفي عن الرجل جميع الشبهات عندما أقامت له جنازة رسمية شارك فيها رئيسا مجلسي الشعب والشوري، وشيخ الأزهر الذي صلى على الجثمان، علاوة على جمال مبارك نجل الرئيس. وجرى لف الجثمان بعلم مصر. وقد غاب الرئيس مبارك عن مراسم التشييع لانه كان يتواجد في أكرا لحضور القمة الإفريقية. وأدلى بتصريحات وهو عائد على الطائرة الرئاسية أشاد فيها بالفقيد الراحل ودوره في خدمة بلاده، ونفى عنه نفيا قاطعا قصة الجاسوسية والعمالة لإسرائيل.

السيدة منى عبد الناصر زوجة الفقيد عندما سئلت عن أسباب تأخر الدفاع المصري عنه وتبرئة ساحته أربع سنوات قالت إنها سعيدة لأنهم لم يردوا في حينها على اتهامات الصحافة الإسرائيلية، لأنهم جعلوها تستمتع بصحبته أربع سنوات إضافية.

المقربون الذين استمعوا إلى أقوال السيدة منى هذه فهموا أن دفاع الحكومة عنه في حينه أي قبل اربع سنوات، وتأكيدهم على وطنيته ربما كان سيؤدي إلى اغتياله من قبل الإسرائيليين، ولكن هناك من يعتقد أن التكريم المصري الرسمي المتأخر له كان لذر الرماد في العيون، ولتحويل الأنظار عن دور المخابرات المصرية في اغتياله بالطريقة نفسها التي اغتيل بها الليثي ناصف وعلي شفيق وسعاد حسني وجميعهم مصريون، وكان بعضهم يعكف على كتابة مذكراته.

الدكتور أشرف مروان كان بصدد كتابة مذكراته، ولكن لتبرئة نفسه، ويقال هذا ما أدى إلى اتصاله بالمؤرخ الإسرائيلي بيرغمان للاستعانة بخبراته، وربما لإعطائه الرواية الحقيقية لحرب تشرين الأول (أكتوبر عام ١٩٧٣) ودوره في تضليل المخابرات الإسرائيلية حول موعد الهجوم المصري.

وفاة الدكتور أشرف مروان ستظل لغزا، تماما مثلما كانت وفاة الفنانة سعاد حسني، ونظيرتها العالمية مارلين مونرو، ولكن الأمر المؤكد أن الأمن البريطاني سيظل يبحث عن خيوط جديدة تؤدي إلى القتلة لأن هناك العديد من الاتهامات في الصحافة المصرية التي تقول إن هذا البوليس يغلق الملفات لمجرد الوصول إلى اتفاق مع الأطراف المعنية خاصة عندما يكون الضحية غير بريطاني.

محام بريطاني من أصل عربي رد بسخرية على كل النظريات التآمرية المعششة في أذهان العرب على حد وصفه، بالقول إن المخابرات البريطانية توصلت إلى حقيقة دامغة تثبت تورط المخابرات الإسرائيلية في اغتيال الراحل الشهيد ناجي العلي، من خلال عميل فلسطيني إسرائيلي مزدوج، واتخذت السيدة مارغريت ثاتشر رئيسة الوزراء البريطانية قرارا بإبعاد ١٢ دبلوماسيا من سفارة إسرائيل في لندن، وأوقفت كل أنواع التعاون الامني والاستخباري مع أجهزة الأمن الإسرائيلية لخمس سنوات، لأن بريطانيا لا تسمح لأحد بالعبث بأمنها. وتوتر علاقاتها الأخيرة مع روسيا بسبب مقتل الروسي شيفشنكو الذي مات بالسم النووي هو دليل إضافي.

الدكتور مروان كان مريضا بعدة أمراض وأجريت له ثلاث عمليات في القلب. وكان بصدد المغادرة إلى الولايات المتحدة لاستكمال العلاج مساء اليوم الذي توفي فيه، ويعتقد أحد المقربين منه أنه لو كان فعلا يريد الانتحار لما حزم حقائبه وحجز موعدا مع طبيبه.

وهكذا وفي غموض لا يقل كثيرا عن ذلك الذي طاله في سنوات حياته الأخيرة رحل "أشرف مروان" سكرتير معلومات الرئيس "السادات" السابق وزوج ابنة الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" بعدما سقط من شرفة منزله في شارع "سان جميس بارك" بوسط العاصمة البريطانية "لندن" التي يقيم فيها منذ ما يقرب من ربع قرن في حادث أعاد للأذهان الطريقة التي لقيت بها مصرعها الفنانة الشهيرة "سعاد حسني" عام ٢٠٠١ وفي نفس الشهر "يونيو" عندما سقطت بدورها من

شرفة منزلها في لندن بشكل أثار الكثير من التساؤلات لم يحسمها إعلان شرطة لندن أن الوفاة طبيعية وليست بها شبهة جنائية.

ولعل الكثيرين عرفوا الخبر ليس من الجزيرة أو العربية هذه المرة وإنما من قنوات ميلودي التي أوقفت إذاعة الأغاني والأفلام وبثت مكانها ترتيلا للقرآن الكريم مع كتابة ما يشير إلى وفاة "مروان" الذي هو والد "جمال أشرف مروان" رجل الأعمال وصاحب قنوات ميلودي والذي كان ممنوعا من السفر من مصر بسبب إصداره شيكات بدون رصيد لكنه سوى الأمر بطريقة ما حتى يستطيع أن يصطحب والدته "منى جمال عبد الناصر" إلى لندن لإنهاء إجراءات دفن الأب المثير للجدل.

وحتى عام ٢٠٠٢ لم يكن أحد يعرف عن "أشرف مروان" سوى أنه ولد عام ١٩٤٥ لأب عمل ضابطا بالقوات المسلحة وأنه حصل على بكالوريوس العلوم في الكيمياء قبل أن يلتحق بالمعامل المركزية بالقوات المسلحة ثم يتزوج من "منى" ابنة الرئيس "جمال عبد الناصر" ليدخل بعدها إلى عالم السياسة من أوسع أبوابه عندما تم تعيينه في رئاسة الجمهورية حتى وصل إلى منصب سكرتير مساعد للمعلومات تحت رئاسة رجل الثورة القوي "سامي شرف" الذي أطاح به الرئيس "السادات" فور أن استقر في الحكم عام ١٩٧١ ليترقى "مروان" في منصبه ويصبح سكرتيرا لمعلومات الرئيس "السادات"، إلا أن دوره لم يقف عند هذا المنصب فحسب بعدما وثق فيه "السادات" بشكل كبير وأعطاه صلاحيات كبرى كما كان هو مبعوثه الشخصي للعديد من الدول العربية والأجنبية أثناء فترة الاستعداد لحرب أكتوبر ونسب إليه أنه قام بإبرام عدد من صفقات السلاح المهمة قبل حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وهو ما دفع الرئيس "السادات" إلى أن يمنحه وسام الجمهورية من الطبقة الأولى بعد انتهاء الحرب مباشرة قبل أن يعينه عام ١٩٧٤ رئيسا للهيئة العربية للتصنيع حتى عام ١٩٧٩ وهي الفترة التي قيل إنه استطاع فيها أن يمد القوات المسلحة بعدد كبير من قطع الغيار وتطوير تكنولوجيا التحديث، وبعد

أن وصل الرئيس "مبارك" للحكم توارى "مروان" تماما عن الساحة بل إنه طلق السياسة بالثلاثة عندما قرر الاستقرار شبه الدائم في لندن ابتداء من عام ١٩٨٣ مهتما بالاستثمار في مجال الاقتصاد، ومن يومها بقي في الظل حتى صدر كتاب "عشية التدمير" The eve of Destructionعام ٢٠٠٣.

مؤلف الكتاب هو الصحفي الأمريكي "هوارد بلوم" الذي عمل محررا لفترة طويلة بجريدة "النيويورك تايمز" قبل أن يصبح نائبا لرئيس تحرير مجلة "فانتي فير" وفي إعداده للكتاب -الذي أصدره بمناسبة مرور ثلاثين عاما على حرب أكتوبر- اطلع على عدد كبير من الوثائق التي سمحت إسرائيل بنشرها وكذلك البحوث التي أجراها عدد من الضباط العرب والمحفوظة بمكتبة كلية الطيران الأمريكية بقاعدة ماكسويل الجوية في الولايات المتحدة كما التقى بعدد كبير من الشخصيات العربية ذات الصلة بحرب أكتوبر.

وفي الصفحات التي خصصها لخطة الخداع التي اتبعتها مصر حتى تستخدم عنصر المفاجأة في حربها على إسرائيل زعم "بلوم" إن أكثر من قام بدور مؤثر في هذه الخطة كان "أشرف مروان" الذي أطلق عليه اسم "الجاسوس الصهر" -نسبة إلى كونه متزوجا من ابنة الرئيس "عبد الناصر"- وزعم الكتاب عن أن "مروان" التقى مسئولين إسرائيليين عام ١٩٦٩- عبر طبيب إنجليزي كان واجهة للموساد في بريطانيا- واتفق معهم أن يكون جاسوسا لهم في قصر الرئاسة، وأنه طوال السنوات التالية قدم لهم عددا من المعلومات المهمة الحقيقية- مثل تفاصيل اللقاء الذي جمع بين الرئيس "عبد الناصر" وقيادات موسكو يوم ٢٢ يناير ١٩٧٠ والذي طالب فيه "عبد الناصر" بأن يقدم له الاتحاد السوفيتي صواريخ سكود وطائرات مقاتلة وقاذفات يستطيع أن يضرب بها عمق إسرائيل كما قدم لهم نص خطاب كتبه "السادات" بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٧٢ يطلب فيه من الرئيس "برجنيف" نفس ما سبق أن طلبه "عبد الناصر"- ونال "مروان" ثقة الإسرائيليين تماما حتى إن المكافآت التي أعطوها إياها وصلت قيمتها إلى ٢٠ مليون

دولار -كما ورد في الكتاب- والذي كشف عن أن آخر مهام "مروان" لإسرائيل كانت إبلاغهم بالميعاد المحدد لحرب أكتوبر "الثانية ظهرا" قبل وقوعها بعدة ساعات عندما التقى "زامير" رئيس جهاز الموساد في لندن في اليوم السابق لحرب السادس من أكتوبر.

إلا أن الكتاب زعم فيما بعد إلى أن "الجاسوس الصهر" فعل ذلك بتنسيق مع الرئيس "السادات" وأنه قصد إبلاغهم بميعاد الحرب قبل وقوعها بساعات قليلة حتى يؤكد كونه مخلصا لإسرائيل في نفس الوقت الذي لن يتمكن فيه الإسرائيليون من اتخاذ تدابيرهم لصد الهجوم المصري لأن الساعات المتاحة أمامهم كانت قليلة ولن تتيح لهم هذا.

وبعد صدور الكتاب أثار ضجة كبيرة في مصر وإسرائيل ولم يعد أحد يعرف هل كان "أشرف مروان" عميلا لصالح الأولى أم الثانية؟ خاصة وأن كثيرا من رجال المخابرات الإسرائيلية زعموا كون "الصهر" قد عمل معهم بالفعل وأمدهم بالكثير من المعلومات إلا أنهم انقسموا فيما بينهم حول ما إذا كان "عميلا مزدوجا" لصالح مصر أم أنه كان رجلهم المخلص بالفعل؟ في الوقت الذي التزمت فيه مصر بالصمت التام ولم يعلق أيضا "مروان" على أي ما قيل في كتاب "عشية التدمير" أو كتاب "تاريخ إسرائيل" الذي أصدره في نفس العام المؤرخ والضابط السابق بالجيش الإسرائيلي "أهارون بريجمان"، الذي أكد نفس المعلومات السابقة وزاد عليها بعضا من التفاصيل والأحداث الأخرى التي تزعم كون "أشرف مروان" كان عميلا مزودجا لصالح مصر.

إلا أن ذلك التصور -كونه عميلا مزدوجا- لم يرضِ فضول البعض وراح يتساءل إذا كان الأمر كذلك فعلا فكيف لم تنتقم إسرائيل من الرجل الذي خدعها لأكثر من أربع سنوات؟ خاصة وأنه من المعروف عن جهاز الموساد حرصه على تصفية كل من يتسبب لها في خسارة أو هزيمة فكيف الحال إذن مع الهزيمة القاسية التي

وقعت فيها أجهزة المخابرات الإسرائيلية في حرب أكتوبر؟ وهؤلاء يذهبون إلى القول بأنه إذا كان من الصعب القيام بذلك وقتما كان "مروان" مقيما في مصر فإن استقراره منذ أكثر من عقدين في لندن وهي البلد الذي يعد مفتوحا بشكل كبير أمام أجهزة المخابرات كان سيسهل عليهم القيام بذلك، فيما يبقى رأي أخر يقضي بأنه لو كان "مروان" جاسوسا لإسرائيل أيضا لكان التصرف المصري معه مختلفا جدا ولن يصل بأي حال من الأحوال إلى حد منحه وسام الجمهورية من الطبقة الأولى وتوليته الهيئة العربية للتصنيع لخمس سنوات نهاية بكونه من الضيوف القلائل الذين حضروا حفل زفاف نجل الرئيس "مبارك" "جمال".

وهكذا يبدو أن قضية "أشرف مروان" رغم كل ما أثير حولها ستظل محاطة بخاتم "سري للغاية" ولربما كان سيتم الكشف عن جزء كبير من الحقيقة لو أتم الرجل كتابة مذكراته التي قيل إنه بدأ في كتابتها مؤخرا ليأتي رحيله الغامض هذا في عاصمة الضباب وتبقى الأمور كما هي.. إلى حين.

ما زالت ملابسات وفاة الدكتور أشرف مروان مستشار الرئيس السادات السابق وزوج ابنة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر موضع تساؤلات الأوساط الدبلوماسية العربية والأجنبية في العاصمة البريطانية رغم مرور هذا العدد من السنين عليها.

طوال حياته وهو رجل الألغاز العصية على الحل.. طوال عمره وهو يدمن السير على الحبل.. المقامرة حتى بحياته.. الرقص على حواف الجمر؛ ولذلك دخل بقوة عالم تجارة السلاح التي لا ترحم.. بالإضافة إلى ادعاء إسرائيل بأنه كان العميل "بابل" الذي عرض عليهم خدماته في عام ١٩٦٨ لدرجة أنهم ادعوا أنه أخبرهم بموعد ساعة الصفر في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

فتجارة السلاح التي عمل فيها تجبره على أن يحمل كفنه على كتفه على الدوام؛ حيث عمره لا يساوي أكثر من ضغطة على زناد مسدس كاتم للصوت، والجاسوسية التي زعموا أنه عمل فيها تعني أنه يلف بنفسه حبل المشنقة حول رقبته في حال

اكتشافه من أي الأطراف التي يلعب معها، لكنه لم يمت بهذه الطريقة أو تلك.. سقط من شرفة منزلة القريب من القصر الملكي البريطاني مواصلا مسلسل الغموض الذي كان العنوان الأبرز في حياته.

أشرف مروان من مواليد ٢ من فبراير ١٩٤٤، والده كان ضابطا كبيرا بالجيش المصري، هو اللواء أبو الوفا مروان الذي تولى إدارة سلاح الحرب الكيماوية قبل أن يخرج للتقاعد ويتولى شركة مصر للأسواق الحرة.

داخل هذه الأسرة التي تقدس النظام عاش الشاب مروان حتى حصل على بكالوريوس العلوم من جامعة القاهرة في عام ١٩٦٥، ثم الدكتوراه في نفس التخصص من جامعة لندن عام ١٩٧٤، وكان قد التحق بالقوات المسلحة منذ عام ١٩٦٥؛ حيث كان الأمر بالنسبة له سهلا بالنظر لمكانة والده كأحد القادة فيها آنذاك.

لكن مروان رأى أن المكانة التي يحظى بها في المجتمع عادية آنذاك، بالنظر إلى سلم طموحاته اللامحدودة التي يرنو إليها، فأقدم على الخطوة التي ستختصر المسافات.. وتفتح الأبواب المغلقة.

كانت هذه الخطوة هي ابنة الرئيس عبد الناصر نفسه.. وتقدم للزواج من منى الابنة المدللة للرئيس وتم قبوله، ومن هنا كانت بداية ظهوره في الحياة العامة في مصر، حيث انتقل وهو خريج العلوم للعمل في رئاسة الجمهورية كمساعد محدود الاختصاصات لسامي شرف مدير مكتب عبد الناصر.

فور أن مات عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ سارع مروان للدفاع بقوة عن الخطوات التي حصل عليها بالزواج من ابنته على محدوديتها، وببراعة الطموحين قرأ المشهد جيدا.. أيقن أن عهد ناصر ولى بغير رجعة.. وأن لكل زمان دولة ورجالا؛ فعمل بكل ما يملك ليكون واحدا من رجال الزمان القادم، وسارع بتقديم الدعم للسادات، وانضم للفريق المؤيد له، برغم درجة النسب التي تربطه بعبد الناصر.

بدأ مروان يعزف على نغمات الرئيس الجديد؛ فأحلام سيادته أوامر.. الأفكار الاشتراكية.. بالية، الاقتصاد الحر.. فيه الخلاص، ومصر.. أخطأت كثيرا بالارتماء في حضن السوفيت ومعاداة الغرب.. فهكذا كان السادات يرى الأمور.

وكان نتيجة هذه المعطيات أن وثق السادات في مروان أيما ثقة؛ للدرجة التي جعلته يقوم بتعيينه سكرتيرا خاصا له لشؤون المعلومات في ١٣ من مايو ١٩٧١، أي قبل يومين من عمليات الاعتقال الجماعية لرموز الحقبة الناصرية التي أسماها السادات بـ "ثورة التصحيح"، التي لعب فيها مروان والفريق الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري آنذاك الدور الأكبر في تصفية خصوم السادات.

ومن عجيب الأمور أن الليثي لقي حتفه من شرفة الطابق العاشر بعمارة شهيرة في لندن اسمها "ستيورت تاور" -وهي ذات العمارة التي سقطت الفنانة سعاد حسني في يونيو ٢٠٠١ من شرفة طابقها السادس- وبعد أكثر من ٣٤ عاما لحق مروان برفيقه في الولاء للسادات (ناصف وبذات الطريقة وفي نفس عاصمة الضباب (لندن!

ارتماء مروان في حضن السادات جعل علاقته (مروان تسوء مع عائلة عبد الناصر، لدرجة أن قاطعته السيدة تحية كاظم (حماته وهدى (أخت زوجته وزوجها حاتم صادق، وكان هو يتربح من هذه المقاطعة عند السادات الذي كان يشعر بتعاطف خاص معه جراء هذه الأمور التي تحدث معه بسبب انضمامه إلى فريقه.

مع الوقت علا نجم مروان في الحياة السياسية المصرية، نتيجة تزايد ثقة السادات الكبيرة فيه؛ فجعله عضوا في لجنة الإشراف على التطوير وصناعة الأسلحة في مصر، وعضوا في المجلس الأعلى للمشروعات الطبية في مجال الطاقة النووية عام ١٩٧٣، ثم سكرتيرا للرئيس للاتصالات الخارجية في عام ١٩٧٤.

كان كل شيء يَسِير على ما يرام في حياة مروان بعد أن منحه الرئيس السادات "وساما" كتكريم له على ما قدمه من خدمات للوطن في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبعد أن اتجه بقوة لعالم المال والأعمال في عدد من عواصم العالم أهمها لندن، إلى أن جاء العام ٢٠٠٢ حاملا له زلزالا بدرجات مرتفعة من المقاييس التي تجعل من سمعة الإنسان وشرفه ووطنيته موضعا للتشكيك.

ففي هذا العام نشر المؤرخ اليهودي المقيم في لندن "أهارون بيرجمان" كتابا بعنوان "تاريخ إسرائيل" زعم فيه أن أشرف مروان -دون ذكر الاسم- عمل جاسوسا للموساد الإسرائيلي، وأنه ذهب بنفسه للسفارة الإسرائيلية في لندن عام ١٩٦٨ عارضا خدماته على الموساد ليكون رجلهم في بيت عبد الناصر ورئاسة الجمهورية التي يعمل بها.

أصيب الإسرائيليون بصدمة بعدما عرفوا شخصيته، لكنهم رحبوا به وكانوا يدفعون له ١٠٠ ألف جنيه إسترليني عن المقابلة الواحدة، وأنه منذ هذه اللحظة حمل أسماء حركية في سجلات الموساد مثل: "الصهر" أو "العريس" أو "رسول بابل"، ولم تكن تقاريره يقرؤها إلا كبار رجال الحكم في إسرائيل من عينة جولدا مائير رئيسة الوزراء وموشي ديان وزير الدفاع بالإضافة إلى كبار رجال الموساد.

وزعم المؤرخ اليهودي أن مروان سلم الموساد نسخة مكتوبة من حوار جمال عبد الناصر مع القادة السوفيت في ٢٢ من يناير ١٩٧٠ يطالبهم فيها بقاذفات (طائرات بعيدة المدى)، كما سلمهم نسخة من رسالة سرية بعث بها السادات إلى الرئيس السوفيتي ليونيد بريجينيف في ٣٠ من أغسطس ١٩٧٢ طالبه فيها بصواريخ بعيدة المدى من طراز "سكود" ويقول فيها إنه من دون هذه الصواريخ لا يستطيع شن حرب لتحرير سيناء.

ويزعم المؤرخ اليهودي في كتابه أن مروان أبلغ الموساد بمعلومات عن الخلية الفلسطينية الفدائية بقيادة أمين الهندي التي كانت تنوي تفجير طائرة "العال"

المدنية في روما ردا على قيام إسرائيل بإسقاط الطائرة المدنية الليبية، وقد أفشلت إسرائيل العملية بفضل المعلومات التي قدمها "بابل" أو مروان!!

لكن القنبلة المدوية التي فجرها كتاب بيرجمان هي أن "بابل" طلب في ٤ من أكتوبر ١٩٧٣ مقابلة رئيس الموساد "تسفي زمير"؛ فطار إليه الأخير خصيصا في اليوم التالي (٥ من أكتوبر)، والتقاه في إحدى الدول الأوروبية فوجده غاضبا "لأن إسرائيل تتجاهل تحذيراته ولا تعمل شيئًا لمواجهة خطر الحرب". وفي مساء اليوم نفسه اتصل "بابل" وأبلغ إسرائيل بأن موعد الهجوم المصري السوري سيكون قبل حلول المساء من يوم ٦ أكتوبر.

ويقول رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان إبان حرب أكتوبر إيلي زعيرا في تحقيقات لجنة "أجرانات" الإسرائيلية التي حققت مع القادة الإسرائيليين في أسباب هزيمتهم في أكتوبر ١٩٧٣ والتي أفرجت إسرائيل عنها مؤخرا ونشرتها صحيفة الشرق الأوسط اللندنية مترجمة للعربية على حلقات: إن بابل نقل معلومات دقيقة إلى إسرائيل لكي يحظى بثقتها.

وزعم أن الهدف من تشغيله من قبل المصريين كان في الواقع التضليل؛ فهو أبلغ عن رسالة السادات إلى بريجنيف فقط لكي يقنع إسرائيل بأن السادات لن يحارب إلا إذا حصل على صواريخ (سكود، وفي الحقيقة أنه لم يحصل عليها؛ ولذلك سادت القناعة في إسرائيل بأن مصر لن تجرؤ على إعلان الحرب، مما أدى إلى سواد نظرية "الفرضية" المشهورة لدى الاستخبارات العسكرية.

وتقول "الفرضية" وفق تقارير لجنة أجرانات: "إن مصر لن تحارب إلا إذا تمت الحرب بالاشتراك مع سوريا وبالحصول على طائرات حديثة، وأسلحة أخرى تضمن تفوقا مصريا على سلاح الجو الإسرائيلي".

ويضيف زعيرا: "كيف يمكن لمسؤول مصري رفيع كهذا أن يأتي إلى السفارة الإسرائيلية في لندن في وضح النهار، في الوقت الذي يعرف هو وقادته بأن هذه السفارة مثل غيرها من السفارات الإسرائيلية في الخارج مراقبة من عشرات أجهزة المخابرات في العالم؟".

ويعتبر رئيس شعبة الاستخبارات الإسرائيلية السابق بأن أهم مهمة قام بها "بابل" هي عندما أبلغ إسرائيل بموعد الحرب. فهو قال إنها ستتم قبيل حلول المساء وبذلك خدع إسرائيل لأن الحرب بدأت في الثانية من بعد الظهر. فقد فهم منه الإسرائيليون أن الحرب ستقع في السادسة مساء، وخلال الساعات الأربع كانت القوات المصرية قد أتمت عبور القنال، ولذلك فإنه نجح في تضليل إسرائيل.

ويقول أنصار رؤية زعيرا من القادة الإسرائيليين: "إن ما قامت به المخابرات المصرية بزرع "بابل" كعميل مزدوج هو تكتيك روسي تقليدي يتمثل في "زرع عميل مزدوج يغذونه بـ ٩٥٪ معلومات دقيقة وفي اللحظة الحاسمة ينقلون عبره معلومات كاذبة".

لكن في الموساد من يردون على هذا الزعم بأنه ليس هناك في مصر، ولا حتى السادات نفسه، من كان على استعداد لتحمل مسئولية تسليم معلومات مركزية وهامة عن مصر كالتي سلمها "بابل" طوال أكثر من ٤ سنين فقط من أجل التضليل في لحظة معينة.

وقد استمر النقاش في إسرائيل حول مدى مصداقية "بابل"، وأجرت المخابرات الإسرائيلية على اختلاف أجهزتها أبحاثا رسمية حول الموضوع تزعم فيها أنه "كان جاسوسا لها ولم يكن مبعوثا من المخابرات المصرية بهدف التضليل".

في حين يرى المخالفون -وبينهم إيلي زعيرا- أن الثقة في "بابل" كانت "أكبر هزيمة تحققت لإسرائيل في تاريخها".

العام ٢٠٠٤ جاء حاملا مفاجأة مدوية ليست لمروان هذه المرة لكنها للذين يعتقدون داخل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية أن "بابل" أو مروان كان مخلصا لهم، ولم يكن "طُعْمًا" من المخابرات المصرية ابتلعوه للنهاية؛ حيث شاهد أحد العاملين في جهاز مخابرات إسرائيلي على مراقبة شبكات التلفزيون العربية بثا لإحدى القنوات المصرية الرئيس المصري حسني مبارك وهو يصافح مروان في احتفالات ذكرى حرب أكتوبر في العام ٢٠٠٤.

وقام رجل المخابرات الإسرائيلي بتسجيل مقطع المصافحة والذي تخلله أيضا عناق على شريط فيديو، وبعد أن تأكد من الشخص المقصود هو فعلا أشرف مروان أبلغ المسؤولين عنه بالأمر.

ونشرت صحيفة يديعوت أحرونوت في مايو ٢٠٠٥ تقريرًا عن هذا الشريط الذي يجمع مبارك ومروان اعتبر فيه محرر الصحيفة لشؤون أجهزة الاستخبارات والقضايا الإستراتيجية أنه "سينهي الجدل الدائر منذ ٣٢ عامًا في إسرائيل حول مروان بأنه بطل قومي مصري".

وكتب المحلل يقول: "بعد الآن لا يتبقى أي مكان للشك.. فالرئيس المصري لا يتعامل على هذا النحو مع أكبر خائن عرفته مصر، بل هكذا يتم التعامل مع بطل قومي".

وجاء تأكيد إضافي لمن يرى في مروان بطلا قوميا أنه منذ الحرب وحتى وفاته، وبعد ما نشره أهارون برجمان، حظي مروان بالازدهار والأمن، وبالقدرة على دخول مصر والخروج منها كما يشاء. وهناك من يرون في ذلك برهانا آخر على أن قادة الحكم المصري والسادات كانوا يعرفون أنه عميل مزدوج، وأنهم زرعوه في الموساد لهذا الغرض.

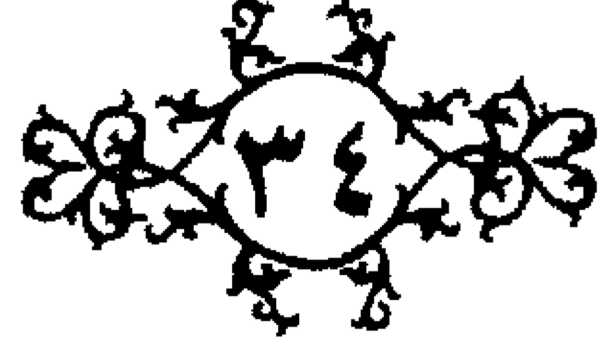
وفضلا عن ذلك فإن عمرو موسى وزير الخارجية المصري السابق، سمح لابنته بالزواج من ابن مروان، في الوقت الذي كان فيه موسى في منصب يسمح له

بالاطلاع على المعلومات الأشد سرية في الاستخبارات المصرية بحكم عمله في الخارجية.

ويقول رجل من وحدة الأبحاث في شعبة الاستخبارات الإسرائيلية تعليقا على هذا الأمر بحسب برجمان: "لو كان مروان خائنا حقا، فإن موسى لم يكن أبدا ليسمح بهذا الزواج". علما بأن هانيا عمرو موسي انفصلت عن أحمد أشرف مروان بعد زواج دام ١٥ عامًا، وله منها ولد وبنت اسمهما محمد وأمينة".

رحل أشرف مروان، ورحلت معه أسراره، خاصة أنه لم يعلق على كل ما أثير من كونه جاسوسًا سوى بقوله: "إنها قصة بوليسية سخيفة" عام ٢٠٠٢. لكن الرجل أصر ألا يرحل إلا بطريقة تتناسب مع غموضه.. ويا له من غموض!.





مارلين مونرو..

OOO



في تلك الفترة بدأ العد العكسي لنهاية مارلين المؤلمة،ففي العام ١٩٦٢ قصدت الممثلة نيويورك لحضور عيد ميلاد جون كينيدي،الأمر الذي لم يرض شركة "فوكس" ولا زوجة كينيدي جاكلين،التي ألغت الدعوة، ومنعت حضورها الحفل الذي أقيم بالمناسبة، وقد دوّنت بعض المصادر تواريخ متسلسلة مع بداية نهاية الممثلة:

في الأوّل من يونيو، الذكرى السادسة والثلاثين لميلادها،كان ظهور مارلين الأخير رسمياً في الحفل الذي نظّم على شرفها عشية ذلك اليوم.

في السابع من يونيو تلقّت موعداً ببدء التصوير لفيلم جديد بعد أن كانت قد أنهت المفاوضات مع شركة "فوكس".

في العشرين من يونيو بدأت مارلين بحملة دعائيّة كبرى، فخضعت لجلسة تصوير فوتوغرافيّة وبدأت بإجراء مقابلات مع أهم المجلات والصحف، وأعلنت أنها ستتزوج من جديد بديماجيو، في ٨ أغسطس التالي.

وبدأت مارلين بتلقي عروض أفلام ومناقشتها، وكان الأسبوع الأخير من حياتها حافلاً بالمواعيد مع طبيبين كانا يشرفان على علاجها.

يوم الجمعة ٣ أغسطس تلقّت مارلين عدداً كبيراً من المكالمات التلفونيّة بعضها مهنيّ وبعضها الآخر شخصي، التقت بمعالجها النفسي، وبصديقتها بات نيوكومب.

في اليوم التالي كانت الأحداث متشابهة: اتصالات هاتفيّة، عمل في الحديقة، لقاء مع الطبيب، ونزهة على شاطئ البحر مع الممثل بيتر لاوفورد (الأخ غير الشقيق للأشقاء كينيدي.

وكان واضحاً لكل من شاهدها أنها تحت تأثير المهدئات.

في الساعة السابعة و٤٥ دقيقة، تحدثت مع لاوفورد، وكانت تبدو محبطة وضائعة، ويذكر لاوفورد فيما بعد أنه حاول الاتصال بها،لكنّها لم ترد على اتصالاته، وأنّه حاول الاتصال بالمقرّبين منها ليسارعوا إلى البقاء معها وعدم تركها في تلك الحالة.

السيّدة موراي التي كانت تعيش معها بأمر من الطبيب غرينسون، واتهمت فيما بعد بأنها كانت تتجسّس على مارلين، صرّحت أنّ مارلين كانت على ما يرام في

الساعة الثامنة والنصف، لكنّ الكاتب دايفيد سبوتو، كتب فيما بعد أن مارلين كانت تحتضر في تلك الساعة بسبب جرعة مفرطة من المهدئات.

بدءاً من تلك اللحظة، تشعبّت الروايات واختلفت: من جاء لزيارتها؟ كيف؟ لماذا؟ مرسل من قبل من؟

ومتى ماتت مارلين بالتحديد؟

وصلت الشرطة في الساعة الرابعة و٣٥ دقيقة فجر الأحد ٥ أغسطس،كانت مارلين مستلقية على سريرها عارية، وقد فارقت الحياة، ومع وجود طبيبين مقرّبين منها في موقع الحادث، لم تتبدّد خيوط الغموض التي لا تزال تحيط بموت الممثلة.

في السادس من أغسطس، استلمت أخت مارلين وزوجها السابق ديماجيو جثتها، ونظّمت مراسم الدفن في الثامن منه بحضور ٢٤ شخصيّة فقط تمّت دعوتهم،

وكان هذا التاريخ هو التاريخ المقرر لزواجها من ديماجيو مرة ثانية كما تشير بعض المصادر.

في العام ١٩٦٢ ، بدأت مارلين بتصوير آخر أفلامها لكنّ التّصوير توقّف في يوليو،بسبب مرضها وعجزها عن متابعة العمل،

وأصبحت ملزمة بدفع تعويضات ماليّة لشركة "فوكس" عن الأضرار التي لحقت بها بسبب إيقاف التّصوير وفسخ العقد، لكنّ مارلين نظّمت حملة دعائيّة في الأوّل من أغسطس بمناسبة تجديد العقد،وبدأت تتمرّن من جديد لأداء دورها.

بدت مارلين في حال نفسيّة سيّئة جداً ليل ٤-٥ أغسطس ووجدت بعدها ميتة، وبقي موتها لغزاً حتى السّاعة.

تقرير الطبيب الشرعي أفاد أنّ مارلين توفيت بسبب جرعة زائدة من المهدئات، وبحسب الروائي الأميركي نورمان مايلر،فقد كانت مارلين مونرو ضحيّة مؤامرة منظّمة من الـ FBI والـ CIA على خلفيّة علاقتها بآل كينيدي،

ويقال إنّها كانت الضحيّة الأولى في جريمة منظّمة سياسيّة طالت فيما بعد آل كينيدي، مالكوم إكس ومارتين لوثر كينغ.

أمّا دون وولف الذي ألّف كتاباً عن الظروف المحيطة بوفاة مونرو، فقد خلص إلى استنتاج أنّ مارلين قتلت، في سلسلة قتل فيها فيما بعد روبرت كينيدي والمقربون من الممثلة في سنوات متقاربة زمنياً.

ويذهب دونالد سبوتو الذي كتب قصّة حياتها إلى القول أنّ وفاتها حدثت بسبب خطأ طبّي، حيث تناولت عقارين في الوقت نفسه، وتوفيت بسبب ذلك.

في مايو العام ١٩٤٩، وبسبب أزمة مالية كانت تعانيها، قبلت مارلين بالظهور في رزنامة "الأحلام الذهبية"، حيث تمّ التقاط صور لها على خلفيّة مخمل أحمر، وكان نصيبها خمسين دولاراً.

الرقابة الأميركيّة آنذاك اعتبرت الصور إباحيّة بما يكفي لمنع بيع الرزنامة في بعض الولايات، ما دفع بالقيمين عليها إلى إصدار نسخة معدّلة، مع ملابس تمّ رسمها على الصور الأصليّة.

في العام ١٩٥٢، وبعد أن حقّقت شهرة لا بأس بها، ظهرت بعض هذه الصور في الصحافة، وأحدثت فضيحة كبرى، كما ظهرت بعض هذه الصور على الغلاف الأول لمجلة "بلاي بوي"، بعد أن قام هيو هيفنر ناشر المجلة بشراء حقوقها.

كما انتشرت بسبب هذه الصور شائعة قيام مارلين بتمثيل دور في فيلم إباحي، وانتشرت هذه الصور في العالم أجمع، وأكدت مجلة بلاي بوي في العام ١٩٨٢ أنّ الممثلة التي قامت ببطولة هذا الفيلم هي فتاة تشبه مارلين.

في العام ١٩٦٢ شاركت مارلين في آخر جلسة تصوير، ويقول المصور الشهير الذي التقط لها الصور آنذاك بيرت ستيرن، أنّ مارلين وصلت إلى مكان التصوير في غراند أوتيل في نيويورك، متأخرة عن موعدها الأصلي أربع ساعات، ولكن ما إن وصلت حتى بدأ التصوير الذي استغرق ١٢ ساعة.

النتيجة كانت مذهلة، أكثر من ١٥٠٠ صورة، وما لبثت هذه الصور أن انتشرت بعد موتها في أصقاع الأرض، وعرضت في أحد متاحف باريس. واحد من الألغاز الكبرى في حياة مارلين كانت هوية والدها.

والدة مارلين، غلاديس، كانت امرأة ضعيفة وغير مستقرّة، لم يعرف عن زوجها الأوّل سوى اسمه، وأنّها أنجبت منه ولدين، ونسبة إلى قصة حياة مارلين كما كتبها عدّة مؤلفين هناك عدّة حقائق ممكنة عن الأب:

مارتن إدوارد مورتنسون، الزوج الثاني لغلاديس، تزوجا في ١١ أكتوبر، وهو فرّان ولد في النروج عام ١٨٩٧، حيث ترك زوجة وثلاثة أطفال ليسافر إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. وما لبث أن ترك غلاديس وقتل في حادث على دراجته النارية في أوهايو، ويقول البعض أن إدوارد مورتنسون مات في كاليفورنيا في العام ١٩٨١.

ومن المرجح أن يكون هو والد مارلين، إذ أنها تحمل اسمه على شهادة ميلادها وعلى شهادة زواجها مع ديماجيو.

وتقول فرضيّة ثانية أنّ والدها هو ستانلي جيفورد، الذي كان عشيق غلاديس بين العام ١٩٢٥ و١٩٢٦ حيث كانا زميلين يعملان في المؤسسة نفسها، ويقال إنّ علاقتهما انتهت عندما أخبرته غلاديس أنها حامل منه،ومارلين كانت تعتقد أنه والدها وحاولت مد جسور التواصل معه مرّات عدّة،لكن من دون نجاح، ثم بدأ هو بالكتابة لها والاتصال بها بعد أن يئست من تجاوبه، لكنّ اليأس حدا بها إلى تجاهله، فقد علّقت قائلة "لقد عدت متأخراً جدًّا".

و قد حاول الروائي وأخصائي التحليل النفسي الفرنسي ميشيل شنايدر في روايته الجديدة "أحداث السنتين الأخيرتين من حياة مارلين مونرو" إعادة رسم ملامح أسطورة هوليوود المحبوبة من منظور التحليل النفسي، انطلاقاً من شخصيات حقيقية وأحاديث ورسائل ومقابلات.

ويركز شنايدر في روايته المشوقة التي نشرتها دار "الفجوارا الإسبانية على الجلسات الأخيرة التي تلقتها مونرو خلال الفترة بين يناير ١٩٦٠و ٤أغسطس ١٩٦٢للعلاج على يد أبرز طبيب نفسي في هوليوود، وهو رالف جرينسون الغامض.

وتطرح الرواية التي ظهرت بالأسبانية تساؤلات بشأن دور هذا الطبيب في وفاة مونرو ولماذا تمنت أكثر الممثلات شهرة وجمالا في العالم الموت. ويعتبر أكبر عنصر جذب في رواية شنايدر الخيالية/الحقيقية هو إعادة مارلين وجرينسون إلى الحياة.

يشار إلى أن تلك ليست المرة الأولى التي يلجأ فيها هذا المؤلف والمحلل النفسي الحائز على جائزة "ميديسيس" عام ٢٠٠٣عن رواياته "موتى خياليون" إلى بناء شخصيات روايته على أساس أحداث وأشخاص حقيقيين واستناداً إلى مستندات موثقة. ولكنه هذه المرة اختار شخصية بها من السحر والبراءة بقدر ما دار حولها من الجدل والإثارة ولا تزال حياتها وتفاصيلها وحتى منديل استخدمته مرة واحدة تشغل تفكير الرأي العام، إنها الأسطورة مارلين مونرو.

واكتشف الكاتب خلال أبحاثه قصة لقائها الجنوني برالف جرينسون، وقرر أن يتناولها في إطار رواية. وعن هذا اللقاء يقول: "قصة مارلين وجريسنون أشبه بنقطة تواصل بين عالمين لم يكن مفترضاً أن يلتقيا، وقد أحدث لقاؤهما هذا تشويهاً متبادلاً للتفكير يصعب تصوره".

ويضيف "أردت إعادة خلقه لكن سرعان ما أدركت أنه من أجل فهم الحقائق المتناقضة واكتشاف سر هذه العلاقة التي جمعت أبرز ممثلة في العالم وأكبر طبيب نفسي في هوليوود، بدت الرواية الوسيلة الوحيدة إلى تحقيق ذلك". ولم يشأ شنايدر أن يعلن عن تلك القصة معتمداً على منهج سيرة، لأنه لا يدعي أن كل ما يخبره في الكتاب قد وقع بالفعل.

ويوضح الكاتب "آمل أن تبدو شخصياتي حقيقية، برغم أنني أجعلها تتفوه بأمور غير صحيحة أحياناً. فالحقيقة لا تعني غياب التناقضات، بل الاضطلاع بها... لن أؤكد مطلقاً أن قصة مارلين وجرينسون حدثت حقا كما أسردها، بالرغم من أنني لم أختلق الأمور، بل استندت إلى وقائع معروفة". وأضاف "الكل كان يعلم أن مارلين كانت مدمنة على كل المحرمات. فمن وجهة نظره يرى الكاتب الفرنسي أن "الرواية لاتصور مارلين بالقديسة التي أفسدها الرجال". ويرى أن مارلين، الفتاة الريفية البسيطة، التي كانت تعرف من قبل باسم نورما جين استخدمت صورة الشقراء البلهاء لكي تحمي نفسها، مع أنها لم تكن مثقفة، إلا أنها كانت ذكية جدا وكانت تحب القراءة كثيراً، خصوصاً كتب كافكا وريلكه ودوستويفسكي. وتزوجت الكاتب المسرحي آرثر ميللر.

لكن مارلين كانت تلجأ إلى ذلك لتهرب من الصورة التي كانت تكونها عن نفسها لأنها لم تكن تريحها مطلقاً، وربما كانت السبب الرئيسي في القضاء عليها، لذا يقر الكاتب بأنه يستخدم كثيراً المرآة والزجاج في الرواية، "إشارة إلى الانعكاس المستمر لصورة المرء". وقد لجأ شنايدر إلى ما سجلته الممثلة قبيل موتها لجرينسون من أجل تأليف روايته، حيث أن مونرو لم تكن تحتمل الذهاب إليه والتكلم معه عندما اقتربت من النهاية، لذا فضلت تسجيل ما لديها على شريطين.

ويعترف شنايدر أنه يشك في صحة هذين الشريطين، لأنهما في نظره "يتماشيان مع ما يحاول رالف جرينسون إثباته، أي أن مارلين لم تنتحر ولم تُقتل، بل حدث تفاعل بين الأدوية التي وصفها لها جرينسون والمخدرات والأدوية التي كانت تتناولها سرا". ويتابع شنايدر أن روايته لا تجيب عن سؤال يتعلق بالحقيقة، بل تدخل في مفهوم المصير، بشكل تراجيدي إذ أن مارلين ماتت، في حين بدا ظاهرياً أنها حلت جميع مشكلاتها الجنسية والمهنية خلال الأيام الأخيرة التي سبقت اختفاءها.

وبالنسبة إليه، كان موت مارلين "جريمة من دون قاتل"، وسببه الاندفاع اللاإرادي في اتجاه الموت الذي كان يسكنها.

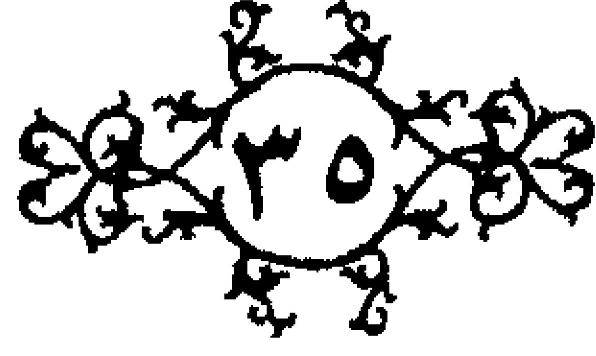
أما في ما يتعلق بعلاقة جرينسون بوفاتها، ففي نظره أن هذا الأخير كان كريماً جداً مع الممثلة وأعطاها الكثير، ولكن في الوقت نفسه كان يحب المال والشهرة والسلطة، وكانت مارلين أكثر النساء شُهْرة في العالم، وقد استفاد من علاقته بها.

ويصف الكاتب هذه العلاقة تحديداً ب "قصة حب بلا حب"، فبرغم التنافر بينهما، لم يكن أحدهما ينفصل عن الآخر، وفي النهاية، كانت مارلين ترى طبيبها سبعة أيام في الأسبوع، ولم يعد لديه مرضى آخرون.

وفي حين يؤكد البعض أن التحليل النفسي هو من قتل مارلين، يرى شنايدر أنه على العكس ساهم في إطالة حياتها أربع سنوات، لأنها حاولت الانتحار في وقت سابق.

ولكنه في الوقت نفسه لا يستبعد فكرة أن يكون قد حول مرضها النفسي جنوناً، إذ أنها كانت غير متوازنة ومدمنة، وكان جرينسون نرجسياً قلقاً على صورته، وقد ولد لقاء هذين المريضين جنوناً كبيراً. وتعتبر رواية شنايدر أشبه بتحذير من أخطار التحليل النفسي، فهو يشدد على فكرة أن هذا النوع من العلاج لا يسمح بحل المشكلات وأن المرء يعرف حقيقته بذاته، ولا يحتاج إلى زيارة معالج نفسي لسنوات عدة من أجل اكتشافها. ويختم شنايدر بالقول إن كتابه ليس "رواية عن مارلين أو عن التحليل النفسي، بل عن الصراع الموجود داخلنا، بين الصور والكلام: أعني أن الحقيقة ليست في الصورة وليست في الكلام فحسب.. بل في المواجهة المستمرة بينهما".





ماري انطوانيت ..

OOO



لم تكن ماري انطوانيت مجرد ملكة تتربع على عرش إمبراطورية كبرى في عصرها الذهبي .. ولم تكن مجرد امرأة عابثة ماجنة تحولت إلى مخلوقة شديدة الصرامة والجدية في نهاية حياتها، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن نجح أعداء الملكية في تشويه صورتها هى وزوجها الملك، حتى أصبحت عملية الإطاحة برأسها مقبولة شعبيا، لتدفع ثمن السلطة، التي انتقلت بها من قصر الحكم في بلدها الأصلي النمسا إلى قصر آخر هو قصر الحكم الفرنسي، في زيجة غريبة بين عرشين بدافع الحفاظ على المصالح المشتركة لتكون نهايتها !!

كانت ماري انطوانيت أشهر ملكات أوربا الابنة التاسعة للملكة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا تشربت بمبادئ والدتها وتعاليمها فكانت تطمح إلى اللهو والاستهتار وعزز فيها هذه الرغبه ما كانت عليه من مظاهر الجمال والرشاقة وامتشاق القد .

كانت ماري انطوانيت في الرابعة عشرة من عمرها مكتملة الأنوثة جميلة المظهر جذابة فاتنة وللشباب براءته وسحره.

وكان ولي عهد فرنسا فتى غير ناضج العقل والتفكير وسريع الوقوع والانقياد طائشا أبله ولعل ذلك يرجع إلى حداثة سنه فقد كان يكبر ماري بسنه واحده واستعدت الدولتان لإقامة حفل الزفاف .

وكان الناس يتشاءمون كثيرا من الحوادث التي تقع في تلك الأيام ويحفظون تواريخها عن ظهر قلب فمثلا يوم ولدت ماري انطوانيت في ٢ نوفمبر سنه ١٧٥٥ حدث زلزال عنيف في البرتغال . وحدث يوم تزوجت حريق هائل بين مظاهر الفرح والحفلات فتشاءم الفرنسيون والنمسويون كثيرا !!

لم تستطع الفتاة الصغيرة تحمل أعباء الزواج وتفهم دقائق مركزها العظيم للظهور بمظهر الجد والرصانه التي تقتضيها الرسميات لهذا لم تستطع أن تقاوم طبيعتها الجامحة طويلا حتى بدأت بعد أشهر تعبث وتطلب المتعة في المراقص والاحتفالات والنزه ... كذالك كان زوجها الفتى الأمير لاهيا عابثا لا يهمه أمر زوجته هكذا انطلق كل من الاثنين إلى الناحية التي يريدها ففقدا احترام الناس لهما وخاصة النبلاء .

وقد مات لويس الخامس عشر سنه ١٧٧٤ أي بعد أربع سنوات من زواج ابنه فاحتفلت فرنسا احتفالا فخما بتتويج ولي العهد الملك لويس السادس عشر وهكذا أصبحت ماري أنطوانيت ملكة فرنسا .

أحبت الملكة من بين أصدقائها العديدين شابا سويديا فاتنا جميلا هو الكونت هانز إكسل فون فيرسن وقد اصطفته لنفسها من قبل أن تصبح ملكه فكان يهتم بها ويتردد إليها كثيرا والخروج معها حتى اقترن اسمه باسمها في كل مكان .

ولم تلد الملكه إثر زواجها ولكنها بعد أن ارتقت العرش بسنوات وضعت طفلتها الأولى ماريا تريزا في ١٧٧٨ فتعالى الهمس وأخذ الفرنسيون يتساءلون من يكون والد هذه الطفلة.

وظلت الملكة ترعى صديقها الكونت فيرسن حتى حملت ووضعت طفلا هو ولي عهد فرنسا . وحدث أن وقف عم الطفل له يوم عماده فسأله الكاهن عن اسم الطفل فضحك الشبين الأمير وقال : كان يجدر بك أن تسألني عن اسم والده أولا.

وتناقلت الألسن هذه الكلمات حتى بلغت الملك والملكه نفسها . وخشي الكونت فيرسن من العاقبه وشاء أن يحرص على ماتبقى من كرامة الملكة وهجر فرنسا والتحق بحرب الاستقلال الأمريكية لكنه غاب سبع سنوات ثم لم يستطع مقاومة لهيب الشوق فعاد إلى فرنسا.

كان من نتائج طيش الملكين وعدم رعايه مصالح الرعية ونظام الدولة أن تفككت أوصالها وبدأت روح الثورة وخاصة بعد أن أصيبت البلاد بالفقر والقحط الشديد ارتفع معه ثمن الخبز إلى حد لم يكن الفقراء ليستطيعوا شراءه .

وهنا سجل التاريخ لماري أنطوانيت قولتها الشهيرة التي ظل العالم يتندر بها حتى يومنا هذا : " إذا لم يكن هناك خبز.. لماذا لا تعطوهم بسكويتاً " !!

وكان من ضمن أعداء الملكه الكاردينال دي روهان ذلك الكاهن الذي احتقرته منذ كان سفيرا في النمسا وأعلنت أنه سرق قلادة من جوهري باسمها وحيث أن هو أيضا كان لايعلم حيث أن امرأة تدعى جين بالوث وزوجها نيكولاوس دي لامونت هما اللذان خدعاه وكانت قضية القلادة إحدى القضايا المهمة التي سجلها التاريخ ولها قصة طويلة جدا .

تفجرت براكين الثورة الفرنسية وكان لهذه الثورة أثر في نفس الملكة حيث أبدلها بقديسة طاهرة أخذها الثوار مع الملك وأولادها إلى إحدى القلاع إلى أن تتم المحاكمة وشاء الكونت فيرسن أن يلعب لعبته وينقذ حياة الملكة حيث حاول الهرب معهم لكنه فشل في ذلك فانتزعت الملكة في هذه اللحظة خاتما ثمينا وناولته للكونت ذكرى أمانته ووفائه فظل يحرص عليه ويلبسه حتى مات .

أبعدوا الملك عنها ثم أخذوا منها أولادها وتركوها وحيدة وليس معها أحد غير امرأة السجان وروزالي لاموريل.

قتل لويس السادس عشر بالمقصلة وجاء دور الملكة فاقتيدت إلى حيث القضاه وراحوا يلصقون بها التهم ..لم تنطق بكلمة واحدة فما فائدة ذلك وموتها محقق؟

وفي فجر يوم ١٦ أكتوبر سنه ١٧٩٣ اقتادها الحرس إلى عربة الموت حيث ازدحمت الطرقات بالرعاع والثوار وهم يبصقون عليها حتى إذا مرت العربة أمام قصر التويلري انحدرت الدموع الساخنة من عينيها لذكريات الماضي القريب .

و في ١٦ أكتوبر ١٧٩٣ أعدمت أنطوانيت بعد أن اقتيدت بعربة مكشوفة دارت بها في شوارع باريس حيث رماها الغوغائيون بالأوساخ وكل ما يقع تحت يدهم، فقصوا شعرها الطويل ثم وضعوا رأسها الصغير في المكان المخصص في المقصلة (الجيلوتين)وهوت السكين الحادة فأطاحت برأسها في السلة الجانبية.

ويروى أنه عندما وصلت العربة، نزلت وسارت إلى المقصلة بقدم ثابتة وشجاعة تصعد السلم في خشوع وماهي إلا لحظة حتى كان رأسها قد فصل عن جسدها!

بقي أن نقول إنه بناء على ما كتبه الجلاد الذي قطع رأس لويس السادس عشر فإن الملك الفرنسي مات كملك محتفظا بكرامته مصححا بذلك معلومات بأن أعصابه انهارت عندما واجه مثيري الشغب الثوريين والمقصلة في يناير عام ١٧٩٣.

النسخة الأصلية من الرسالة التي كتبها تشارلز هنري سانسون كبير الجلادين في باريس إبان الثورة الفرنسية وبداية حكم الرعب تم عرضها في معرض دار كريستي في لندن في شهر يونيوعام ٢٠٠٥ بسعر يبلغ ٢١٠ آلاف دولار .

ويصف سانسون في الرسالة حالة لويس النفسية الذي أعدمت زوجته النمساوية ماري أنطوانيت بعد تسعة أشهر من إعدامه والتي ذكر أنها اقترحت قبل الثورة أن يأكل المزارعون الجوعى الكعك، إذا كانوا لا يستطيعون الحصول على الخبز.

وكانت الرسالة قد غابت عن الأنظار لمدة تزيد عن ٢٠٠ عام في أرشيف عائلة غير معروفة، ورواية سانسون هذه هي ترديد لما قاله هنري إيدجورث القس الأميركي الذي كان يعيش في فرنسا آنذاك والذي اصطحب لويس في العربة التي توجهت به إلى المكان الذي نصبت فيه المقصلة.

وتحدث سانسون الذي شهد إعدام ما يقرب من ٢،٩٠٠ شخص ما بين عامي ١٧٧٨ و١٧٩٣ عند تقاعده، كيف رفض لويس عندما وصل إلى درج المقصلة وضع عصابة على عينيه كما رفض خلع معطفه من باب اللياقة، ولكنه خلعه بنفسه بعد ذلك. كما طلب عدم ربط يديه لكنه اقتنع بضرورة ذلك.

وقال سانسون إن لويس التفت إلى الغوغاء الذين جاءوا لمشاهدة قتله وقال لهم " أيها السادة إنني أموت بريئا" . ثم توجه بالكلام للجلادين قائلا " إنني برىء من كل شيء اتهمت به . وآمل أن يعزز دمي سعادة فرنسا" .

ماري أنطوانيت هى ملكة فرنسا وزوجة الملك لويس السادس عشر، صاحبة المقولة المشهورة "إذا لم يكن هناك خبزاً للفقراء .. لماذا لايأكلون بسكويتا" .

ولدت في النمسا ومن مواليد برج العقرب، ثم انتقلت إلى فرنسا لتتزوج، وهي أصغر أبناء الملكة تيريزا ملكة النمسا.

ماريا أنطونيا جوزيفا جوانا فون هابسبيرغ لوثرينجين، المعروفة باسم ماري أنطوانيت (٢نوفمبر ١٧٥٥ -١٦ أكتوبر ١٧٩٣ كانت ملكةَ فرنسا وأرشيدوقة النمسا. وهي ابنة الإمبراطورَ الرومانيَ المقدّس فرانسيز الأول وزوجته إمبراطورةِ النمسا ريجنانت ماريا تيريزا وتزوجت مِنْ لويس السّادس عشر في ربيع حياتها ١٤ عاماً!!

ولدت في قصرِ هوفبيرغ في فينا، ماريا أنطونيا كَانتْ الطفلةَ الخامسة عشرةَ لفرانسيز والإمبراطورة ماريا تيريزا. تسميتها كانت تشريفا بماريا مريم العذراء؛ وأنطونيا القدّيس أنتوني مِنْ بادوا؛

وَصفَ مسؤولُ المحكمةَ ولادة الطفله ماريا "هي صغيرة، لكن الأرشيدوقةَ صحتها جيدة جداً." ربت في ظل أهلها بنفس الطريقة التي عاشها أشقاؤها ماريا كارولنا (سنتان أقدم وماكسيمليان (أصغر بسَنَة واحدة؛ وإخوتها الآخرون، يوسف وليوبولد وفيردناند كارل، اللذان اشتركاَ في إمبراطوريةِ هابسبيرغ.

أما أخوات ماريا أنطوانيت كُنّ متزوّجات مِنْ العائلة المالكةِ الأوروبيةِ الأخرى: الأكبر، ماريا كرستينا، إلى وصي هولندا النمساوي؛ ماريا أميليا إلى أميرِ بارما؛ وأخت ماريا أنطونيا المفضّلة، ماريا كارولينا، إلى الملك فيردناند عاهل نابولي.

وُقّعتْ معاهدة أيكس لا شابيل في ١٧٤٨، بعد انتهاء مايقارب القرن من القتال المتقطع بين النمسا وفرنسا. وأثناء حربِ السبعة السنَواتِ الأخيرة (١٧٥٦ - ١٧٦٣توصلوا إلى التحالف في محاولةِ لإبْقاء هذا التحالفِ، تقدر لويس الخامس عشر لوريثِ فرنسا، حفيده لويس أوغسط، بأنّ يَتزوج إحدى بناتِ إمبراطورةِ ماريا تيريزا. في حين لا تملك ماريا تريزا من البنات الا ماري انطوانيت فقد توفيت الأخت الكبرى من الجدري، جوانا غابريلا في ١٧٦٢ وماريا جوزيفا في ١٧٦٧، كانت ماريا أنطونيا التاليةَ لِكي تَكُونَ زوّجة الأميرِ الفرنسي.

بعد المفاوضاتِ الطويلةِ، تم الاقتراح الرسمي للبنتِ المراهقةِ أن تُقدّم مِن قِبل لويس الخامسِ عشر في ١٧٦٩. فقط عندما وُقّعتْ عَملتْ ماريا تيريزا معاهدة الزواج كانت تُدركُ بإن بنتَها افتقرتْ إلى المعرفةِ الكافيةِ مِنْ اللغةِ والعاداتِ الفرنسيةِ، ومعلمو اللغةِ والرقص حاولوا تَهْيِئة البنتِ للدورِ كملكة فرنسا قَدْرَ المستطاع.

في ١٩ أبريل ١٧٧٠ تم الزواج في كنيسةِ أوغسطين فينا. تَركتْ فينا في ٢١ أبريل ١٧٧٠ إلى فراق كلمات أمِّها، "وداع، طفلتي الغالية. ابذلي جهداً للشعب الفرنسي إلى أن يقولوا بأنّني أرسلت لُهم ملاكاً."

تم السفر مَع حاشية كبيرة على طول دانوب، وبعد ذلك إلى ميونخ، اوجسبيرغ، جانزبيرغ، أولم وفريبيرغ أي إم بريسجاو، وُصِلتْ بعد أسابيع إلى حدود الراين بين كيهل وستراسبورغ .

وفي ٧ مايو ،طلب من ماريا أنطونيا تَرْك ثوبِها النمساوي وغيره من أملاك، وخدم وحتى أصدقاء وعلى حدود الجزيرة في الراين، عَبرتْ الأَميرة المراهقة ذات الـ١٤ ربيعاً الحدودَ عارية من أي شيء يخص بلدها ولوحدها، لكي تُستَلمَ من قِبل الرسُلِ مِنْ المحكمةِ الفرنسيةِ، كماري أنطوانيت، كما عُرِفتْ منذ ذلك الحين.

تزينت في اللباسِ الفرنسي، ثمّ أَخذتْ إلى ستراسبورغ. وكانت شوارع المدينة غُطّيتْ بِالزهورِ، التي التقطتَها ماري أنطوانيت بلطف "مثل إلاهةِ فلورا". كل المدينةِ أنيرتْ في شرفِها وبعد أيام قليلة، بَدأتْ الرحلةَ إلى فيرساي.

ماري أنطوانيت أُبلغتْ القصرِ الملكي في فيرساي، حيث قابلتْ نسيبَ لويس جَدّها المستقبلي الخامس عشر والأعضاء الآخرين للعائلة المالكة. زوجها المستقبلي، دوفين" لويس أوغسط كَانَ خجولاً جداً. كَانَ أكبر منها بسنة ولم تكن عنْدَه علاقات جنسيةُ أَو رومانسية لتَهْيِئته للتعَامُل مع خطيبتِه. زواجهم أجريَ خلال ساعات من وصول ماري أنطوانيت إلى فيرساي.

في ١٦مايو ١٧٧٠ احتفل بالزفاف وبها بالبهاءِ العظيم في أحد أفراد العائلة المالكةِ وقبل الزفاف مباشرةً كُرمت ماري أنطوانيت بالجواهرِ الرائعةِ التي عادتْ إلى فرنسيو دوفينيس وتَضمّنتْ هذه المجموعةِ عقدا ماسيا متقنا الذي يعود إلى آن النمساوية والقِطَع التي تعود إلى الملكة ماري الإسكتلنديين وكاثرين دي ميديسي. المجموعة الكبيرة للمجوهراتِ قُيّمتْ تقريباً ٢ مليون ليفر.

ثمّ استلمتْ ماري أنطوانيت هديةَ زفاف الملكِ لويس الخاصةِ الشخصيةِ وقد كَانَت نصير، غَطّى بالماسِ.

دوفين وماري أنطوانيت تَزوّجا أمام المحكمةِ، كانت ماري أنطوانيت غطت بلباس بالأطواقِ البيضاءِ الكبيرةِ غطتها طبقات من الالماسِ واللآلئ.ثم بعد ذلك العشاء الرسمي، الذي تم أيضاً أمام الحشدِ. أَكلَ لويس أوغسط كمية هائلة. فأخبره الملك بأن يقلل من الطعام رد عليه دوفين"لماذا؟ أنا دائما أنام أفضل عندما تكون معدتي ممتلئة!"

تم قيادة العريسين إلى سرير الزوجية وبوركا من قِبل رئيسِ أساقفة ريمس. على أية حال،بعد سبع سنوات انتشرت شائعات بأنّ لويس أوغسط كَانَ عاجزاً أو شاذاً بأنّه عَانى مِنْ مرض تناسلي، كما يُعتَقَد فقد صحّحتْ الجراحةُ البسيطةُ هذه المشكلةِ ووَلدَ لماري أنطوانيت طفلهم الأول السنة التالية أخيراً. في هذه الأثناء، خلال أيام، كَانتْ ثرثرة في فيرساي تَهْمسُ بأنّ الزواجَ الملكيَ كَانَ عاراً!

بَقى لويس وماري أنطوانيت بدون أطفال للسنَواتِ الأولى السبع مِنْ زواجِهما. الثرثرة الموجعة لامتْ ماري أنطوانيت على عدم إنجاب الأطفالِ وبَعْض الناسِ صرّحوا حتى بأنّها يَجِبُ أَنْ تُطلّقَ وتُعاد إلى النمسا. ومنصب وليِ العهد لم يساعدِ في غلق أفواه تلك الطبقة ظلت حتى كسبت عداوةَ عشيقةِ الملكَ، الكونتيس دي باري.

بَدأت دي باري الحياة كجين بيكو ،من عامة الناس فقيرة عاهرة كَسبتْ اهتمام طبقة النبلاءِ وأصبحتْ عشيقة لويسَ الخامس عشر في النهاية. ماري أنطوانيت شَعرتْ بأنّها كَانتْ تذل بكرامتَها كأميرة هابسبيرغ لتتكلم مع سيدة بمثل هذا الماضي.

بَدأت دي باري الحيل لجعل حياةِ ماري أنطوانيت بائسة بقدر الإمكان. بَدأتْ بتغيير الملكِ ضدّ حفيدة نسيبه.

كَانَ روتين ماري أنطوانيت اليومي محبط جداً. عندما تصحو في الصباح، يساعدنها على النهوض النساءِ النبيلاتِ الكبيراتِ المُخْتَلفاتِ اللواتي كُنّ سيداتَها في الانتظار..عشاؤها، الذي تأكله وهي تجلس مع زوجها كان أيضاً علناً. أي شخص يلبس بشكل مُحْترم يسُمحَ له بالمَجيء ومُرَاقَبَة أفراد العائلة المالكة.

أَكلَ لويس أوغسط كميات هائلة منْ الغذاء، بينما أَكلت ماري أنطوانيت تقريباً لا شيء عندما تكون علناً. احتقرتَ ماري أنطوانيت هذا المنظرِ واشتكتْ بشكل مرير إلى أمِّها، "أضعُ أحمر شفاهي وأَغْسلُ يدي أمام العالم بأكمله!"

الحنين للوطن والكآبة، تَغيّبَت ماري أنطوانيت عن الرفقةِ خصوصاً التي كانت تتمتع بها مع أختِها، ماريا كارولينا. وَجدتْ بديل لهذا مَع برينسيس تيريز دي لامبال اللطيفة. برينسيس دي لامبال كَانَت غنية ورحيمه؛ وقد كرست وقتها لماري أنطوانيت. لم تتعد فترة طويلة من مقابلة تريز، قابلت ماري أنطوانيت الارستقراطية الجميلة الكونتيسة غابريل بولونياك وقد ارتبطت معها بشكل عميق.

رَفضتْ ماري أنطوانيت أن تُدخل نفسها في السياسةِ، ربما لأنها كانت تفتقر إلى المعرفة الحقيقية بذلك أو أنها لم تكترث !!

وقدرَأتْ مِن قِبل سفيرِ أمِّها، كومت دي مسيرسي، الذي أرسل تقريراً محبطاً بأنها مع الأسف كانت لا تفعل شيئًا في فرنسا!

تَغيّرَ لويس أوغسط وحياة ماري أنطوانيت فجأة بعد الظهر من١٠ مايو ١٧٧٤ عندما ماتَ الملك لويس الخامس عشر من الجدري في السّاعة الثّالثة. أسرع الخدم إلى شُقَقِ ماري أنطوانيت ليعهدوا الولاءِ إلى ملكِهم الجديدِ، لويس السّادس عشر، وزوجته النمساوية، ماري أنطوانيت. الملك والملكة الجديدان سَقطا على رُكَبِهم في الصلاةِ، بقول لويس "الغالي الله، يُوجّهُنا ويَحْمينا. نحن صغار جداً على الحكم."

مَسحَت ماري أنطوانيت دموعها ووَقفَت مَع زوجِها لتَحية الخدمِ التي جاءتْ للتَعَهُّد بولائِهم إلى الملكِ والملكةِ الجديدةِ.

توّج لويس السادس عشر في ريمس وفي أثناء ارتفاع نَقْص الخبزِ في باريس. هذا السياقُ إذ هي تُقتَبَسُ بشكل خاطئ كمزحة، "إذا لمَ يكن لديهم خبز، فليأكلوا الكعك!

" قالها " كويلس مانجينت دي لا بريوشيه." لم يكن هناك دليل بِأَنَّ هذه العبارةِ لُفظتْ من قِبل ماري أنطوانيت، فعندما ماري أنطوانيت سَمعتْ عن نَقْص الخبزَ هيَ في الحقيقة كَتبتْ، "بالتأكيد بأن في رُؤية الناس الذين يعاملوننا بشكل جيّد جداً وعلى الرغم مِنْ سوءِ حظهم، نحن أكثر التزما أكثر من أي وقت مضى للشَقاء من أجل سعادتِهم. يَبْدوأن الملك فَهْم هذه الحقيقة؛ أما بالنسبة إلى نفسي، أَعْرفُ بأنّ في حياتِي (حتى إذا أنا عشت لمدّة مائة سنةَ فإني لَنْ أَنْسى يومَ التتويجِ)."

أفراد العائلة المالكة كَانوا قَدْ حُيّوا بسيل البهجةِ الوطنيةِ والملكة الشابة عُشقا خصوصاً، على الرغم مِنْ كلفةِ التتويج (تقريباً ٧٠٠٠ ليرة تم صرفه على تاج جديد للويس السّادس عشر، ورداء ماري أنطوانيت الرائع طُلِبَ مِنْ دارِ أزياء مصممِ باريس الأكثر امتيازا وحصري للعائلة روز بيرتين.

بعد فترة قليلة من التتويج، ماري أنطوانيت حاولتْ استدعاء الدوق إتين فرانسوا دي بتشويسيول إلى المحكمة. كَانَ قَدْ أُبعدَ مِن قِبل السيدةِ دي باري بسبب ولائِه إلى

ماري أنطوانيت والتحالف مَع النمسا. على أية حال، الملكة الجديدة ما كَانَ عِنْدَها نجاح كثير. بالرغم من أن الملكِ لويس اجتمعَ بتشويسيول، لم يعده كلياً للمحكمة بشكل دائم.

لاحقاً، عندما حاولتْ تعيين صديقها دوك دي جوينيس، سفيرا إلى انجلترا قال لويس السّادس عشر "لقد أوضحت للملكة بأنه لايمكن أن يكون في الخدمة لا في انجلترا أو أي سفارة غيرها" وكان من الواضح عدم التوافق في السياسة بين الطرفين!

كانت ماري انطوانيت للتفادى الممل في حياتها بعمل دائرة ابتعدت فيها عن العلاقات الدنيوية والثقافية كانت تحضر المسارح والأغاني والمسرحيات الكوميدية والتورية أو المزحات وتشمل في هذه الدائرة السخرية وإظهار فضائح الآخرين والثرثرة وابتعدت كل البعد عن المحادثات الجدية.

حلقة أصدقاء الملكةَ كَانتْ خاصّةَ جداً. وكان هذا سبب الاستياءِ في فيرساي،ثم أصبحتْ هدفَ الثرثرةِ الشريرةِ لفيرساي. هي، على أية حال، كانت غافلة عن كل مايجري.

بعد أن أثرت عليها الكونتيس ارتويز بدأت ماري انطوانيت بزيارة الحفلات التنكرية في باريس وكانت تنظمها في بعض الأحيان وكانت تختلف أحداثها ومنها للقاء بين المحبين في السر وكانت تصرف الكثير والكثير من الأموال بغض النظر على صرفها على الملابس والقمار والألماس وفي عيد ميلادها الحادي والعشرين شاركت في القمار الذي استمر ثلاثة ايام وصرفت كميات ضخمة من الأموال فيها.

تسببت ماري في غضب كثير في فيرساي بعد تعيينها لأصدقائها مناصب عالية وقد عينت تيريز دي لامبال مديرة عائلة الملكة على الرغم من أن هناك سيدات ارستقراطيات أفضل منها ومتفوقات في هذا العمل.

انتقلت ماري إلى قصر لو بيتيت تريانون الذي كان قلعة صغيرة فيها حدائق تناسب ذوق الملكة وكانت تقضي معضم وقتها هناك فانصرفت عن فيرساي والتزاماتها.

بَدأتَ الإشاعاتُ الحقودةُ على ماري أنطوانيت انها كَانتْ تَنَامُ مَع نسيبِها تشارلز، كومت دارتويز.. أحد أفراد العائلة المالكة لوغودميتش (أحد أفراد العائلة المالكة) أظهر إشاعة على أنها انغمستْ في البهيميةِ والسحاقيةِ. طبعا لا دليلَ على هذه التهمِ لَكنَّهم بَدأوا بتَكسير شعبيةِ الملكةِ مَع الناسِ.

كان هناك مشاكل أوسع أيضاً تُؤثّرُ على فرنسا في ذلك الوقت فقد كانت البلاد تَقفُ على حافةِ الإفلاسِ. السلسلة الطويلة للحروبِ في عهد لويس الرّابع عشرة ولويس الخامس عشر تَركا فرنسا الأعلى نسبة فى الدين.

المجتمع الفرنسي كَانَ يفرض ضريبة مرتفعة فكان الشعب فقيرا والضرائب عالية مما أدى إلى فشل الاقتصادِ.تم اقناع لويس بدعم امريكا وتحريرها من انجلترا وكان هذا كارثة على الفرنسيين حيث كانت التكلفة لذلك هائلة.

أَخّ ماري أنطوانيت، الإمبراطور جوزيف الثّاني، زارَها في أبريل ١٧٧٧. جاءَ للاسْتِفْسارِ حول حالةِ زواجِها، فقد كان النمساويون قلقين لعدم إنجابها ابنا. مشوا مطولاً في حدائقِ لو بيتيت تريانون، خلاله انتقدَ يوسف قمارها وعلاقاتها مع الأصدقاءِ الفاسدين.

كَانَ عِنْدَهُ أيضاً محادثة عميقة مَع لويس السّادس عشر، التي فيها ناقشوا مشاكلَه الجنسيةَ وبحلول شهر أبريل ١٧٧٨ أعلنتَ بسعادة بأنّها كَانتْ حبلى.

ولد طفل ماري انطوانيت الأول ديسمبر فى ١٩، ١٧٧٨ وتحملت الإذلال وألم الولادة أمام الجمهور من الخدم والحشم ! بعد هذه الولادة ألغت تلك الطقوس ورفضت فكرة مشاهدة الجمهور لها ولن تلد مرة أخرى أمام الجميع!

المولود كان بنتاً سمتها ماري تيريز شارلوت مع أن الشعب أراد أن يكون ولداً ولكن ولدت ملكة أميرة ملك فرنسا على الرغم من ذلك أحبتها ماري انطوانيت وقالت: "الابن تملكه الدولة، أما أنت لي وحدي وستشاركيني في سعادتي وتلينين حزني" .

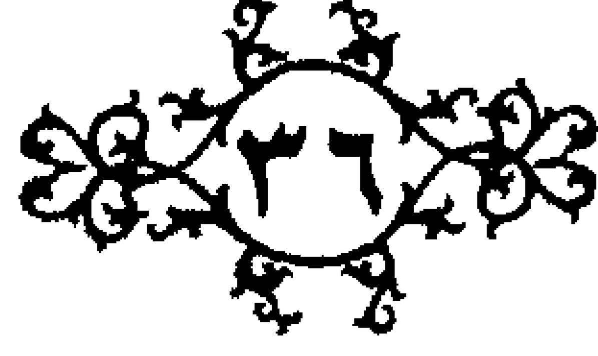
تبعت ولادة تيريز ثلاثة أطفال آخرين لويس جوزيف في ١٧٨١، لويس تشارلز ١٧٨٥ وصوفي بيتريكس ١٧٨٦ .

كبرت ماري انطوانيت وقل إفراطها في الاستهتار وكرست وقتها للإعتناء بأطفالها فقد كانت مهووسة بهم على كلام ابنها الأصغر لويس تشالرز كانت تقول: (ملفوفيّ بالحب!!، وهي مقولة شعبية في أوربا إلى هذا الزمن وكَانتْ أيضاً مهتمة في العمل الخيري لأنها دائما كانت كريمة

بعد أن بلغت الثلاثين من عمرها في سنة ١٧٨٥ بدأت ماري انطوانيت بضبط نفسها أكثر فأكثر فتركت الباروكات المرصعة بالجواهر والريش ورفضت شراء أي من المجوهرات لاقتنائها! وعلى أية حال كانت قد انتقدت لإنشائها حديقة أو قرية صغيرة لنفسها في أرض فرساي في سنة ١٧٨٦ وكانت بناية هذه الأنواع مِنْ القُرى الاصطناعيةِ كَانتْ شعبيةَ جداً بين السيداتِ الأرستوقراطياتِ الفرنسياتِ، كانت تلك القرى تسمى هاميو واثارت هذه القرية غضب الفلاحين الحقيقيين الذين كانوا يعيشون حياة صعبة وانتقدوها بكونها مبذرة جاهلة تحب اللعب.

وهكذا تزوجت الملكة ماري أنطوانيت من الملك لويس السادس عشر وهي في الرابعة عشرة من عمرها وكان هو في الخامسة عشرة من عمره ومات وماتت وكانت هى النهاية المفجعة.





بي نظير بوتو !!

OOO



بخطى ثابتة وواثقة، مشت بي نظير بوتو إلى قدرها المنتظر والمحتوم، كأنها خارجة للتو من أكثر الصفحات تراجيدية في "الميثولوجيا" الإغريقية... "ابنة القدر" كانت تعرف قدرها، وقد خطّت سطوره، ورسمت طرقه ومعالمه قبل سنوات طوال، في كتابها الذي حمل الاسم ذاته .. وعادت من منفاها الإجباري إلى مثواها الأخير وسط الانفجارات المدوية والأشلاء المتناثرة وأعمدة الدخان، التي رافقتها في حلّها وترحالها بين مدن باكستان وأقاليمه.

اغتيال بي تظير لم يكن مفاجأة حتى بالنسبة لها هى شخصيا .. بل لقد توقعته في آخر حديث لها قبل عودتها لباكستان من منفاها في دبي .

قالت بوتو بالحرف الواحد : " قد يحاولون اغتيالي ولكنني لن أؤخر عودتي اليوم إلى باكستان .. أنا متوترة جدا وقد يحصل أي شيء .. قد يقدم مشرّف على حكم البلاد بقانون الطوارئ فيما أنا هناك .. نعم، فكرت بالأمر. قد يحاولون اغتيالي. حضرت عائلتي وأحبائي لأي احتمال... يبدو الأمر مرعبا جدا. ولكن لا تنسوا إلى أي عائلة أنتمي. هذا هو مصيرنا ولا اتفاق بيني وبين مشرف الآن أو في المستقبل"!!

و قالت بوتو وهى ترفع يدها بعلامة النصر خلال المؤتمر الصحفي الذي عقدته في دبي معلنة فيه عودتها إلى باكستان :

"أنا متوترة جدا. أي شيء قد يحصل.. أولادي كبروا في هذه الأجواء.. زوجي قضى سنوات في السجن فقط لأنه اقترن بي. . ومع ذلك فلم يتمكنوا من تدميرنا " .

و قالت : يعرف المرء من خبرته ماذا يعني الإصرار على عدم الاستسلام... لقد تجادلنا كثيرا في الأيام الماضية، في كل مرة كان مشرف (الرئيس الباكستاني يقترح أن أؤجل عودتي، إذا كان عليّ العودة أم لا. جميعنا يعرف أنه يتوجب عليّ العودة. ولكن نعم... إنه إجراء متعب للغاية. . أنا مرهقة .. لم أنم منذ أيام. أتنقل من اجتماع إلى آخر. .. سأغادر غدا باكرا. لا أريد أن أفكر أكثر في الأمر. فات الأوان لكل جدل الآن.. فات الأوان لإعادة التفكير. فات الأوان" .

بعد ٢٨ عاما من الفراق، عادت بي نظير وانضمت إلى والدها، الذي سبقها إلى الموت، ورقدت بينه، وبين شقيقيها مرتضى، وشاه نواز، اللذين سبقاها إلى مقابر العائلة أيضا.

واصطف الآلاف في مقبرة عائلة بوتو في مقاطعة " لاركانا " في إقليم السند جنوبي البلاد، لأداء صلاة الجنازة على روح بوتو، التي قتلت عقب إلقاء كلمة في مهرجان انتخابي في مدينة روالبندي الشمالية.

وجرى آلاف آخرين من الباكين والمؤيدين الناحبين بجانب سيارة الإسعاف، التي كانت تحمل النعش لمسافة خمسة كيلومترات، انطلاقا من مقر عائلتها إلى المقبرة في قرية " جارهي خودا باكش " .

وحملت أمواج من الأيدي نعش رئيسة الوزراء السابقة ملفوفا بعلم حزب الشعب الذي ترأسه، بألوانه الأسود والأخضر والأحمر، من سيارة الإسعاف إلى مدخل المقبرة لأداء صلاة الجنازة.

وبعد ذلك نقل مؤيدو بوتو النعش إلى داخل المقبرة لدفنها بالقرب من والدها رئيس الوزراء السابق ذو الفقار علي بوتو، الذي أطيح به على يد الجيش الباكستاني في ١٩٧٧، وأعدم بعد ذلك بعامين .

وانتحب زوجها آصف علي زرداري، الذي يشغل الآن منصب الرئيس الباكستاني بعد استقالة برويز مشرف بعد اغتيال بوتو وإجراء انتخابات رئاسية، وهو يصطحب الكفن إلى مقبرة العائلة، وصلى داخلها مع ابنه بلاوال " ١٩ عاما "، وابنتيه بختاوار " ١٧ عاما "، واصفة " ١٤ عاما " .

وحث زرداري مؤيديها على ضبط النفس، وقال قبل الجنازة : " إنكم أشقاء أخت شجاعة .. أظهروا بعض الصبر وامنحوني الشجاعة لتحمل هذه الخسارة " .

وقد قُدِّرَ عدد الذين توافدوا على قرية " لاركانا " سيرا على الأقدام، أو على متن الدراجات البخارية، وعدد آخر من وسائل المواصلات والنقل، لإلقاء نظرة الوداع على زعيمة حزب الشعب، قبل أن تدفن، قرابة ٣٠٠ ألف شخص.

وردد المشيعون شعارات مناهضة للحكومة وأخرى مناهضة لإقليم " البنجاب " المجاور، وهو الإقليم الأكثر غنى في باكستان، والذي يعد موطنا تقليديا للصفوة السياسية والعسكرية والمدنية للبلاد. ورددوا هتافات مثل : " العار على مشرف القاتل والعار على أميركا القاتلة "، و" الموت للأمريكان "، الذين استغلوا تطلعات

بي نظير الجامحة للعودة لباكستان، ولهثها الغريب لاستعادة السلطة من الجنرال مشرف الذي عزلها وسجنها ثم نفاها للخارج، وكذلك أفول نجم مشرف حليفهم العتيد، وحاجتهم لبديل نموذجي "بي نظير "يضرب بقوة على أيدي طالبان والقاعدة ويؤمن النووي الباكستاني، ويقضي على نفوذ الجماعات الإسلامية، فرتبوا صفقة مسمومة لتقاسمها السلطة مع مشرف لم يرض عنها أحد حتى مشرف نفسه !!

ولكن ماذا عن ساعات بوتو الأخيرة التي سبقت عودتها لباكستان واغتيالها ؟! قبيل مغادرتها لباكستان في شهر أكتوبر عام ٢٠٠٧، عرجت رئيسة وزراء باكستان السابقة الراحلة بي نظير بوتو نحو إحدى العرافات في لندن، لتستطلع لها نجمها في أمر عودتها لباكستان، فكان رد العرافة متشائما – كما قالت بوتو في أيامها الأخيرة !!

قالت لها العرافة – مع تحفظنا الكامل على هذا المسلك من جانب الراحلة حيث لا يعلم الغيب إلا الله عز وجل وكذب المنجمون ولو صدقوا " من باب الصدفة طبعاً " - أنها تتجه لطريق مكلل بالخطر.

وقالت بي نظير إن الأمر لم يزدها إلا تحدياً حيث طلبت من ذويها البقاء في بريطانيا بمن فيهم زوجها وابنة أخيها فاطمة مرتضى بوتو التي تشبهها العائلة بها.

وبالفعل كان الخطر في انتظار عودتها منذ وطأت أقدامها أرض مطار بلادها،حيث نجت من انفجارين استهدفا موكبها في مدينة كراتشي أكبر مدن باكستان مخلفين ما لا يقل عن خمسين شخصا وإصابة العشرات ممن كانوا يشاركون في الاحتفالات بعودة بي نظير بعد ثمانية أعوام قضتها في المنفى !!

ومن فوق ضريح بي نظير وبعد مواراة جثمانها الثرى، راح كبير مستشاريها صفدار عباسي يتلو كلمات بوتو الأخيرة قبل أن تفارق الحياة.. وقال إن آخر كلمات قالتها رئيسة الوزراء الباكستانية كانت "تحيا بوتو".

وعباسي هو أول شخص يدلي بشهادة حول مقتل رئيسة الوزراء السابقة والمعارضة الباكستانية. وصرح أنها هتفت تلك الكلمات قبل وفاتها. وأضاف "لم تقل أي شيء إضافي".

وروى عباسي "فجأة سمع طلق ناري. سمعت صوت رصاصة".

وأضاف "رأيتها كأنها تنحني بسرعة عندما سمعت الطلقة" موضحا "لم ندرك أنها اصيبت برصاصة".

وأكمل عباسي القول أنه رأى بوتو "تنزلق من سقف السيارة المكشوف قبل أن يهز السيارة انفجار هائل".

لم يصدر عنها أي صوت. وقال عباسي إنه شاهد الدم يسيل من جرح عميق في الجهة اليسرى من عنقها.

وعمدت زوجة عباسي نهيب خان إلى وضع رأس بوتو على ركبتيها وضغطت بشالها على الجرح في محاولة لوقف النزيف.

وقال عباسي "كانت الدماء في كل مكان على رقبتها وثيابها. أدركنا أنها لأصيبت. لم تستطع أن تقول شيئا". وأضاف أن بوتو كانت ما تزال حية عند إدخالها إلى قسم الطوارئ لكن جروحها خطيرة فلم تنج.

وأضاف مستشار بوتو أن "الأطباء بذلوا كل ما في وسعهم بدون جدوى".

وقالت الناطقة باسم بوتو إن المعارضة أصيبت برصاصة في الرأس. وقالت شيري رحمن "رأيت أنها مصابة بجرح رصاصة في مؤخرة رأسها وأخرى سببها خروج الرصاصة من الجهة الأخرى" مؤكدة أنها غسلت الجثمان قبل الدفن.

" مستعدة للموت من أجل شعبي " كانت هذه آخر عبارة قالتها بي نظير بوتو في الاحتفال الانتخابي في ساحة لياقت بروا لبندي قبيل التفجير الانتحاري الذي أودى بحياتها.

وأضافت في خطابها الأخير أنه في حالة فوزها في الانتخابات فإنها ستعمل على توفير السكن للفقراء والوظائف للعاطلين متهمة بعض الجهات بأنها تحاول إلغاء الانتخابات عبر إحداث حالة عدم الاستقرار في الباكستان .

وطالبت بي نظير أن تكون الانتخابات القادمة حرة ونزيهة معربة عن ثقتها في الفوز. وأكدت أنها ستستمر في مواجهة العناصر المتشددة مطالبة الجميع التوحد فى مواجهة الإرهاب بكافة أشكاله كما أعلنت أنها ستقوم بإنشاء جامعة في روا لبندي .

وكشفت مصادر مقربة من بي نظير أنها تحدثت مع أبنائها الثلاثة في دبي عبر الهاتف قبيل ساعات من اغتيالها حيث أبلغتهم أنها ستقوم بزيارتهم قريبا، وأنها متعطشة للقائهم وأشارت المصادر إلى أنها تحدثت طويلا مع ابنتها الصغرى أصفة التي تبلغ ١٤ عاما مشيرة إلى أنها أبلغت أبناءها بختاور ١٩ عاما وبيلاول ١٧ عاما واصفة ١٤عاما أنها ستقوم بزيارتهم قريبا في دبي .

وكان آخر لقاء تم بين بي نظير وأبنائها الثلاثة في ديسمبر بدبي .وأشارت المصادر إلى أن زوجها آصف زرداري الذي وصل بعد مقتلها إلى باكستان قادما من دبي حاول إخفاء نبأ اغتيال زوجته عن أبنائه كما فعل عندما تمت محاولة اغتيالها في نوفمبر ولكنه لم يستطع نظرا لانتشار الخبر وضرورة توجهه مع أبنائه إلى الباكستان .

وذكر قيادي في حزب الشعب الباكستاني أن بي نظير أبلغت زوجها قبيل مغادرتها دبي في نوفمبر أنها تشعر بأنه سيتم اغتيالها موضحا أنها أعطت زوجها آصف رسالة تحتوي على أسماء عدة شخصيات ستكون متورطة في الاغتيال.

وروى ملك رحمن القيادي في الحزب بأنه كان متواجدا في السيارة الثانية المرافقة لبينظير في موقع الانفجار الذي وقع في ساحة لياقت في روا لبندي حيث أفاد أنه سمع صوت إطلاق نار تبعه انفجار قوي موضحا أنه شاهد بينظير وهي ساقطة على مقعد السيارة عقب إصابتها بطلق نار في رقبتها .

وكشف رحمن أن بينظير ترتدي سترة واقية من الرصاص موضحا أن الانتحاري كان لديه علم أنها كانت ترتدي سترة واقية لهذا أطلق النار على رقبتها .

وقال إنها كانت داخل السيارة وبعد مشاهدتها جمعا من المواطنين الباكستانيين الذين توجهوا باتجاه سيارتها لتحيتها أطلت برأسها من فتحة سقف السيارة حيث انتهز الانتحاري الفرصة وأطلق النار على رقبتها ورأسها قبيل أن يفجر نفسه .

وقال إنه عندما تم نقل بينظير إلى المستشفى كانت لاتزال حية ولكن نتيجة نزيف الدم وصعوبة التنفس بسبب نقص الأكسجين لفظت أنفاسها الأخيرة رغم محاولة الإنعاش . وكشف رحمن أن بينظير تلقت تحذيرات من السلطات الأمنية أن هناك احتمالا لتعرضها لعمل إرهابي في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر حيث ألغت في ذاك اليوم جميع نشاطاتها الانتخابية .

وفي إطار استعراض كل ما جرى في أيام بوتو الأخيرة، نشرت صحيفة "إندبندنت" البريطانية تفاصيل عن اللحظات الأخيرة في حياة زعيمة حزب الشعب الباكستاني المعارض، فيما نقلت عنها الإخبارية الأمريكية " سي .إن . إن " رسالة إلكترونية تتهم فيها الرئيس الباكستاني برويز مشرف برفض تخصيص حماية لها تحمّله فيها المسؤولية في حال اغتيالها.

ففي مقال لصحيفة " إندبندنت" بعنوان "وقائع موت معلن " وهو عنوان مقتبس عن رواية الكاتب الكولومبي الشهير جابريل غارسيا ماركيز الشهيرة " الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٨٢ "، كشفت الكاتبة بقسم الشؤون الدبلوماسية أن بنازير بوتو حضرت "غداء وداع " في نادي سلاح الطيران الملكي البريطاني للمرّة الأخيرة قبيل مغادرتها لندن عائدة إلى بلادها وأبدت تفاؤلا كبيرا بقدرتها على قيادة ما أسمتها " القوى المعتدلة "لمواجهة ما وصفتها بـ " قوى التطرّف " بعد إجراء انتخابات نزيهة وأنها كانت تبدو واثقة من فوزها بالحكم.

وتقول الكاتبة التي تحدّثت مع بوتو إنها قالت لها أعتقد أننا في الوقت الراهن نواجه اختيارا حاسما بين الديمقراطية والدكتاتورية، بين الاعتدال والتطرف.

وأضافت بوتو: "أعرف أن هناك مدرسة في التفكير السياسي تميل إلى أن من الأفضل مواجهة التطرّف بنظام يدعمه الجيش... وبهذا المعنى يفضّل البعض رؤية دكتاتورية محكومة كحليف مستقر يعول عليه بدلا من حكومة منتخبة تتمتع بتأييد الشعب".

وتقول الكاتبة إن بوتو أبدت لها معارضتها التامة لهذا الرأي ووصفته بأنه "خطأ استراتيجي في الحسابات" قد تكون له انعكاسات مدمّرة على المعركة ضد التطرّف والتعصّب والحقد الذي يمثل اليوم أكبر خطر على أمن باكستان الداخلي.

وفي رسالة الكترونية كشفتها شبكة الـ "سي . إن . إن" الأمريكية كتبت بوتو "إنه إذا حدث شيء لها في باكستان فإني أحمل مشرّف المسؤولية" !!

وقالت بوتو في الرسالة التي وجهتها إلى المتحدث باسمها في الولايات المتحدة مارك سيغل، بعد أن عدّدت الإجراءات الأمنية التي طلبتها " إن أعوان مشرف يجعلونني أشعر أنني في خطر" !!

وأضافت في الرسالة التي وجهتها في ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٧ بعد أسبوع من استهدافها في تفجير دام نجت منه " من المستحيل أن يكون رفض استخدام سيارات خاصة أو سيارات ببلور غير كاشف أو تخصيص حماية مرافقة من أربع سيارات شرطة لحمايتي من كافة الجهات قد تم دون موافقته " !!

وطالبت بوتو من مارك سيغل الذي تعاونت معه في كتابة كتاب عن الإسلام والغرب بنشر هذه الرسالة في حال تم اغتيالها. وقال سيغل الـ "سي . إن . إن" في الوقت الذي كنا نحضّر فيه حملة الانتخابات الأمريكية كانت بوتو قلقة جدا لعدم تخصيص الوسائل الأمنية التي طلبتها .

وكانت بي نظير قد أجرت حواراً تحدثت فيه لصحيفة " الراية " عن جملة من أحلامها لوطنها باكستان.. كانت تتطلع إلى إجراء انتخابات حرة ونزيهة وترفض ممارسات الجنرال برويز مشرف ورأت أن انعدام الاستقرار السياسي في باكستان يخلقه الجنرالات لأنه يحقق مصالحهم في البقاء في السلطة.

في هذا الحوار تحدثت عن عودتها للوطن.. عن عشقها له رغم قناعتها بأنها معرضة للاعتقال فور وصولها إلى باكستان.. إلا أن ذلك لم يحدث.. وما حدث لها بعد خمس سنوات من هذا الحوار الذي حلمت فيه بمعانقة الوطن أنها قتلت على أيدي نفر من أبناء هذا الوطن وتلك هي الفاجعة بكل المقاييس.

وربطت بوتو التوتر الذي تشهده الحدود بين بلدها والهند بغياب الديمقراطية في باكستان في إشارة إلى الحكومة العسكرية التي تقود البلاد منذ الإطاحة بنظام نواز الشريف على يد الجنرال برويز مشرف.

ودعت بوتو القيادتين في البلدين إلى تحكيم لغة العقل والحوار فيما ينشأ من أزمات بغية الوصول إلى حل سياسي مذكرة بأنه رغم خوض دلهي وإسلام آباد لأربعة حروب سابقة فإن مشكلة إقليم جامو وكشمير لم تحل وظل يرمي بظلاله على العلاقات الثنائية.

وكانت بوتو في أيامها الأخيرة قد ذكرت في حديث نشرته مجلة " فوكوس " الألمانية، أن أحداث " المسجد الأحمر لم تكن إلا وسيلة للاستعداد، تمهيدا لما سيجري إذا لم يتم نزع سلاح المدارس الدينية ".

وحذرت بوتو من محاولات تشكيل نظام أو جيش مواز، مضيفة أنها، لو كانت في السلطة، «لأقدمت على تطهير كل مقر عام يتخذ من المدارس غطاء لتخزين الأسلحة والتدريب على القتال" .

وجاءت هذه التصريحات لتشير إلى العملية الانتحارية التي وقعت قبل عودتها واغتيالها في إسلام أباد، وأسفرت عن مقتل ١٤ شخصا على الأقل، واستهدفت

عناصر في الشرطة كانوا يعملون على إخراج طلاب إسلاميين احتلوا من جديد المسجد الأحمر بعد إعادة فتحه، وسط فوضى نتجت عن مطالبة هؤلاء الطلاب بأن يؤم الصلاة في المسجد إمامه السابق الموجود في السجن.

وهو الهجوم الانتحاري الثالث عشر من نوعه، ضمن سلسلة من العمليات الانتحارية التي تستهدف البلاد منذ العملية العسكرية التي نفذها الجيش على المسجد الأحمر في ١٠ يوليو ٢٠٠٧ !!

وقالت بوتو للمجلة الألمانية إنها تنوي " العودة إلى بلادها .. وقالت: " سأعود مهما كانت نتائج محادثاتي مع الرئيس الباكستاني برويز مشرف" !!

وأضافت أن الاتهامات بالفساد الموجهة إليها " لا إثبات عليها "، مذكرة بمبدأ "المتهم بريء حتى تثبت إدانته" !!

أما أغرب ما ذكر عن أيام بوتو الأخيرة فهو ما يتعلق بالمزاعم الإسرائيلية حول أنها طلبت حماية جهاز المخابرات الإسرائيلي " الموساد " لها قبل اغتيالها!

فقد زعمت صحيفة إسرائيلية أن زعيمة حزب الشعب الباكستاني الراحلة كانت قد طلبت حراسة إسرائيلية لها قبل اغتيالها فيما أشار تقرير إسرائيلي آخر إلى أن بوتو كانت تسعى إلى إقامة علاقات مع إسرائيل.

وذكرت صحيفة "معاريف " أن بوتو عللت طلبها بأن الرئيس الباكستاني برويز مشرف لا يسمح لها بحماية نفسها من خلال عدم السماح بوضع زجاج قاتم اللون لنوافذ سيارتها أو استخدام أجهزة للكشف عن عبوات ناسفة.

وحسب رواية الصحيفة فإنه في أعقاب طلب بوتو الحصول على حماية من جهاز المخابرات الإسرائيلية " (الموساد) أجرت وزارة الخارجية الإسرائيلية التي ايدت الاستجابة لطلب بوتو عدة مداولات مع مسؤولين في «الموساد» وجهات متخصصة في حراسة الشخصيات لكن إسرائيل لم تتخذ قرارا بهذا الصدد خوفا من إثارة غضب النظام الباكستاني أو الهند حسب قولها.

وتابعت "معاريف " أن بوتو بعث برسالة عبر البريد الإلكتروني إلى أحد المقربين منها في العاصمة الأمريكية واشنطن ويدعى مارك سيجال قالت فيها في حال ما إذا أصابها سوء فإنها تحمّل مشرّف المسؤولية.

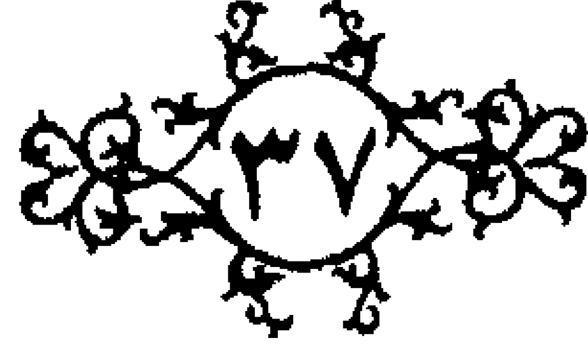
من جانبها نقلت صحيفة " يديعوت أحرونوت " العبرية عن مصادر إسرائيلية لم تكشفها قولها إنه رغم الانتقادات الشديدة من شق كبير من الباكستانيين ورغم محاولات اغتيالها بسبب توجهها نحو الغرب نقلت بوتو رسائل إلى إسرائيل تقول فيها إنها معنية بلقاء رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت إذا ما نجحت في الوصول إلى رئاسة الوزراء في الانتخابات القريبة القادمة في جانفي، على حدّ قول الصحيفة.

وقال مراسل الصحيفة إن بوتو قالت قبل بضعة أشهر للسفير الإسرائيلي في الامم المتحدة داني جيلرمان أنها " تفكّر في اقامة علاقات ديبلوماسية مع إسرائيل"

كانت بي نظير بوتو قد أكدت في أكثر من مناسبة في أيامها الأخيرة إحساسها بدنو الأجل، وبنفس الطريقة البشعة التي راح أفراد أسرتها ضحية لها .

و قالت : أنا متوترة جدا .. أي شيء قد يحصل. قد يحاولون اغتيالي. لا أريد أن أفكر أكثر في الأمر. فات الأوان لكل جدل الآن. فات الأوان لاعادة التفكير. فات الأوان .. يجب أن أفكر في كل الخيارات. إذا لا أذهب الآن وأواجه الواقع، يجب أن اعتزل السياسة ومعتقداتي وكرامتي وكل ما يمثله اسم أسرتي.. التهديد بالقتل أو أي تهديد لا يمكن أن يحول دون عودتي إلى باكستان.





فان جوخ ..

ooo



ظلت حالات الهياج الجنوني تعاود الرسام العالمي الأشهر فان جوخ التي كانت تنتابه من حين لآخر حتى قام في إحداها بقطع أذنه وربط رأسه المصاب ثم قدم الأذن المقطوعة في لفافة إلى محبوبته التي طلبت منه أذنه خلال إحدى مداعباتها له، وعندما عاد إلى بيته أغمى عليه ولم يفق إلا في المستشفى.

وعندما استرد صحته طاردته أنظار أهل البلدة وصيحات أطفالها.. فانهارت أعصابه ولم يجد أخوه بدًّا من نقله إلى مستشفى للأمراض العقلية بالقرب من

"أرل ". وهو المستشفي الذى مكث فيه عاما، وسمح له بالرسم فيه فظهر في لوحاته بهذه المرحلة شيء من عنف نوبات الصرع التي تعرض لها.. وعندما نجح أخوه في بيع إحدى لوحاته بمبلغ ٤٠٠ فرنك، اقترح أن يستخدم هذا المبلغ في الاستشفاء بمصحة خاصة قرب باريس.

ودخل فان جوخ إلى " مصحة سان ريمي " التي يشرف عليها دكتور جاشيت وهو من هواة الفن، لينسج آخر الخيوط في قصته الحزينة، لقد عاش يعاني الخوف الدائم من شبح الموت الذي يطارده، يتعلق تعلقا لاهثا بالحياة من خلال ديمومة اللوحة وحيويتها، وعلى قدر اندفاعه برغبة دفينة تجاه الموت كانت لديه رغبة أعمق في الهروب.. ومقاومة الموت من خلال بث الحياة والحرارةوالعاطفة في لوحاته الخالدة، إنه ودون وعي منه كان يرسم حياته كلها كلوحة فنية نارية تتعدد فيها الأماكن والوجوه وقصص الحب المريرة ولحظات الإلهام الخاطفة.

وقد أمضى دكتور جاشيت أوقاتاً طويلة في صحبة مريضه جوخ، ولكن نوبات الصرع راحت تتوالى بانتظام عليه وسئم جوخ الحياة .. فخرج إلى حقل مجاور وأطلق على نفسه الرصاص ولكنه لم يمت على الفور حيث نقله " تيو " إلى المستشفي التي مات به بعد يومين وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد أن رسم أكثر من ٧٠٠ لوحة وحوالي ١٠٠٠ رسمة، كتب بها اسمه في قائمة الخالدين، وأصبحت لا تقدر بملايين الدولارات .. وهو الذي كان يعيش أياما بأكملها على رغيف خبز واحد !

وهكذا رحل جوخ في شهر يوليو عام ١٨٩٠ بعد حياة خاطفة كالومض، عاش خلالها وهو يعاني سلسلة من الكوارث والهزائم النفسية حتى وصل إلى حافة الجنون.

وقد كتب فان جوخ خلال الساعات التي سبقت انتحاره العديد من الرسائل والخواطر إلى أخيه " تيو" والتي تضمنت آراءه في الرسم والنقد والمجتمع وعن نفسه وغيرها العديد من الأمور، وتم تجميع أرائه هذه في ثلاثة مجلدات.

وفي ختامه للرسالة الأخيرة التي كتبها فان جوخ إلى أخيه ثيو، والتي وجدت في جيبه في اليوم الذي مات فيه، بعد يومين من إطلاقه النار على نفسه منتحرا وسط الحقول التي كان يرسمها في كل فصل من فصول السنة قال : " حسنا .. ففي نهاية الأمر لن يتحدث عنا سوى لوحاتنا " .. وفعلا منذ ذلك الحين تحدثت لوحاته عنه لجميع شعوب العالم !!

لقد عاش فان جوخ حياة قصيرة ومأساوية ومات فقيرا مغمورا لم يبع في حياته سوى لوحة واحدة لكن الهوس بأعماله جاء متأخرًا بعد موته .

لقد قضي جوخ الجزء الأكبر من حياته في معاناة وحزن وبؤس فلم يعرف معنى السعادة والرخاء سوى لفترات قليلة تعد من اللحظات النادرة في حياته، وعلى الرغم من هذا تمكن من أن يقدم للتاريخ الفني واحدا من أعظم فنانيه فأثرى العديد من المتاحف بأعماله الرائعة وتم تشييد متحف باسمه في بلده هولندا بالعاصمة أمستردام يضم مجموعة كبيرة من أروع أعماله. ومن المعروف أن جوخ ينتمي إلى المدرسة الانطباعية المتأخرة وتباع لوحاته اليوم بملايين الدولارات وأشهرها " دوار الشمس " و" زهرة الخشخاش " والبورتريهات الحزينة التي رسمها لنفسه ولآخرين وتبدو كأنها على حافة الجنون والانهيار النفسي كصاحبها !

مات معدما، هزيلا، نحيلا، مهووسا، بعد أن طارده المرض وقذف به إلى مصحة عقلية، مات فان كوخ ليبدأ العالم تذكره وكتابة اسمه في قائمة الخالدين بأعمالهم ..!

مرت عليه سفينة حياته والتي واجهت العديد من الأمواج والتقلبات القاسية حتى وصلت إلى شاطئها الأخير في نهاية مأساوية لقصة حياة قصيرة خلفت وراءها أجمل اللوحات وأكثرها قيمة فنية ومادية.

جوخ هو اسم عظيم في عالم الفن التشكيلي، فهو الفنان الذي استطاع أن يحظى باحترام وتقدير وإعجاب مؤرخي ونقاد وعشاق الفن التشكيلي في كافة أرجاء العالم.. مما جعل أعماله تحتل مكاناً بارزاً ومتميزاً في متاحف العديد من الدول، ولعل أشهرها متاحف موسكو ولينجراد .. وغيرهما.

بالإضافة إلى تلك الشعبية العارمة التي يتمتع بها في كافة دول أوربا وأمريكا وكذلك دول العالم الثالث التي لا توجد فيها لغة واحدة لم ينشر بها كتاب أو أكثر عن فان جوخ بغلاف الأفلام السينمائية والروائية والتسجيلية التي تناولت حياة هذا الفنان، وربما هذا الشغف كان السبب الأول في استمرار نشر واستنساخ لوحاته. فمن هو هذا الفنان صاحب تلك الجماهيرية الواسعة؟

وحياة "فان جوخ" المليئة بالأحداث والمآسي التي أثرت بلا شك في فنه وربما كانت سبباً قويا في شهرته.

ولد فان جوخ في بلدة "زونديت" بهولندا عام ١٨٥٣ لأب يعمل قسيساً بكنيسة البلدة، وهو الأب الذي زرع في أعماق هذا الصغير من خلال الجو الديني الصارم الذي أحاط بالأسرة مثلاً علياً ربما كانت تصطدم كثيراً جدا بالواقع طوال حياة "فان جوخ".

جاءت ولادة فان جوخ بعد سنة واحدة من اليوم الذي ولدت فيه أمه " آنا كورنيليا كاربنتوس " طفلاً ميتاً بالولادة، سمي أيضاً بفنسنت. لقد كان هناك توقع كبير بحدوث صدمة نفسية لفنسنت فان جوخ كنتيجة لكونه "بديل طفل" لاحقاً. وإن له أخا ميتاً بنفس الاسم وتاريخ الولادة.

وعندما بلغ فان جوخ السادسة عشرة من عمره اصطحبه عمه إلى مدينة لاهاي ليعمل معه في القاعة التي يديرها والمتخصصة في بيع الأعمال الفنية سواء من الآثار القديمة أو من إنتاج الفنانين المعاصرين، وهي القاعة التي كانت تتبع مؤسسة

جوبيل الشهيرة والتي يقع مركزها الرئيسي بباريس. ومن خلال هذا العمل تعرف فان جوخ على عالم الفن وتحمس لبعض الأعمال ولبعض الفنانين، ولهذا بذل جهده في إقناع عملائه بشراء أعمال هؤلاء الفنانين وبلغ من نجاحه أن قررت المؤسسة نقله إلى لندن ليدير فرعها هناك.

واستمر هذا النجاح الذي صاحبه اهتمام فان بمظهره وأناقته الشخصية إلى أن أحب إحدى الفتيات وتدعي " أرسيولا " ولكنه عندما طلب منها الزواج هزأت به وصدته في خشونة شديدة مما جعله يصاب بما يشبه الهوس الديني، فبدلاً من أن يناقش العملاء عن جماليات اللوحات المعروضة بالقاعة التي يديرها أخذ يحثهم على الدين.. مما جعل الشركة تنقله إلى باريس حيث تدهورت حالته النفسية وانطوى على نفسه وأصابته الكآبة .

وقبل أن تقرر الشركة فصله كان قد قدم استقالته عازماً على تكريس حياته للخدمة الدينية بعد أن اتجه إلى لندن ليعمل كمدرس للغة الفرنسية، ولكن جو لندن المظلم الكئيب وذكريات جرحه العاطفي جعلت حالته النفسية تزداد سوءاً فعاد إلى هولندا حيث التحق بمعهد لاهوتي في " أمستردام " وعكف على الدراسة الجادة ستة أشهر حتى أصابه الملل وقرر أن يعمل واعظاً بين عمال المناجم والفلاحين في إحدى قري بلجيكا حيث عايش المرضى بحمى التيفود وحاول تخفيف آلام الاحتضار عليهم، وسهر مع الفقراء والجرحى، متخطياً بذلك الحدود المرسومة له كمبعوث ديني إلى نوع من الامتزاج والتوحد الكلي، حيث يقضي أيامه ولياليه بين هؤلاء لا يأكل إلا معهم ولا يخصص الوقت الكافي لراحته ونومه .. بل ووزع عليهم ملابسه وأغطيته وأصبح يعاني من البرد والجوع إلى الحد الذي جعل مظهره يتدهور .. مما زاد من تعلق هؤلاء العمال به حتى طردته السلطات الدينية قبل أن يمر عام واحد على تسلمه لهذا العمل، وذلك لعدم اقتناعهم بطريقته في تطبيق التعاليم المسيحية على هذا النحو.

وهو الأمر الذي زاد من أزمته النفسية حيث شعر بالفشل في كل ما أسند إليه من أعمال بجانب فشله في حبه، ولكنه قرر ألا يستسلم.. فما لبث أن كتب لأخيه " تيو " ليقول له : " إنني بالرغم من كل شيء سوف أنهض ثانية .. سوف أتناول من جديد ريشتي التي تخليت عنها في أيام انكساري، وسأعود للرسم، والآن يبدو لي كل شيء وقد تغير " .

ومنذ ذلك الحين آمن" تيو " بأخيه فان جوخ وسنح له الفرصة ليخرج أعظم الأعمال الفنية .. حيث لم ينقطع تيو طيلة السنوات العشر التالية عن بذل المعونة المالية لأخيه وتشجيعه ومساعدته بكل ما استطاع توفيره من دخله المتواضع .. وببلوغ " فان جوخ " السابعة والعشرين من عمره التحق بأكاديمية الفنون في مدينة " انفري " حيث بدأ حياته في عالم الألوان.

عكف على رسم الفلاحين الهولنديين وعمال المناجم والبؤساء مسجلاً ما نقش في مخيلته من ذكريات في مجموعة من اللوحات الحزينة القاتمة القوية التعبير وهي المرحلة التي يطلق عليها في فنه المرحلة الهولندية التي امتدت ما بين عامي ١٨٥٤، ١٨٥٥ وفي العام التالي رحل فان جوخ إلى باريس للإقامة مع أخيه في أستوديو بحي " مونمارتر " حيث كان أخوه تيو من تجار الصور المهتمين بتتبع الاتجاهات الحديثة في الفن، فقد كان مديراً لفرع إحدى المؤسسات الفنية.

هذا الفنان العبقري لم يكن يرسم كثيرا فقط، بل كان يكتب أيضا بنفس الحرارة والتوهج كمًّا هائلا من الرسائل والخواطر إلى شقيقه " تيو " والتي جُمعت في كتاب من ثلاثة مجلدات تضمنت آراءه في الرسم وفي النقد والمجتمع والمرأة وعن نفسه في أغلب الأحيان.

وسعد فان جوخ كثيراً بصحبة أخيه بعد ما قاساه من وحشة وحرمان وكذلك سعد بحياته الجديدة في باريس .. فما لبث أن تغيرت ألوانه القاتمة وحلت محلها

الألوان الزاهية البراقة التي ربما عكست رؤيته للحياة في تلك الفترة، والتي اتجه فيها إلى دراسة النظريات والأساليب الفنية الجديدة ومناقشتها مع أصحابها بل وتجربتها في لوحاته، كما تعرف خلال هذه الفترة على عدد من الفنانين الشباب ومنهم " تولوزلو تريك " و" بول جو جان " .

كما تأثرت لوحاته بالرسوم اليابانية المطبوعة .. ثم ظهرت تأثيرات تجارب زملائه المعاصرين على فنه، وبعد مضي عام آخر كان قد استوعب كل ما حوله من تجارب ليصبح مهيئاً لمرحلة ناضجة استغرقت بقية حياته..

و استمرت إقامة فان جوخ الأخيرة في باريس لمدة عامين إلى أن قرر فجأة في فبراير عام ١٨٨٨ السفر إلى بلدة " أرل " بمقاطعة " بروفانس " في جنوب فرنسا حيث الشمس الساطعة طوال النهار والألوان المتوهجة، وعكف خلال العامين التاليين على الرسم في سعادة وحماس لدرجة أن لوحاته في تلك الفترة تشع حيوية في ألوانها وشكلها.

ومع أنه كان يرسم بأسلوب لمسات الفرشاة المتعددة الألوان إلا أن لمساته في تلك الفترة كانت أعرض وأقوى .. وقد شرح طريقته في خطاب لأخيه يقول فيه: "إنني بدلاً من محاولة نقل الطبيعة بأمانة استخدمت الألوان بحرية ودون تقيد من أجل التعبير عن نفسي تعبيراً قويا " .

وفي هذه المرحلة دعا بول جوجان إلى الإقامة معه وهو يحلم بإنشاء رابطة للفنانين وبأن يكون منزله هو نواة تحقيق هذا الحلم .. إلا أن وصول جوجان أعقبته المتاعب، فالمناقشات احتدمت والخلاف في الرأي اتسع والصخب الذي يثيره جوجان أينما حل أدى إلى توتر أعصاب فان جوخ حتى كان الانفجار عندما سخر جوجان من فكرة إنشاء رابطة للفنانين وعندئذ قذف فان جوخ محتويات كأسه في وجه جوجان ثم أغمى عليه، فحمله جوجان من المقهى إلى المنزل وأرقده في

الفراش، وفي الصباح ندم فان جوخ وطلب من زميله الصفح، ولكنهما ما لبثا أن عادا إلى الشجار بعد منتصف الليل، وتطور غضب فان جوخ لدرجة جعلته يخرج موس الحلاقة ويشهره في وجه جوجان بل وجرى وراءه في الشوارع محاولاً قتله، ولكنه عاد إلى بيته بعد أن أفاق وهو يشعر بحالة تمزق عنيف.



قالوا على فراش الموت

OOO

●●أبو بكر الصديق (رضى الله عنه)

لما احتضر أبوبكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه حين وفاته قال : وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد وقال لعائشة : انظروا ثَوْبَيَّ هذين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أولى بالجديد من الميت

ولما حضرته الوفاة أوصى عمر رضي الله عنه قائلا : إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني : إن لله عز وجل حقا بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدّى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة بإتباعهم الحق في الدنيا، وثقلت ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا وحق لميزان أن يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا .

••عمر بن الخطاب(رضى الله عنه)

لما طُعن عمر .. جاء عبدالله بن عباس ،فقال .. : يا أمير المؤمنين، أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خذله الناس، وقُتلت شهيدا ولم يختلف عليك اثنان، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض

فقال له : أعد مقالتك فأعاد عليه

فقال : المغرور من غررتموه، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع

وقال عبدالله بن عمر : كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه

فقال : ضع رأسي على الأرض

فقلت : ما عليك كان على الأرض أو كان على فخذي ؟

فقال : لا أم لك، ضعه على الأرض

فقال عبدالله : فوضعته على الأرض

فقال : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي عز وجل .

عثمان بن عفان(رضى الله عنه)

أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه قال :حين طعنه الغادرون والدماء تسيل على لحيته : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم إني أستعديك وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على بليتي .

ولما استشهد فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقا مقفلا . ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوبا عليها (هذه وصية عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق. وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد . عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث إن شاء الله .

••علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)

أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه

بعد أن طُعن على رضي الله عنه

قال : ما فعل بضاربي ؟

قالو : أخذناه

قال : أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها .

ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال : لا تغالي في الكفن فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لاتغالوا في الكفن فإنه يسلب سلبا سريعا.

وأوصى : امشوا بي بين المشيتين لا تسرعوا بي، ولا تبطئوا، فإن كان خيرا عجلتموني إليه، وإن كان شرا ألقيتموني عن أكتافكم

●●معاذ بن جبل (رضى الله عنه)

معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه

الصحابي الجليل معاذ بن جبل .. حين حضرته الوفاة وجاءت ساعة الاحتضار.. نادى ربه ... قائلا .. : يا رب إنني كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك .. اللهم إنك تعلم أنني ما كنت أحب الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار .. وإنما لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق العلم ثم فاضت روحه بعد أن قال : لا إله إلا الله .

روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .. : نعم الرجل معاذ بن جبل.

وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أرحم الناس بأمتي أبوبكر .... إلى أن قال ... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ .

●●بلال بن رباح (رضى الله عنه)

بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاه.

حينما أتى بلالا الموتُ .. قالت زوجته : وا حزناه .

فكشف الغطاء عن وجهه وهو في سكرات الموت .. وقال : لا تقولي واحزناه، وقولي وا فرحاه.

ثم قال : غدا نلقى الأحبة ..محمدا وصحبه .

••أبو ذر الغفاري(رضى الله عنه)

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وأرضاه

لما حضرت أبا ذر الوفاة .. بكت زوجته .. فقال : ما يبكيك ؟

قالت : وكيف لا أبكي وأنت تموت بأرض فلاة وليس معنا ثوب يسعك كفنا

فقال لها : لا تبكي وأبشري فقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا منهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين

و ليس من أولئك النفر أحد إلا ومات في قرية وجماعة، وأنا الذي أموت بفلاة، والله ما كَذبت ولا كُذبت فانظري الطريق

قالت :أنَّى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطريق

فقال انظري فإذا أنا برجال فألحت ثوبي فأسرعوا إلى فقالوا : ما لك يا أمة الله ؟

قالت : امرؤ من المسلمين تكفنونه

فقالوا : من هو ؟

قالت : أبو ذر

قالوا : صاحب رسول الله

ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ودخلوا عليه فبشرهم وذكر لهم الحديث

و قال : أنشدكم بالله، لا يكفنني أحد كان أمير أو عريفا أو بريدا

فكل القوم كانوا نالوا من ذلك شيئا غير فتى من الأنصار فكفنه في ثوبين لذلك الفتى وصلى عليه عبدالله بن مسعود فكان في ذلك القوم رضي الله عنهم أجمعين.

●● أبو الدرداء (رضى الله عنه) :

قالت أم الدرداء: إنّ أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول: من يعمل لمثل يومي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟! ثم يقول: (ونُقَلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة) الأنعام ١١٠.

●● سلمان الفارسي (رضى الله عنه) :

عن بُقَيْرة امرأة سلمان قالت: لما حَضَرَ سلمانَ الموتُ دعاني وهو في علّية لها أربعة أبواب فقال: افتحي هذه الأبواب يا بقيرة فإنّ لي اليوم زواراً لا أدري من أيّ هذه الأبواب يدخلون عليّ ثمّ دعا بمسكٍ له ثم قال أديفيه في تور(إناء .. (أي اخلطيه وأذيبيه في الماء ففعلت. ثم قال: انضحيه حول فِراشي ثم انزلي فامكثي فسوف تطلعين فتريني على فراشي. فاطلعتُ فإذا هو قد أُخِذَت روحه فكأنه نائمٌ على فراشه.

●● عمرو بن العاص (رضى الله عنه) :

قال الحسن: بلغني أن عمرو بن العاص دعا حَرَسَهُ عند الموت فقال: امنعوني من الموت. قالوا: ما كنّا نحسبك تتكلّم بهذا. قال: قد قلتها وإني لأعلم ذلك ولأن أكون لم أتخذ منكم رجلاً قطّ يمنعني من الموت أحبّ إليّ من كذا وكذا فيا ويح ابن أبي طالب إذ يقول: حَرَس امرأً أجلُه. ثم قال: اللهم لا بريءٌ فأعتذر ولا عزيز فأنتصر وإن لا تدركني منك رحمة أكن من الهالكين.

••خالد بن الوليد (رضى الله عنه) :

قال أبو الزناد: إنّ خالد بن الوليد لما احتضر بكى وقال: لقيتُ كذا وكذا زحفاً وما في جسدي شبرٌ إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم وها أنا أموت على فراشي حَتفَ أنفي كما يموت البعير فلا نامت أعينُ الجبناء.

••أنس بن مالك الصحابي(رضى الله عنه) :

قيل له في مرضه: ألا ندعو لكَ طبيباً؟ فقال: الطبيب أمرضني وجعل يقول: لقنوني لا إله إلا الله وهو محتضر فلم يزل يقولها حتى قُبضَ.

••مالك بن أنس صاحب المذهب الملكى- رحمه الله تعالى - :

قال ابن أبي أويس: اشتكى مالكٌ أياماً يسيرة فسألتُ بعض أهلنا عمّا قال عند الموت، قال: تشهد ثم قال: لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

••الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - :

دخلَ المزنيُّ على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولأخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً ولسوء أعمالي مُلاقياً. قال : ثم رمى بطرفه نحو السماء واستعبر ثم أنشأ يقول:

إليكَ إله الخلـق أرفـعُ رغبتـي ... وإن كنتُ يا ذا المنّ والجود مُجرما
و لمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرّجـا منـي لعفـوك سُلّمـا
تعاظمنـي ذنبـي فلمّـا قـرنتـه ... بعفـوك ربـي كان عفـوك أعظمـا

●●الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى - رحمه الله تعالى:

قال بكر العابد: قال أبو حنيفة عند موته: ارحمني وأنا صريعٌ بين أهل الدنيا أعالج نفسي يا أرحم الرّاحمين.

●●الحسن البصري - رحمه الله تعالى -:

قال ابن عون: لمّا حضرت الحسن الوفاة استرجع ثم أخرج يده فحرّكها ثم قال: هذا والله منزلةُ صبرٍ واستسلام.

●●هارون الرشيد - رحمه الله تعالى -:

لما احتضر قال: اللهم انفعنا بالإحسان واغفر لنا الإساءة يا من لا يموت ارحم من يموت.

●●عبدالله بن مسعود (رضى الله عنه)

الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه

لما حضر عبدالله بن مسعود الموت دعا ابنه فقال : يا عبد الرحمن بن عبدالله ابن مسعود، إني أوصيك بخمس خصال، فاحفظهن عني :

أظهر اليأس للناس، فإن ذلك غنى فاضل.

ودع مطلب الحاجات إلى الناس، فإن ذلك فقر حاضر

ودع ما تعتذر منه من الأمور، ولا تعمل به .

و إن إستطعت ألا يأتي عليك يوم إلا وأنت خير منك بالأمس، فافعل .

و إذا صليت صلاة فصل صلاة مودع، كأنك لا تصلي بعدها .

••الحسن بن على .. رضى الله عنهما

الحسن بن علي رضى الله عنهما سبط رسول الله وسيد شباب أهل الجنة

لما حضر الموت بالحسن بن على رضي الله عنهما، قال : أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال : اللهم إني أحتسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها!

••معاوية بن أبي سفيان .. رضى الله عنهما

الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما

قال معاوية رضي الله عنه عند موته لمن حوله : أجلسوني

فأجلسوه .. فجلس يذكر الله ...، ثم بكى .. وقال : الآن يا معاوية .. جئت تذكر ربك بعد الانحطام والانهدام ...، أما كان هذا وغض الشباب نضير ريان ؟!

ثم بكى وقال : يا رب، يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي .. اللهم أقل العثرة واغفر الزلة .. وجد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق بأحد سواك.

ثم فاضت روحه رضي الله عنه .

••عمر بن عبد العزيز رحمه الله

الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز على ورعه وزهده وتقواه كان يغبط الحجاج ابن يوسف على كلمة حكيمة قالها قبل وفاته "اللهم اغفر لي فإنهم يزعمون أنك لا تفعل"!!

هذه الكلمة (التي يغبطه عليها كل البشر تذكرتها اليوم وأنا أقرأ قائمة بآخر الكلمات التي قالها عظماء الغرب قبل وفاتهم والتي استدعت بدورها كلمات عظيمة قالها عظماء الشرق أثناء احتضارهم..

••أبوموسى الأشعري

الصحابي الجليل أبوموسى الأشعري

لما حضرت أبا موسى – رضي الله عنه – الوفاة، دعا فتيانه، وقال لهم : اذهبوا فاحفروا لي وأعمقوا ... ففعلوا

فقال : اجلسوا بي، فوالذي نفسي بيده إنها لإحدى المنزلتين، إما ليوسعن قبري حتى تكون كل زاوية أربعين ذراعا، وليفتحن لي باب من أبواب الجنة، فلأنظرن إلى منزلي فيها وإلى أزواجي، وإلى ما أعد الله عز وجل لي فيها من النعيم، ثم لأنا أهدى إلى منزلي في الجنة مني اليوم إلى أهلي، وليصيبني من روحها وريحانها حتى أبعث وإن كانت الأخرى ليضيقن على قبري .

••الملكة زنوبيا

"بيدي لا بيد عمرو" .. هذه أسطورة زنوبيا ملكة سوريا التي تمردت على حكم الرومان. تقول الأسطورة العربية أن عدو زنوبيا، عمرو خدعها بعرض الصلح، وأرفق مع هذا العرض الكثير من الهدايا. :أتت الهدايا محملة على الجمال. دخلت الجمال المدينة ببطء شديد. لاحظت زنوبيا ذلك متأخرة بقولها:

ما للجمال مشيها وئيدا؟!

وكان الأمر خدعة حيث إن الجمال كانت محملة بالسلاح. واقتحم جنود عمرو المدينة. وتقول الأسطورة إن زنوبيا تناولت السم قائلة القول المأثور: (بيدي لا بيد عمرو.

••يوليوس قيصر

" حتى أنت يا بروتس " من أشهر هذه الكلمات طبعا كلمة يوليوس قيصر عندما هجموا عليه بالخناجر وقتلوه كان آخر من ضربه بخنجره صديقه الحميم بروتس، فنظر إليه وقال (ات تو بروتس أي (حتى أنت يا بروتس، إذا فليمت قيصر، وسقط على الأرض ومات، كانت كلمة بليغة عن خيانات الأصدقاء.

••مارك انطونيو

حين هزم أنطونيو على يد اوكتافيوس قال وهو يحتضر بين يدي كليوباترا: "لم اسقط بطريقة مخزية فأنا روماني هزمني روماني آخر" .

••ميكافيلي

المفكر الإيطالي الشهير ميكافيلي (صاحب الغاية تبرر الوسيلة قال ساعة وفاته: "سأذهب للجحيم حيث أتمتع بصحبة البابوات وملوك أوروبا"!!

••توماس كارلايل

المؤرخ البريطاني توماس كارلايل فقال: "إن كان هذا هو الموت OK" .

●●توماس أديسون

في عام ١٩٢٩ وقتما احتفلت مؤسسة فورد بمرور ٥٠ عاما على اختراع نور الكهرباء تعثر أديسون وسقط على الأرض ومنذ ذلك اليوم وصحته تدهورت، وفي عام ١٩٣١ بدأ عقله يضعف وراح يحلل عينات من دمه ويصف لنفسه الدواء. وكانت آخر كلماته : "ما أروع كل شيء هناك" . أما المقصود من هذه الكلمات ظل غامضا،فهل يقصد المناظر الجميلة الموجودة خارج النافذة أم عالم الموتى حيث يظن الراحة؟

●●دوايت أيزنهاور

إنه الجنرال دويت أيزنهاور رئيس أمريكا رقم ٣٤، خلال الفترة ١٩٥٣- ١٩٦٠ ولم تكن صحته جيدة طوال فترة رئاسته . ويوماً شكا ايزنهاور من انسداد في الشريان التاجي، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي يشكو فيها من نفس المرض بعد ذلك توالت الأزمات القلبية وازداد ضعفا بسبب العمليات الجراحية الكثيرة التي أجريت له ومات يوم ٢٨ مارس ١٩٦٩ وكانت له عبارة قالها لحظة موته : "طبيعي أن يهزم أي إنسان في معركة الميكروبات إنها حرب غير متكافئة ألوف الملايين معاً ضد واحد طريح الفراش"

●●أرشميدس

أرشميدس هو العالم الرياضي الذي اخترع "الطنبور" المستخدم في ريف مصر قديما قتل في السبعينيات من عمره عند حصار سيراقوسه بجزيرة صقلية، على الرغم من مطالبة إعفاء هذا العالم الكبير من هذه النهاية.

ويقال إنه كان مشغولا بحل إحدى المسائل الرياضية وقت غزو بلاده وكان يرسمها بإصبعه على الرمل ولما جاءه أحد الضباط وأمره بالوقوف للجنرال مارسيلوس. لم ينتبه فأجبره على الوقوف بعد أن رفض أرشميدس حتى يفرغ من كل المسألة ليسقط على الرمل وقد نفذ السيف إلى أحشائه.

ويُقال أيضا أن أناس وجدوه يخفي بعض القطع المعدنية في ملابسه فظنوا أنه ذهباً فقتلوه، بالرغم من أنه كان يخفي بعض المعادن التي كان يجري عليها تجاربه الهندسية وأخذ يصرخ وهو يتألم موتا قائلا : "جهلة .. القوة الغاشمة .. أقوياء وجهلة" .

••بيتهوفن

الطب الحديث اكتشف سر إصابة الموسيقار الألماني لودفيك فان بيتهوفن بالصمم عام ١٨١٤، حيث وجد أن موادا قد تصلبت في الأذن الوسطى لديه وهذا ما منعه من العزف في الحفلات العامة في السنوات العشر الأخيرة من حياته، حيث تراكم عليه المرض..

وفي أخر أيامه كان عائدا ليلا إلى فيينا وبدأ يسعل وينزف، وقال لسائق العربة: "أنت لا تعرف من يموت بين يديك " قال السائق : "لا أعرف يا سيدي"

قال : "لن يقولها أحد غيرك حتى يوم القيامة، فإنه لم تكن تعرف فأنا أعظم الموسيقيين في كل العصور .. وأتعسهم .

●●والت ديزني

صانع الكارتون السينمائي وصاحب مدن الملاهي ديزني لاند والمنتج الأمريكي والت ديزني. كان يشكو من كليتيه، ولكنه لم يعير المرض اهتماما وظل يعمل.

ورأى أن العمل المستمر سوف ينقذه من آلامه، ولكنه كان يشكو من أمراض أخرى كان أخرها سرطان الرئة الذي تم استئصاله، وعاد مرة أخرى للعمل.

وجاءت زوجته يوم ٥ ديسمبر ١٩٦٦ لتودعه قبل سفرها فنهض من الفراش لتعانقه وتتركه يواصل القراءة. وفي صباح اليوم التالي وجدوه ميتاً وقد رسم صورة لميكي ماوس وكتب تحتها "تحيا ميكي ماوس".

●● جاليليو

هو العالم الإيطالي الكبير جاليليو أول من صنع تليسكوباً فلكياً. كان في الـ ٦٩ عندما أصبح هزيلاً مريضاً ضعيفاً وقدموه لمحاكم التفتيش بتهمه أنه يقول :"إن الشمس وليست الأرض هي مركز الكون".

وقد أدانته المحكمة بتهمة الإلحاد ولم تدخله السجن ولذا انعزل في بيت صغير.

توفى في هدوء ٨ يناير ١٦٤٢ ورفض البابا أدريانسو الثامن أن تحتفل به فلورنسا فتقيم له تمثالاً أو ضريحاً وظل جثمانه ملقى في أسفل إحدى الكنائس أكثر من مائة عام.ويقال إن أحد القساوسة قد سأله قبل وفاته إن كانت له رغبة في أن يقول شيئاً، فقال : "عندي رغبة ولكن وعدت بألا أقول"، أي أنه وعد ألا يقول :"إن الشمس هي مركز الكون وليست الأرض".

●● كليوباترا

هي أشهر ملكات مصر القديمة. وقع في غرامها يوليوس قيصر وماركو أنطونيو. وعند وفاة أنطونيو قررت أن تكون بجواره.

وعندما حضر أوكتافيو أبلغها أنه سيحملها أسيرة إلى روما وأنه سيعرضها أمام الناس عارية. وكان غرضه أن تنتحر.

في يوم ١٢ أغسطس ٣٠ ق. م . أمرت كليوباترا بتجهيز حمام اللبن الدفيء وألقت به العطور والورد وأتت بخادماتها يغسلن ساقيها وذراعيها وارتدت أجمل ملابسها وابتلعت سما وماتت. وقبل وفاتها طلبت إلى خادمتها أن تأتيها بالمرآة لترى حاجبيها وشفتيها ورأت نفسها وقبلت المرآة. وماتت وهي تقول : "مادامت هذه هي النهاية. فلماذا لا نجعلها أجمل!".

●● جواهر لال نهرو

أول رئيس هندي بعد الاستقلال (١٩٤٧- ١٩٦٤

بعد أن اشتد عليه المرض التف حوله مساعدوه وأنصاره وطلبوا إليه أن يختار خليفة له فرفض ذلك، لأنه ليس من العدل أن يفرض أحدا على أحد.

وفي ٢٦ مايو، دخل نهرو غرفته مبكراً وطلب إلى خادمه أن يغلق الباب، وجاءته ابنته أنديرا غاندي تسأل إن كان يريد شيئاً . فقال ضاحكاً : "بعض الحياة" وفي اليوم التالي اشتدت عليه آلام المرض حتى توفى ٢٧ مايو سنة ١٩٦٤.

●● الإسكندر الأكبر

توفى هذا الشاب بعد أن اتسعت إمبراطوريته لتشمل العالم القديم كله، حيث امتدت من الهند شرقا إلى نهر النيل غربا.

أصابته الحمى وهو في حدائق بابل المعلقة ١٨ مايو ٣٢٣ ق.م، وذلك بعد سهرة طويلة ووليمة ضخمة، إلا أنه لم يكف عن نشاطاته اليومية، وذلك لمدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن عجز عن الكلام وفي التاسع أصابته الغيبوبة.ولم يعرف أحد أسباب الوفاة ولم يقل أحد أنه مات مسموماً إلا بعد وفاته بـ ٦ سنوات.

وفي عام ١٩٧٠ ظهرت دراسة تقول إنه مات بالحمى واختلف العلماء حول إذ كانت الحمى بسبب التيفود أو الملاريا.قبل وفاته بساعات التف حوله قواده يبكون وكلما حرك شفتيه توقفوا عن البكاء والعويل وسمعوا منه هذه الكلمات : "ولم أعش حتى أغزو السماء".!!

●● لويزه ماي الكوت

هي الأديبة الأمريكية الشهيرة لويزه ماي الكوت مؤلفة "نساء صغيرات" كانت تشكو طيلة حياتها من الدوخة والصداع النصفي ولم تجد لهما علاجاً.

وفي إحدى ليالي ١٨٨٨ خرجت من بيتها مسرعة ونسيت أن تضع الفراء حول كتفيها فأصيبت ببرد شديد ورعشة عنيفة ونقلت إلى منزلها واختلف الأطباء حول ما أصابها هل هو أزمة قلبية أو جلطة أو ضعف عام وظلوا يتناقشوا حتى سقطت بينهم وكانت آخر كلماتها: "لا أظن أنني فهمت الرجل !".

●● بوذا

إنه الأمير سيد هارت، مؤسس الديانة البوذية، كان أبوه حاكماً لإحدى المدن في شمال الهند. ترك الأمير زوجته وابنته وهو في الثلاثين من عمره لتكون له حياة هادئة متأملة.

نُقل بوذا إلى فراش المرض بعد وليمة ضخمة أعدها له أحد تلاميذه، ورغم ذلك واصل حياة التأمل في الناس والحياة والدنيا.

وعاش عند أطراف إحدى القرى يسأل الناس طعاماً وشراباً. وفي إحدى تمدد على جلباب أحد تلاميذه وتطلع إلى الشجرة التي تظله ثم سكن وسكت ومات.

لم يذكر تلاميذه ما خرج من بين شفتيه قبل الوفاة سوى : "الطعام مرض والجوع صحة".

●● أينشتين

إنه عالم الفيزياء الألماني ألبرت أينشتين، الذي التحق بمعهد العلوم المتطورة بجامعة برنستون سنة ١٩٣٣ وحصل على الجنسية الأمريكية، بعدها بسبع سنوات. وفي عام ١٩٥٢ عرضت عليه إسرائيل أن يكون رئيسا ولكنه رفض.

اعتزل الحياة العامة في أواخر حياته وراح يعمل على استخراج نظرية شاملة للمجال المغناطيس الكهربي والقوى النووية. وعاملي "الزمان والمكان" وهما ما تعتمد عليهما نظرية النسبية.

في مارس ١٩٥٥ كان أينشتين يكتب كلمة تحية لإسرائيل فأحس بالغثيان إثر التهاب شديد في المرارة.

وتدهورت صحته وأصابه ضعف شديد، ولم يكن يشكو من الألم أو يتوجع . إنما كان يضحك ويقول: "هذه هي وقع أقدام الموت".

وفي ١٨ مارس ١٩٥٥ سمعته الممرضة يتحدث الألمانية، التي لا تعرفها فأخذت تبحث عن الطبيب لتعود فتجده ميتاً.

●● آن بولين

هي آن بولين زوجة هنري الثامن الثانية وأم الملكة إليزابيث الأولى. حُوكمت بتهمة الزنا والعلاقات المتعددة مع أربعة رجال: موسيقار البلاط وأخيها ورجلين آخرين، وقد حكم الملك بالإعدام على الجميع.

وقد اندهش الرجل الذي أعدم الملكة من روح المرح، التي استولت عليها، والذي يُعتقد أنه خوفاً فعندما تأجل حكم الإعدام ثلاث ساعات. قالت: "خسارة لم يكن لذلك أي داع. فلو نُفذ حكم الإعدام لكنت الآن بغير ألم". وقالت: "لم يتعب أحد من شنقي. فعنقي نحيف وعظامي لينة"

ويوم إعدامها صعدت الدرج إلى حيث منصة الإعدام واتجهت إلى الناس: "وقالت أدعو الله أن يحمي الملك وأن يطيل عمره حاكماً عليكم".

●● تشارلز دارون

العالم الكبير تشارلز دارون صاحب نظرية التطور والبقاء للأصلح. أصيب بأزمة قلبية عام ١٨٨١، ثم شفي منها وأصيب بأخرى مارس ١٨٨٢ وكانت هذه المرة شديدة، فأشار إلى زوجته أن تقترب منه فقال لها: "لم أعد أخاف من الموت. إنني أعايشه منذ وقت طويل. فلا تكوني أقل شجاعة مني"، وتوفي ١٩ أبريل ١٨٨٢.

●● أيزادوره دنكان

الأمريكية أيزادوره دنكان أشهر راقصة باليه في العالم. كانت تعيش أيامها الأخيرة في مدينة نيس. وكانت تتطلع إلى عربة تقف أمام الباب وكانت تتمنى لو تركبها لمرة واحدة.

وفي أحد الأيام طلبت من صاحبها ذلك فوافق. وركبت العربة وهي تضع شالا من القطيفة الحمراء على كتفيها برغم برودة الجو ورجاها أصدقاء لها بأن ترتدي الفرو ولكنها رفضت وقالت : "مع السلامة إنني ذاهبة إلى البحر"

ولم تمض لحظات حتى سقط طرف الشال القطيفة وصرخت فظن أصدقاؤها أنها تصرخ حتى يساعدوها في إعادة الشال إليها ، ولكن الحقيقة أن طرف الشال سحبته عجلة العربة وخنقها وازداد الضغط على رقبتها حتى انكسرت رقبتها. وصرخ السائق الإيطالي : "يا إلهي .. السيدة قد ماتت" .

●● ليو تولستوي

الروائي الروسي العظيم ليو تولستوي هرب من زوجته في الثانية والثمانين من عمره وكان مسيحيا بطريقته الخاصة. كان ضد المسيحية الجامدة وضد الملكية، بفتح الميم وكسر الميم أيضا ، فقد أعطى أرضه لكل الفلاحين فضاقت به أسرته وشكته زوجته للقيصر ، ولكنه لم يهتم بكل ذلك.

وكان على خلاف دائم من زوجته وقال لها ٢٨ أكتوبر ١٩١٠ عند الفجر : "الآن أتركك إلى الأبد .. سامحيني .. فقد أخطأت كثيرا . ولكن نحن من عالمين مختلفين. اللعنة على عبقريتي .. ليست غلطتك إنها غلطتي . أو هي غلطة السماء التي أوقعتني في حياتك أو أوقعتك فوق رأسي . لقد حانت لحظة إصلاح كل الأخطاء. سوف أخرج إلى غير عودة. لا تتعبي نفسك في البحث عني . فهذا ما نتمناه نحن معاً. ألا أراك وألا تريني"

مات ٧ نوفمبر ١٩١٠ بعد إصابته بالتهاب رئوي، وجاءه القسيس وطلب إليه أن يردد وراءه بعض الآيات ولكن تولستوي رفض قائلا: "لا أريد أن يكون أخر ما أنطق به كذبا في كذب" .

●●سقراط

إنه أعظم فلاسفة الإغريق اتهمته دولة أثينا بإفساد الشباب والسخرية من الدولة ومعتقداتها وحكموا عليه بالإعدام وسجنوه فاقترح عليه تلاميذه الهرب فرفض وقال : "كمواطن أثيني يجب أن احترم قانونها" ويوم تنفيذ الحكم تحدث إلى زوجته وأولاده وجاء تلاميذه وأتوا له بالسم فشربه وقرب الوفاة سألوه هل تريد شيئاً؟ فقال : "إنني نذرت للآلهة ديكاً فاذبحوه نيابة عني"، فوعدوه بذلك وسألوه مرة أخرى فلم يرد.

●●داليدا

خرجت داليدا من أحد الأحياء الشعبية في القاهرة لتسافر إلى فرنسا عام ١٩٥٦ م، وحققت هناك شهرة واسعة لم تصل إليها أي مغنية عربية من قبل، وباعت على مدى عشرين عاماً ما يزيد على ٨٥ مليون شريط لـ ٦٠٠ أغنية بثمان لغات، وحصدت الكثير من الجوائز والأوسمة العالمية، لكنها مع ذلك ضاقت بالحياة، وسئمت الأضواء، واستسلمت لليأس، وأرادت النهاية، حيث استيقظ العالم في أحد أيام ١٩٨٧ م على خبر انتحار المغنية داليدا لالتهامها عدداً كبيراً من الأقراص المنومة، ووجدت بجانبها رسالة تقول فيها " الحياة لا تحتمل.. سامحوني " .

●●فرجينيا وولف

أخذت طريقها في البحر ووضعت حجراً ثقيلاً في ملابسها، وألقت بنفسها في البحر، ولم تكتشف جثتها إلا بعد ثلاثة أيام، وكانت قد تركت لزوجها رسالة تقول فيها : " سأفعل ما أراه أفضل " .

مصادر ومراجع

١ - عمرو بن العاص..داهية العرب وفاتح مصر – محيط

٢ - الناصر صلاح الدين قاهر الصليبيين - مفكرة الإسلام

٣ - قطز.. قهر المغول وطعنه الرفاق - أحمد تمام – إسلام أون لاين

٤ - سيف الدين قطز- مي كمال الدين - محيط

٥ - قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك – عين للدراسات والبحوث – القاهرة – ١٩٩٨

٦ - عمر المختار - شبكة البصرة - ٤ مايو ٢٠٠٥

٧ - الساعات الأخيرة من حياة عمر المختار- باولو بافانيني - ترجمة د. إبراهيم أحمد المهدوي - مجلة البحوث التاريخية، العدد ٢ - يوليو ١٩٨٨

٨ - ذكرى محرر الهند غاندي .. سكر وملح وأشياء أخرى - محيط - سميرة سليمان

٩ - الأسطورة الفرنسية عذراء "أورليانز" جان دارك - محيط - سميرة سليمان

١٠ - عبد الحميد الثاني وجدل لم ينتهِ - مصطفى عاشور – إسلام أون لاين

١١ - مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني – ترجمة محمد حرب – دار القلم– دمشق – الطبعة الرابعة ١٩٩٨

١٢ - كتاب "قصة الأدب في العالم" - الجزء الأول - أحمد أمين وزكي نجيب محمود-القاهرة- ١٩٤٣

١٣ - سقراط الفيلسوف الشهيد - محمود مسعود

١٤ - محمد نجيب .. وصيته الأخيرة أن يدفن في السودان - عزمي عبدالله عمران -المصري اليوم – ٢٥ يوليو ٢٠٠٨

١٥ - مارجريت تاتشر - كارول تاتشر- ترجمة: محمد أمين - جريدة "القبس" الكويتية – ٥ أكتوبر ٢٠٠٨

١٦ - الشيخ التميمي يتحدث عن خفايا الساعات الأخيرة مع الرئيس عرفات في باريس - دنيا الوطن – ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٤

١٧ - آخر أيام الملكية - محمود صلاح - جريدة النهار

١٨ - اللحظات الأخيرة في وداع فاروق - عماد نصيف - جريدة وطنى- ١٩ أغسطس ٢٠٠٧

١٩ -مذكرات الغريب الحسيني الحارس الخاص للملك فاروق

٢٠ -فاروق وسقوط الملكية في مصر- د.لطيفة محمد سالم

٢١ -ملفات ثورة يوليو - طارق حبيب

٢٢ -فاروق ملك مصر والسودان - عادل عبد الصبور

٢٣ - ثمة استعادة للمشهد الأخير - نجم عبد الكريم - الشرق الأوسط -٢٢ مارس ٢٠٠٣

٢٤ - هتلر "الإنسان" يسبب صداعا جديدا للألمان - العربية.نت - ١٨ سبتمبر٢٠٠٤

٢٥ - في ذكري رحيلها العشرين .. الإبنة تروي القصة :اللحظات الأخيرة.. في حياة أمي جريس كيلي - سميرة جورج - أخبار اليوم - أول أكتوبر ٢٠٠٢

٢٦ - جريس كيلي - مجلة المصوّر - ٢٩ أبريل ٢٠٠٨

٢٧ - مصرع السندريلا في لندن - أخبار الحوادث - ٣ يناير ٢٠٠١

٢٨ - كتاب اليوم الأخير في حياة ديانا -

٢٩ - كتاب أسرار اغتيال أشرف مروان!؟ - محمود فوزى - مكتبة ليلى - ٢٠٠٧

٣٠ - لغز الساعات الأخيرة في حياة أشرف مروان- دنيا الوطن - ٩ يوليو ٢٠٠٧

٣١ - أشرف مروان.. غموض الحياة والممات - خالد أبو بكر - إسلام أون لاين

٣٢ - مأساة محمد نجيب الصامتة - الشرق الأوسط -٢٥ يوليو ٢٠٠٧

٣٣ - وثائق ومستندات عن اعتقال أول رئيس لمصر وتحديد إقامته لمدة ٣٠ عاما- منى مدكور

٣٤ - اليوم الأخير في حياة صدام وإجراءات التنفيذ - د أسامة مهدي - شبكة العراق الثقافية - ٢٦ ديسمبر٢٠٠٦

٣٥ - المهاتما غاندي - محيط -

٣٦ - كتاب " قصة تجاربي مع الحقيقة: سيرة المهاتما غاندي - دار العلم للملايين - بيروت - ترجمة منير البعلبكي

٣٧ - خطاب مسجَّل لغاندي قبل أشهر من اغتياله... في أيدٍ أمينة! - شانكار فيدانتام - واشنطن بوست

٣٨ - آخر يوم في حياة عبدالناصر- محمود صلاح

٣٩ - كتاب "على رقاب العباد" - أنيس منصور

٤٠ - تداعيات إعدام صدام حسين تتواصل - CNN -٣١ ديسمبر ٢٠٠٦

٤١ - اللحظات الأخيرة في حياة عبد الناصر في فيلم وثائقي - أشرف السويسي - قناة النيل للأخبار

٤٢ - كتاب: أسرار اغتيال باتريس لومومبا- لودو دو فيته- ترجمة رزق الله بطرس - قدمس للنشر والتوزيع، دمشق - ٢٠٠٥

الفهرست

<u>**الفهرست**</u>

دار أبو سليمان للطباعة والتجليد

٠١٢/١٢٧٢١٢٤ ـ ٠١٢/٤٢٤٤٣٠٨

على الرغم من أن معظم الكتابات التى تناولت المشاهير من زعماء وقادة ومصلحين اجتماعيين ونجوم فن وأدب قد تركزت على مشوار حياتهم بادق تفصيلاته، إلا القليل جدا منها هو الذى توقف عند اللحظات الأخيرة فى حياتهم، رغم أنها غالبا ما تكون ثرية بتفصيلات أكثر أهمية وتشويقا وتحمل من الدروس والعبر ما لا يمكن مقارنته بأى حال من الأحوال بما كانت عليه حياتهم على امتدادها ما قبل الموت!!

وربما من أهم الملاحظات التى تستوقف المرء هنا هو أن الفخ الذى يقع فيه معظم المشاهير هو أنهم ينفعلون بحياة وشهرة من سبقوهم دون أن يفعلوا نفس الشىء مع نهاياتهم، أو بمعنى آخر يسيرون على دربهم مكررين أخطاءهم، ولو كانوا قد توقفوا أيضا عند نهاياتهم بنفس الاهتمام لاستفادوا كثيرا، ولتفادوا نفس المصير!!

فى هذا الكتاب سنتناول نهايات عشرات الشخصيات أخيارا وأشرارا سطروا تاريخا وحركوا أحداثا وكانت لهم أيام لطالما حفظتها ذاكرة الأمم.

وسوف لن نتوقف فقط عند ظروف وملابسات رحيلهم بعد حياة عريضة كانت لهم فيها صولات وجولات، بل سنحاول الوقوف على الدروس المستفادة، وكذلك التعرف على وصية كل منهم الأخيرة، وما أصدق القول فى لحظات الموت، عندما يشعر الإنسان بأنه مفارق لهذه الحياة بكل ما فيها من مُغريات وزخارف فينطلق اللسان صدقا دون انتظار شكر من أحد أو خوف من ذم مخلوق.

فى هذا الكتاب لحظات أخيرة فى حياة عدد من الصحابة والتابعين
وملوك وملكات، وزعماء سياسيين، وقادة عسكريين، ونجوم مجتمع من ش
نتمعن فيما انتهوا إليه، وما قالوه عند النهاية، لنقرأ ما بين السطور لنأ
والعبرة.

